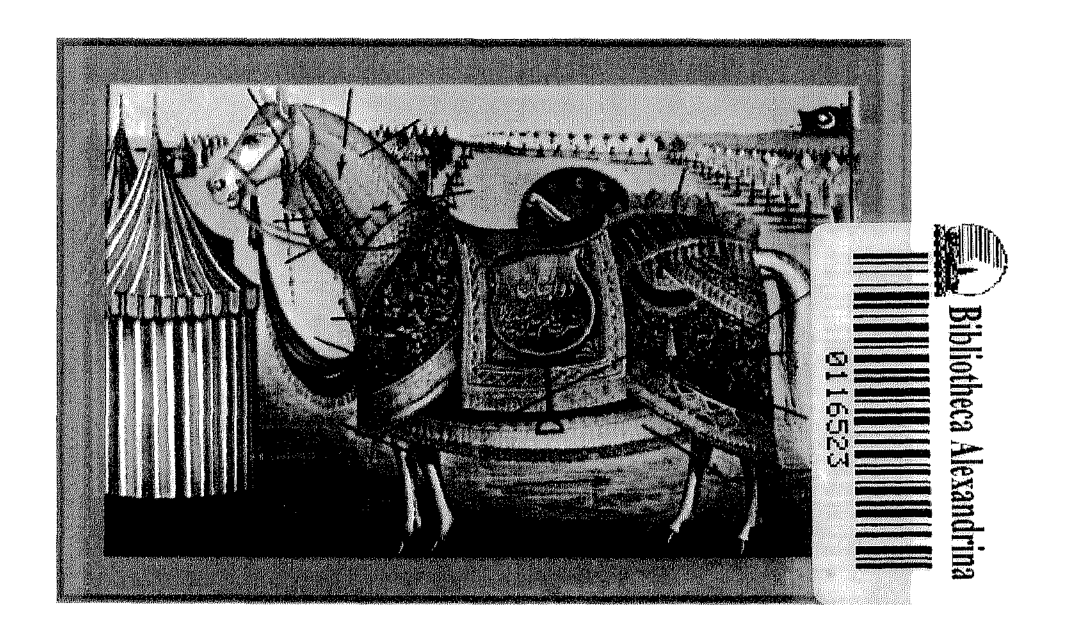
الشيخ عبدالله العلايلي

تاريخ الحسين

نقد وتحليل



دار الجديد



الشيخ عبد الله العلايلي

تاريخ الحسين

نقد وَ تحليل

دار الجديد

تنفيذ وتوزيع شركة دار الجديد ش. م. م □ ص. ب: ٥٢٢٢/١١ بيروت ـ لبنان □ هاتف: ٢٤٣٧٥٢ □ نضّد النّصوص: سناء وحنان سلامي □ ضبطها على أُصولها: محمود عساف □ انشاها كتاباً: علي حمدان □ ألّف الغلاف: عمر حرقوص □ خطّ خطوطه: علي عاصي.

هذه الطبعة، المُنقّحة، هي الثانية من كتاب: **تاريخ الحسين ـ نقد وتحليل**؛ سبقتها طبعة أُولى عُنيت بإصدارها، سنة ١٩٤١، مكتبة العرفان ـ بيروت.

لفتةُ ذِكرى

بَعْدَ نِصْفِ قَرْنٍ ونَيِّفٍ، منذُ سنةِ ١٩٤١، أُعاوِدُ تَقديمَ هذا الكِتابِ في حُلَّةِ طَبْعَةٍ أنيقَةٍ قَشيبةٍ على ما أرادَتْها دارُ الجديد... كما لَوْ كانَ العهدُ بها لأوَّلِ مَرّةٍ، لم أُغيِّرْ فيهِ ومنهُ إلّا في القَدْرِ اليَسيرِ.

وذلكَ لأنّ الشّخْصَ الّذي أُعالِجُ هو، في التّاريخِ كُلِّهِ، قُطْبُ قَضِيَّةِ الحَقِّ... والحقُّ قَدْ يتَكَيَّفُ شاكِلَةً وبادِيَةً، ولكنْ لا يَخْتَلِفُ جَوْهَراً وماهِيَّةً.

فأنا حينَ رَصَدْتُ حَرَكَتَهُ لِيَومِها، كُنْتُ كأنّني أرْصُدُها لِكُلِّ يَوْمٍ...

ومِنْ مِحْرابِ ذِكرى الحُسينِ (ع)، أنا أُقَدِّمُ للنّاسِ بعضَ ضِياءٍ، مُتَجاوِزاً فيهِ الأمَدَ إلى السَّرْمَدِ حَيْثُ يَعْتَنِقُ عِنْدَهُ الأزَلُ على الأبَدِ... في دَفْقِ شُعاعٍ يَظَلُّ هو إيّاهُ ما اتّصَلَتِ الكَيْنُونَةُ بالحَيْنُونَة.

العلايلي
١٠ محرم ١٤١٥
١٩ حزيران ١٩٩٤

الفاتحة

النّاسُ في الحياةِ أشباح مُبْهَمَة تَخْتَلِطُ ثُمَّ تَتَكَسَّرُ في ظَلامِ الأبديَّةِ بغَيْرِ ضجيجٍ، ولكنَّ الكائِنَ العظيمَ وَحْدَهُ هو الّذي يُقَدّمُ التّاريخَ العَظيمَ...

والتّاريخُ قِطْعَة من الزَّمَنِ ليسَ لها حُدُود وراءَ الكائِنِ الّذي يُفْرِغُ عليها صُنُوفَ التّهاويل...

وشَتّانَ ما بيْنَ الكائِنِ الّذي يَجيءُ شَيْئاً مِنْ مَعْنى الجيلِ، والآخَرِ الّذي يَجيءُ الجيلُ شيْئاً مِنْ مغْناهُ...

وأيُّ تاريخٍ هُوَ أجْدَرُ مِنْ تاريخِكَ، أبا عَبْدِاللّه، بأنْ يَحْمِلَ شارةَ العِظَمِ والخُلود...

•

نَواة انفَصَلَتْ مِنْ صَميم المُعْجِزَةِ، لِتَجيءَ مُعْجِزَةً أُخْرى في صَميمِها... وليستِ الشَّجَرَةُ الزّاهِيَةُ، بما فيها مِنْ مَجالي الفَنِّ، إلّا نَواةً خَرَجَتْ بِقُوَّتِها، أو قُوَّةً استَكَنَّتْ في سِرِّ النَّواةِ... والنُّبُوَّةُ مُعْجِزَة تُعِدُّ الإنْسانيَّةَ لِشَيْءٍ جَديدٍ، والإنْسانُ الأسْمى هو المعجزةُ في الشَّيْءِ الجديدِ نَفْسِه...

فالنبيُّ (ص) أعَدَّ البَشَرَ للإنْسانيَّـةِ الـمُهَذَّبةِ فتَمَّتْ بذلكَ مُعْجِزَتُهُ، وأنْتَ، أبا عَبْدِ اللَّهِ، أعْدَدْتَ نَفْسَكَ لِتَحِلَّ في مَكانِ الإعْجازِ مِن الإنْسانيَّـةِ الـجَديدةِ فَتَمَّتْ بذلكَ مُعْجِزَتُك...

•

آلِهَةُ الأساطيرِ تَحْتاجُ إلى نَبيٍّ يَمْحُوها، حتّى يَرُدَّها إلى خَيالٍ طائشٍ في حُدُودِ الـخُرافَة...

والإنْسانُ الـمُتَألِّهُ يَحْتاجُ إلى مُصْلِحٍ يَمْحوهُ، حتَّى يَرُدَّه إلى طَبيعَتِهِ في حُدُودِ الـحَقيقَة...

فالـجَدُّ النَّبيُّ مَحا آلِهَةَ الأساطيرِ، والسِّبْطُ الـمُصْلِحُ مَحا الآلِهَةَ مِنَ النّاسِ... وكذلَكَ حالَ الـحُسينُ (ع) بكفاحِهِ دُون أنْ يَسْتَعْبِدَ الإنسانُ الإنسانَ[1]...

•

الـحياةُ حَرَكَةٌ دائِمَةٌ، والـموتُ سُكُون دائم، ولكنَّهُ بالنِّسبَةِ إلى العَظيمِ يُعْطي معنىً آخَر. فإنَّ موتَ العَظيمِ لَيْسَ سُكوناً هامِداً، بَلْ هو خُروجُ الـحَرَكَةِ عن مَرْكَزِها لِتَنْتَشِرَ في أحْياءٍ كَثيرينَ[2]...

فَفي رُوحِ كُلِّ مُصْلِحٍ بَدَوات من رُوحِكَ، وفي ضَميرِ كُلِّ مُجاهِدٍ قَبَس من ضِيائِك...

---

(١) إنَّ حركةَ الحسينِ عَبَّرَتْ عن ولادةِ مُسْتَقْطَبٍ، اي مركزِ استقطابٍ لتكوُّنِ رأيٍ عامٍّ جديد.

(٢) الحياةُ حَرَكَة حولَ مَرْكَزٍ هو الشَّخصُ الحيُّ، فإذا ماتَ خَرَجَتْ حياتُه عَنْ مركزِهِ الشَّخصيِّ لتَشيعَ في الآخرين.

مدخل تاريخيّ لعصر الراشدين ومخاض الثورة



أظُنُّني صادِقاً أوْ غيْرَ بَعيدٍ مِنَ الصِّدْقِ، حينَما أقولُ وأُطْلِقُ القَوْلَ، بأنَّ جَمْهَرةَ المؤرِّخينَ المُحْدِثينَ في العَرَبيَّةِ لَمْ تُوَفَّقْ إلى إقامةِ التّاريخِ العَربيِّ على سُنَّةٍ مَنْطِقيَّةٍ وقاعِدَةٍ نَقْدِيَّةٍ، تَحْتَفِلُ بتِبْيانِ الدَّوافِعِ والعَوامِلِ الّتي مِنْ شأْنِها أن تُهَيِّىءَ ظُروفَ التّاريخِ المُخْتَلِفَةَ، وتُحَدِّدَ لهُ الاتِّجاهاتِ، وتَفْرِضَ عَلَيْهِ الحَرَكةَ حينَ يَجِبُ أن يَتَحَرَّكَ، والسُّكونَ حينَ يَنْبَغي لَهُ أنْ يَسْكُنَ. هذهِ الدَّوافِعُ الّتي نَصِلُ بها إلى تَمامِ الغَرضِ العِلْمِيِّ إذا ما أعْطَيْناها كَلِمَةَ «الحَيَويَّةِ التّاريخيَّةِ».

وهذِهِ الحَيَويّةُ كما نَدْعوها، أو فَلْسَفَةُ التّاريخِ كما يَدْعوها الآخرونَ، ضَروريّةٌ[1] لِمَنْ يُريدُ أنْ يُشَخِّصَ عَصْراً أو جيلاً، وَيُعَبِّرَ عمّا مَرَّ بِهِ وآجْتَمَعَ عليه. وإنّما كانتْ حَرِيَّةً بالتَّمْثيلِ

---

(١) أعْلَنَ هذه الضّرورةَ اللورد أكتن في محاضرتِهِ الّتي ألْقاها سنة ١٨٩٥ حين قال: «إنَّ آختصاصَنا يَتَناولُ ما هو أبْعَدُ مَدَىً من شُؤونِ السّياسةِ، إنّ منْ واجِبِنا أنْ نُحيطَ بحركاتِ الأفكارِ الّتي هي عِلّةُ الحوادثِ العامّةِ لا نتيجتُها، وأن نجعَلَها نُصْبَ أعْيُنِنا دائماً». وكذلك أعلنَ دولنجر الألمانيُّ حينَ أكّدَ ما للدِّينِ من قُوّةٍ مؤثِّرةٍ في التّاريخِ، وأعْلَنَتْ مدرسةُ كارل ماركس الاشتراكيّةُ التّصَوُّرَ الاقتصاديَّ أو المادّيَّ للتّاريخ، وأعْلَنَتْ مدرسةُ كارل لمبرخت الألمانيُّ سلطانَ العَقْلِ الباطِنِ وما للطّبيعةِ البشريّةِ والجماعاتِ المنظّمةِ مِنَ الدّوافعِ الغريزيّةِ. وجاءَ فلاسفةُ المؤرِّخينَ في العصرِ الحاضِرِ وأعلنوا بأنَّ عاملاً واحداً لا يَسْتَقِلُّ بتَفْسيرِ ما لِلْمجتمعِ الإنسانيِّ من ظواهرَ مُتعدِّدةٍ، وأنّ لِكُلٍّ مِنَ الخَلْقِ والبيئةِ نصيباً من ذلك التّفسيرِ خاصّاً به، وأنّ كُلاً من الجَبْرِ والاختيارِ ليسَ بمُغْطينا، بمُفرَدِهِ، الحَقَّ من حيثُ بيانُ مَصْدَرِ أعمالِ الإنسانِ، وأنَّ الأفكارَ والدّوافِعَ الغَريزيّةَ والرّوحَ والجسمَ، كُلَّ أولئِكَ حقائقُ نهائِيّةٌ لا يَتأتّى التّعبيرُ عن بعضِها بنفسِ الألفاظِ الّتي يُعَبَّرُ بها عن البعضِ الآخرِ. راجع ص ١٤٠ و١٤١ من كتاب: **علم التاريخ**، للأستاذ هرنشو، ترجمة الدكتور عبد الحميد العبّادي.

مِنْ حيثُ إنّها تَقودُنا إلى أنْ نُعايِشَ ذلكَ الجيلَ مِنَ النّاسِ، ونَمْتَزِجَ بِهِمْ ونَنْفُذَ إلى خَلَجاتِ ضمائِرِهِمْ كما لوْ كانوا يَعيشونَ بَيْنَنا اليَوْمَ.

وَمِنْ ثَمَّ تَنْكَشِفُ لنا جَوانِبُ مِنْ ذلكَ المُحيطِ، كانتْ خَفِيَّةً وأدَقَّ مِنْ أنْ يُحْصِيَها أولئكَ الإخْبارِيُّونَ البُسَطاءُ، الّذينَ دَرَجْنا على أخْذِ التّاريخِ عنْهم حتّى آعْتَمَدْناهُمُ آعتِماداً تَعَبُّدِيّاً. أنا لا أقولُ بأنَّ على المُؤَرِّخِ أنْ يَطَّرِحَ ما نَقَلَ إلينا هؤلاءِ، ويُرْخي لنفسِهِ العِنانَ في أنْ يَرْتَجِلَ التّاريخَ بعدَ ذلكَ آرْتِجالاً. وإنّما أُريدُ أنْ أُقَرِّرَ شَيْئاً آخرَ له أهَمِّيَّةٌ[2] وقيمةٌ في مَتْنِ التّاريخِ، وله، إلى جانبِ هذا، خَطَرٌ في النّاحِيَةِ الدِّراسِيَّةِ مِنْ حَيْثُ الاطْمِئْنانُ إلى ما يَفْرِضُ ويَقْضي بِهِ هذا الأُسْلوبُ، حينَ نكونُ قَدِ آجْتَهَدْنا بقَدْرِ ما في تَصْحيحِ الوَسائِلِ والوَسائِطِ[3]. وهذا، الّذي أُنَوِّهُ به وأرْفَعُ مِنْ شَأْنِه، هو الارْتِدادُ بنا إلى السَّنَدِ مرّةً أُخْرى، كما كانَ يَفْعَلُ المُحَدِّثونَ[4] القُدَماءُ في نَقْلِ السُّنَّةِ، وإنْ كان أدْرَكَهم بعضُ التَّلْفيقِ في أواخِرِ عَهْدِهِم، حتّى لَيُخَيَّلُ للنّاقِدِ بأنّه لَمْ تكنْ[5] لهمْ مَقاييسُ ثابتةٌ للصِّحَّةِ والضَّعْفِ. وبذلكَ يكونُ جديراً

---

(٢) و(٣) يَذْهَبُ بعضُ اللُّغويّينَ إلى تخطِئَةِ هاتينِ الكَلمَتينِ بالنَّظَرِ إلى العُرْفِ اللُّغويِّ، ونحنُ لا نرى مانِعاً من آستعمالهما ذَهاباً مع رأْيِ جَمْهَرَةٍ مِنَ اللُّغويّينَ بأنَّ الخَطَأَ المشهورَ إذا كانَ خاضِعاً للقِياسِ اللّغويِّ خَيْرٌ مِنَ الصَّوابِ المشهورِ، فلا مانِعَ من آستِعْمالِه.

(٤) إنّما مِلْتُ بالكلامِ نَحْوَ السُّنَّةِ لأنّ قواعدَ المحدِّثين آعْتَمَدَها المؤرِّخونَ في نَقْلِ الأخبارِ، وإنْ لم يَبْلُغوا مَبْلَغَ المحدِّثينَ في دِقَّةِ تَطْبيقِها.

(٥) راجعْ كُتُبَ الموضوعاتِ، كمؤلَّفاتِ آبْنِ حُجرٍ، وآبنِ الدَّيْبَعِ والسّيوطي، والقاري، والشّعراني، والعجلوني، وهؤلاءِ ذَهَبُوا مَذْهَبَ اللّغويّين في التَّحَيُّلِ والمُداوَرَةِ حتّى يُصَحِّحَ هؤلاءِ الغَلَطَ وأولئكَ الحديثَ، أو على الأقَلِّ يَسْتَلّونَهُ من دائِرَة الوضْعِ. وهذه الحُمّى عَرَتْ مُتَأخِّري المحدِّثينَ كما عَرَتْ متأخِّري اللّغويينَ، بينَما إذا آرْتَقَيْنا بالنّظرِ قليلاً نَجِدُ كِتابَ: الموضوعاتِ لآبنِ الجوزي الذي لا تَحْتَجِزُهُ حُرْمَةُ كتابٍ أو آشْتِهارُ حديثٍ مِنْ تَخْريجِهِ على أصولِهِ الدّقيقةِ والطّعْنِ عليه، ونجدُ كِتابَ: المستدرك للحاكم الذي يتساهَل بإفْراطٍ، ونحنُ لا نَظُنُّ به كما ظَنَّ الحافِظُ الذّهبيُّ من أنّ الغَفْلَةَ أدْرَكَتْه، وإنّما نَرى أنّه، وآبْنَ الجوزيِّ، زَعيما مَدْرَسَتَيْنِ في السُّنَّةِ لهما تعاليمُهما وأصولُهما في الصّحّةِ والضَّعْفِ، وكانتْ ميزةُ مدرسةِ آبْنِ الجَوْزِيِّ التّشَدُّدَ، وميزةُ مدرسةِ الحاكِم التَّساهُلَ؛ ولكنَّ المدرسةَ الثانيةَ آنْتَصَرَتْ في النِّهايةِ وعَمَّتْ، ومن هنا جاءَ الاخْتِلاطُ الّذي نَشْهَدُ أثَرَهُ في كُتبِ الموضوعاتِ. وعلينا أن نَتَلْمَذَ لآبنِ الجوزِيِّ ونُحْيي معالِمَ مدرستِهِ الّتي عَفَتْ رُسومُها، وكأنّما كَبُرَ على مُتَأخِّري المحدِّثينَ أنْ يُسْقِطُوا ثروةً كبيرةً من السُّنَّةِ بآعْتمادِ أُصولِ آبْنِ

بنا أنْ نُغَرْبِلَ السُّنَّةَ وَفْقَ مَوازينِنا الجديدةِ، وأنْ نَعودَ إلى دَرْسِ شَخْصِيّاتِ الرُّواةِ مَرَّةً أُخرى، على مُقْتَضى معارِفنا النَّقْدِيّةِ الحديثةِ، البعيدةِ عنِ المُبالَغَةِ والتَّعْميمِ اللَّذَيْنِ نَقَعُ عَلَيْهِما في دِراساتِ الأقْدَمينَ. وأنا لا أزْعُمُ هنا بأنَّ الأوَّلينَ لمْ يكونوا مُوَفَّقِينَ، وأيضاً لستُ أقْصِدُ تَجْريدَهُم عن نَزْعَةِ التَّحَرّي، وإنّما أُريدُ أنْ أقولَ بأنّهم وُفِّقُوا إلى حدٍّ ما، وحقّقوا شيئاً مِنَ التَّحْقيقِ، وهذِهِ سُنَّةُ التَّسَلْسُلِ العَقْليِّ الدّائمةُ، فهيَ تُعطي المُتَأخِّرَ لتأْخُذَ منهُ فلا تَنْفَصِمُ الحلَقات.

لم يكنْ في مُسْتَطاعِ الأوائلِ، أو أيَّةِ جَماعةٍ أُخرى، أنْ يَقولوا كُلَّ شَيْءٍ، وليسَ في وُسْعِهِم أنْ يَنْتَهوا بِدِراسةٍ فَتَنْتَهِيَ أيضاً في آعتِبارِ النّاسِ. فعلَيْنا أنْ نَصِلَ ما آنْقَطَعَ من جُهودِ القُدَماء بِمُؤْتَمَراتٍ[6] للسُّنَّةِ والتّاريخِ تأخُذُ على عاتِقِها القِيامَ بتحْقيقِ هذِهِ الأهْدافِ، حتّى تَضَعَ تحتَ الأيدي خُلاصاتٍ مَوْثوقاً بها ثِقَةً تَتناسَبُ مَع ما نَجْتَهِدُ أنْ نُفْضِيَ إليهِ مِنْ دِراساتٍ. ويجبُ بَذْلُ هذا الجُهْدِ لشيءٍ آخرَ وهو تَخْليصُ مَوْسوعاتِ القُدَماءِ مِنَ التَّشْويشِ القَظيعِ الواقِعِ، فهُمْ لا يكادونَ يَتَّفِقونَ على قَدْرٍ ما في الجَرْحِ والتَّعْديلِ.

وبما أنَّهُ قدِ آجْتَمَعَ لَدَيْنا مِنَ المَوازينِ والمعاييرِ ما هو أدَقُّ[7] مِنْ مَوازينِ ومَعاييرِ القُدَماءِ، سنكونُ أكْثَرَ تَحْقيقاً وأوْثَقَ نَتائجَ. فنحنُ لا نَدْرُسُ الرُّواةَ من وَجْهِ ما عُرِفَ عَنْهم

الجوزيّ، لوَجْرِها حيثُ وُلِدَتْ.

(٦) إنّ الأزهرَ اليومَ، أي يومَ نشرِ الكتابِ لأوّلِ مرّةٍ وذلك سنة ١٩٤١، هو أكْبَرُ مؤسّسةٍ إسلاميّةٍ، وميزانيّتُهُ ليستْ بالشّيءِ اليسيرِ، فعليهِ أنْ يقومَ بِبَذْلِ هذه الجُهودِ في الفِقْهِ والسُّنَّةِ والتفسير، ثُمَّ في مُخْتَلِف الدّراساتِ الإسلاميةِ العامّة. وبذلكَ يُعْلِنُ الأزْهرُ عن وُجودِهِ ويُحَقِّقُ الغايَةَ منهُ، بَلْهَ ما يُهَيِّيءُ مِنْ فُرْصَةٍ للاستِفادةِ من مَعلوماتِ رجالِ الدّينِ في شتّى الأقطارِ الإسلاميّة. إنّ الأزهرَ ليسَ بِخَليقٍ أنْ يَعْتَمِدَ في هذه الدّراساتِ على الغُرَباءِ عنهُ، إنّه جديرٌ أنْ يُعْطِيَها. إنّ على الأزهرِ أنْ يَعْقِدَ المُؤْتَمراتِ في حُدودِ آخْتِصاصِه، ويَحْفِلَ للمُناظَراتِ في مَذاهِبِ معارِفِه ليكون مثابةً، ومنطلقَ تَيّاراتٍ بِكْرِيَّةٍ مُوَجّهةٍ ومُطَوِّرةٍ في كُلِّ حُقولِه.

(٧) أخْرَجَ الدّكتورُ أسَد رستم، في هذا العهدِ، كتاباً رمى فيه إلى وَضْعِ قواعِدَ لِدَرْسِ التّاريخ أسماه **مصطلح التاريخ**، وهو كتابٌ جَيِّدٌ تَعَلَّقَ فيه بقواعِدِ المحدِّثينَ القدماءِ وآعتمدَها آعْتِماداً مُفرِطاً، ولسنا نُقَيِّدُ هذه الملاحظَةَ مِنْ حَيْثُ إنّنا لا نُؤْمِنُ بها، بلْ مِن حيثُ إنّها تَفْتَقِرُ إلى آستكمالٍ يوفي بها إلى آتِّعادِ الدَّرجاتِ العُلْيا بما فيها من تَحَرٍّ ودِقَّةٍ لا تَعْرِفُ نظيراً.

وآشْتُهِر فقطْ، بلْ نَعودُ إلى درْسِ بيئَتِهِم ومُجْتَمَعِهِم ومَنْزِلَتِهم فيهِ، ومِقْدارِ آتّصالِ هذهِ المَنْزِلَةِ بما يَرْوونَ منَ الأخبارِ.

وشيءٌ آخرُ أيضاً وهو تَحْقيقُ النَّصِّ، فإنَّه ثَبَتَ لي أمرٌ ألمَحَ إليه قُدَماءُ المُحَدِّثينَ إلْماحاً، وهو ما أسْمَيْتُه بالتَّدْليسِ الخَفِيِّ وأنْبَهَني إليه ما جاءَ في الجُزْءِ العاشِرِ من **مُسْنَدِ عُمَرَ**، للحافظِ آبنِ شيْبَةَ، فقد ذَكَرَ أنَّ أحمدَ بْنَ زيدٍ قال: «سمعتُ حديثَ عمرو بْنِ دينارٍ بينَنا مُراجَعَةً، قال محمدُ بْنُ المنهالِ: مُراجعةً تَذاكُرٌ بينَهم، يذكُرُ هذا نِصْفَ الحديثِ وهذا نِصْفَه. يسمعونَ منْ عمرِو بْنِ دينارٍ فَيَحْفَظُ بعضُهُم نِصْفاً وبعضُهمْ ثُلْثاً فَيتَذاكَرونَها بينَهم ثمَّ يَكْتُبونَها»[٨].

وهذهِ العِبارةُ تَضَعُ بينَ أيْدينا شيئاً يَبْعَثُنا على الشَّكِّ في النّصِّ، ويحمِلُنا على زِيادَةِ التَّحَقُّقِ من أنَّ ما يُعْزى لقائِلٍ هو ما قال بعينِه.

المدخل إلى التاريخ في رأيي[٩]: حينَما تَجْتَمِعُ لنا النُّصوصُ الوثيقَةُ تكونُ قدِ آجْتَمَعَتْ لَدَيْنا مَوادُّ البناءِ وأيضاً الرُّسومُ التّخْطيطِيَّةُ للتَّصْميمِ، ومنْ بعدِ هذا نَطْمَئِنُّ إلى أنْ نُقَدِّمَ بناءً تاريخيّاً صَحيحاً عنِ الجيلِ الّذي نَجْمَعُ أسْبابَنا على دَرْسِه. وأنا أُريدُ في التّاريخِ شَيْئاً كالّذي وَرَدَ على لِسانِ المرحومِ شوقي وَصْفاً شِعْرِياً:

أفْضَى إلى خَتْمِ الزّمانِ فَفَضَّهُ ... وحَبا إلى التّاريخِ في مِحْرابِهِ

---

(٨) هو جُزْءٌ صغيرٌ من **المُسْنَد المُعَلّل** يوجَدُ في مكتَبَةِ الدّكتور الفاضِل سامي الحدّاد، الّتي تَجْمَعُ شيئاً كِثاراً من المخْطوطاتِ النّادِرَة، ويَغْلِبُ على ظنيّ، أنّه الجُزْءُ الّذي وَقَعَ عليه الحافِظُ الذَّهَبِيُّ في مِصْرَ، وحدَّثَنا عنهُ في **تَذْكِرَة الحُفّاظ**، وقدْ تَلَطَّفَ فأهْداني نُسْخَةً مصوّرةً عنه، جزاءَ ما بَذَلْتُ في تحقيقِه.

(٩) لا يُؤْخَذْ علينا بأنّا نُفيضُ بتَوَسُّعاتٍ تاريخيّةٍ تَتَّصِلُ بمَنْ يَكْتُبُ في درسِ التّاريخِ، لا بمَنْ يَكْتُبُ في موضوعٍ مِنَ التّاريخِ، لأنّها تَوَسُّعاتٌ أجْرَيتُ عليها مَوْضوعِيَ الخاصَّ، وآعْتَمَدْتُها. ولا بُدّ لِمَنْ يَتَعَقَّبُ نتائِجي أنْ يَقِفَ على الطَّريقةِ الّتي تأدَّيْتُ بواسِطَتِها وتَهَدَّيْتُ على ضَوْئِها، كما صَنَعَ المؤرّخُ الإنجليزيّ هنري بكل في مُقدّمة كتابِه: **تاريخ الحضارة في إنجلترا**، فقد خَصّها بدَرْسِ التّاريخ من الوُجْهَةِ الّتي يَراها.

وطَوَى القُرُونَ القَهْقَرَى حتَّى أَتَى   فِـرْعَـوْنَ بَـيْنَ طَـعـامِـهِ وشَـرابِـهِ

أو شيئاً كالّذي طالعَنا به المأسوفُ عليه جان دبس النّابغُ اللّبنانيُّ، حينَ صَنَعَ على ضَوءِ بحوثِ المُخَطِّطينَ والمُنَقِّبينَ الألمانِ في أطلالِ هياكِلِ بَعْلبكَّ، نموذَجاً مَشيداً لتلك الهياكِلِ أيامَ كانتْ تَفيضُ بالحياةِ والأحْياءِ، وقدِ انتهَتْ بهِ مُحاوَلَتُه إلى أنْ يبعثَها كما لو كانَ دونَها ستارٌ فأزاحَه.

هذا عملٌ في جانبٍ من التّاريخِ نُريدُ مِثْلَه في جوانبِهِ الأُخرى. وأنا لا أشُكُّ معَ ذلكَ في أنّ الدرْسَ الاسْتِنْتاجِيَّ قدْ يَخْضَعُ أحياناً للْخاطِرِ الوَثّابِ، ويكونُ قويّاً يُعَلِّلُ الحادِثَ أوِ المَجْرى الواقِعيَّ تَعْليلاً صَحيحاً لا يتَّسِقُ العَرْضُ إلّا به، ولا يَسْتقيمُ إلّا عليهِ. وهذا شيءٌ لا نَمْتَنِعُ عنِ الأخذِ بمثلِه في التّاريخ ما دُمْنا نُقَدِّمُه على أنَّه اجْتِهادٌ فَقَطْ، وليسَ تاريخاً. ولا يُشْتَبهُ في أنَّ بينَهما فرقاً جَوْهَرِيّاً يُبيحُ للنّاقِدِ أنْ يُفَسِّرَ ويُعَلِّلَ ويُقارِنَ ويُؤاخِيَ ويُطابِقَ بينَ حوادِثِ التّاريخ، على الشَّكْلِ الّذي يَتَراءى لهُ أنّه حقٌّ صحيحٌ. وإنَّما نُلِحُّ بتَقْريرِ هذا الفَرْقِ قَصْدَ أنْ يتَّضِحَ لأُولئِكَ الأُنْبُوشِيِّينَ[١٠] الّذينَ لمْ يَتَّصِلُوا بالثَّقافَةِ إلّا من وَجْهٍ عامٍّ، ولم يُعْنَوْا بتَصْنيفِها وتَنْسيقِها على طَريقٍ عِلْمِيٍّ، فَهُمْ لِذلكَ يُجيزونَ الخَلْطَ بينَ العُلومِ والأدبيّاتِ خَلْطاً شَنيعاً.

فالمُؤَرِّخُ القَديرُ يَسْتَطيعُ أنْ يَنْفُذَ إلى غَياباتِ الماضي البَعيدِ بِجَناحٍ مِنَ النُّصوصِ، وحاسَّةِ الإلْهامِ أو حاسّةِ[١١] الاتِّجاهِ كما يَدْعونها أحياناً، وهذهِ الحاسَّةُ لا بُدَّ مِنْ تَوافُرِها عندَ المُؤَرِّخِ لكيْ يَسْتقيمَ لهُ إزاحَةُ النِّقابِ عنْ وجهِ التّاريخِ كما لو نَقَلَ إلينا الماضيَ السحيقَ، أوْ نَقَلَنا إليه[١٢].

---

(١٠) نسبة إلى الأُنبوشَةِ، وهي النَبْتَةُ أوّلَ ما تَتَكَشَّفُ عنها الأرضُ.

(١١) هي حاسّةٌ سادِسَةٌ زَعَمُوها في الطَّيْرِ كالحمامِ وحيواناتٍ أُخرى.

(١٢) وللإيضاح يَسُرُّني أنْ أضْرِبَ مَثَلاً لهذا التَبَيُّنِ، ما سَبَقَ لتوماس هنري بكل أنْ ضَرَبَهُ لدِقّةِ التَّحقُّقِ على هذا النَّحوِ، حينَ قَرَّرَ أنّه

وَنَعْني بحاسّةِ الإلهامِ القُدْرَةَ الفَنّيَّةَ الّتي يَدْخُلُ، في جُمْلَةِ عناصِرِها، سرعةُ الانْتِقالِ الذّهْنيّ مَعَ دِقَّةِ المُلاحَظَةِ. وهذِهِ القُدْرَةُ الفَنّيَّةُ هي الّتي تَجْعَلُ مِنَ الرّوائيّ قاصّاً خلّاقاً أو إبْداعِيّاً، ومِنَ الإخْباريّ مُؤَرّخاً فاطِراً أو ٱبْتداعِيّاً.

الحاضر أداة لتفسير الماضي: وفي رَأْيي أنّه لا فَرْقَ بينَ المؤرّخِ والرّوائيّ مِنْ بعضِ الجَوانبِ الّتي تَدْخُلُ في البِناءِ الخاصّ بِكُلٍّ مِنْهُما، كَعَرْضِ نَفْسِيَّةِ الجماعاتِ، والمُؤَثّراتِ الّتي تُحَرّكُها، وتَشْخيصِ المُسَيّراتِ الرّئيسِيَّةِ بالنَّظَرِ إلى الطَّبيعةِ والوِراثَةِ والبيئَةِ. هذهِ الأُمورُ الّتي يُفْتَرَضُ ٱشْتِراكُها عِلْمِيّاً، وبالاعْتِمادِ على قانونِ[13] التَّطَوّرِ العامّ في الاجْتِماعِ والمَثَلِ

لو زَعَمَ مُؤرّخٌ بأنّ بَلاطَ لوكريشيا بورجيا، كان يَسْتَحْسِنُ في الخَرائِدِ أنْ يَكُنَّ ضامِراتِ رُسْحَ الأرْدافِ، لَطُرِحَ زَعْمُهُ من أوّلِ الأمرِ، لأنّ الحِسَّ الجَماليَّ آنذاكَ كانَ يَميلُ إلى اللَّفّاءِ، ولذا شاعَ في بابَةِ طِرازِ الأزياءِ لُبْسُ ما يُسَمّى في العربيّة القَديمَةِ: العُظّامة، وفي الانجليزية Bustle، أي الكَفَل المُسْتَعار.

(١٣) قال الأُستاذ هُرنشو: «وعلى الرُّغْمِ ممّا كانَ بينَ مؤرّخي القرنِ التّاسعَ عشرَ مِنْ خِلافٍ في تَصَوّرِ التّاريخ، فإنّهم، كافّةً، وَجَدُوا في المَبْدَأ العظيمِ، مبدأ النُّشوءِ الّذي جاءَهُم من عالَمِ العِلْمِ والفلسفةِ، ما وَحَّدَ أعمالَهم وبثَّ فيها الحياةَ»... إلى أنْ قالَ «كان مَبْدَأُ التَّطَوّرِ عندَ هيغل مِفْتاحَ التّاريخِ العالَميّ، إذْ رَأى عمليّةَ النّمُوّ في الجِنْسِ الإنسانيّ سياسيّاً إنّما هي، بأسْرِها، تَحْقيقٌ تَدريجيٌّ لمعنى الحُرّيّة. والحقُّ أنّ التّصوّرَ النُّشوئيَّ للتّاريخ أصْبَحَ مِن خصائِص المدرسةِ الابتداعيّة في مجموعها، وقد ٱسْتطاعُوا أنْ يُدَلِّلُوا بواسِطَتِه على أنّ مِنَ العَبَثِ أنْ يُقالَ مَعَ التَعَقُّلِيّينَ إنّ الفَتْرَةَ بين قسطنطينَ وكولمبَ مجردُ هُوّةٍ فاصلةٍ بينَ عَصْرَي ٱستنارةٍ يَرْجِعانِ إلى أصْلٍ واحِدٍ. وإنّ الواجِبَ أنْ نَلْحَظَ وراءَ مظاهِرِ الأشياءِ غَرَضاً واحِداً ثابِتاً يَعْمَلُ على التّجَدّدِ والظُّهورِ بنفسِه بِبُطْءٍ، في ذلكَ العَصْرِ وفي كلّ عَصْرٍ آخر»... إلى أنْ قال: «ولمّا كانَ يُصاحِبُ جميعَ العمليّاتِ الّتي يُمْكِنُ تَتَبُّعُ نُشوئِها، قانونٌ ثابتٌ بمعنى ٱطّرادِ تَتابُعِ العِلَلِ والمَعْلولاتِ، فقدْ ظَهَرَ أنّ في وُسْعِ النّاسِ، بقَدْرٍ كافٍ من المهارَةِ، أنْ يَصِلُوا إلى هذا النَّوْعِ مِنَ القوانينِ في كلّ ميدانٍ من ميادينِ البَحْثِ، وذلكَ ما أجْمَلَه جون ستيوارت ميل بقوله: «إنّ جميعَ الظّواهرِ، على الإطلاقِ، تَحْكُمُها قوانينُ غَيْرُ قابلةٍ للتّخَلّفِ ولا تَعْتَرِضُها إرادةٌ ما، طبيعيّةً كانت أو فوقَ الطّبيعة». وعلى هذا الرّأيِ جَعَلَ ميل غَرَضَه الأساسيّ في الحياةِ أنْ يَصِلَ إلى القوانينِ الثّابتة الّتي يقومُ عليها نُشوءُ الإنسانِ أخلاقيّاً وٱجتماعيّاً، فكانَ غَرَضُه من كتاب: المنطق، بيانَ الطّريقةِ المُثْلى لبَحْثِ علومِ الإنسانِ، كما أنّ تَحَوّلَه إلى الاقتصادِ السّياسيّ يَرْجِعُ إلى ٱعْتِقادِهِ بأنّ في العِلْمِ بأحوالِ الإنسانِ، منْ حيثُ هو مُنْتِجٌ للثّروةِ ومُسْتَهْلِكٌ ومُبادِلٌ لها، قوانينَ من النّوعِ الإيجابيّ الصّحيحِ لا يُتَعَذَّرُ الوُصولُ إليها، مِثالُ ذلك قانونُ تناقصِ الغلّةِ وقانونُ السّكّانِ لـ مالتوس، وقانونُ الأجورِ لـ ريكاردو. وكان ميل يَقْفو أثَرَ أُستاذِهِ الفَرَنْسيّ أوغست كُنت الّذي نَصَبَ نَفْسَهُ للوُصولِ إلى القوانينِ الّتي تُفَسّرُ غَرابةَ أطوارِ الإنسانِ في حال التّفَرّدِ والاجتماع، لكنّه لم يَكُنْ مؤرّخاً

الأخلاقيّ وما إليهما، يُمْكِنُنا أنْ نَجْعَلَ جيلَنا بما يَمُورُ فيهِ نُقْطَةً مَرْكَزِيَّةً، ثُمَّ نَشْرَحَ(١٤) كُلَّ جيلٍ تاريخيٍّ على ضَوْئِهِ غيرَ مُغْفِلينَ حِسابَ نِسْبَةِ البُعْدِ عنهُ أوِ القُرْبِ مِنْه.

وهذه النِّسْبَةُ ذاتُ تأثيرٍ في إبْداءِ الصّورَةِ للعُصورِ على وَجْهِ الحُلْكَةِ أو الإسْفارِ. والّذي يَبْعَثُنا على الطُّمَأْنينةِ إلى نتائِجِ مِثْلِ هذا النَّظَرِ، دِقَّةُ مَوازينِ التَّطَوُّرِ النَّفْسيَّةِ والعقْليَّةِ والاجْتِماعيَّةِ والأَدَبِيَّةِ الّتي بيْنَ أيدينا، حتّى كادَتْ تَتماثَلُ إلى أنْ تكونَ من أشْياءِ العُلومِ.

وَيَحْسُنُ بنا أنْ نُعْنى بِفَهْمِ وُجْهَةِ هذا النَّظَرِ، لأنّه بمثابَةِ وضعِ قاعدةٍ ثابتةٍ للتّاريخِ، ونَسْتَخْدِمَ في شرْحِها أسلوبَ المُناظَرَةِ والتَّمْثيلِ.

جيلُنا الحاليُّ لهُ وَضْعٌ اجْتِماعيٌّ خاصٌّ، ومَثَلٌ أخْلاقيٌّ كذلكَ، وسُنَّةٌ أدبيَّةٌ بِعَيْنِها، وطَريقَةٌ طَبيعيّةٌ ذاتُ مُمَيِّزاتٍ. ولكِنَّ هذه الأشياءَ، بِجَوْهَرِها وبما تَنْتَحِلُّ إليهِ من البَسائِطِ، تُشْبِه أمْثالَها الّتي كانتْ تَتَّصِلُ بحياةِ الجيلِ التّاسِعَ عَشَرَ والثّامِنَ عَشَرَ وهكذا. فالمُفارَقاتُ بينَ هذهِ الأشْياءِ ثابتةٌ، منْ حَيْثُ التَّرْكيبُ، ثبوتَ الاشْتِراكِ منْ حيثُ التّحليلُ، وهذه المُفارَقَةُ إمّا بالارْتِقاءِ قُدُماً أو بالانْحِرافِ أو الانْزِلاقِ الّذي هو نتيجةُ عواملَ طَبيعيَّةٍ جُزْئِيَّةٍ أو ثَوْراتٍ.

وإذا ثَبَتَ لَدَيْنا مِنَ القَضايا المُبَرْهَنِ عليْها في العُلومِ البيولوجِيَّةِ أنَّ المُسَيِّراتِ الرّئيسيَّةَ

يَسْتَقْرِىءُ الحوادثَ، بل فَيْلَسوفٌ يَقيسُ الأمورَ بأشْباهِها، ثمّ ظَهَر توماس هنري بكل فَقَصَد أنْ يُنْشِىءَ على مُقْتَضى أُصولِ فَنِّ الإحصاء عِلماً وَضْعِيّاً للاجتماعِ الإنسانيِّ في مقدّمةِ كتابِه: **تاريخ الحضارة في إنجلترا**. راجع كتاب: **علم التاريخ**، ص ١٤٢ و١٤٥، ترجمة العبادي، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

(١٤) يَرْجِعُ الفضلُ في كَشْفِ هذه الطّريقةِ، مِن وُجْهَةٍ أدَبِيّةٍ مَحْض، إلى الشّاعرِ العظيمِ شكسبير. فقد اتّبَع في كتابةِ دراماتِه الكُبرى طريقةَ تَشْخيصِ وتَفْسيرِ الماضي بالحاضِرِ، فكانَ إذا أرادَ أنْ يُبْرِزَ لنا صُورةً مِن صُوَرِ العصرِ الرومانيِّ مثلاً جَمَعَ من بلوطرخس وغيرِه الحقائقَ الهامّةَ، ومنْهم يَسْتَوْعِبُ شَكْلَ الحكومةِ ومَقامَ الدّينِ ودَرَجَةَ توزيعِ القوّةِ والسّلطةِ في بناءِ الهيئةِ الاجتماعيّةِ، وبذلكَ يَخْرُجُ تصميمُهُ الأوّليُّ الّذي يُشيعُ فيه الحياةَ والنّشاطَ على ضَوْءِ طبيعةِ العصْرِ الّذي عاشَ فيهِ، ممّا يُلاحِظُهُ من تأثيرِ النُّظُمِ والمبادىءِ الاجتماعيّةِ مِن وجهٍ عامٍّ في عُقولِ النّاسِ، مع إحلالِ الفُروقِ الجيليّةِ بينَ أساليبِ الحياتَيْنِ في الصُّوَرِ السّياسيّةِ والدّينيّةِ. وبذلكَ أدْرَكَ مِنَ التاريخِ ما لم يُدْرِكْهُ غيرُه، واصْطَنَعَها طريقةً في بِناءِ الرّوايةِ نَرى إلزامَ اتّخاذِها في بِناءِ التّاريخِ وعَرْضِه.

للبَشَرِ واحدةٌ، أو بعبارةٍ أصَحَّ، تكونُ دائماً نسبةُ آشْتِراكِها أكْبَرَ منْ نسبةِ آخْتلافِها، ضَرورةَ آمْتناعِ الطَّفْرَةِ في التَّطَوُّرِ كما يقولُ داروين، جازَ لِلْمُؤَرِّخِ أنْ يدرُسَ أجْيالَهُ الماضِيَةَ على ضَوْءِ الجيلِ الَّذي يعيشُ فيه، وأنْ يُوَصِّلَ بَعْضَ الحوادثِ ويُنَسِّقَها مُسْتَلْهِماً مُحيطَهُ وعصرَهُ ونفسيَّةَ الجُموعِ الَّذين يُشارِكُونَهُ الحياةَ، وأنْ يُصَحِّحَ[١٥] الرِّواياتِ عنِ الماضي على أساسِ النِّسْبةِ الَّتي يَقْضي بها الحاضِرُ. فبينَ المؤرِّخِ والرِّوائيِّ عَلاقَةٌ قَوِيَّةٌ في هذا الجانِبِ، حتّى أُبالِغُ فأقولُ بأنَّ مِنْ واجِبِ المؤرِّخِ، إذا شاءَ التَّوفيقَ، أنْ يكونَ رِوائيّاً قبلَ أنْ يكونَ مؤرِّخاً.

وعلى هذا القانونِ يُمْكِنُنا أنْ نَجْعَلَ لِكُلِّ عُنْصُرٍ بَشَرِيٍّ دائرةً خاصَّةً، نضعُ فيها جيلَهُ نُقْطَةً مَركزيَّةً ثُمَّ نَنْتَقِلُ إلى الأجْيالِ السّالفَةِ بنسبةِ قُرْبِها حتّى نَنْتَهِيَ إلى أبعدِها، وكلَّما زِدْنا الدّائرةَ تَخْصيصاً زِدْنا تَحْقيقاً بلا رَيْبٍ. ونَعْني بهذا وَضْعَ ميزانٍ بينَ أيْدي المُؤَرِّخينَ حينَما يَفْرَغونَ للتَّعْليلِ والتَّحْليلِ في صَدَدِ الأجْيالِ الّتي يَدْرُسونها، وهذا القانونُ النَّقْدِيُّ يَـتِمُّ بالاعْتمادِ على تَحْريرِ الموازينِ النَّفْسِيَّةِ والاجتماعيّةِ والأَخْلاقيَّةِ، وفَرْضِها فَرْضاً تَطَوُّرِيّاً.

مثالُه: «الفضيلةُ في المَرْأةِ»[١٦] تُعْتَبَرُ هَدَفاً أخلاقيّاً في القرنِ التاسِعَ عَشَرَ كما هو في القَرْنِ العِشرينَ، ولكنَّها تَعْني في العَصْرِ الأوّلِ غيرَ ما تَعْنيهِ في العصْرِ الثّاني، فكانَ منْ جُمْلَةِ مظاهِرِها في الشَّرْقِ الأَوْسَطِ الحِجابُ والخِدْرُ ومُجانبةُ الاخْتِلاطِ، ولَمْ تَزَلِ الفضيلةُ هدفاً

---

(١٥) نَرى التّاريخَ حينَ يُحَدِّثُنا عن محاكمِ التَّفْتيش مَثَلاً يَنْسُبُ إليها من الفظائِعِ والأهوالِ ما لا يَصْدُرُ إلّا عنِ الإنسانِ القديمِ الّذي كانَ أقَلَّ تَطَوُّراً في غرائِزِهِ كالإنسانِ الأشوريِّ والبابليِّ والمصريِّ، فالنَّظريَّةُ الّتي نُقَرِّرُها تَقْضي بالتَّحَفُّظِ حِيالَها، وتَحْكُمُ بأنّها مُبالغاتٌ فيها تَزَيُّدٌ يَبْعُدُ بها عن الصِّدْقِ بأنْ تَصْدُرَ عن الإنسانِ المتطوِّرِ المصقولِ الغريزةِ، وعليهِ فهذهِ الأخبارُ أفْرَطَ فيها المؤرِّخونَ من ذوي الأغراضِ، والرِّوائِيّونَ الّذين عَمَدوا إلى مُحاربةِ الأوضاعِ والإهابةِ بالنّاسِ إلى التَّحرّرِ والثّورة.

(١٦) ساقَ العلاّمَةُ الباليتنولوجيُّ ماتيو في مقاله: «أساس الحضارة المقبلة»، أمثلةً عديدةً مِنْ هذا القَبيلِ، مثلَ نظريّةِ الجريمةِ والعقابِ وتَطَوُّرِها في آراءِ المُحْدَثينَ، وصِفَةَ الشَّجاعةِ وضَبْطِ النَّفْسِ، وآنتهى إلى هذه النتيجةِ القائلةِ: «هنا نَستَطيعُ أن نَعْثُرَ، سَواءٌ في مظاهِرِ التَّفكيرِ أم في مظاهِرِ العَمَلِ، على دلائِلَ مِنَ الارتقاءِ بالِغَةِ الأثَرِ، وعلى تَهذيبٍ بَطيءِ التَّقَدُّمِ غيرِ مَفْصومِ الحَلَقاتِ ولا مَقْطوعِ التَّسَلْسُلِ». راجع كتاب: **معضلات المدنية الحديثة** للأستاذ إسماعيل مظهر، ص ٧٦، طبعة دار العصور ١٩٢٨.

في جيلِنا الحاضِرِ، ولكنَّها لم تَعُدْ تَعْتَرِفُ بأنَّ هذه الأشياءَ داخِلَةٌ في معْناها. فالّذي تغيَّرَ ليس هو الفضيلةَ منْ حيثُ كونُها هدفاً أو مُسَيِّراً، وإنما تَغَيَّرَ الشَّكْلُ العُرْفيُّ فَقَطْ.

القالب العدديّ في التاريخ: نحن إذاً نَسْتَطِيعُ أن ندَّعيَ بأنّ المُسَيِّرَ في جَوْهَرِه لم يَتَغَيَّرْ، وإنّما تغيَّرتْ مُلابَساتُه وأشْكالُه، ويَنْبَغي أنْ نُحَدِّدَ مِقْدارَ هذهِ النِّسبةِ على سُنَّةٍ عدديّةٍ، لأنّ التَّطَوُّرَ يَحْتَفِظُ بنسبتِهِ على الدّوامِ، كما أنّ المُقايَسَةَ الرِّياضيَّةَ أدقُّ سبيلاً.

ومِنْ ثَمَّ نَستطيعُ، بَعْدَ جَمْعِ عِدَّةِ أمثلةٍ منْ كُلِّ الشُّعَبِ المذْكورَةِ، أنْ نقولَ على وَجْهٍ قَريبٍ مِنَ القَطْعِ بأنَّ النِّسبَةَ العدديّةَ بينَ كُلِّ قرنٍ والّذي قبلَه خمسةٌ في المائة[١٧] مثلاً، فإذا دَرَسْنا الجيلَ الخامسَ عَشَرَ الميلاديَّ، نقولُ بأنَّهُ يَتَّفِقُ مَعَ جيلِنا في مُسَيِّراتِه ودوافِعِه على وجْهٍ عامٍّ منْ حيثُ جَوهَرُها، ويَخْتَلِفُ بنسبةِ خمسةٍ وعشرينَ في المائةِ من حيثُ تَشَكُّلاتُها. وهذا الفَرْضُ العَدَدِيُّ يَظْهَرُ أكْثَرَ صِدْقاً في ظاهرةِ التّاريخِ الطّبيعيّةِ منهُ في ظاهِرَةِ التّاريخِ الصّناعيّةِ؛ ونَعْني بالظّاهرةِ الطّبيعيّةِ للتّاريخِ، حالاتِ النُّشوءِ والتَّكامُلِ في الاسْتِعْداداتِ والقابِليّاتِ والأمْزِجَةِ وما يَتْبَعُها؛ وبالظّاهِرَةِ الصّناعيّةِ للتّاريخِ، درجاتِ التّقدُّمِ في العُمْرانِ والنُّظُمِ والأوْضاعِ المدنيّةِ. وإنّما كانَ الفَرْضُ العَدَدِيُّ المذكورُ أكثرَ صِدْقاً في الأُولى منْ حيثُ إنّها عَمَلٌ طبيعيٌّ، والطّبيعةُ تميلُ إلى النّظامِ والاحْتِفاظِ بالنّسبةِ دائماً، بينَما الثّانيةُ عملٌ إنسانيٌّ مَحْضٌ، ولِذا أسْمَيْناها صناعيّةً، وهيَ عُرْضَةٌ للتّقدُّمِ السّريعِ والانْتِكاسِ. وأمّا الأُولى فلا يَعْتَوِرُها هذا الضَّرْبُ منَ الانْتِكاسِ والرِّدَّةِ إلى الوَراءِ إلّا في القليلِ النادرِ.

وسنرى بعدُ، أنّنا فَرّقْنا بينَ التَّطَوُّرِ ذي الظّاهرةِ الطّبيعيّةِ والارْتِقاءِ ذي الظّاهِرَةِ الصّناعيّةِ، وحَكَمْنا بأنّ الانْحِرافَ يُصيبُ الارْتِقاءَ فَقَطْ. وعليهِ فإنَّ للتّاريخِ مَظْهَرَيْنِ: أحَدُهما طبيعيٌّ

---

(١٧) يجبُ ملاحظةُ أنّ الواحِدَ في العُصورِ تَخْتَلِفُ نِسْبَتُه تركيباً وبَساطَةً. فالواحِدُ بينَ القرنِ التّاسعَ عَشَرَ والقَرْنِ العشرينَ يَخْتَلِفُ عن الواحِدِ فيما بينَ القَرْنِ الثّامنَ عشرَ والتّاسعَ عَشَرَ، فإنّه في الأوّلِ أكْثَرُ تركيباً، ولكنّه وَحْدَةٌ على أيِّ حال.

والآخرُ صِناعيٌّ، وهما خاضعانِ لنسبةٍ رياضيّةٍ ثابتةٍ، غيرَ أنَّ خُضوعَ الأوّلِ أكثرُ ظهوراً، فإنَّ المِزاجَ[١٨] العَقْليَّ وخُلُقَ الأمّةِ، وهُما منَ النّوْعِ الأوّلِ، كلاهما يحتاجانِ إلى زَمَنٍ طويلٍ، بينَما شَكْليَّةُ الاجْتماعِ وشَكْليَّةُ الأوْضاعِ، وهُما منَ النّوعِ الثّاني، يَتِمّانِ بطَريقٍ إراديٍّ صِرْفٍ أيْ صِناعِيٍّ. ولذلكَ يَعْرِضُ لأصْنافِ النّوعِ الثّاني الارْتِقاءُ والإسْفافُ، في حينِ أنَّ صِفاتِ الأمّةِ النّفْسيَّةَ سائِرَةٌ في طريقِ تَقَدُّمها على نِسْبةٍ ثابتَة.

فالميزانُ التّاريخيُّ الّذي نَرْغَبُ أن نَقيسَ بهِ أجيالَ التّاريخِ لِتكونَ نتائِجُنا الدّراسيَّةُ أكثرَ دِقّةً وأقلَّ آخْتِلاطاً وآخْتِلافاً، إنّما يَتِمُّ لنا تَقْديمُه والعملُ بهِ بعدَ التَّحقُّقِ منْ صَلاحِيَّةِ الموازينِ الأخلاقيّةِ والاجتماعِيّةِ والنّفسيّةِ وقيمَتِها، لأن التّاريخَ يَشْمَلُها جميعاً ويَعْتَمِدُ عليْها. ونرى لأنْفُسنا الحقَّ بأنْ نَزْعُمَ هذا الاشْتِراكَ الجَوْهَريَّ في المُسَيِّراتِ من حيثُ بُطْءُ التَّطَوُّرِ العُضْويِّ والغَريْزيِّ[١٩] بُطْأً يُشْبِهُ السُّكونَ. وإذا تَوافرَ لدينا هذا المِيْزانُ التّاريخيُّ، تأتّى لنا فَهْمُ مدَى تَطَوُّرِ هذهِ الدّوافِعِ للأجيالِ المُسْتَقْبَلَةِ أيضاً، كما تأتّى لنا فَهْمُها في جانبِ الماضِي.

وإذا وَصَلَتِ النِّسْبَةُ في مُوازَنَةِ العُصورِ الماضيَةِ إلى الصِّفْرِ، فمعنى هذا أنّنا وصلْنا إلى تطَوُّرٍ في الغَريزَةِ وتحوُّلٍ في جَوْهَرِ المسيرِ كَمّاً وكَيْفاً. فَنِسبَةُ الخمسةِ تحتَ الصِّفْرِ منَ الميزانِ التّاريخيِّ المِئَويِّ، تَعْني أنَّ المُسَيِّرَ الخاصَّ بالقرنِ العِشرينَ يَخْتَلِفُ جوهريّاً عنِ المُسَيِّرِ في الجيلِ الّذي هذه نِسْبَتُه. فالنِّسبةُ المئويّةُ الواحِدَةُ لا يكونُ فيها إلّا تَطَوُّرٌ للْمُسَيِّرِ

---

(١٨) راجع كتاب: سر **تطوّر الأمم** لغوستاف لوبون، ترجمة فتحي باشا زغلول، ص ص ١٦ - ٣٩. ويَحْسُنُ مراجعةُ فُصولِ هذا الكِتابِ الأولى، لأنّه يوضِحُ شيئاً كثيراً مِنْ مقاصِدِ هذا التّصْدير.

(١٩) ذَكَرَ بعضُ عُلماءِ النّفس أنّ رَغْبَةَ الافتراسِ في الإنسانِ لا تزالُ مُتَأصِّلَةً فيهِ، بيدَ أنّها تَهَذَّبَتْ شَكْلاً فقطْ، حين شَدَّتْ على نَفْسِها أرْدِيَةً من الأناقَةِ ومَعاطِفَ من الزُّخْرُفِ... فإنسانُ اليَومِ المُتَحَضِّرُ يَعْمَدُ إلى نَحْرِ الحَيوانِ وإنْضاجِهِ على ألْوانٍ وصُوَرٍ، سَلقاً وشَيّاً وشاورما إلى أشكالٍ كثيرةٍ، ولكنّهُ في الواقِعِ، صِنْوُ حالِهِ يومَ كانَ وحشِيّاً، يَلْتَهِمُهُ نَيّئاً غيرَ نَضِيجٍ... فالمُلْتَهِمُ في الحالَيْنِ هو المُلْتَهِمُ، غيرَ أنَّ الأوّلَ كانَ البَشَرِيَّ الوَحْشَ والثّاني البَشرِيَّ الأنيقَ آبْنَ الحَضارَة.

في الكَيْفِ، وأمّا التّطوّرُ للمُسَيِّرِ في الكَمِّ فإنّما يَظْهَرُ بينَ النّسبةِ المئويّةِ والّتي فَوْقَها أو تحتَها.

ومنْ وُجْهَةٍ شَرْحِيّةٍ أوْضَحَ:

نُسَمِّي التَّرَقِّيَ العُضْويَّ أوِ الغَريزيَّ تطوُّراً.

ونُسمّي التَّرَقِّيَ في الصِّفاتِ الأدبيّةِ وما يَتْبَعُها آرتقاءً.

ونُسمّي الانْحِرافَ الّذي هو نتيجةُ حَوادثَ طبيعيّةٍ أو ثَوْراتٍ، آنْحِرافاً في الارْتِقاء أو آنزلاقاً.

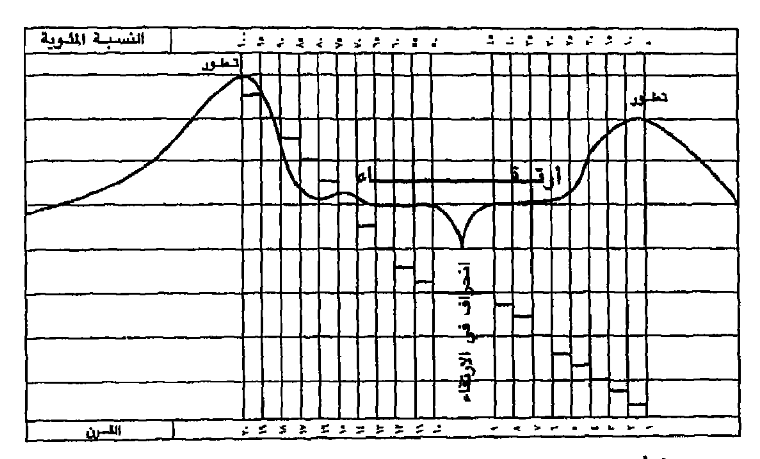
فإذا بَلَغَتْ بنا النِّسبةُ في المُوازَنةِ إلى الصِّفْرِ، فقدْ بلغْنا إلى تطوُّرٍ في جوهرِ المُسَيِّرِ، وإذا سِرْنا بالنِّسبةِ إلى فوقَ، قُلنا إنّ العصرَ بلغَ درجةً آرْتِقائيّةً؛ فإذا صادَفَتْنا حالةُ اضطِّرابٍ لها صِفَةُ الفَوْضَى في تاريخ الأُمّةِ حكَمْنا بأنّها أُصيبتْ بآنحِرافٍ في الارتقاءِ، وهذا الانْحرافُ يكونُ رِدَّةً تَقَهْقُرِيَّةً في حِسابِ النِّسبةِ التّاريخيّةِ. وعليهِ فالتّطوّرُ تَغَيُّرٌ في جَوْهَرِ المُسَيِّرِ، والارْتقاءُ تَغَيُّرٌ في شَكْلِهِ على نِسبةٍ عددِيَّةٍ آسْتِغْلائِيّةٍ، وهيَ لا تَخْتَلِفُ أو تَتَخَلَّفُ ما لم تُصادِفِ آنْحرافاً في الارْتقاءِ ذا صفةٍ بعينِها، قُوّةً وضَعْفاً.

وهذا القانونُ المِئَوِيُّ[٢٠] يُطَبَّقُ في البيولوجيا، وعلمِ النفسِ، وعلمِ الاجْتماعِ، وعلمِ الأخلاقِ، وعلمِ القانونِ، والفنِّ، وكلُّ ما يتَّصِلُ بالنُّشوءِ العُضويِّ، كما يُطَبَّقُ في التّاريخِ، فَلَهُ صِفَةٌ عامّةٌ ثابِتَةٌ.

---

(٢٠) هذا الميزانُ القِياسيُّ يَصِلُ ما بينَ التّطوّرِ والارْتقاءِ ويَجْعَلُ الثّانيَ خاضِعاً للأوّلِ خُضوعاً طبيعيّاً، وهو يُفَسِّرُ التّاريخَ تفسيراً جديداً ويُعْطيهِ تَعْريفاً أكثرَ دِقّةً وآستِقامةً. والمُلاحَظُ في هذا الميزانِ التّاريخيِّ أنّه يَجْعَلُ التّاريخَ وليدَ التّطوّرِ الّذي يَتَّصِلُ بالغرائزِ، والارتقاءِ الّذي يَتَّصِلُ بالصِّفات الأدبيّة. وإنّ أوّلَ مَنْ تَنَبَّهَ إلى فَرْضِ التّطوّرِ المُتَّسِقِ في التاريخ الفيلسوفُ الإيطاليُّ فِيكو، فقد آعْتَبَرَ في كتابه: **أصول علم جديد**، التّاريخَ فَرْعاً من علمٍ واسعٍ يَشْمَلُ المجتمعَ الإنسانيَّ، ونَظَرَ إلى كُلِّ عصرٍ من عُصورِهِ على أنّ له مكاناً خاصّاً من نِظامٍ تطوُّرِيٍّ بَحْت.

ولا يَخْفَى أنّ النِّسبةَ العدديَّةَ الّتي قدَّرْناها بخمسةٍ، ليستْ على وجهٍ تَحْقيقيٍّ وإنّما هو تمثيلٌ فقط قَصْدَ تَوْضيحِ الفِكْرةِ.



وتَفْسيرُهُ: كُلُّ جيلٍ يرْتَقي عن سابقِهِ آرْتقاءً طبيعيّاً بما تَوافَرَ لهُ من أدَواتٍ جديدةٍ يُعالِجُ بها الصُّعودَ الشّاقَّ بِنِسْبَةٍ عَدَدِيَّةٍ مَفْروضةٍ. فإذا سايَرْنا الرَّسْمَ البَيانيَّ المُتَخَيَّلَ وَجَدْنا القَرْنَ العِشرينَ يَقومُ على القِمَّةِ الّتي يَنْتَهي عندَها الارْتِقاءُ ذو النِّسبةِ المئويَّةِ الخاصَّةِ، ثُمَّ نَنْحَدِرُ مَعَه، والِجينَ سَراديبَ الماضي جيلاً بعدَ جيلٍ، في جَوٍّ يتزايدُ قَتامةً كُلَّما زِدْنا إيغالاً.

والمُلاحَظُ أنَّ في ذَكانَتِهِ تَدَرُّجاً محفوظَ النِّسبةِ على وجهٍ طبيعيٍّ حتّى نَصِلَ إلى القرنِ الرّابعَ عَشَرَ الّذي نَفْرِضُ أنَّ حركةَ آنْبعاثٍ قامتْ بينَه وبينَ القرنِ الثّالثَ عشرَ، فإنَّها تُدخِلُ على حَرَكةِ الأُمَّةِ إسراعاً لا شكَّ فيه، ثُمّ نسيرُ حتّى نصلَ إلى القَرْنِ العاشرِ الّذي نَفرِضُ أنَّ نَكْبَةً طبيعيَّةً كَطُوفانٍ، أو نَكْبَةً آجْتِماعِيَّةً كرِدَّةٍ آنحلاليّةٍ[٢١] وَقَعَتْ بينَه وبينَ القرنِ

(٢١) وهيَ الّتي لا تَقومُ على أفكارٍ بعيْنِها ولا تَتَحرّكُ لهدفٍ محدّدٍ معيّنٍ، وأمّا الثّورةُ الّتي تُحرِّكُها أفكارٌ مُرَكَّزَةٌ ويَدْفَعُها النُّضجُ فهي عاملُ آرْتقاءٍ قد يَزيدُ في سَيْرِ الأمّة، وقد لا يُؤَخِّرُها لأنَّ ما سبَّبَه من الأضرارِ يَعْدِلُ ما قَدْ أذْكاه.

التّاسعِ، فإنّها تَدْخُل بالأُمّةِ في مثلِ الأُخْدُودِ العَميقِ، ولكنّها تُعاوِدُ الصُّعودَ وتسيرُ في خطِّ الطّولِ الّذي رَسَمَتْه لِنَفْسها. وهكذا يُسْلِمُنا الجيلُ الثّامنُ إلى ما وراءَهُ حتّى نَقِفَ على رأْسِ القِمّةِ الأُخْرى الّتي ابْتَدَأ منها الارتقاءُ النّسْبيُّ، ودَرَجَتُها في الميزانِ أو سُلَّمِ الارتِقاءِ صِفْرٌ. ومَعْناهُ أنّ الجيلَ الّذي بَدَأ الانِحْدارَ منْها تَغَيَّرَ في مُسَيِّراتِهِ الغريزيّةِ والأدبيّةِ تَغَيُّراً جَوْهَريّاً بالنّسبةِ إلى الأجيالِ الّتي تَقَعُ في الجانبِ الآخَرِ من القِمّة.

والّذي تَجِبُ مُلاحظتُه أنّ جميعَ التّغيُّراتِ الاجتماعيّةِ والنّفسيّةِ والأخلاقيّةِ (أي الصّفاتِ الأدبيّةِ) ناتجةٌ عن تغيُّرٍ غريزيٍّ[٢٢] وعُضْويٍّ[٢٣] دقيقٍ. كما أنّ التّغيُّرَ العُضْويَّ من بعضِ جوانبِهِ يَنْفَعِلُ بالارتقاءِ العامِّ في خاصّيّاتِ النّفْسِ والاجتماعِ والأخلاقِ، فإنَّ ممّا لا رَيْبَ فيهِ أنّ شَكْلَ الغِذاءِ ولونَ العيشِ، منْ حَيْثُ الطّراوةُ والغَضارةُ، والطابَعُ النّفسيُّ ذو الشّكْلِ الخاصِّ، لِكُلّها تأثيرٌ في البناءِ فيزيولوجيّاً. فالتّغَيُّرُ العُضْويُّ إذاً يَنْفَعِلُ من بَعْضِ جوانِبِهِ بالارْتقاءِ في الشُّعَبِ المَذْكورةِ بالنَّظَرِ إلى الماضي، وَيَفْعَلُ فيها تَغْييراً بالنّظرِ إلى المُسْتَقْبَل.

وإنّما قُلْنا من بَعْضِ جوانِبِهِ لأنَّ التَّغَيُّرَ العُضويَّ في الحقيقةِ خاضِعٌ لعوامِلَ طَبيعيّةٍ داخليّةٍ مُتَأثِّرَةٍ بعواملَ خارجيّةٍ، كالضَّعْفِ والقُوّةِ في ألوانِ الطَّيْفِ الشّمْسيِّ، والتّقلُّباتِ الجوّيّةِ المُعْتَبَرَةِ كعامِلٍ جيولوجيٍّ، وهي تَخْتَلِفُ في مراحِلَ زمنيّةٍ طويلةٍ. وممّا تَجِبُ ملاحظتُه أيضاً أنَّ التّطوّرَ يَمَسُّ الأفْرادَ، والارتقاءَ يَمَسُّ الجماعاتِ، والأوّلَ بطيءٌ جدّاً بينَما الثاني سريعٌ نَوْعاً ما، والنِّسْبةُ المئويّةُ الكاملةُ للارْتِقاءِ تَعْدِلُ وَحْدَةً بَسيطةً منَ النّسبةِ المئويّةِ للتّطوُّر.

وإذا كانَ قَرْنُنا الحاضرُ يَقَعُ حقيقةً على رأسِ القِمّةِ، فإنّ الميزانَ يَقْضِي بأنّه سَيَشْمَلُهُ تَغَيُّرٌ غَريزيٌّ طَفيفٌ، يَنْتُجُ عنهُ تَغَيُّرٌ في جَوْهَرِ المُسَيِّراتِ العامّةِ للجيلِ الحادي والعشرينَ، يحمِلُنا على التّفاؤُلِ بأنّ الجيلَ المقبلَ سيكونُ أكثرَ آسْتِعْداداً للمُثُل.

---

(٢٢) و(٢٣) قرّرَ نَحْواً من هذا، العَلاّمةُ مانو البالنتولوجيّ الأمريكيّ في بحثٍ له عن أساسِ الحضارةِ المقبلةِ، هل سيكونُ رُقِيّاً أدبيّاً أو نُشوءاً عُضوِيّاً. راجع كتاب: **مُعْضِلات المدنيّة الحديثة**، مصدر سابق، ص ص ١٧٦ - ١٨٢.

وَلْنَسُقْ طائِفَةً من الأمثلةِ للتَّوْضيحِ: الحِقْدُ والضَّغينةُ والتّنافُس عواملُ تُسَيِّرنا كما كانتْ تُسَيِّرُ القُدَماءَ الّذين يَقَعونَ في الجانبِ الآخَرِ لِقِمَّةِ الصِّفْرِ، فألمانيا يَدفَعُها التّنافُسُ لحربِ إنجلترا، كما دَفَعَ اليونانَ لحربِ الفُرْسِ، والحقدُ التاريخيُّ يَدْفَعُها لحَرْبِ فرنسا كما دَفَعَ الرومانَ لحربِ قَرْطاجَنّةَ، ولكنْ لنْ يفعلَ الألمانُ تحتَ إملاءِ هذيْنِ الشُّعورَيْنِ ما فَعَلَهُ اليونانُ والرّومانُ. ولا نَتَصَوَّرُ أيَّ رجلٍ ألْمانيٍّ حَقودٍ يَفْعَلُ ما فَعَلَهُ نيرونُ بالمسيحيّينَ حينَ كان يُشْعِلُ النارَ بهِمْ وَهُمْ أحياءٌ ليُضيئوا له الطّريقَ في شَوارِعِ روما.

وإنّ الحُبَّ أوِ الفتنةَ دَفَعَتْ نابوليونَ كما دَفَعَتْ أنطونيو، ولكنْ لمْ يَكُنْ لهُ مِنْ آثارٍ في الحربِ والسِّياسةِ كما كانَ له في التّاريخ القديمِ، وهو راجعٌ إلى أن الحُبَّ[24] كانَ

---

(٢٤) إنّ ضَعْفَ هذا الاتّصالِ هو الّذي غيَّرَ المَثَلَ الأعلى للجَمالِ المُنْتَظِمِ عندَ البدائيّينَ، والّذين هم أقْرَبُ إلى البدائيّةِ بالنّحافةِ والسُّمْنةِ، وهكذا مِن كُلِّ ما هو أدْعى إلى إثارةِ الغريزةِ، وبآنبِهامِ هذا الاتّصال الذي هو تَطَوُّرٌ غريزيٌّ تَغَيَّرَ المَثَلُ الأعلى للجمالِ وصارَ أقْرَبَ إلى السّمُوِّ والتّجرُّدِ. وفي رأيي أنّ هذا السّموَّ في آتّصالِ ما بَيْنَ الإحساسِ والغريزةِ سيُفْضي بالإنسان إلى شعورِ آستعلاءٍ وسُمُوٍّ في الحُبِّ، هو ما كانَ يُسمّيهِ الشّعراءُ بالحبِّ العُذْرِيِّ، وأراني قَليلَ الإيمانِ في أنّ نَوْعَ هذا الحُبِّ قد كانَ عندَ الأوّلين. وأنْتَظِرُ، إذا ما سَيْطَرَ هذا الإحساسُ التّجريديُّ، أنْ نَفْقِدَ كُلَّ شعورٍ بالحُبِّ الرّوائيِّ، وأنْ يكونَ حُبُّ الإنسانِ في مستقبلِ التّاريخِ من نوعِ الإعجابِ الفَنّيِّ فقط.

أُقَرِّرُ أنَّ التطوّرَ الإنسانيَّ آنجلى عن سَيْطَرَةِ الفِكرِ وآحتكامِهِ، وهذه السّيطرةُ الفكريّةُ آخِذةٌ بالمدِّ، وسَيَأْتي الزَّمنُ الّذي يُصْبِحُ فيه الإنسانُ قَصْدِيّاً، وأعني لاغَريزيّاً إلا في شكلٍ مُبْهَمٍ خفيٍّ. فالاتّصالُ الكائنُ بين الإحساسِ والغَريزةِ أيّاً كانَتْ، آخِذٌ بالانبهامِ ليحِلَّ مَحَلَّهُ النّظَرُ المنطِقيُّ أو التعقّلُ بعبارةٍ أصْرَحَ؛ وقد كان هذا الاتّصالُ الغرائِزيُّ أو اللاّقَصْديُّ في الإنسانِ الأوّلِ أكْثَرَ ظُهوراً وبُروزاً، فكانَ يَحْكُمُ أغْلَبَ تَصَرُّفاتِهِ بالانْفِعالِ اللاّإراديِّ، ولذا، كانَ مَحْكوماً بالجُموحِ العاطِفيِّ في أكْثَرِ سُلوكيّاتِه.

وهذا الانْبِهامُ بحُكْمِ التّطَوُّرِ مَسَّ كُلَّ الغرائِزِ على نِسَبٍ متفاوِتَةٍ، وبه يُعَلَّلُ سِرُّ آختلافِ مَقاييسِهِ على العُصورِ فيما يَتَعَلّقُ بالخَيْرِ والحَقِّ والجَمالِ، وبه وَحْدَهُ يُعَلَّلُ سِرُّ الحبِّ والبُغضِ التلقائِيَّيْنِ أو العَفْوِيَّيْنِ.

نَشَرَتْ إحْدى المَجَلاّتِ الأميركيّةِ سنة ١٩٣٨ كما وَرَدَ في كتاب: **معضلات المدنيّة الحديثة**، هذا السؤال:

ماذا يُعْجِبُك في المَرْأةِ؟ فوَرَدَ إليها ألفُ جوابٍ، كان منها خمسُمائةٍ تَجْعَلُ مُسْتَقَرَّ الإعْجابِ في نِطاقِ الأفْخاذِ، ومائةٌ في العَيْنَيْنِ، ومائةٌ في الجاذِبيّةِ، وأربعونَ في الأناقَة... وهكذا ذَهَبَتِ المَجَلّةُ يومَذاكَ تُعَلِّلُ هذا الاختلافَ بتبايُنِ الأذْواقِ الفِطْرِيّةِ، وهذا التّعليلُ كما ترى ميتافيزيقيٌّ غيبيٌّ.

أكثرَ آتِّصالاً بإحساسِ الغريزةِ منهُ بالإحساسِ المُجَرَّدِ الذي يَنْطَفيءُ بسرعةٍ. فغُموضُ الاتِّصالِ بينَ الإحساسِ والغريزةِ في بنائِنا الحاليِّ يَجْعَلُهُ يَتَبَخَّرُ في زمنٍ قصيرٍ. وهذا شأنُ العَواطفِ جَميعِها، كُلَّما كانتْ عملاً غريزيّاً كانت أكثرَ عُنْفاً وحِدَّةً، وكُلَّما كانتْ عملاً شُعوريّاً مُجرّداً خَفَّتْ غُلَواؤُها.

وهذا ظاهرٌ في الحُبِّ البنَويِّ عندَ الحيوانِ، فإنَّه أكثرُ حدَّةً، ولكنْ لأنَّه يَفْقِدُ الذّاكرةَ، أوْ تَضْعُفُ فيهِ عنِ التّسْجيلِ والالْتقاطِ، تَتَصَرَّمُ[٢٥] عاطفتُهُ وتَتَقَضّى. وإنّ آنْدِفاعَ الحيوانِ

واختلافُ الأجوبَةِ المذكورَةِ إنّما يُفَسَّرُ على ضَوْءِ النظريّةِ التي نُعطيها، وذلكَ بمُلاحَظَةِ مَدَى التّطَوُّرِ الواقِعِ على أثَرِ الإحساسِ بالغَريزةِ ومَدى سَيْطَرَتِهِ. فقد مرَّ جيلٌ من أجيالِ البشريّةِ لو وُجِّهَ إلى أحْيائِهِ هذا السُّؤالُ لكانَ جوابُ الألفِ جميعاً جوابَ الخمسِمائةِ، لأنَّ مِقْياسَهُم إذْ ذاكَ كان مُشْتَقّاً من إمْلاءِ الغَريزةِ المُسَيْطِرةِ وحدَها. ولكنّ التطوُّرَ الّذي مَسَّ الغريزَةَ بالانْخِناسِ والغُؤُورِ ودَفَعَ أثَرَها إلى الوراءِ، أوْجَدَ هذا التّفاوُتَ؛ وشأنُ الارتقاءِ في الأحياءِ يكونُ متفاوِتاً بِنِسَبٍ ثابتةٍ.

ومن هنا تَجِدُ مِقياسَ الجَمالِ عندَ مَنْ هم أقْرَبُ إلى البِدائيّةِ يقومُ على الامتلاءِ وكُلِّ ما هو أدْعى إلى إثارَةِ الغريزَةِ... والأجوبَةُ المذكورَةُ على هذا السُّؤالِ تُثْبِتُ أنَّ البشرِيَّةَ في مَرْحَلَةِ تَطَوّرٍ لم تَتَهَذَّبْ فيها الغرائزُ إلّا بنسبةِ خمسينَ في المائةِ فقطْ؛ إلّا أنّها آخِذَةٌ في الاندفاعِ العامِّ نحو التّكامُلِ، ويظهرُ هذا من وُجودِ النِّسَبِ الضّعيفةِ كَعَشْرَةٍ في المائةِ تَجْعَلُ الأناقَةَ هي مَدارَ الإعجابِ، وأُخرى الجاذِبِيّةَ، وسَيُصْبِحُ مثلُ هذا الجوابِ هو جوابَ النِّسَبِ الأكْبَرِ. ولا بُدَّ من أن يَنْتَهِيَ الأمرُ في مستقبلِ الإنسانِ، بأنْ يَنْظُرَ إلى المرأةِ نظراً رياضِيّاً كمجموعةِ نِسَبٍ ذاتِ دَلالاتٍ، مثْلَما نَنْظُرُ اليومَ إلى الزَّهْرَةِ اليانِعَةِ وإلى الشُّروق.

(٢٥) ولستُ أعني التّصَرُّمَ بكُلِّ المعنى، فَلدى بعضِ الحَيوانِ ما يُشْبِهُ أنْ يُسمّى عقلاً باطِناً، وهو يَتَكَوَّنُ من تَوارُدِ صُوَرِ الأشياءِ ثُمّ آنبِهامِها. وعنْدي أنّ العقلَ الباطِنَ أسْبَقُ تَكَوُّناً من العقلِ الظّاهرِ، وأن العقلَ الباطنَ هو الّذي يُكَوِّن العقلَ الظّاهرَ ويُنْشِئُهُ وهو عاملُ الارتقاءِ في الحيوانِ مُطْلَقاً. وكلَّما آرْتَقى الإنسانُ آرْتقى معهُ العقلُ الواعي وتَبَسَّطَ سلطانُه، كما يقابِلُهُ آنكِماشٌ وضُمورٌ في العَقْلِ اللّاواعي. وزيادةُ سيطرةِ العقلِ الباطنِ عندَ الأوّلينَ تُفَسِّرُ كثْرَةَ الأحلامِ وصِدْقَها، على ما جاء في التّوارةِ والقُرآنِ، وأنَّ الحُبَّ الحادَّ والتّعلُّقَ بالأخلاقِ المثاليّةِ مُنْفَعِلَةٌ كلُّها بقوَّةِ اللّاوَعْي. وفي حالةِ ما إذا سيطرَ العقلُ الظّاهرُ سيطرةً مُطلقةً يَتَغَيَّرُ أساسُ كلِّ شيءٍ. وآعْتمادُ مثلِ هذهِ النّظريّاتِ يُفَسِّرُ غوامضَ التّاريخِ ويَفْرِضُهُ فرضاً حقيقيّاً، فإنها تشرحُ لماذا كانَ باعثَ التّاريخِ في الماضي والحاضِرِ الانْسِياقُ مع قُوّةِ الشّعورِ الّذي هو طبيعةُ الجماعةِ كما يقولُ بنيامين كيد في كتابه: **تاريخ التّطور الاجتماعيّ**، دونَ الانسياقِ مع قُوّةِ العقلِ الّذي هو طبيعةُ الفردِ، ولماذا سَيَكونُ في المستقبل باعِثَ التّاريخِ الانسياقُ مع قُوّةِ العقلِ فقطْ، الّذي هو طبيعةُ الفَرْدِ، وبذلكَ يَتَغَيَّرُ أسلوبُهُ ووَجْهُهُ، وآعتمادُها أيضاً يُصَحِّحُ نظرِيّةَ سيغموند فرويد الّذي بالَغَ في تقريرِ آثارِ غريزةِ الجِنْس.

في دَوْرِ الشَّبَقِ وراءَ الأُنثى منْ شِدَّةِ الاتِّصالِ بينَ الإحْساسِ والغرَيزةِ آتِّصالاً قَوِيّاً، وبالنِّسبةِ إلى خُضوعِ هذا الإحساسِ للتَّطوّرِ فهو يَنْبَهِمُ شيئاً بعْدَ شَيءٍ حتّى يُصْبِحَ تَجْريدِيّاً.

ولا يَخْفى أنّ الّذينَ يَبْدَؤُونَ بالانْحدارِ منَ القِمَّةِ، يكونونَ أقربَ إلى الّذين آنتَهَوْا بالصُّعودِ في الجانِبِ الآخَرِ، لأنّ التّطوّرَ لم تَظْهَرْ آثارُه بعدُ بِوُضوحٍ.

وأنا أعْتَقِدُ بأنّ هذا الشّرحَ لا يُوضِحُ الفِكْرَةَ الّتي أشْتهي تقريرَها على وجهٍ تامٍّ، ولكنْ لا يَسَعُني الآنَ إلّا هذا المِقدارُ منه، لِئلّا تَخْرُجَ بِنا المُناسَبَةُ إلى غَيْرِ طريقِ الموضوعِ. ولكنْ لا يفوتُني أنْ أتكلَّمَ عنِ النّظريةِ الاتّباعيّةِ الكلاسيكيّةِ: التّاريخُ يُعيدُ نَفْسَه، هذهِ النظريَّةِ الّتي تَوَسَّلَ بها الأوّلونَ إلى فَهْمِ حوادِثِ المُستقبَلِ على ضوءِ الماضي، ولكنَّ عِلْمَنا الجديدَ المُسْتَنِدَ إلى الأنثروبولوجي والعُلومِ الّتي تُحالِفُهُ، أظْهَرَنا على أنّ الإنْسانيَّةَ تَتْبَعُ في بقائِها ناموساً تطوُّرِيّاً، وأنّ الإنسانَ في آجتماعِهِ يَتْبعُ عَيْنَ النّاموسِ الّذي يَتْبعُه في طبيعتِهِ. وهذا أطاحَ بالنّظريّةِ السّابقةِ إلى مَهْوىً بعيدٍ، حيثُ تعودُ إلى مكانِها في خَيالِ الإنسان.

إنَّ نظريَّةَ التّطوُّرِ في التّاريخِ تَجْعَلُهُ دائماً في تَغَيُّرٍ وتَزايُلٍ على أساسٍ نِسْبيٍّ ثابتٍ، وبذلكَ لا يُنْتَظَرُ أنْ يُعيدَ التاريخُ نفسَه مرّةً أُخْرى. وأمّا التَّشاكُلُ الّذي نَفْرِضُهُ فإنّما هو منْ حيثُ تحليلُ حركاتِ التّاريخِ في الحاضرِ وسابقاتِها إلى بَسائطِ كُلٍّ منْهما، وهو الّذي نَفيدُهُ منَ الميزانِ التاريخيِّ الّذي نَرْمي إليه. وحيثُ كانتْ هذهِ الحَرَكاتُ لا تَعودُ مَرَّةً أُخرى بأشكالِها بلْ مُتَحَوِّلةٌ على جانبٍ كبيرٍ، فَمِنَ الخَطَأِ آعْتِمادُ مِثْلِ قاعدةِ التّاريخِ المذْكورة.

وهذا الرَّسْمُ الافتراضيُّ يُظْهِرُ، بِبَعْضِ وُضوحٍ، الغرضَ المقصودَ في طيّاتِ الفِكْرَةِ الجديدةِ، ويُبَيِّنُ المدارجَ الرّتيبةَ الّتي تَتْرُكُها العوامِلُ المُخْتَلِفَةُ المُتنازِعَةُ حينَ تُرَنِّقُ فوقَ هامِ العُصُورِ. إن جُموعَ الكائِنِ البَشَرِيّ بمنْزِلةِ هذه العَوامِلِ، كالشُّخوصِ الّتي تُحَرِّكُها الأيدي الخَفِيَّةُ في لُعْبَةِ خَيالِ الظّلِّ.

وممّا يَنْبغي التّنبيهُ عليهِ، قبلَ مُزايَلَةِ الموضوعِ، أنَّ منْ طبيعةِ الحَيِّ الحَرَكَةَ، ولنْ تَتْرُكَ

الحركَةُ الكائِنَ حيثُ هو، فلا بدَّ أنْ يَسيرَ، ولا بدَّ أنْ يَتَقَدَّمَ، فالكائِنُ في كُلِّ جيلٍ يَنْتَظِمُ خُطُواتِهِ إلى الأمامِ. ولا يُنْكَرُ مع ذلكَ أنّ خُطُواتِهِ قد تَجيءُ في بعضِ الأحيانِ قصيرةً جداً، تُشْبِهُ الوُقوفَ لأسْبابٍ كالخمولِ العقليِّ والضَّغْطِ[٢٦] الحكوميِّ، وهذا يَظْهَرُ جيّداً في العُلومِ والآدابِ أزْمانَ الجمودِ. فإنّ حَرَكَةَ التَّقَدُّمِ الطبيعيِّ حينَ لم تَظْهَرْ في جَوْهَرِها ظَهَرَتْ في حَواشيها، كالفلسفةِ عندَ اليونانِ حينَما وقَفَتْ في صميمِها ظَهَرَتْ آثارُ الحركةِ في الشَّرحِ والتَّفسيرِ، وإنّ آعتمادَ الابْتِكارِ عندَ العَرَبِ في النَّقْدِ الأدبيِّ حينَما وَقَفَ، ظهرتْ آثارُ الحركةِ أيضاً في الصِّناعةِ اللَّفْظيةِ والزَّخْرَفَةِ المجازيّةِ والمُحسِّناتِ البَديعيّةِ.

دواعي الإسراع: وينبغي أنْ لا نُسْقِطَ بعدَ ذلك حسابَ الارْتِقاءِ السّريعِ بالدّوافعِ المُخْتَلِفَةِ منها:

١ـ الامتزاج الأجنبيّ والتزاوج الحضاريّ: كما إذا غَلَبَ شَعْبٌ على شؤونِ شعبٍ آخَرَ، وكان للغالِبِ أو للمغلوبِ[٢٧] صِفَةُ الأكْمَلِيَّةِ. ومِثْلُ هذا الارتقاءِ يَتِمُّ بينَ شُعوبِ الجيلِ الواحِدِ، ولكنْ في الجيلِ كُلِّه، فهو ذو نسبةٍ واحِدةٍ ثابتةٍ قَلَّما يَتَعَدّاها إذا لم تُصادِفْهُ عَقَبَةٌ طبيعيّةٌ أو ثَوْرَةٌ، وإلّا فهو يَنْحَرِفُ كثيراً أو قليلاً حَسَبَ دَرَجَةِ الضَّغْطِ الّتي أدَّتْ به إلى هذا الانْحِراف.

٢ـ استعداد وقابليّة العصر: فإنَّ له دخلاً كبيراً في فَهْمِ مِقْدارِ الانْحِرافِ أو مقدارِ الارْتِقاء. ومثالُهُ الزِّلْزالُ الّذي وَقَعَ في تركيا أخيراً، أي في سنة ١٩٤٠، وهَدَمَ مُدُناً وقُرًى، فإنه لو وَقَعَ في العُصورِ الغابِرَةِ حينَ كان الاستعدادُ بطيئاً في آستردادِ العُمرانِ وما إليهِ، لاَسْتَغْرَقَ زمناً طويلاً كي تَستَعيدَ الأُمَّةُ خَطَّ سَيْرِها من جَديدٍ مُتَّصِلةً بِخَطِّها الطُّوْلي الّذي سَبَقَ ورَسَمَتْهُ لِنَفْسِها، ولاَعتُبِرَ عاملاً آنْحِرافيّاً كَبيراً، بينَما هو اليومَ، نظراً للإمكاناتِ المُتَوافِرَةِ، لا يُؤْبَهُ له من وُجْهَةِ نَظَرِ المؤرِّخ.

---

(٢٦) كالاشتراكيّة الوطنيّةِ في ألمانيا، أو السّلطةِ الزمنيّةِ لكنيسةِ روما في القُرونِ الوُسطى.

(٢٧) كالتَّتَرِ مَعَ العربِ أو كالعربِ مع الفُرْسِ والرّوم.

٣ـ تصحيح المنهج التربويّ: الّذي أراه بوَضْعِه الشائع عِلّةً من عِلَلِ الإبطاءِ، لأنّهُ يُزَوِّدُنا بعقْلِيّةٍ تَستَمِدُّ حَرَكَتَها الديناميّةَ منَ الماضي بِحُكْم الطّابَعِ الّذي يُلابِسُها. وتَصْحيحُهُ في رَأْيي بعَدَمِ الإيغالِ في التاريخيّةِ إلى دَرَجَةِ أنْ تُضْحيَ، بكُلِّ أشيائها، تُراثاً صَنَمِيّاً أي وَثَناً مقدّساً، يُوْقِظُ في أعماقِ النّفْسِ شُعُورَ الحِسِّ بالعِرْقِيّةِ المُتَقَوقِعةِ على ذاتِ نَفْسِها، الضّائِقَةِ بِكُلِّ ما عَداها من أشياءَ وأحياءٍ.

فالواجبُ يَقْضي بأنْ نُكَفْكِفَ مِن عِبادَةِ التّاريخِ ما وَسِعَنا، أي عَبادَةِ ما أَلِفَ أسْلافُنا ووَجَدوا فيه أنْفُسَهم، فعَزَّ عليهم أنْ يُباعِدوا بينَهم وبينَه، فضَمُّوه إلى ذَواتِهِمْ على نَحْوٍ حَميميٍّ بل صَميميٍّ، أو بتعبيرِ العربِ القُدامى: خِيميّ؛ قال شاعِرُهُمْ:

ومَن يَلتَمِسْ خِيماً له غَيْرَ خِيمِهِ يَدَعْهُ ويَغْلِبْهُ على النّفسِ خِيمُها

وكُلُّ ما نَجِدُ هنا وهناك من تَنافُراتٍ، إنّما تَرْجِعُ بدونِ شُعورٍ إلى هذا التّعلُّقِ بالماضي، التّعلُّقِ بالتّاريخِ الّذي لا يَلْبَثُ أنْ يُضْحِيَ ذاتَكَ الثانيةَ، أو بتعبيرٍ أدقَّ: أن يُضْحِيَ هو إيّاها... وكَمْ كانَ العربيُّ في إدراكِهِ الفِطْرِيِّ التّلْقائيِّ، نَيِّرَ الرُّؤْيَةِ والرُّؤْيا، صادقَ الحِسِّ والإدراكِ، حتّى لَيُداخِلُكَ العَجَبُ حينَ تَعْلَمُ أنّ العربيّةَ أطْلَقَتْ في أوّلِيَّتها كلمةَ التّاريخِ على الجَدِّ الأعلى والأبِ الأوّل، مُلْتَقى التَشَعُّباتِ والتفرّعاتِ، ضاقَتْ أو آتّسعَتْ، دَنَتْ أو نأتْ.

وبالتّحليلِ لهذا الإدراكِ نَقَعُ على أنَّ كُلَّ أخْيِلَةِ التّاريخ تَنْبَعِثُ من العِرْقِ، العِرْقِ الأعلى للأُسْرَةِ الّتي آلتْ بدورِها لتكونَ القَبيلةَ والعشيرَةَ ثُمّ تُضْحِيَ في ذِرْوَةِ تطوُّرِها الأُمّةَ؛ على أنّ الأُمّةَ تَرْجِعُ إلى الأُمّ الّتي هي بدورِها، رَحِمٌ وعِرْقٌ وعُنْصُر.

فكلُّ تعميقٍ صَنَمِيٍّ للتّاريخِ بآسْمِ التُّراثِ هو بالتّالي تعميقٌ وثَنيٌّ لعِبادةِ الأجدادِ، أي العُنْصُرِ، ثُمَّ لا شيءَ إلّا رابطةُ الدّمِ... مِنْ هُنا نَضَعُ اليَدَ بشَكْلٍ مَلْموسٍ على آفةِ الآفاتِ في التّعْبئاتِ العامّةِ للجَماعاتِ حينَ تَنْطَلِقُ من هذهِ المُنْطَلقاتِ العِرقيّةِ، الّتي من شأنِها أنّها مَلأى بالسّخائِمِ والأحْقادِ... وإذا كانتْ تَكْتَنِزُ صَديدَ هذه الضّغائِنِ، فماذا تراها، تُفْرِزُ؟!

فيَجِبُ العملُ على كَفْكَفَةِ التاريخيَّةِ والتعلُّقِ بالتُّراثِيَّةِ الّتي تُعْتَمَدُ في المناهِجِ آعْتِماداً وَبيلاً، يَجْعَلُكَ منه في مَعْرِضِ أوثانٍ. فإنّ دَرْسَ التّاريخِ على شَتّى فُروعِهِ، وتَلْوينَ الدِّراساتِ الأُخْرى بلونِه، كما هو الواقعُ اليومَ في كُلِّ مناهِجِ التَّرْبيةِ الّتي لم تَتَجَرَّدْ مِنْ عُنْصُرِ الماضي، يُحْيِي في نُفوسِ أبناءِ الجيلِ صُوَراً منه، ثُمَّ تَخْتَلِطُ في عَقلِهِ وتترَكَّزُ حتّى يَسْتَمِدَّ منها وَحْدَها التّفكيرَ مُستقبلاً. وهذا مِنْ شأنِهِ أنْ يَجْعَلَ العَقْلَ دائماً رَهْنَ الماضي في حينِ يَكونُ الأخرى والأَوْلى به حَصْرَ الاهتمامِ بالحاضِرِ وَحْدَه، وبذلك لا يستمِدُّ تفكيرَه كما هو الواجبُ من حاضِرِه الصِّرْفِ، بل يُفَكِّرُ في الحاضِرِ شاخِصاً بوَعْيِهِ إلى الماضي فلا يَرى حاضِرَه كما يَنْبَغي أنْ يَراه.

والخُطَّةُ المُتَّبعَةُ إذا تَرَكَّزَتْ في عَقْلِ النّاشيءِ بَطَّأَتْ عندَهُ الجانبَ الأخلاقيَّ (Morale)[٢٨] والأَدَبِيّاتِ أكثرَ من أيِّ جانبٍ آخَرَ، لأنّ جُثومَ أشْباحِ الماضي وشُخوصِهِ في عَقْلِ كُلٍّ منّا يُرْغِمُهُ على التَّلَفُّتِ إلى الوراءِ، ودَوْماً إلى الوراءِ كما لو آحْتَبَسَتْ وَعْيَهُ عَدَسَةٌ

---

(٢٨) وشاهِدُ هذا أنّ عُلماءَ التّربيةِ آتّخَذُوا التاريخَ وسيلةً إلى غايةٍ أخلاقيّة. ومِنَ الخَيْرِ أنْ أنْقُلَ عبارةَ الأستاذ هرنشو في الفصلِ الّذي خَصَّهُ بالتّاريخِ، قال: «إنّ الفائِدَةَ الأخلاقيّةَ هي، بالدِّقّةِ، ما يَجْعَلُ للتّاريخِ قيمةً من حيثُ التربيةُ». يقول بولنجبروك: «قد بانَ لي أنّ دراسةَ التّاريخِ دونَ سِواها أصْلَحُ الدّراساتِ لتعويدِ الإنسانِ الفضائلَ الخاصّةَ والعامّةَ، ويَسْتَخْدِمونَه لفائِدَةٍ أُخْرى وهي إعدادُ الفرْدِ للحياةِ المدنيّةِ والحياة السّياسيّة». راجع ص ص ١٥٨- ١٦٠. يَظْهَرُ من هذا أنّ الغايةَ مِنَ التّاريخِ هي إعْدادُ الفَرْدِ، وهذا الإعْدادُ لَنْ يَكونَ بالضّرورةِ مُسْتَمَدّاً من الحاضِرِ ولا مُعَبِّراً عنهُ في شيءٍ، كذلكَ ما يُلَقِّنُهُ التّاريخُ من المُثُلِ الأخلاقيّةِ. وعليهِ فإنّ تَلْقينَ التّاريخِ في دَوْرِ التّكوينِ للنّاشِيءِ يَعْني إقامَةَ تصميمٍ راسِخٍ في ذِهْنِهِ لَنْ يَزُولَ بسرعةٍ، فَوَجَبَ علينا أنْ نُكَوِّنَ النّاشِيءَ تَكْويناً يَسْتَمِدُّ معه جانباً من مُثُلِهِ الأخلاقيّةِ والأدبيّة من حاضِرِهِ، بل في حظٍّ أكبَرَ، وبذلك نَسْتَطيعُ أن نَدَعَهُ يَسيرُ بسُرعةٍ، ناهيكَ أنّهُ يكونُ صُورةً صادِقَةً عنِ الزّمانِ والمكانِ اللّذَيْنِ آشْتَمَلا عليه. وعندِي أنّ مُهِمّةَ التّاريخِ التّرْبَوِيَّةَ هي تأليفُ الأفرادِ في جماعةٍ مُتَكافِئَةٍ على معنًى أنْ يكونَ عَمَلُ الأفرادِ في الكائِنِ الاجتماعيِّ مثلَ عَمَلِ الأعضاءِ في الكائِنِ الحيِّ، لكلٍّ منها وظيفةٌ خاصّةٌ تُكافِيءُ وظيفةَ العُضْوِ الآخَرِ وتُتَمِّمُها. فإنّ أيّةَ جماعةٍ إنسانيّةٍ لا تَرْقَى مُتجانفةً بفَقْدِ التّكافُؤ، فيجبُ إذا أَرَدنا أن نُقيمَ جمعيّةً صحيحةً بذلُ الجهدِ بتأليفِ الأفرادِ صِنْواً لصِنْوٍ، بحيثُ يُعطَيانِ صفةَ التكافؤِ ضَرورةَ أنّ الجمعيّةَ المؤلَّفةَ من أفْرادٍ غيرِ مُتكافِئينَ في وظائِفِهِم يَشْرَعِ آنحِلالُها. وكذلك نَجِدُ في الكائِنِ الحيِّ، فإنّ العُضْوَ إذا لم يقمْ بوظيفتهِ مساوِقاً ما هو على شاكلتِهِ يضمُرُ شيئاً بعد شيءٍ ويَتَلاشى ثمّ لا يبقى إلّا زائدةً أثريّةً شأنُها في العُضْوِيّاتِ إذا قامَ

لاقِطةٌ. وأنا هُنا لستُ أعْني أنْ لا نُدَرِّسَ التاريخَ، بل أنْ نَقْتَلِعَ من نُفوسِ النَّشْءِ فَرضَ مُثُلِهم فيما آنكَشَفَ عنهُ الماضي دُونَما مُلاءَمَةٍ، وأنْ نُشيدَ بحاضِرِهِمْ قبلَ كلِّ شيءٍ دونَما آمتحانٍ يَجْعَلُهُ مادّةً للتّواصُلِ فيَسْتَمِدُّون منهُ تفكيرَهُم بآطمئنانٍ، وبعدَ هذا التّركيزِ يَصِحُّ أنْ يُدَرَّسَ التّاريخُ ليَكونَ في النّاشِىءِ شُعوراً لا عَقْلاً. وإذا أرَدْتَ مثلاً فَخُذِ الأدَبَ: إنَّ دَرْسَه[٢٩] في نصوصِ وآثارِ القدماءِ قبلَ كلِّ شيءٍ يَجْعَلُهم في نَظَرِ النّاشِىءِ مُثُلاً ساميَةً لا مَحيدَ عَنِ آقتفائها فَيَحْذوهم أشَدَّ حَذْوٍ، وإذا نَضَجَ أقامَ مدرستَهُ على خَيالِهِم، وإذا آسْتَلْهَمَ ظَهَرَتْ له صُوَرُهُم قبلَ كُلِّ شيءٍ مُحاوِلَةً أنْ تَنْطِقَ له بما يَقولُ.

فالإصلاحُ التّربويُّ يَقْضي بأنْ نُرَوِّيَ هذا النّاشِىءَ أطيبَ ما أنْتَجَ أعلامُ الحاضرِ في الدّرجةِ الأولى، وبذلكَ يَتَرَكَّزُ الحاضرُ في عقلِهِ كمصدَرِ تفكيرٍ وإلهامٍ، وأيضاً لا تَتَجانَفُ وتتنافَرُ في نَفْسِهِ المُثُلُ الأدبيّةُ لِجيلِه، والمُثُلُ الّتي آصْطَنَعَها له مَنْهَجُهُ التّربويُّ. فإذا درسَ

بوظيفةٍ غَيْرِ مُتَكافِئَةٍ فإنَّهُ يورِثُ الأعراضَ المَرَضِيَّةَ. وهذا التّأليفُ يأتي من جانِبِ التّاريخِ بما يُوَلِّدُهُ مِنَ الشُّعورِ المشتَرَكِ بينَ الأفرادِ. وأمّا الإعْدادُ الّذي يَتَّصِلُ بأسبابِ التّفكيرِ والمُثُلِ فانْتِكاس.

(٢٩) المعروفُ في طريقةِ درسِهِ أنّا نُرَوِّي الناشِىءَ نُصوصَ جَريرٍ والأخطلِ وبشّارٍ ومَنْ إليهم. فإذا تَرَكَّزَتْ طرائِقُهم في نفسِه لم يُجاوِزْها إلّا في جُهْدٍ شاقٍّ، كما أنّ نموَّهُ الأدبيَّ يكونُ غيرَ طبيعيٍّ لأنَّه لم يَبْدَأْ مِنْ حيثُ آنتهى آخِرُ أديبٍ، بل يَبْتَدِىءُ مَعَه مِنْ حَيْثُ آبْتَدَأ، فقُصاراهُ إذاً أنْ يجيءَ بمثلِ ما جاءَ به، أو أنْ يَزيدَ عنه في مِقدارٍ قصيرٍ. وسَبَبُهُ أنّ تكوينَ الأدباءِ في كلِّ جيلٍ يَتْبَعُ الطَّريقةَ عَيْنَها، فالنُّصوصُ الّتي كوَّنَتْ أدَبَ المتنبّي هي الّتي كَوَّنت أدَبَ شوقي، فلا بِدْعَ إذا وَجَدْنا خُطَى التّجديدِ قَصيرةً جدّاً.وهنا أقولُ شهادةَ حقٍّ أنّه لولا الدّورياتُ الشهريّةُ والأسبوعيّةُ واليوميّةُ من مجلّاتٍ وجرائدَ، لتَخَلّفَ النَّشْءُ في هذا الجانِبِ عن رَكْبِ العَصْرِ، ولظَلّ حبيسَ «قِفا نَبْكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ»، كما أدْرَكَهُ أبو نُواسٍ بالمَعِيَّةِ نَفّاذةٍ، والمَحِيَّةِ رَوّادة:

قُلْ لِمَنْ ظَلَّ على دارٍ دَرَسْ   قائِماً ما ضَرَّ لو كان جَلَسْ

فالتصحيحُ الواجبُ يأتي وفقَ ما أشرْنا.

وأرى في أيّامنا مَن يُتْلِعُ جِيدَه ويَرْفَعُ رأسه لأخْذِ الدَّرْبِ الواجبِ في الدّراساتِ الأدبيّةِ؛ ولكنْ لا تَنْسَ ولا يَغِبْ عن خاطِرِكَ أنّي كَتَبْتُ ما كتبتُ في أواخِرِ الثّلاثينات وأوائلِ الأربعيناتِ، من هذا القَرْنِ... ودونَ تلكَ الحِقْبَةِ، مُعْجِزَةُ الثَّوْرَةِ التّقْنِيَّةِ، الّتي جَعَلَتْ وبصدقٍ، ما بينَ الهُنَيهَةِ والهُنَيهةِ كما بينَ جيلٍ وجيلٍ.

بعدَ ذلك الأدبَ وتاريخَه آستطاعَ أنْ يُدْرِكَ قُصورَهُ أو تَماثُلَه، لأنّه يَدْرُسهُ بعقليّةٍ فيها بعضُ الغُربةِ عنْه، عَدا عَمّا يُوْرِثُ المنهجُ المُتَّبَعُ منْ تَذَبْذُبٍ في المُثُلِ عِنْدَ النّاشيءِ حينَ نُرَوِّيهِ مُثُلاً أدَبيّةً لعُصورٍ مختلفةٍ، إذا آخْتَلَطَتْ أعطتْ مَثَلاً مُشَوَّشاً أو مشوَّهاً.

ولقدْ بالغَ الباحثونَ بإضافةِ هذه الآثارِ إلى الوِراثةِ وهو خَطَأٌ، لأنّ الوِراثَة تَجِدُ في المناهجِ[٣٠] المُتَّبَعَةِ ما يُساعِدُها من حيثُ يَتَقَمَّصُ الماضي فيها على شَكلٍ بارزٍ، وأنا أُقَرِّرُ هذا هنا كعِلَّةٍ إبطاءٍ في سَيْرِ الجيلِ، من وُجْهَةٍ تاريخيّةٍ خالِصَةٍ.

نظريّة جديدة في تعليل التّوسُّع (Expansion) ومنها:

١ـ غَلَبَةُ مذهبٍ مُتَطَرِّفٍ وتطبيقُهُ بالعنف كما لو قُدِّرَ للبَلْشَفِيَّةِ أنْ تُسَيْطِرَ على النِّصْفِ الثّاني من هذا الجيلِ، فإنّها تَمُرُّ به مَرّاً سريعاً. فمِن أكبرِ واجباتِ المؤرِّخِ إذاً، أنْ يَتَحَقَّقَ جَيِّداً من عَلاقةِ التّاريخِ بالأفكارِ العامّةِ المُسَيْطِرَةِ على الجَماهيرِ، فإنّ آنتصارَ مدرسةٍ بتَعاليمِها تُوَجِّهُ قَضِيَّةَ التّاريخِ تَوْجيهاً خاصّاً يَدْفَعُ بها إلى الأمامِ، أو يردُّها إلى الوَراءِ.

وإنّما نَرَى تَشْخيصَ مِثْلِ هذه العَلاقَةِ واجباً على المؤرّخِ لأنّ التّاريخَ في أكْبَرِ بَواعِثِهِ وليدُ فِكرةِ[٣١] الفَيْلَسوفِ حينَ تَصيرُ جُزْءاً منْ تفكيرِ الجماعَةِ، أوِ الطّاغِيَةِ أو هما جميعاً.

---

(٣٠) وخَطَأُ المَنْهَجِ التّربويِّ أكْبَرُ ما يَظْهَرُ في درسِ القانونِ بحُكْمِ أنّه يُسْتَمَدُّ من قوانينَ قديمةٍ تَسْتَنِدُ إلى العُرْفِ والعادةِ، ومنْ قضايا سابقةٍ أُخِذَت فيها أحكامٌ قضائيّةٌ، رُغْمَ أنّ مفهومَ العدالةِ والظُّلمِ والجريمةِ والعقابِ، وما يَتَفَرَّعُ عنها يَتَغَيَّرُ دائماً بتَغَيُّرِ الصّفاتِ والمُلابسات الأدبيّةِ العامّةِ، وعليهِ فليسَ من الجائزِ أنْ تَبْقَى التّعميماتُ في القانونِ حافِظَةً لشَكْلِيَّتِها ورُوحِها، كما لا يَجُوزُ أنْ تُجْعَلَ منابعُ التّفريعاتِ فيهِ مُنْحَدِرةً مِنَ الماضي الّذي لا يُسانِدُه الحاضِرُ. وهذا تعليلُ بُطْءِ تَطَوُّرِ القانونِ بالخُصوصِ، وتَخَوُّفِ القانونيِّ من أيّةِ محاوَلَةٍ تشريعيّةٍ جديدةٍ، لأنَّ دِراستَه له على هذا الشّكلِ أدْخَلَ في فِطْرَتِه نَوْعاً من التّمَسُّكِ والحَذَرِ، رُغْم أنّ أحكامَه تَبْعُدُ كثيراً عن حاضِرِ النّاس.

(٣١) مِثالُ الأوّلِ الماركسيّةُ، فقدْ كانتْ فِكرةَ شَخصٍ، ولمّا تَبَنَّتْها الجماعةُ كفكرةٍ قائِدَةٍ لجُمْلَةِ أفكارِها بَعَثَتْ قَضِيَّةَ التّاريخِ على لَوْنِها الخاصّ. ومثالُ الثّاني طُغيانُ الأُممِ البدائيّةِ كَغَزْوِ البَرْبرِ لروما، وآجْتِياحِ التّترِ لآسيا، والفَرْقُ بينَ التوسُّعِ الّذي يكونُ وليدَ التّفاعُلِ بين فِكْرَتَيْنِ وبين التّوسّعِ الّذي يكونُ وليدَ فِكرةِ الطّاغِيَةِ، أنّ الأوّلَ يُحدثُ آنقلاباً تاريخيّاً من حيثُ إنّهُ غَزْوٌ للأفكارِ أيضاً، بينما الثّاني مَدٌّ

وفي حالةِ ما إذا آتَّحَدَتْ هاتانِ الفِكرتانِ، يَتَغَيَّرُ وجهُ التّاريخِ ويَتَشَكَّلُ الانْقِلابُ. خُذْ مثلاً الاجْتياحَ اليونانيَّ[٣٢] في عَهْدِ الاسكَنْدَرِ، والاجتياحَ الفرنْسيَّ في عَهْدِ نابوليون. فالجماعةُ ذاتُ الفكرةِ الفلسفيّةِ فيهما حينَ سَيْطَرَ عليها طاغِيَةٌ أو فاتحٌ غيرُ محدودِ الأطماعِ تُحْدِثُ دائماً آنْقِلاباً في التّاريخ.

والاجْتياحُ العربيُّ[٣٣] شَكْلٌ منْ هذا الاتّحادِ بَيْنَ فِكرتَيْنِ: فِكْرَةِ الإسلامِ الفلسفيّةِ، وفكرةِ الفاتِحِ غيرِ المحدودِ الأطماعِ، كعُمَرَ بْنِ الخَطّابِ مثلاً[٣٤].

فنابوليونُ لَوْ ظَهَرَ في غيرِ ذلكَ العَهْدِ منْ تاريخِ فَرَنْسا الّذي قامَ على فكرةٍ فلسفيّةٍ منَ العقْلِ الجديدِ، لَكانَ قُصاراه أنْ يَجيءَ قائِداً من شاكلة هنيبعل القَرطاجَنّي. والمُلاحَظُ في هذه الانْقِلاباتِ أنّها لا تَتِمُّ إلّا على أيْدي الجماعةِ الّذينَ تَتَذَبْذَبُ في رُؤوسِهِمُ الفِكرةُ

فقطْ ثمّ ينجَزِرُ بَعْدَ حينٍ بدونِ أنْ يَتْرُكَ طابَعاً خاصّاً، فالأوّلُ آنقِلابٌ والثّاني آنتِشار.

(٣٢) الاجتياحُ اليونانيُّ تَمَّ في حينٍ، كانت فيه الفِكْرةُ الفلسفيّةُ للجمهورِ الإغريقيِّ في شيءٍ غيرِ قليلٍ من التّسامي المُنْفَعِلِ بالنّظرياتِ المختلفةِ. فقدْ كانتِ الفلسفةُ في إبّانِ آسْتِوائِها وآستِهوائِها، وثَمَّ مِنْ بنايَتِها الشُّرفَةُ الّتي آسْتَأْهَلَتْ أنْ يَقِفَ فيها أرسطو مُرْسِلاً قواعِدَ النّظامِ الفكريِّ البِدْعِ آنَذاك.

(٣٣) إنّ الاجْتياحَ العربيَّ لا يُمْكِنُ تَعْليلُه إلّا بما قَدَّمْنا، وذَهابُ مُؤرّخي العربِ مذهبَ المستشرقينَ في تعليلِه بيقَظَةِ القوميّةِ الّتي هي عندَهُم نظريّةٌ عامّةٌ في كُلِّ توسُّعٍ وآنتشارٍ، خَطَأٌ مُزْدَوِجٌ، لأنّ الفكرةَ من أساسِها خطأٌ وتَطْبيقُها على التّوسُّعِ العربيِّ خَطَأٌ آخَرُ. فإنّ الوثائِقَ مُجْمِعَةٌ على أنّ العربَ لم يَتَعَرَّفوا إلى القوميةِ إلّا على شَكْلٍ جُزْئيٍّ، وفي عَهْدِ الأمويّينَ فقطْ، بمعنى أنّها لم تَكُنْ قاعِدَةَ الدّولةِ في أيِّ دَوْرٍ من أدوارِ حُكومتِهِم. وسَبَبُهُ أنّ التّعليمَ الجديدَ الّذي جاء به النّبيُّ (ص) كان بَشَرِيّاً عامّاً، نَقَلَهُم مِنَ القَبَلِيّةِ إلى الجامعة الكلّيّةِ في إطار تَصَوُّرٍ مُتسامٍ خاصٍّ أخَذَ شكْلاً إنسانيّاً بدُخولِ الأجناسِ والعناصِرِ المختلفةِ فيها. وأغْرَقُ مِنْ كُلِّ هذهِ الآراءِ في السّطحيةِ رأيُ الدّكتورِ غوستاف لوبون الّذي ضَمّنَهُ كتابَ: **مقدّمةِ الحضاراتِ الأولى** حيثُ عَلّلَ الاجتياحَ الفرنسيَّ بتأثيرِ الأمانيّ، وهو ـ كما ترى ـ وَضْعِيٌّ مَحْضٌ، والاجتياحَ العربيَّ بتأثيرِ المُعْتَقَدِ الجديدِ الّذي آسْتَغَلّ له النّبيُّ (ص) الحماسَ الرّوحيَّ مِنْ حِدّةِ الطّبيعة العربيّة، راجع ص ١٢٤.

(٣٤) سَيَأْتي لنا في بَحثِ النّظامِ العامِّ أنّ سياسةَ عُمَرَ كانتْ سياسةً حربيّةً خالِصَةً تُعِدُّ العربَ للانتشارِ في مدى «يأبى اللّهُ إلّا أنْ يُتِمَّ نورَهُ» أي تحقيقاً لهذه الغاية.

الفلسفيّةُ في نوعٍ من الامْتِحانِ العقليِّ بِحُكْمِ الجِدَّةِ، وليسَ على أيدي الّذين يَسْتَسْلِمونَ لِفكرةٍ فلسفيّةٍ في نَوْعٍ من الإيمانِ الوجدانيِّ العميقِ بِحُكْمِ الوراثةِ والتَّلَبُّدِ، لِما يَفْقِدونَهُ من الحماسِ والثَّورةِ لِلْمَبْدَأ. فسبيلُ إحْداثِ الانْقِلاباتِ التاريخيّةِ، أنْ تَفْتِنَ النّاسَ بفكرةٍ مُغْريةٍ ومُعَقَّدَةٍ أيضاً، والتّعقيدُ ضَروريٌّ لأنّه يَحْمِلُ الجماعةَ على التّفكيرِ الطّويلِ في نَوْعٍ منَ التَّساؤُلِ المُسْتَمِرّ؛ وأمّا الفِكرةُ السّاذَجَة البسيطةُ فإنّها تُحْدِثُ من أوّلِ الأمرِ نوعاً منَ الاسْتِسلامِ أوِ الهُمودِ العقليِّ.

والنظريّةُ الحديثةُ في التاريخِ تُعَلِّلُ الانتشارَ أو التّوَسُّعَ (Expansion) بِيَقَظَةِ القوميّاتِ، وبهذا فَسّروا تَوَسُّعَ اليونانِ والرومانِ والعربِ. وهو في نَظَري تعليلٌ سطحيٌّ مُغْرِقٌ في السَّطحيّةِ، وإنْ كنتُ لا أُنْكِرُ بأنَّ يَقَظَةَ القومياتِ باعثٌ من بواعثِ التنافرِ الاجتماعيّ. ولكنّهُ لا يبلغُ بالتنافرِ حدَّ الغايةِ الذي يُشَكِّلُ الاجتياحَ. إنّ سِرَّ الاجتياحِ مُسْتَكِنٌّ في هذا التّفاعُلِ أو الاتّحادِ العقليِّ بينَ فكرتَيْن.

٢- **سَيْطَرَةُ العِلْمِ والاكتشافاتِ في جيلٍ ما** فَسَيْطَرَتُهُ مَثَلاً على الاجْتماعِ والصّناعةِ والحَرْبِ يَجْعَلُ التّطَوُّرَ سريعاً سُرعةً هائلة(٣٥).

٣- **التَّغَيُّرات الجغرافيّة** سواءٌ كانتْ نتيجةً لعواملَ طبيعيّةٍ أو إراديّةٍ، طموحيّةٍ أو تَصادُفِيّةٍ، كالأسْرِ النهْريِّ وقناةِ السُّوَيْسِ وقَناةِ بَنَما والمسالِكِ(٣٦) الجديدةِ الّتي كَشَفَتْها فتوحُ جنكيزخان. فإنّ الثّاني غيَّرَ عَلاقاتِ الشّرقِ بالغَرْبِ من الوُجْهَتَيْنِ السّياسيّةِ والحربيّةِ، ولا يزالُ باعثاً هامّاً من بَواعثِ التّاريخِ الحديث.

٤- **أهْليّةُ شعبٍ أكثرَ من سِواهُ للتّغيُّرِ المَوْزونِ** ويَعْنُونَ بهذا آسْتِعدادَ الشّعبِ وقابليّتَه لإحْرازِ صِفَتَيْنِ مُتَضادّتَيْنِ هُما الثّباتُ والتّغَيُّرُ أوِ الثّابتُ والمتحوّلُ في مُوازَنَةٍ دقيقةٍ. وبذلكَ يُخْضِعُ نفسَه لقوانينَ ثابتةٍ، ويَحْصُلُ تَدْريجاً على صِفاتٍ جديدةٍ، إذْ تكونُ حركتُه

---

(٣٥) و(٣٦) راجع كتاب: علم التاريخ للأستاذ هرنشو، ص ٥٠.

أشْبَهَ بالمَوْجَةِ الّتي تُحْدِثُها الحَصاةُ في الماءِ، فهي تُفْضي إلى حركاتٍ مُتعاقبةٍ أوْسَعَ منها، ولكنْ في غيرِ خُروجٍ على النُّقْطَةِ الأولى المَرْكَزيّة.

وسيَظْهُر لكَ فيما بعدُ أنّ الطّبيعةَ العربيّةَ تميلُ إلى المُحافظةِ أوِ الثّباتِ، فهي غيرُ مَرِنَةٍ إلّا في حَدٍّ يسيرٍ في خَصائِصِها الأدبيّةِ. وهذا ما جَعَلَها تَتَفاعَلُ بخَصائِصِها الرّكينَةِ معَ خصائصِ الأُممِ الأُخرى تَفاعُلَ تَغْييرٍ، وليسَ تفاعلَ آتّحادٍ. وهذا أيضاً يُفَسِّرُ لنا السّببَ في تأثُّرِ اليهودِ بالطِّباعِ العربيّةِ وخصائِصِ العربِ الأدبيّةِ حينَ حلُّوا عليهِمْ قبلَ الإسلامِ، دونَ أنْ يُؤَثِّروا فيهم إلّا بِمِقْدارٍ، كما يُفسِّرُ سِرَّ آبتِلاعِ العربِ لخصائصِ أيِّ قَبِيلٍ نَزَلُوا عليه بعدَ الإسلامِ، وفَرْضَ خَصائِصِهم وحدَها. ولذلكَ أعْتَقِدُ بأنّ العربَ لو هَضَمُوا تعاليمَ الإسلامِ قبلَ مُحاولةِ التّوسُّعِ لبَدَّلَ جُمودُهُم بمرونةٍ غَيْرِ قليلةٍ، فما لاحَظَهُ آبْنُ خلدونٍ على العربِ في مَذاهبِ الحُكْمِ والدّولةِ آتٍ منْ هذا الجانِبِ. والّذي يَنْقُضُ أنْ يكونَ هذا طبيعةً فيهِمْ تَتَّصِلُ بالعُنْصُريَّةِ، آستِعدادُ العربِ اليومَ للانْطِباعِ بشَتّى الأشْكالِ، ومرونَتُهُمُ الظّاهرةُ. وشاهِدٌ آخَرُ وَقَعَ في تاريخِ العربِ يُوضِحُ ما نُقَرِّرُ، فقدْ شَهِدْنا حكومةَ قريشٍ المَرِنَةَ في عهدِ الدّولةِ الأُمَويَّةِ بِحُكْمِ رُقِيِّها القديمِ، وشَهِدْنا حكومةَ القبائلِ في الأنْدَلُسِ الّتي قَدَّمَتْ مُلوكَ الطَّوائِفِ. فإنَّ الأُولى آستطاعتْ أنْ تُقدِّمَ لنا نَموذجاً صالحاً من وُجْهةِ علمِ السّياسةِ لِكلمةِ دَوْلَةٍ، بينَما الشّكلُ الّذي قَدَّمَتْهُ الأُخرى أقرَبُ إلى اللّونِ الإقْطاعيّ. وفي نَظَري أنّ الثّورةَ في عهدِ عُثْمانَ شَكلٌ من أشكالِ التّناحُرِ بينَ الخصائصِ العربيّةِ الثابتةِ والخصائِصِ الأُخرى المَرِنَةِ، وَقَدِ آنْتَهَتْ بِغَلَبَةِ الثّانيةِ غَلَبَةً غيرَ حاسمة.

وهذه الدّواعي لِكُلٍّ منها تأثيرٌ في تَصْحيحِ حسابِ النِّسبةِ وتَعْديلِ الميزانِ التّاريخيِّ على الوجهِ المقصودِ. والميزانُ التّاريخيُّ بِحُكْمِ مُقَدِّماتِه الثّابتةِ وهي:

١ ـ خضوعُ[٣٧] الارْتِقاءِ العامِّ للتّطوُّرِ العُضْويِّ والغَريزيِّ.

---

(٣٧) راجعْ بُرهانَ هاملتون على الحوادثِ الإراديّةِ الّتي لا نَشْعُرُ بها، المُقْتَبَسَ من أفكارِ ليبنيز.

٢- إحتفاظُ التّطوّرِ مُطْلَقاً بنسبتِهِ ضرورةَ آمْتِناعِ الطَّفْرَة.

٣- مشابَهَةُ حياةِ الكائِنِ الاجْتماعيِّ لحياةِ الفَرْدِ عَلَى ما أثْبَتَه هربرت سبنسِر، وهذا يُظْهِرُ شِدَّةَ آتّصالِ ما بينَ الفردِ والجماعَةِ، وخُضُوعَهُما لقوانينَ واحدة.

نجدُ أنْفسَنا مُطْمَئِنّينَ إليه نظريّاً، وأمّا هو من الوُجْهَةِ العمليّةِ فيحتاجُ إلى تَقَصٍّ وآسْتِقْراءٍ وفَرْضٍ للنِّسَبِ العَدَدِيَّةِ على شكلٍ رياضيٍّ صحيحٍ في كُلِّ الشُّعَبِ العُضْوِيَّةِ وما يَتَّصِلُ بها.

فالتّاريخُ في عُرْفي هو حالةُ الانْتقالِ منَ التّجانُسِ الاجتماعيِّ إلى التّنافُرِ الاجتماعيِّ الدَّوْري، أو هو التَّأدّي بينَ التّطوّرِ والارْتقاءِ، وذلكَ على النَّحْوِ الّذي آصْطَلَحْناهُ. فإنّنا خَصَّصْنا كلمةَ التّطوُّرِ بالتّغايُرِ العُضْويِّ أوِ الكَمّيِّ وهو خاصٌّ بالأفرادِ، وكلمةَ الارْتقاءِ بالتّغايُرِ في الصِّفاتِ الأدبيّةِ، أوِ الكَيْفيِّ وهو خاصٌّ بالجماعةِ. ولا شَكَّ في أنّ الحالاتِ البدائيّةَ للإنسانِ كانتْ تَجانُساً آجْتِماعيّاً صِرْفاً، والارْتقاءُ المُتَشَعِّبُ الّذي هو سُنَّةٌ لا مَعْدِلَ عنها، والّذي هو مُنْفَعِلٌ بالبيئةِ الطّبيعيّةِ، ثُمَّ بالمُؤَثِّراتِ النّفسيّةِ التي تُهَيِّئُها عواملُ البيئةِ الطبيعيّةِ، ثُمَّ بالبيئةِ الاجتماعيّةِ الّتي تُهَيِّئُها العَواملُ المُشْتَرَكَةُ منَ البيئةِ الطّبيعيّةِ والمُؤَثِّراتِ النّفسيّةِ، يَسُوقُ إلى التّنافُرِ الاجْتماعيِّ حَتْماً، وهذا الانتقالُ الدَّوْريُّ الدّائمُ هو التّاريخُ؛ فحروبُ إسبرطةَ وأثينا آنتقالٌ من التّجانُسِ الاجتماعِيِّ إلى التّنافرِ الاجتماعيّ، ومِنْ قَبْلِها حَرْبُ طروادة.

والباعِثُ التّاريخيُّ، في نَظَري، هو سَيْطَرَةُ الإراديِّ[٣٨] على اللاّإراديِّ في الفَرْدِ،

---

(٣٨) وعِلّةُ هذا ما تَقَدَّمنا به مِن سَيْطَرةِ العقلِ الباطنِ على الإنسانِ كلّما كانَ أقْرَبَ إلى الغريزيّةِ، بمِقدارٍ أعْظَمَ من سيطرةِ العقلِ الظاهرِ. وظاهرةُ هذا في الإنسانِ البدائيِّ أنّهُ يَميلُ إلى الانْدِفاعِ والتّحَمُّسِ أكْثَرَ من مَيْلِه إلى المحاكمَةِ العقلّيةِ، بينَما الإنسانُ الأرْقى يكونُ بالعكسِ تماماً، مَثَلاً إذا أُهينَ الإنسانُ الأقلُّ رُقِيّاً تحمَّسَ وآندَفَع آندِفاعاً لا إراديّاً، بيدَ أنّ الإنسانَ الأرقى يَميلُ بها أوّلاً إلى المحاكمةِ العقليّةِ الّتي تُخَفِّفُ من غُلَواءِ الحماسِ والانْدفاعِ. فما وَقَعَ في تفكيرِ القُدماءِ من أنّ الإنسان مسيَّرٌ لا مُخَيَّرٌ، حقيقيٌّ من حيثُ النّتيجةُ، وإنْ كانَ خطأً من حيثُ التّفْسير. وعُذْرُ القُدَماءِ أنّهم يَعْزُونَ كُلَّ ما يَخْرُجُ عَنْ دائرةِ الإرادةِ إلى الغَيْب. وقُوّةُ هذه الظّاهرةِ في الجماعةِ آتِيَةٌ من أنّها تَضُمُّ أفراداً لَيسوا على دَرَجةٍ واحدةٍ من التّكافُؤِ الارْتِقائيّ، وأنّ الانسانَ واصِلٌ - لا مَحالَةَ - إلى آحْتِكامِ غرائِزِه آحْتِكاماً

وسيطرةُ الفردّيةِ بالجَماعيّةِ في المجْموعِ، وطابَعُ الجُموعِ الشّعورُ دونَ التّعَقُّلِ. ومِنْ هذا يَظْهَرُ ما في رَأْيِ بنيامين كيد من عَدَمِ الشّمولِ حينَ ردَّ بَواعِثَ التّاريخِ إلى الطّبيعةِ في الجماعةِ الّتي لا تَنْفَكُّ تَعْمَلُ على إخْضاعِ قوّةِ التعقّلِ لقوّةِ الشّعورِ.

هذا حقيقيٌّ ولكنْ وراءَه شيءٌ آخرُ هو العامِلُ في طبيعةِ الجماعةِ الّتي لا تَفْتأُ تتحرّكُ بِقُوَّةِ الشّعورِ، وهو خُضوعُ الفردِ لِلّإرادةِ بأكْثَرَ من الإرادةِ، ومَظاهِرُ هذا الخُضوعِ تَطْبَعُ الجماعَةَ بالطّابَعِ المذكورِ وتَميلُ بها إليه. وكُلّما كانَ الفردُ أقربَ إلى الغريزيّةِ كانَ أكثرَ خُضوعاً للإرادةِ، ويُمْكِنُنا أنْ نُسَمّيَ طابَعَ الجماعةِ هذا غريزةً آجْتماعيَّةً. وعليهِ فخُضوعُ الفَرْدِ لِلّإرادةِ صِفَةٌ حَيَوِيَّةٌ، وخضوعُ الجماعةِ لقوّةِ الشّعورِ صِفَةٌ آجْتماعيّةٌ. وبهذا نَستطيعُ أنْ نُجْمِلَ بَواعِثَ الاضطِراباتِ في التّاريخِ بتعبيرٍ دقيقٍ وهو: ضَعْفُ السَّيْطَرَةِ العقْليّةِ في كُلٍّ مَن الفردِ والجماعةِ، وإنْ كانَ ظُهورُها في الجماعةِ يَرْتَسِمُ بشكلٍ أوْضَحَ.

مفهوم ثورة وفوضى

والشّيءُ الّذي لا أرى البحثَ في أضْيَقِ حُدودِهِ يَتِمُّ بدونه هو بَحْثُ مَفْهومَيْ كلمتَيْ فوضَى[٣٩] وثورةٍ، وأثرِهما في التاريخ. وهما عندي: الارْتِيابُ في المَثَلِ الأعلى في شكلٍ ما يكونُ عملاً عَنيفاً، والفَرْقُ بينَهما أنّ الثّورةَ تَتَّجِهُ وراءَ هدَفٍ معيَّنٍ وفكرةٍ مُحَدَّدَةٍ، بينَما الفَوْضى لا تَتَمَثَّلُ فِكرةً مُعَيَّنَةً بَلْ هي آرْتِيابٌ فقط.

مُطلقاً، وإخْضاعِ مناطِقِ اللّاوعي إخْضاعاً، في حَدٍّ ما، أو كلّيّاً بحُكْم الارتقاء، ومِنْ ثَمَّ نَظْفَرُ بالإنسان المنطقيّ أو الإنسانِ الإراديّ، وبالتّالي نَظْفَرُ بالجَماعَةِ المتكافئة، وإنّ مِنَ الخَطَأ الكبيرِ الّذي وَقَعَ في وَهْمِ العُلماءِ تقريرَ الفِكرةِ القائِلَةِ بأنّه كلَّما آرْتَقَتِ الأمّةُ عَظُمَتِ الفُروقُ بينَ أفرادِها، فإنّ مُقْتَضَى نظريّةِ التّكامُل إلى سيطرةِ العقلِ والإرادة الّتي نُقَرِّرُها أنّ الأفرادَ سَتُفْضي في النّهايةِ إلى حالةٍ من التَّجانُسِ في الصّفات العقليّةِ وفي نَظَري أنّ العالَمَ صائِرٌ إلى التجانسيّةِ في المُمَيِّزاتِ النّفسيّةِ والأدبيّةِ والاجتماعيّةِ.

(٣٩) وكثيراً ما تَتَداخَلانِ، فإنَّ الثّورةَ الفرنسيّةَ ثورةٌ وفَوْضى، لأنّ الوَضْعَ الّذي آسْتَقَرَّتْ عليهِ لم يَكُنْ هَدَفاً لها مُنْذُ البدْءِ بَلْ أسْلَمَتْ نَفْسَها إلى الظُّروفِ الّتي لَعِبَتْ بها زَمَناً غيرَ قليلٍ، ثُمَّ أقَرَّتْها على وَضْعٍ تَهيَّأَ بنفسِهِ تقريباً، وكذلك الثّورةُ على عثمانَ كانتْ ثورةً وفَوْضى.

وكُلَّما كانتِ الأُمَّةُ أكثرَ آرْتِياباً في المُثُلِ[٤٠] كانت أحْيا وأغْزَرَ إنْتاجاً. وهذا تفسيرٌ نَدْخُلُ به على كلِّ شُعَبِ المعرفةِ أيضاً، فنظريّةُ كوبرنيك في النِّظامِ الشّمسيِّ آرْتِيابٌ في المَثَلِ الفَلَكيِّ، ونظريّةُ ديكارت آرتيابٌ في المَثَلِ المَنْهَجيِّ، ونظريّةُ سبينوزا آرتيابٌ في المَثَلِ الإلهيِّ، ونظريّةُ الرومانْتيك آرتيابٌ في المَثَلِ الكلاسّيكيّ، وكذلك نظريّاتُ داروين وكانْت وماركس، وهذه ثوراتٌ عِلميّةٌ وأدبيّةٌ لأنّها تُداوِرُ فِكرةً بعينِها في مُحاولَةِ الوُصولِ إليْها. وإنَّ أفكارَ أبي العَلاءِ آرتيابٌ في المُثُلِ الدّينيَّةِ والأوضاعِ، وأفكارَ نيتشه آرتيابٌ في النِّظامِ العامِّ، ونظريّةَ اللّاأدْريَّةِ آرتيابٌ في عناصرِ الفِكْرِ المَنْطِقيِّ، وهذه فَوْضى في الفِكْرِ لأنّها لا تَـتَمَثَّلُ هَدَفاً مُعيّناً.

ومِنْ وَجْهٍ آخرَ، الفوضى وكذلك الثّورةُ، حَرَكَةُ النَّهضةِ العنيفةِ، فهيَ لِعُنْفِها من ناحيةٍ، ولأنّها تفاعُلٌ تصاعُدِيٌّ من ناحيةٍ أُخرى، تَعْمَلُ ضجيجاً وتُحْدِثُ أضْداءً مُخْتَلِطَةً نُعَبِّرُ عنْها من الجِهةِ الوَصْفِيَّةِ بالفوضى، وإلّا فهذه الحركةُ في صَميمِها هِجْرَةٌ من أدْنى إلى أعلى. فالفوضى الاجْتماعيّةُ هِجرةٌ إلى وضْعٍ أنْهضَ وأكثرَ ثَباتاً وصلاحيّةً في الاجتماعِ، وهيَ كلمةٌ لا تُعْطي مَعْنىً تَحْقيقِيّاً وإنّما تُعَبِّرُ عن حالةٍ وصْفيّةٍ خالصةٍ تُلابِسُ الظَّواهِرَ المُتعاكِسَةَ

---

(٤٠) وشاهِدُ هذا، الإغريقيّونَ القُدماءُ الّذين كانوا يُصَحِّحونَ على الدَّوامِ مُثُلَهم العِلميّةَ والأدبيّةَ، ولم تَكُنْ لهم مُثُلٌ ثابِتَةٌ، وفلسفتُهم تُعَبِّرُ عن إعْصارٍ عقليٍّ كبيرٍ. فلمّا تَدَيَّنُوا بالنَّصْرانيّةِ وتَرَكَّزَتْ عندَهم كَمَثَلٍ أعلى فوقَ النَّقْدِ آنْطَبَعُوا بطابَعِ الاستسلام العَقْليِّ، وحَدَّ ذلك من نشاطِهِم الفكريِّ وفَقَدُوا القُدرةَ على الإنتاجِ الّذي تَمَيَّزوا به في التّاريخِ، مُضافاً إلى ذلك عَوامِلُ السُّقوطِ السّياسيِّ والانحلالِ الاجتماعيِّ. ونظريّتي في الأديانِ المُصْمَتَةِ التي لا تتجاوبُ برنينِ ما يُتَواقَعُ عليها، أنّها تَطْبَع العَقْليّةَ بطابَعِ الرُّضوخ بما تَفْرِضُ من مُثُلٍ خاصّةٍ مغمورةٍ بعُنْصُر القَداسةِ الّذي يمتدُّ بأثَرِهِ على مَناحي التّفكيرِ العامِّ فَيُشَبِّتُها ويُخْضِعُها، وأحْياناً يُشِلُّها. وبذلكَ تَفْقِدُ العُقولُ ميزةَ النَّقْدِ الّذي هو العامِلُ الخلّاقُ. وهذا هو التّعليلُ لِضُؤُولةِ الإنتاجِ عندَ رجالِ الدّينِ، والمنتجُ الكبيرُ فيهم شاكٌّ أو كالشّاكِّ. ولذلكَ كانَ أفْضَلَ الأديانِ الدّينُ الّذي يَدْفَعُ مُعْتَنِقيه إلى الشّكِّ قبلَ الإيمانِ، وإلى تَصْحيحِ العقائدِ الأُصوليّةِ على طريقَةِ الامتحانِ المنطِقيِّ، كالإسلامِ الّذي قدَّم لمعتنقيهِ قانونَ التّحليلِ أو الميزانَ الإبراهيميَّ الوارِدَ في سورةِ الأنعامِ حكايةً عن إبراهيم (ع) «فلَمّا جُنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قال هذا رَبّي» (الأنعام ٦: الآية ٧٦). راجع: **القسطاس المستقيم** للغزالي.

للنّهضةِ، وتَحْمِلُ صورةً من ظِلالِها وألْوانِها المُخْتَلِطَةِ آخْتِلاطاً تذاوُبيّاً[٤١]. وهذا يُظْهِرُ بوُضوحٍ خَطَأَ الظَّنِّ السّائِدِ بأنّ الثورةَ نتيجةُ فسادِ النُّظُمِ، والواقِعُ أنّها نتيجةُ سُمُوِّ الكائِنِ عن نُظُمِهِ في دائِرةِ الفِكرِ والحياةِ العامّةِ، فهو لذلكَ يَطْلُبُ مُجتمعاً يَتَناسَبُ معَ عُزوفِهِ الرّاهِنِ الّذي يُخامِرُهُ في العتيدِ الحاضِرِ أيْ يداخِلُه للآنِ والإبّانِ.

نَجِدُ بَعْدَ هذا التّفسيرِ الّذي تَقَدَّمْنا به، حَتّى الفَوْضى، ولا يَصْرِفْكَ عنْ هذا النَّظَرِ أنّها مُفْرَدَةٌ توحي بِما يُشينُ، لأنّها على أيِّ حالٍ نفسيّاً وآجتماعيّاً، تُعَبِّرُ عن رَجّةٍ عَنيفَةٍ تَمَسُّ الأفْئِدَةَ والعقولَ فَتَنْبَعِثُ فيها تَيّاراتٌ جديدةٌ تختَلِفُ قوّةً وضَعْفاً، ولا تَخْلو مُلابَساتُها عنْ تَغْيِيرٍ في آرْتِكازِ الآفاقِ العامّةِ للأوْضاعِ، أو تعديلٍ في السُّنَنِ المفروضَةِ. ولا شكَّ في أنَّ عمليّةَ البعْثِ الّتي تَسْتَتِبُّها كَكُلٍّ آرْتِيابٌ في مَثَلٍ أعْلى آتّباعِيٍّ مَعْهودٍ، ثُمَّ ما تُوالي بِهِ من شَتّى الألْوانِ والتَّشَكُّلاتِ، تُعِدُّ[٤٢] الإنسانَ في خاصِّيّاتِه النّفْسيّةِ، وفي حالاتِ آجْتماعِهِ، لشيْءٍ جديدٍ. والفوضى، بقَطْعِ النَّظَرِ عن إيحائِها، عامِلُ حَفْرٍ[٤٣] على الدَّوامِ حتّى ولوْ تَشَكَّلَتْ بشكلِ العُنْف فإنّها لا تَفْقِدُ مِيزتَها الخاصّة.

وعليهِ فالفوضى ـ وكذلك الثّورةُ ـ ليستْ مَظْهراً تشاؤُميّاً، بلْ هي قُوّةٌ في حقلِ التّاريخِ، وحياةٌ وإلْحاحٌ في طَلَبِ ما هو أكْمَلُ من الأوضاعِ السّائِدَةِ.

هذا تفسيرٌ للفوضى والثّورةِ، وإن يكُنْ غريباً إلّا أنّه حقيقيٌّ، قَصَدْتُ بِهِ أنْ أُصَحِّحَ ما قدْ يَقَعُ بِهِ المُؤرِّخونَ منْ تَسارُعٍ إلى الحكمِ بالانْحرافِ على أيَّةِ بيئةٍ عَلِقَتْ فيها الفوضى. وسَتَرَى أنّ الثوريَّةَ الفوضويَّةَ الّتي وَقَعَتْ في عَهْدِ عُثمانَ وَتَواصَلَ مَدُّها إلى عهدِ مُعاويةَ،

---

(٤١) من قول العرب «تذاءبتِ الريحُ» إذا هَبَّتْ من كُلّ جانب.

(٤٢) والأمثلةُ على هذا كثيرةٌ لا نَتَعَرَّضُ لِذِكْرِ شيءٍ منها وإنّما نُحيلُ القارِىءَ إلى كتاب: **مقدمة الحضارات الأولى** لغوستاف لوبون، ص ص ١١٧ـ ١٢٠.

(٤٣) مَنْ يُنْكِرُ أنّ الفلسفةَ اللّاأدْرِيَّةَ هي التي قَدَّمَتْ فلسفةَ سُقراط.

كانتْ لخيرِ الحكومةِ العربيّةِ كَوَضْعِ بقَطْعِ النَّظَرِ عَمَّنْ وَقَعَ عليهِ بَلْواها، حين بَنَتْها بناءً أقوى في الإدارةِ والسّياسةِ، وأوْجَدَتْ مُعارضةً مُتطَرِّفةً فعّالةً آنتَظَمَتْ في الخوارجِ والشِّيعَةِ، ومعارضةً مُعْتَدِلَةً آنتظَمَتْ في رجالِ الإصلاحِ أمثالِ سعيدِ بن جُبَيْرٍ وآبْنِ أبي لَيْلى في آنتفاضةِ آبْنِ الأشْعَثِ، الّتي عُرِفَتْ عندَ بَعْضِ المؤرِّخينَ بثَوْرَةِ الفُقهاء.

والتّاريخُ في غَيرِ تَوْسِعَةٍ آخِذٌ بتحقيقِ الصِّفةِ العلميّةِ له وعمّا قَريبٍ أيضاً، وإنْ كانَ لا يزالُ في الاعتبارِ المَدْرَسِيِّ فَرْعاً مِنَ الآداب.

والآنَ نُلَخِّصُ المراحلَ الهامَّةَ الّتي يجبُ أن يَقْطَعَها المؤرّخُ ليَسْتَقيمَ له تقديمُ دراسةٍ ذاتِ شأنٍ إلى حَدٍّ ما. ومراحلُ[٤٤] البَحْثِ التّاريخيِّ الكاملِ أرْبَع:

الأولى: مرحلة التجميع، وهي تَعني جمعَ أكثرِ ما يُمْكِنُ مِنَ الوَثائِقِ والمصادِرِ الأُخرى كَشَكْلِ العُدَدِ والحُصُونِ وطريقةِ قَطْعِ الأحجارِ في البناءِ والصُّوَرِ والنُّقوشِ، ولم تَزَلِ الوثائِقُ هي المصدرَ المهمَّ للمؤرِّخ، حتّى قال شارل سنيوبوس: لا تاريخَ بغيرِ وثائِق.

الثانية: مرحلة النقد، وهي تَعْني فحصَ عِباراتِ الوثائِق، وتدقيقَ الأُصولِ الأُخرى، ومُناقَشةَ آستعمالِ الألفاظِ من حيثُ دَلالتُها الزّمنيّةُ التي هي دائبةُ التّغَيُّر. فالكلمةُ الواحدةُ تُسْتَعْمَلُ في جيلٍ بمعنىً يُخالِفُ معناها في الجيلِ الآخَرِ، كَكَلِمَةِ «بُرْهَةٍ» في الكُتُبِ الأقْدَمِ بمَعْنى الحينِ الطّويلِ مِنَ الزَّمَنِ، وفي الكُتُبِ الأحدثِ بمَعْنى اللَّمْحَةِ الزَّمنيّةِ الخاطِفَةِ وهذا يحتاجُ إلى مُعاناةٍ كُبرى وجُهْدٍ مُتَشَعِّبِ الأطرافِ. ودائماً تكونُ أقْدَمُ الوثائقِ أجْدَرَ بالاعتمادِ، وهي تبعثُ على الشّكِّ في الزِّياداتِ الّتي تَحْتَفِظُ بها الوَثائِقُ المُتأخِّرةُ ولكنْ لا تَنْفيها، لآحتِمالِ أنْ يكونَ كاتبُ الوثيقةِ المُتأخِّرةِ قدْ وَقَفَ على وثيقةٍ تُعاصِرُ الأُولى وقدِ آنْعَدَمَتْ. ومنْ هذا يظهرُ كِبَرُ الخَطَأِ الّذي يَقَعُ فيه بعضُ[٤٥] المؤرِّخينَ بآعْتِمادِهِمْ آعتماداً

---

(٤٤) راجع كتاب: علم التاريخ للأستاذ هرنشو، في التّرجمةِ العربيّة، ص ص ١١٧- ١٢٠.

(٤٥) مِثْلَ المؤرِّخِ المِصْريِّ الأستاذِ عبدِ الحميدِ العَبّادِيِّ حين أثارَ الشّكَّ حولَ لَقَبِ السّفّاحِ، وفي مُناقَشَةِ الرّوايَةِ القائلةِ بإباحةِ

كلّيّاً الوثائقَ المُعاصِرَةَ للأحْداثِ ونَفْيِ الزّياداتِ نَفْياً باتّاً مُتَذَرِّعينَ بأوْهَنِ الوسائلِ الأُخرَى.

ويدخُلُ في نَقْدِ الوثائقِ تَصْنيفُ الكُتبِ من حيثُ آعتمادُها ورَدُّها، كالّذي حاوَلَهُ آبْنُ خلدونٍ في المُقَدِّمة حِيْنَ أرْسلَ تعْميماتٍ في كُتُبِ المسعوديِّ والواقِديِّ ومَنْ إليهما، ولكنّه لم يُوْفِ التَّصنيفَ حقَّهُ، ونرى ضَرورةَ هذا التّصنيفِ من حيثُ يَجُرُّنا الاعتمادُ(٤٦) على كُلٍّ ما فيها إلى مَغالِطَ كبيرةٍ، كما أنَّ بعضَ التّعميماتِ منْ جانبِ آبْنِ خلدونٍ جاءتْ في غيرِ مَحَلِّها كإطلاقِ الطَّعْنِ في نُقُولِ المسعُوديِّ ـ لأنَّه آشْتَمَّ منهُ رائحةَ المَيْلِ إلى الهاشِمِيّينَ ـ وهو الّذي يَجِدُ فيه المُسْتَشْرِقونَ مؤرِّخاً فَذّاً آجْتَمَعَتْ له كُلُّ صِفاتِ المؤرِّخِ الحقِّ ومزاياه، وكاملُ أدواتِهِ.

وشيءٌ آخَرُ في نَقْدِ الوثائقِ وهو محاولةُ التّوفيقِ بينَ نُصوصِها ما أمْكَنَ، قبلَ اللُّجوءِ إلى المُوازَنَةِ بينَها مُوازَنَةً تَنْتَهي بِطَرْحِ بعضٍ وآعتمادِ بعض.

الثالثة: مرحلة التأويل، وهيَ أشَقُّ المراحلِ لأنَّها تَقْتَضي تَطْبيقاً واسِعاً للميزانِ التّاريخيِّ، ونُفوذاً في خفايا الماضي البعيدِ، وهيَ لا تَسْتقيمُ إلّا لِلعَبْقَرِيّينَ من أعْلامِ التّاريخ.

الرابعة: مرحلة صياغة القصّة التاريخيّة، وهي ذاتُ أهمِّيّةٍ كُبرى لأنَّها الوسيلةُ إلى إبرازِ قضيّةِ التّاريخِ إبْرازاً قويّاً، يُخَيِّلُ إلينا معه أنَّهُ تقريرٌ للواقعِ في شيءٍ منَ المُشاهدةِ والمُداناة.

*

يَزيدَ للمدينة. قالَ في بَعْضِ مُحاضراتِه: «هذا ما قيلَ في بَعْضِ المصادِرِ، ولكنَّ الرّواياتِ القديمةَ جدّاً لا تَذْكُرُ هذه الإباحات» ومِنْ ثَمَّ راحَ يُنْكِرُها أو يميلُ إلى الإنكار.

(٤٦) ذَكَرَ فضيلةُ السّيّد حبيب العبيديّ، مُفتي المَوْصِلِ، في كتابه: النواة، حادِثَةً طريفةً تَدورُ حَوْلَ الكُتُبِ الوثيقةِ في التّاريخ، فقد أتاه شابٌّ وبِيَدِه كِتابُ: إعلامُ الناس بما وقع للبرامكة من بني العبّاس للأتليدي. يسأله دَهِشاً عن خَبَرٍ جاءَ فيهِ، وكان الخَبَرُ مُزْرِياً بالرّشيد. فَعَمَد العبيديُّ إلى الصّفحةِ الأولى من الكِتاب وَوَضَعَ سَبّابَتَهُ على كَلِمَةٍ في مُقَدِّمَتِه وقال له: «إنْ لم يَكُنْ هذا صحيحاً فذاك صحيحٌ». وكانتِ الكلمةُ قولَ المؤلّفِ «وأمَرَني مَنْ لا تَسَعُني مُخالَفَتُه بتأليف هذا الكتاب...».

هذهِ لَمْحَةٌ قصيرةٌ أرَدْنا بها تَقْييدَ فِكرةٍ ونَفْيَ وَهمٍ، وهي معَ ذلكَ تَتَّصِلُ آتّصالاً وَثيقاً بموضوعِ هذا الكِتابِ الّذي يَعْرِضُ لدرْسِ تاريخِ الحُسين (ع) بما آشْتَمَلَ عليهِ من عِلَلٍ وأسبابٍ، وبما آحْتَفَلَ به من مُؤثِّراتٍ وبواعِثَ. وإذا كانَ حَرِيّاً بالمؤرِّخِ أنْ يَعْرِضَ نتائِجَه، فبالأحْرى أنْ يَعْرِضَ الطّريقةَ الخاصّةَ التي تَأتّى بها إلى آصْطناعِ هذه النّتائِجِ.

وهذا الكتابُ ليسَ ترجمةَ حياةٍ، بلْ هو تاريخُ حياةٍ، والغالبُ في الأُولى أن تكونَ شَخْصِيّةً، أي مقصورةً على الشّخصِ وما يَتَّصِلُ به من قُرْبٍ، وقلّما تجاوَزُ خطوطَ حياتِهِ إلّا بمقدارٍ، بينما الثّانيةُ تَتَّسِعُ لكلِّ ما تَتَّسِعُ له كلمةُ التاريخ.

وستَجِدُ في هذا الكتابِ أيضاً نوعاً من الإسْهابِ في المقدّماتِ الّتي تَوَخّيناها، لأنّها في نَظَرِنا بسائطُ للكُلِّ التّاريخيِّ يَجِبُ تدقيقُها وبحثُها بأناةٍ.

وشيءٌ آخَرُ يَحْمِلُنا على بحثِ شتّى العواملِ الّتي مَسَّتْ عصرَ الخُلفاءِ الرّاشدينَ وأثّرتْ فيه، وهو أنّ عصرَ الخلفاءِ يَقَعُ في جُزْءٍ من حياةِ الحُسَيْنِ الّتي كانتْ صِلةً بينَ ثلاثةِ عُهودٍ: عهدِ النبيِّ (ص)، وعهدِ الخلفاءِ، وعهدِ الدّولةِ الأمويّةِ. وكانت ميزةُ الأوّل أنّه عهدُ التشريعِ وسَنِّ اللّوائحِ، وميزةُ الثّاني أنّه عهدُ الإجراءِ والتطبيقِ، وميزةُ الثّالثِ أنّه عَهْدُ الانفتاحِ على أشْكالٍ إجرائِيّةٍ تُبيحُ لنَفْسِها آقْتِعادَ الهَوى، على نَحْوٍ كثيراً ما مَسَّ جَوْهرَ التّشريعِ.

فتاريخُ الحُسَيْنِ من هذه الناحيةِ، يَضطَرُّنا إلى كثيرٍ منَ التَّجاوُزِ في كثيرٍ من الإسْهابِ. وبذلكَ أيضاً كان الحُسَيْنُ (ع) أخْلَقَ شخصيّةٍ لدرسِ ذلكَ الجيلِ، من حيثُ إنّه وَحْدَةٌ[٤٧] تاريخيّةٌ كاملةٌ له، فقدْ كانتْ حياتُه حافِلَةً بقضايا التّاريخِ، وكانتْ حياتُه بعدَ الموْتِ عامِلاً من عوامِلِ التّاريخِ الإسلاميِّ العامِّ. وهؤلاءِ الأشخاصُ الّذين همْ وَحَداتٌ

---

(٤٧) يَرَى بعضُ المؤرِّخينَ آختيارَ الرِّجالاتِ الذين كانُوا يُعَبِّرونَ عن أجيالهم تعبيراً وافياً بما مرَّ بِهم من أطوارِه لجعلِهم وَحَداتٍ تاريخيّةً يُكْتَفَى بدَرْسِها عن دَرْسِ الأجيالِ نفسِها كنابليون مثلاً، في زَعْمِ مَنْ يرى هذا الرأيَ... وفي أجيالِ الإسلام نَجِدُ الحُسَيْنَ فحسبُ، خليقاً بأنْ يكون وَحْدَةً تاريخيّةً لجيله.

تاريخيّةٌ في مِثْلِ التّعاريفِ، كُلُّ ما يَقَعُ بعدَها شرحٌ وتفسيرٌ، أجْدَرُ ما يكونونَ بالـمَتْنِ لأنَّ جيلَهم، بما فيه، شَرْحٌ لمذاهِبِ حياتِهم الغامِضَة.

وأنا بعدَ ذلكَ ماضٍ في تقريرِ نتائِجي بدونِ ما نَظَرٍ إلى كبيرِ مُخالفتِها للعُرْفِ التّاريخيِّ الشّائعِ، فَرُبَّ غيرِ معروفٍ صار لا يُعْرَفُ سِواه كما قُلْتُ في كتاب: **مُقَدِّمة لدرس لغة العرب.**

وعلى أنَّ فئةً من الناسِ قد تُعْرِضُ عن هذه النتائجِ إعْراضاً كبيراً أو قليلاً، وتتنكَّرُ لها تنكُّراً رُبَّما كان وَبيلاً، فإنّي أُحْسِنُ الظَّنَّ بهم وأمْضي على طِيَّتي الّتي أراني أَخْدِمُ بها قضيّةَ تاريخِنا الإسلاميِّ. فإنَّ مِنَ البِرِّ بهذا التاريخِ في حَقْلِ الدّرسِ أنْ لا نَنْتَصِرَ كبيرَ انْتصارٍ لرَغائِبِنا الخالِصةِ منه، وإنّما علينا أنْ نَتَجَرَّدَ إلى إظهارِهِ بما يَتناسَبُ مع الخُطَّةِ الموضوعيَّةِ الّتي هيَ وحدَها الرَّغْبَةُ الحقيقيَّةُ للدّارِسينَ، كما لو كُنّا نَصْطَنِعُ في التّاريخِ طريقةَ زولا في الرِّوايةِ حينَ أقامَها على الواقعيّةِ (Réalisme)، وهي تُصَوِّرُ الأشخاص والحوادثَ كما هي لا كما نُحِبُّ أنْ تكون.

وماذا يُفيدُ لو أنّنا تناولْنا تاريخَنا تناوُلاً ذاتِيّاً مَحْضاً سوى الاتِّهامِ وإساءَةِ الظّنِّ في أنّنا نؤرِّخُ ما وَقَعَ إلى ما نَتَشتَهّى أنْ يكونَ واقِعاً. وهذِهِ مُغالَطَةٌ مُزْدَوِجَةٌ على التّاريخِ مَرَّةً، وعلى أنفسِنا مَرَّةً أُخرى. فقدِ انْتصَرْنا منذُ زمنٍ مضى ضدَّ نظريَّةِ الطَّوْطَمِ والأُمومةِ عندَ العربِ، وكانَ ما كانَ من ثورةٍ قَلَمِيَّةٍ كبيرةٍ، ولكنّها لم تُعَبِّرْ عن شيءٍ، ولم تُدْخِلْ أيَّ تغييرٍ في وُجْهَةِ نظرِ التّاريخِ العِلْمِيِّ، ولا يَزالُ العلماءُ يَنْظُرونَ إلى تاريخِ العرب بالنَّظَرِ الطَّوْطَمِيِّ، الّذي ثَبتَ عندَهم كمرحلةٍ لا بُدَّ من قَطْعِها في الطريق إلى النِّظامِ الأُسْرِيِّ القائِمِ على الأُبُوَّةِ، فاسْتِثناءُ العربِ مُناقَضَةٌ لأوَّلِيَّةٍ اجْتماعيّةٍ ليس ميزةً أنْ لا نَقْطَعَها كأنّنا أنْفِياءُ اجْتماعيّونَ وشواذٌّ بَشَرِيّونَ، وإنَّما الميزةُ أن نَخْضَعَ، كَكُلِّ صُنوفِ الكائنِ الحيِّ، لنواميسِ الارْتقاءِ العامّة.

هذا مَثَلٌ أردْتُ به أنْ أُبَيِّنَ أنّ الثورةَ الّتي تَأْخُذُنا في مُدافَعَةِ نظريّةٍ نَتَشَهّى غيرَها، لا

تُقلّلُ من قيمتِها. بلْ هي ماضِيَةٌ في سبيلِها لتأْخُذَ مكانَها اللّائقَ حتّى في أدْمِغَةِ الثّائرين. وهذا هو سِحْرُ العلمِ أوْ سحرُ الحقيقةِ الّذي عبَّرَ عنه القرآنُ بقوله (الاسراء ١٧: ٨١):

«إنَّ الباطِلَ كانَ زَهُوقاً»

وأيُّ لفظٍ أبْلَغُ في إفادةِ هذا المعنى من لفظِ القرآنِ «زهوق»[٤٨] الّذي هو صورةٌ كثيرةُ الدِّقَّةِ، كثيرةُ الإتْقانِ، حينَ رَسَمَتْ لنا أنَّ منْ طبيعةِ الباطِلِ لفظَ أنْفاسِهِ في تدارُكٍ وتتابُعٍ وبَهَرٍ، وأنَّ مِنْ تَمامِ وُجودِهِ أنْ لا يَتَنَفَّسَ بكلِّ رِئَتيْهِ، مِثْلَ السِّقْطِ الّذي مَرَّتْ به الحياةُ من بعيدٍ فَحَرَّكَتْهُ بما تَدْفَعُهُ عنها، لا بما ثَبَتَ فيه منها. فهو مولودٌ كاملُ التّكْوينِ فيما يُشَكِّلُ ظاهِرَه، غيرَ أنّه تَزْويرٌ على الطّبيعةِ يُغْري الحياةَ به ولكنّه لا يَخْدَعُها. وليسَ يُوجَدُ لفظٌ وراءَ لفظِ القُرآنِ أوْفى بكُلِّ هذا المعنى في إيجازٍ واْقتضابٍ.

ومِنَ الخيرِ أنْ نَصْطَنِعَ هذا النَّهْجَ، لأنَّ تاريخَ الخلفاءِ أو تاريخَ المسلمينَ في هذهِ الفَتْرةِ غامِضٌ أشدَّ الغُموضِ. فقدْ كانَ هدوءاً ثمّ عاصِفَةٌ تَتْلو، ولا بُدَّ لهذا الهدوءِ وهذه العاصفةِ منْ فَواعِلَ، ولا بُدَّ في درسِ تاريخِنا من تَشْخيصِها وعَرْضِها عَرْضاً مُبيناً، لِما كان لهذا العَهْدِ من تأثيرٍ في تَسَلْسُلِ التّاريخِ الإسلاميِّ العامِّ الذي اْنْدَفَعَ به، وتَلَوَّنَ بالألْوانِ الّتي مَزَجَها له ثمّ طَبَعَهُ بها.

وفي ظَنّي أنَّ أوّلَ من تَنَبَّهَ إلى وُجودِ العَلاقةِ بين الأفكارِ الدّينيَّةِ القديمةِ، وبينَ النَّزَعاتِ المختلفَةِ الّتي ظَهَرَتْ بعدَ ذلك، وإلى وُجودِ العَلاقةِ بينَ حَرَكةِ النِّفاقِ في عهدِ النبيِّ (ص) وبينَ حَرَكاتِ الاضطِّرابِ في عهْدِ الخلفاءِ الرّاشدينَ، ثُمَّ رَمى إلى اْستيضاحِ كُلِّ هذا، الفيلسوفُ الإسلاميُّ الكبيرُ عبد الكريم الشهرستانيّ في كتابه **المِلَل والنِّحَل**، وقدْ صاغَ فِكْرَتَه في كثيرٍ مِنَ الاطْمئنانِ والتَّثَبُّتِ العلميِّ. وتحقيقُ مثلِ هذه العَلاقاتِ وكلِّ ما

---

(٤٨) وهذا آتٍ من التعبيرِ بـ«زَهَقَ» الثّلاثيّ، و«زهوق» فإنَّ أزْهَقَ الرباعي يُفيدُ أنّ الإهلاكَ بفعلِ فاعلٍ، والثّلاثيُّ اللّازمُ يُفيدُ أنّ الهلاكَ طبيعةٌ فيهِ أوْ من طبيعتِهِ وهذا سِرُّ العُدول.

يَتَّصِل بذلكَ المجتمعِ منْ شُؤونِ الإدارةِ والنِّظامِ هو الّذي آنصَرَفنا إليه ليجيءَ عَمَلُنا إحْصاءً وتَعْليلاً في مأْتاةِ التّاريخِ، وبذلكَ نكونُ قد أعْطيْنا دِراسةً، إنْ لم تكنْ صادقةً في أصِيلَتِها وتَشَعُّباتِها، فلا تَبْعُدُ عن الصِّدْقِ في إجْمالها وجَوْهَرِها.

ولا تَمْنَعُني غَرابَةُ رأيٍ أظُنُّ أنّه صحيحٌ أو أعْتَقِدُ صِحَّتَه من إبدائهِ، لأنَّ الشُّهرةَ لم تَعُدْ أبداً عُنوانَ الحقيقةِ. وأيضاً لا يَحُولُ بيني وبينَ رأيٍ أنّه قليلُ الأنصارِ، لأنّ الحقَّ الموضوعيَّ لم يَعُدْ يُنالُ بالتَّصْويتِ، فإنّ الانْتِخابَ من عَمَلِ الطّبيعةِ وهيَ لا تُغالِطُ نفسَها كما لا تَعْمِدُ إلى التّزْويرِ.

وأطْرَفُ شيءٍ أذْكُرُه عن ذلكَ الطِّرازِ من النقْدِ الذي يقومُ على الاسْتِنكارِ دونَ التّرَوّي، ما أجابني بهِ أحَدُ أصْدِقائي الباحثينَ، وكان نَشَرَ كتاباً يَدْرُسُ فيه عُمَرَ الخيّام، قال في تصديرِه: «أُقدِّمُه إلى القُرّاءِ بيَدٍ راجفةٍ»، فقلتُ له: «يا هذا، تَحَقَّقْ منْ موضوعِك ثُمَّ قَدِّمْهُ بيدٍ مُطْمَئِنَّةٍ»، فعَطَفَ عليَّ ضاحِكاً وهو يقولُ: «لقد فَصَلْتُ منه وأنا أشَدُّ ما أكونُ ثِقَةً بنتائِجِهِ، ولكنْ ما تَصْنَعُ بِمَنْ يكادُ يَنْقُدُ أو يَنْقُدُ بالفعلِ قَبْلَ أنْ يَقْرأ؟». هذه كلمةٌ عابثةٌ إلّا أنّها مريرةٌ حينَ يكونُ فيها نصيبٌ من الواقعِ غيرُ قليلٍ.

وأنا بعدَ ذلك أدِينُ برأيِ طائفةٍ من الفلاسفةِ كانتْ تُحَرِّمُ على المرءِ أنْ يقولَ ما لا يَعْتَقِدُ، لأنَّه في نظرِهِمْ يُخادِعُ نفسَه ويَخْدَعُ قارِئَهُ، وهو في الحالتَيْنِ مُضِلٌّ أو غَوِيٌّ، ويَسُرُّني أنْ لا أكونَ أحَدَهما، بَلْهَ أنْ أكونَهُما...

مُقدّمات

لا مَحِيدَ عن درسها جَيِّداً

لفهم التاريخ العربيّ



القَبَلِيَّة

أسباب ونتائج: لَبِثَ العَرَبُ على شكلٍ وَاحِدٍ لا يَعْدُونَه، من أشكالِ الاجتماعِ وهو ما يُعَبَّرُ عنهُ بالقَبَلِيَّةِ، بحُكْمِ البيئةِ الجغرافيّةِ التي فَرَضَتْها الطّبيعةُ في جزيرتِهِم. وكانتْ هذه القَبَلِيَّةُ واجبةً منْ حيثُ إنّها أقْصى ما يُمْكِنُ أنْ تَسْمَحَ به طبيعةُ الأرضِ الّتي يعيشونَ فوقَها، فهي لا تَمُدُّهم بأكْثَرَ ممّا يَتَّسِقُ مع هذا النِّظامِ.

ونَجِدُ عندَ الأخذِ في هذا البحثِ مسألتَيْنِ لا بُدَّ من فَهْمِهِما قبلَ كلِّ شيءٍ، وهما: القَبَلِيَّةُ، ورُسُوخُها شكلاً نظامياً كَافِلاً للمُجْتمعِ الخاصّ.

أمّا أُولاهما: فظَاهِرَةٌ تطوُّرِيَّةٌ للأُسْرَةِ مُكبَّرَةٌ، من شَأْنِ كلِّ شعبٍ أنْ يَمُرَّ بها في أثْناءِ رِحلتِهِ الاجتماعيّةِ الشّاقَّةِ، ولكِنْ لا يَلْبَثُ أنْ يُزايِلَها بما يَمُدُّهُ الإقْليمُ من أسبابِ النّماءِ، وبما يُجْمَعُ له من عَواملِ النُّضْجِ شيئاً بعدَ شيءٍ. فالانْتخابُ وبقاءُ الأصْلَحِ في الاجْتماعِ يَتْبَعانِ المكانَ بأكْثَرَ مِمّا يَتْبَعانِ طبيعةَ البناءِ العُضويِّ والدَّمِ أوِ العُنْصُرِيَّةِ[1]. على أنَّ المفروضَ في

---

(١) هذهِ الكَلِمَةُ يضعونها في مُقابلِ Racisme وهي تُعَبِّرُ عن فكرةٍ قديمةٍ جدّاً إلّا أنّها عُولِجَتْ في الماضي عل شكلٍ وَصْفيٍّ خالصٍ ولم تَظْهَرِ الرَّغْبَةُ في مُعالجتها من ناحيةٍ تَعْليليّةٍ إلّا في العهدِ الجديدِ، حين تَقَدَّمَتْ بُحوثُ عِلمِ الأحياءِ والتّشريحِ والاجتماعِ والآثار. وأهَمُّ مَنْ حَمَلَ لِواءَ هذه الفكرةِ وتعصَّبَ لها في ألمانيا الموسيقارُ الشّهيرُ فاجنر، وفي فرنسا جوبينو، وهذا يُعْتَبَرُ من

العُنْصُرِيّةِ أنّها تَنْتَقِلُ من حالةِ التّجانسِ إلى التّنافرِ أو عَدَمِ التّكَافُؤِ بِفِعْلِ الموضِعِ وحدَهُ، ثُمّ تَثْبُتُ الفروقُ العِرْقيّةُ كطبيعةٍ، بِتَعَاقُبِ التّاريخِ وتَلَبُّدِ الصِّفاتِ، فَتَبْدو المُفارَقَةُ حينئِذٍ بصورتِها المُرَكّبَةِ كأنّها ذاتيّةٌ. فنحنُ هنا لا نُنْكِرُ ما للتَّنَوُّعِيّةِ العِرْقيّةِ أي للعُنْصُرِيّةِ المُتَخَيَّلَةِ، بما فيها من تَشَكُّلٍ بِيئيٍّ تاريخيٍّ، خِيَلٍ، لإيغالِهِ في التّاريخ، أنّه عِرْقيٌّ من خاصّيّةٍ في حالاتِ الاجْتماعِ العُلْيا، وإنّما نَميلُ بها إلى التّحديدِ حتّى لا تُصْطَنَعَ لَدَى تحليلِ الخاصّيّاتِ الأدبيّةِ والعقْليّةِ في أبْسَطِ ما تكونُ بساطةً.

واضِعِي أُسُسِها كنظريّة مُتماسكةِ القَوالبِ، ومؤَلَّفُهُ: **إلماعَةٌ في تفاوُتِ السّلالاتِ البشريّةِ** مِن أشْهرِ ما أُلّف فيها، وفي إنجلترا هستون ستوارت تشمبرلن. وهذهِ الفكرةُ تَرْمي إلى تقريرِ أنّ البَشَرَ يَتفاوَتُون في المداركِ والعُقولِ والقابليّاتِ الاجتماعيّةِ والأدبيّةِ تَفاوُتاً ذاتيّاً بينَ السّمُوِّ والإسفافِ تَبعاً للعُروقِ والسّلالاتِ. وانْبَنَى على هذا التّصنيفِ القولُ بوُجوبِ تحكُّم الأعْلى بالأدنى، وهم يَخْتَلفونَ آختلافاً كبيراً في تحْديدِ هذهِ العُروقِ من حَيثُ الأصالةُ والهَجانَة، وكان أكثرَ هؤلاءِ مُبالَغَةً في تأييدِ النّظرِيّةِ وتقريرِها على شاكِلَةٍ علميّةٍ، أستاذٌ فَرَنْسيٌّ يُدْعى فاشيه دولابورج، فقد ألّفَ كتاباً دعاه: **الانتخابات الاجتماعية**، وقَسّمَ البشرَ إلى سُلالاتٍ جَعَلَ على رأسِها السّلالةَ الأوروبيّةَ، وآنتهى بعدَ ذلِكَ إلى أنّ لِكُلٍّ من هذهِ السّلالاتِ خاصّيّاتٍ ذاتيةً متأصّلةً، وأنّ على العُروقِ مدارَ كُلِّ تَطَوُّرٍ وآرْتقاءٍ سَواءٌ في الفضائلِ الجسميّةِ أو النّفسيّةِ. وكانَ من نَتائِجِ هذه النّظريّةِ الوبيلةِ آنْتِحالُ مذاهِبَ آجتماعيّةٍ غايَةٍ في التّعصُّبِ كالنّازيّةِ في ألمانيا وجمعية «كو كلكس كلان» في أمريكا ومحاولةُ تقريرِ مبدأ في عِلْمِ النّفْسِ الجنائيِّ يَقْضي بأنّ مُجَرّدَ آتّهامِ فردٍ مِنَ السّلالة الدّنيا يكونُ كافياً لإدانتِهِ، وتقريرِ مبدأ عَدَمِ التّساوي في الحقوقِ المدنيّة.

والحَقُّ أنّ هذه النظريّةَ، على الشّكْلِ المذكورِ خَطَأٌ بَالِغٌ لأنّ دَعْوى الذّاتيّةِ في الخصائصِ هَدْمٌ لقانونِ التّجانُسِ الّذي يَقْضي به علمُ الأحياءِ وهَدْمٌ لقانونِ التّطَوُّرِ، كما أنّها لا تَصْلُحُ أنْ تكونَ مُقَدّمَةً تعليليّةً إلّا في فَهْمِ التّنافُرِ بينَ الأشكالِ الأدبيّةِ العُليا عندَ الشّعوبِ، وأمّا الأشكالُ البسيطةُ فإنّ تنافُرَها يرجِعُ إلى البيئةِ الجُغرافيّةِ وحدَها التي هي أساسُ كلِّ تَغايُرٍ. فإذا دَرَسْنا خاصيّةَ حُبِّ النّظامِ عندَ الرّجلِ من السّلالةِ الآريّةِ الأوروبيّة وهَشاشَتِهِ عندَ العربيِّ نجدُهما يرجِعانِ إلى تأثيرِ الموضِعِ مِنْ أقربِ طريقٍ. فالعربيُّ الذي دَأْبُه آنْتِجاعُ المَرْعى المتباعِدِ الشُّقّةِ لن يَجِدَ في الطّبيعةِ ما يُهَيّئُهُ ليكونَ نِظامياً؛ ولكنّنا إذا دَرَسْنا حُبَّ النّظام عندَ الرّجلِ الأوروبيّ، وعندَ الرّجل الألبينيّ، كما يسمّيه دولابورج، نجدُ التّفاوُتَ نتيجةً لتَشكُّلاتِ العُنْصريّةِ التي رَفَدَ في رُقِيِّها مَدُّ التّاريخِ.

ومِمّا يَدُلُّ على فسادِ نظريّةِ العنصريّةِ بالنّظرِ إلى خصائِصِها الذّاتيّةِ قابِليّةُ العناصِرِ المفروضِ فيها الامْتيازُ، للانْتِكاسِ، وقابِليّةُ العناصِرِ الدُّنيا لِنَوْعٍ من السّمُوِّ تدريجاً بفاعليّةِ التّاريخ. وحُكْمُ آبْنِ خلدونٍ على العربِ جاءَ من شائبةِ هذه النّظريّةِ، وإن لم تكنْ أخَذَتْ بعدُ شكليّتَها الحديثة وإشكاليّتَها الجديدة.

وأمّا ثانِيَتُهُما: وهي ثُبوتُ القَبَلِيَّةِ في مُحيطِ العربِ على أنّها شكلٌ آجتماعيٌّ كاملُ الارْتقاءِ، فإنّها تَرْجِعُ إلى تأثيرِ[٢] البيئةِ الطّبيعيّةِ الّتي تَعَهّدتِ العَرَبَ بالإنماءِ والتّطْويرِ. وبذلكَ كانوا أبْعَدَ الأُمَمِ عهداً بهذا النّظامِ وتَراوُحاً عليه، وكانوا إلى ذلكَ أكثرَ النّاسِ شُعوراً بآثارِه من حيثُ إنّ مُجْتَمَعَهُم آسْتَوَى في حُدودِه، ثُمّ لم يُجاوِزْ قواعِدَه إلّا بِمِقْدارٍ لا نَسْمَحُ لأنفُسِنا أنْ نَنْعَتَهُ بشيءٍ وراءَ الانْدماجِ القَبَليِّ الجُزئيِّ.

فالّذي نَرْغَبُ في تَعْليلِهِ الآنَ، ليسَ هو تَمذْهُبَ العربِ في ماضيهم بالمذْهَبِ القَبَليِّ، لأنَّهُ سُنَّةٌ تكادُ تكونُ طبيعيّةً، أوْ هي طبيعيّةٌ بالفِعْلِ لأنّها الصُّورةُ المُكَبَّرةُ للأُسْرةِ، ولكنّما هو آسْتِقْرارُ هذا النِّظامِ لَدَيْهِمْ بحيثُ كانَ ظاهرةً لازِمةً لها أبلغُ مَساسٍ بِتَصْريفِ حياةِ العربِ وتلوينِها، وهذا ما نُعَلِّله بالبيئةِ الجُغرافيّةِ.

والّذي نَعْرِفُهُ من تَكْوينِ تلكَ البيئةِ، أنّها مجموعةٌ منَ السُّهوبِ والصَّحارَى، يَنْحَسِرُ البصَرُ دونَ أنْ يَتَناهى في آنْتظامِ أرْجائِها، تَكْسوها طَبقةٌ رابِيَةٌ منَ الرِّمالِ المُلْتَهِبَةِ الّتي تُنَدّيها الشَّمسُ بلُعابِها الحَرُورِ، وتَتَخَلَّلُها جبالٌ كثيرةٌ وأوْدِيَةٌ كثيرةٌ مُخْتَلِفَةُ الخُصوبةِ تَتَناثَرُ هُنا وهُناك.

فطبيعةٌ كهذهِ لمْ تكنْ لِتَسْمَحَ للعربِ بالزِّراعةِ ـ وهي مُقَدِّمَةُ القوميّةِ ـ إلّا في حَدٍّ مَحْدودٍ وفي بعضِ الأنْحاءِ، ولم تكنْ تُساعِدُهم إلّا على أنْ يكونوا قَبائلَ رُحَّلاً يَنْتَجِعُونَ أي يَنْتَقِلون حيثُ الماءُ والكَلأُ. وعندي أنّ العملَ في الأرض بالزِّراعةِ[٣] باعثٌ لِكُلِّ شُعورٍ

---

(٢) تأثيرُ البيئةِ على هذا النَّسَقِ مُبَرْهَنٌ عليهِ في كُلِّ أنواعِ الكائِنِ، فإنّا نَرَى في فصائلِ النّباتِ والحيوانِ كيفَ تُزَوِّدُها فَواعِلُ الجوِّ والبيئةِ بخصائِصَ كانَ يَظُنُّها القُدماءُ ذاتيّةً مَحْضَةً كشجرِ الصَّنَوْبَرِ مَثَلاً، فقدِ آكْتَسب قُوّةَ الأليافِ من صُمودِهِ الطّويل أمامَ الزوابعِ. وأبْلَغُ من هذا في مَعْرِضِ المَثَلِ الحيواناتُ من الفصيلةِ الواحِدة فإنّها تَخْتَلِفُ آخْتِلافاً كبيراً في الأشكالِ الجسديّةِ والأعمالِ العُضْويَّةِ بِحَسَبِ البيئةِ، فهي بينَ إفريقيا وآسيا وأوروبا تَتَمايَزُ إلى حدٍّ بعيدٍ واضِح.

(٣) واضِحٌ أنّ الاستقرارَ وعِشقَ المَوْطِن والشّعورَ الشّديدَ بوُجودِه نتيجةٌ لازِمَةٌ للحياةِ الزّراعيّةِ، وأرى أنّ تَعَلُّقَ اليهودِ بالمالِ وسياساتِه من اتّجارٍ، والاتّجارَ به، صَيْرفَةً وإقراضاً كَضَمانٍ لمقوّماتِهم الحيويّةِ أفْرَغَهُم إفراغاً شُعوبيّاً، أو قُل اندماجيّاً في عالَمِ المَشكونَةِ؛ وحَذَرَ التّلاشي

بالوطنِ إذْ يُوْرِثُ الإنسانَ عِشْقاً مُبْهَماً للأرضِ الّتي تَهَبُهُ كُلَّ ما يحتاجُ إليهِ من مُقوِّماتِ الحياةِ، وتَدْعوه للانْدماجِ القوميِّ الصّحيح.

فنحنُ مَهْما بالغْنا في تَفْتيشِ شِعْرِ العرَبِ فلنْ نَقَعَ على شيءٍ من الحنين[4] إلى الأرضِ كالّذي نَجِدُه عند الفلّاحِ الرّوسيِّ لدى غوغول مثلاً. ولنْ نَقَعَ بين دُموعِهِ المَنْظومَةِ على دَمْعةٍ واحدةٍ أرْسلَها في وَداعِ الحَقْلِ، بينَما نَجِدُ شيئاً كثيراً من هذا الحنينِ وهذه الدُّموعِ يَـبُثُّها إبِلَهُ وخِبَاءَهُ لأنّهما كانا أكبرَ مُقَوِّماتِ الحياةِ لديه.

فلمْ يَكُنِ العربيُّ فلّاحاً لأن بيئتَه لم تُهَيِّـىءْ لهُ ما بِهِ يكونُ كذلك، وإنّ آتّباعَهُ القَطْرَةَ من المطرِ حيثُ تَحِلُّ جَعَلَتْه مُنْتَجِعاً رحّالاً، وأوْرَثَتْه الاضطِّرابَ في كُلِّ سَهْلٍ وحَزْنٍ، ودَعَتْهُ للانْدماجِ ولكنْ في حدودِ القَبيلةِ الّتي يَتَصَوَّرُ فيها أنّها تَرْحَلُ جميعاً وتَحُلُّ جميعاً. ولذا كانَتِ العُقوبَةُ الأقْسى والأقْصى، هي الخَلْعَ والانْتِباذَ بَعيداً. وهذهِ صورَةٌ حَيّةٌ رَسَمَها الشّاعِرُ النّجاشِيُّ:

وماءٍ كلونِ الغِسْلِ قدْ عادَ آجناً ... قليلٌ بِهِ الأصواتُ في بَلَدٍ مَحْلِ
وجدتُ عليهِ الذّئبَ يَعْوي كأنّهُ ... خَليعٌ خَلا مِنْ كُلِّ مالٍ ومنْ أهْلِ

وهذا التّكوينُ الطّبيعيُّ لسطحِ الجزيرةِ يُرينا كيفَ آستطاعَ العربُ أنْ يَنْتَقِلوا من

جعلوا التوارتيّةَ عاصِماً من الذَّوَبان في الأُمَمِ. وهذا سِرُّ تَعَلُّقِهِم التّاريخيِّ بالغيتو «الحيِّ اليهوديِّ»، أنّى آنتظمَهُمْ مَقامٌ، وأيّانَ انتشرتْهُمْ القبليّة في قُرَيشٍ، فإنّ التّجارةَ لم تُحاجِزْهم عنها.

(٤) لا يُؤْخَذْ علينا بما يُوجَدُ في الشِّعرِ العربيِّ من الحنينِ إلى الأوطانِ، حتّى ألّفَ الجاحِظُ رسالةً بهذا الاسْمِ جَمَعَ فيها طائِفَةً من الأقاصيص وطائِفَةً من الشّعر، لأنّها دمعةٌ أجْراها ذِكْرُ الصِّبا وعُهودُ الأُنس. وأمّا الحنينُ الّذي نَعْنيهِ فهو تِلكَ العاطفةُ التي تُثيرُها الأرْضُ بآعْتبارِها شيئاً عزيزاً يَتّصِلُ بأسْبابِ الحياة، حتّى لَيُفَضِّلُ المَرْءُ فِراقَ الحياةِ على فِراقِها. على أنّ الشّعرَ العربيّ يُعَرِّفُنا أنّ العربيَّ عُلِّقَ الرِّياحَ بأكْثَرَ مِمّا عُلِّقَ الأرضَ لأنّها كانتْ تَحْمِلُ إليه شيئاً من الطُّرواة والخِفَّةِ والنَّشْوَةِ بنسبةٍ لا يَجِدُها في الأرضِ، وإنّا نُكَلِّفُ الجاهِلِيَّ شَطَطاً إذا طالَبْناه بشِعْرٍ هو أسْمى من واقِعِهِ في المَكانِ... وإنّي ألِفتُ نَظَرَ نُقّادِ الأدبِ إلى أنّ كلَّ شِعْرٍ للجاهليّة يَذْهَبُ مذهبَ التّأمُّل التّجْريديّ، أو بتعميمِ أصَحّ كلُّ شِعْرٍ يُنْسَبُ للجاهليِّ ولا تُساعِدُ عليه البيئةُ فهو مَنْحولٌ. وإلّا فنحنُ نَتَّهِمُ معارِفَنا ونُؤْمِنُ بالمُفارَقاتِ الميتافيزيقيّة الغيبيّة الغبيّة.

الأشكالِ البِدائيَّةِ الأولى، ويَقِفوا عندَ النِّظامِ القَبَليِّ الّذي هو أسْمى ما تَمْنَحُه بيئةٌ على هذه الشّاكلةِ. ثمّ تَوالَتِ الحياةُ بالعربِ وهم على سُنَّةِ هذا النِّظامِ فَثَبَتَ في نوعٍ من الارْتِكازِ. وإنّ آضطِّرارَ العربيِّ، تحتَ عاملِ الطّبيعةِ، أنْ يتَّبِـعَ مساقِطَ الغَيْثِ ومراعيَ الكلأ من حينٍ لآخرَ، لم يُهَيِّـئْهُ أبداً للتَّحوُّلِ عن شكلِ نِظامِهِ الاجْتماعيِّ. وساعدَ عليه أيضاً قِيامُ حياتِهم على الاقتناصِ والغَزْوِ منْ حيثُ إنّه أرَّثَ القبيلةَ، وجعلَ منها عَصَبيَّةً حَقوداً، فكانتْ بينهم تِراتٌ وتاراتٌ لا تَفْتَأُ تَهيجُ بهمْ على الدَّوام.

ويظهرُ لنا من هذا أنّ العربَ ظَلّوا على النِّظامِ القَبَليِّ بِحُكْمِ البيئةِ، وأنّ التَّحوُّلَ عنهُ لا يَتِمُّ إلّا بآستعدادِ الموضِعِ للزِّراعةِ، وأنّ أساسَ كلِّ قوميّةٍ ثابتةٍ يَسْتَنِدُ آستناداً كبيراً أو كُلِّيّاً إلى صَلاحيَّةِ الأرضِ لتكونَ زِراعيّةً. وقدْ نَجِدُ البُرهانَ على هذه الدَّعاوى في تَحَوُّلِ عربِ اليَمَنِ وأطْرافِ الجزيرةِ إلى فلّاحينَ، فقد عَكَفُوا جيِّداً على الأرضِ الّتي نَعَتوها بالسَّعيدةِ، وآختَصُّوها بنوعٍ من الحُبِّ والتَّعَلُّقِ والأمَلِ، حتّى ظَهَرَتْ أشْكالٌ من أمانيهم الزِّراعيّةِ في ديانتِهم، فألَّهُوا النَّخيلَ[٥] في بعضِ أنْحاءِ اليَمَنِ، كما ألَّهَ العربُ الآخرونَ في المناطقِ الجَرْداءِ الآبارَ[٦]. ويذهبُ ظَنُّنا إلى أنَّ «زَمْزَمَ» كانَ مَعْبوداً عندَ عربِ الوادي، ومنْ ذلكَ آكْتَسَبَ آسْمَهُ الخاصَّ الّذي يُعطي في السّامِيَّةِ معنى الارْتعادِ والكَهانَةِ. وهؤلاءِ الّذين وقعُوا في بيئاتِهم على ما يَكْفُلُ حاجَتَهُم في شيءٍ من الاسْتقرارِ، آتَّجهوا بأبصارِهم نَحْوَ القوميّةِ أو فكرةِ الأُمَّةِ، وتلَبَّسُوا بما لا يُنْكَرُ من أشكالِها. فالاسْتقرارُ لا يقومُ إلّا على الزِّراعةِ، والقوميّةُ لا تقومُ إلّا على هذا النَّوعِ

---

(٥) راجع كتاب: تاريخ سوريا للمطران الدبس، ج ١.

(٦) عُرِفَ هذا النّوعُ من التّأليهِ في طوائِفَ صَحْراويّةٍ عَديدةٍ، ولكنّ الشّيءَ الوحيدَ هو دَعْوى عبادةِ زمزم، فليْس بينَ أيدينا نُصوصٌ تُشايعُ هذا الظّنَّ وتَدُلُّ على أنّهُ كانَ مَعْبوداً وكُلُّ ما لَدَينا أنّه مُقَدَّسٌ فقطْ. وكانَ جُلُّ آعْتِمادِنا فيه على تَحْليلِ الاسْمِ ووُجودِ قبيلةٍ كانتْ تَنْتَسِبُ إليه، أوْ تحملُ آسْمَه في بعضِ نواحي مذين. وهو ظَنٌّ قريبٌ مِنْ حيثُ إنّ عِبادةَ الآبارِ مألوفةٌ، ومن حيثُ إنّه يُفَسِّرُ حقيقةَ التّقليدِ المَرْوِيِّ في الآثارِ من أنّه تَفَجَّر بغمزةِ جبريلَ للأرضِ بآرْتِكاضَةٍ مِنْ قَدَمِهِ.

من الاستقرارِ، فحيثُ كان العربُ زُرّاعاً كانوا أقْرَبَ إلى القوميّةِ وأكثرَ آستعداداً للتَّكَتُّلِ. ولذلك عَمَدَ النبيُّ (ص) لنقلِ العربِ من رُعاةٍ رُحَّلٍ إلى زُرّاعٍ، وهي خُطْوَةٌ هامَّةٌ في التَّحضيرِ والقَضاءِ على القَبَلِيّةِ قضاءً حاسِماً، فقدْ قال: «خيرُ المالِ سِكَّةٌ مأبُورَةٌ وشاةٌ مَرْمُورَة»... والسِّكَّة كما تَعْرِفُ، هي هذه الأداةُ الحادَّةُ الفالحةُ للأرضِ والجائِلَةُ فيها أتْلاماً.

ويُصَدِّقُ وُجْهَةَ نظرِنا، سرعةُ تَحَوُّلِ[7] اليهودِ الّذين شاركوا العربَ جزيرتَهم، إلى قَبَليّينَ فيهم من عَصَبيَّتِهم وحَماسِهم، وفيهم من كلِّ ما يتَّصفُ به القَبَليُّ الخالِصُ. ولا يُخالجُنا شكٌّ في أنّ البيئةَ آمْتَصَّتْ من أفكارِهم ما لا يَتَّسِقُ مَعَ وَضْعِها، وما آنْفَكَّت تَنْفُثُ فيهم حتّى تفسَّخُوا وآرْتَدّوا إلى القَبَلِيّةِ الدُّنيا.

وهناكَ سببٌ خارجيٌّ أيضاً ساعدَ على رُسوخِ القَبَلِيّةِ فيهم، وهو كَوْنُ العربِ غيرَ مُهَدَّدِينَ بعدُوٍّ أجنبيٍّ يَدْعوهُمْ إلى التكتُّلِ القوميّ، فإنَّ الأُمَمَ المُهَدَّدَةَ من الخارجِ تُقاوِمُ بفَضْلِ الامْتِزاجِ والتَّعاونِ الذي يَجْعَلُ من المجموعِ رجلاً واحِداً. ونحنُ إذا عَلِمْنا بأنّ العربَ كانوا مُهَدَّدينَ بعداوةِ بعضِهم آنْكَشَفَ لنا السِّرُّ في تَكَتُّلِهم تَكَتُّلاً قَبَليّاً. وقد ظَهَرَتْ في أواخِرِ جاهليّةِ العربِ تَجْرِبَةٌ من جانبِ الفُرسِ دَعَتْهم إلى نوعٍ من التّعاونِ في غيرِ حدودِ الحِلْفِ والقبيلةِ، فهبُّوا يومَ ذي قار، لِدَفْعِ عاديةِ الفُرْس في تَضامنٍ جُزئيٍّ إلّا أنّه من حيثُ الشُّعورُ كانَ تضامُناً حقيقيّاً، حتّى لَنَجِدُ أثَرَ هذا الشّعورِ على لسانِ النّبيّ (ص) فَقَدِ آغْتَبَطَ لآنْتصارِهم وباركَ كِفاحَهم وآفْتَخَرَ به. وهذا شيءٌ يُرينا مدى تَأْثيرِ الخطرِ الأجْنَبيّ في بَعْثِ القوميّاتِ وأنّه كبير.

وكانَ لهذا التّركيزِ الطّبيعيِّ آثارٌ بالِغةٌ في مذاهبِ مُيولِ العَرَبِ النّفسيّةِ، فقد صبَّها صَبّاً فولاذِيّاً، وأضافَ إلى طبيعتِهم عُنْصُرَ الجُمودِ والثَّباتِ، وأفقدَهم قابليّةَ التحوُّلِ والتغيُّرِ، هذه

---

(٧) عَرَضَ إلى تَعْليلِ تحوُّلِ اليهودِ إلى هذه الشّاكِلَةِ ولفنستون في كتابه: تاريخ اليهود في بلاد العرب، ولكنّه لم يَقَعْ على شيءٍ يُطْمَأنُّ إليه.

القابليّةَ الّتي هي مَدارُ كُلِّ تَطوُّرٍ وتكامُلٍ. وقد سَبَقَ لنا في بحثِ دواعي الإسْراعِ أنْ عَدَدْنا في جُمْلتها أهْليّةَ الشّعوبِ للحُصول على صفاتٍ جديدةٍ، وقُلنا بأنّه لا بُدَّ لدَوامِ الارْتِقاء من قُدْرَةِ الشّعبِ على تحقيقِ التّوازُنِ بينَ تَحَوُّلِهِ وثَباتِه، وإلّا فهو مُسَاقٌ إلى التصلُّب الذي يُفْقِدُهُ الحيويّةَ والمرونَةَ شيئاً بعدَ شيءٍ.

فالمُحافَظَةُ المُتَزَمِّتَةُ والانْفصاليّةُ المُتَطَرِّفَةُ يُفْضِيَانِ إلى نتائجَ واحدةٍ، هذا من جهةِ التَّصَلُّبِ، وهذا من جهةِ الانْحلالِ. وكذلكَ كلّما زادتْ نِسبةُ الثَّباتِ في الشّعبِ وَقَفَ، وكلّما آشْتَدَّتْ بِهِ الحركةُ فَقَدَ الشَّعبُ تماسُكَه وتَبعْثَر.

فكانَ الجُمودُ ظاهِرَةً واضِحَةً في قابليّاتِ العربِ الأوّلينَ نتيجةً لهذا التّركيزِ القَبَليِّ الطّويلِ، وقدِ آنْعَكَسَ أثَرُه في بِناءِ الدّوْلةِ الّتي لم تَقُمْ على تَطْهيرٍ نفسيٍّ شاملٍ، فأدّى إلى زوالِها في كافَّةِ الجهاتِ، من أنْدَلُسَةَ إلى المغربِ إلى الشّرقِ. وهذا طبيعيٌّ ما دامَ الائْتلافُ لم يَقُمْ على تهذيبٍ آجْتِماعيٍّ صحيحٍ، بل ضَمِنَتْهُ القُوَّةُ وحدَها، وسَرْعانَ ما ظَهَرَتْ فيهِ الفُتوقُ بآنْحلالِ الرِّباطِ الوَقْتيِّ. وأيُّ شعبٍ يقومُ على مِثْلِ هذا الائْتلافِ بمُجَرَّدِ آنْحلالِهِ لا يَسْتَطيعُ أنْ يَسْتَعِيدَهُ مرّةً أُخرى لأنَّه يَفْقِدُ المُرونَةَ الكَفيلَةَ بالائْتِلاف.

وأنا أعْتَرِفُ هُنا بأنّ التَّبِعَةَ الجَسيمةَ تَقَعُ على عاتِقِ الأُمَويِّينَ الذين ألْهَبُوا[٨] حماسَ القبيلةِ وآسْتَغَلُّوه، فقدْ كانَ هذا جُزْءاً من سِياستِهم، إلّا أنّه صَدَّعَ بعدَ ذلك بُنْيانَ دولتِهم المطْبوعةِ على غِرارِه، وَصَدَّعَ بناءَ الدّولةِ عُموماً.

---

(٨) في كُتُبِ الأدبِ والتّاريخِ أقاصيصُ شَتّى وأخبارٌ كثيرةٌ عن آهتمامِ بني أميّةَ بهذا النّوعِ من المُنافَرَةِ والمُفاخَرَةِ وعِنايَتِهم بإذْكاءِ العصبيّاتِ الحطيمَةِ وإفساحِهم المجالَ للمُطارَحاتِ الّتي تدورُ على هذا اللّوْن، وأخُصُّ منها خَبَراً ذَكَرَهُ صاحبُ **الأغاني** في تَرْجَمَةِ الفضلِ اللّهبي ج ١٥، ص ٨. وخبرُ مجالِسِ معاويَة في كتابِ: **المحاسنِ والأضدادِ** لابن قتيبة. وللحصري في **جَمْعِ المُلَح** طرفةٌ نادِرةٌ تُعَبِّرُ عن مَبْلَغِ هذا الحماسِ قال: «لما بَلَغَ التّعصّبُ للقَحطانيّةِ والعدنانيّةِ مَبْلَغَه آنْطَلَق رجلٌ إلى بعضِ الأنحاءِ فآسْتَوْقَفَتْهُ جماعةٌ تسائِلُهُ عن نِسْبَتِهِ أقَحْطانيٌّ هو أمْ عدنانيٌّ؟ فخافَ الرّجلُ إذا هو قال عَدنانيٌّ وكانتِ الجماعةُ قَحطانيّةً أنْ يَقْتُلوهُ، والعكسُ صحيحٌ، فَتَحَيَّلَ للخُروجِ من حَرجِهِ بأنّه من سِفاحٍ». وهي نادِرَةٌ لا تَحْتاجُ إلى تعليقٍ لأنّها تُعَبِّرُ بجَلاءٍ عن مَبْلَغِ آستِحكامِ التّنافرِ القَبَليِّ في عهدِ بَني أميّة.

ويَجِبُ أنْ يُفرِّقَ جيّداً بين القَبَلِيَّةِ في العَهْد الجاهِليّ، والقَبَليَّةِ في عَهْدِ الأمويّين. فإنّ الثّانيةَ كانَتْ تفاخُراً وعَصَبيَّةً بالأنْسابِ والأصولِ، بينَما كانتِ الأولى قَبلِيَّةً تَنْظُرُ إلى القَبيلَةِ بأنّها رَمْزُ الوَجودِ، رَمْزُ المصالحِ الّتي أهَمُّها البقاءُ. هذا النَّظرُ لم يَعُدِ الحَاديَ على العَصَبيَّةِ في عهدِ بني أُمَيَّةَ، فقدِ آتَّسَعَ أُفُقُ نَظَرِهم وشَعَرُوا بالدَّولةِ، وأنّها مَعْقِدُ المصالحِ ومَصْدَرُها، ولكنّ نُفوسَهُم بقيتْ مُنْحَنِيَةً على ما فيها من أدْرانٍ.

وهذه مُلاحظاتٌ دقيقةٌ جدّاً ومهمّةٌ جدّاً، من حيثُ إنّها تَشْرَحُ لنا كثيراً من الخوافي، وتُعَلِّلُ طائِفةً من الظّواهِرِ المُعَقَّدةِ، وتُصَحِّحُ أوهامَ نَقَدَةِ التّاريخِ في آسْتِعداداتِ العربِ الذّاتيّةِ وقابِليّاتِهِم اللاّزمةِ. فقدْ نَسْتَطيعُ على ضَوئِها أنْ نَفْهَمَ لماذا كان العربُ قَبَلِيِّينَ، ولماذا ظَلُّوا كذلكَ حتّى بعدَ أنْ شَكَّلُوا لهم دولةً مَبْسوطَةَ الأرجاءِ، مُخْتَلِطَةَ المصالِحِ، وبالتّالي نَتَمَكّنُ منْ أنْ نَكْشِفَ عن مِقْدارِ الوَهْمِ الجائِمِ في نظريّةِ آبْنِ خَلْدونٍ عنِ العربِ، ومُشايِعيهِ مِنْ مُسْتَشْرِقَةِ الفَرَنْجة.

ووفاءً بحقِّ البحْثِ، وإن يَكُنْ تَوَسُّعاً وخُروجاً، أتكلّمُ عنْ أثَرٍ هامٍّ من آثارِ الصّراعِ القَبَليِّ الطّويلِ؛ وهو الامْتِيازُ في الكِفاحِ.

فإنَّ التّنازُعَ[٩] على البقاءِ يَسْتَتْبِعُهُ أبداً آنْتِخابُ الأصْلحِ، كما يقولُ التَّطَوُّريّونَ، وإنّ دوامَ التّنازُعِ يَزيدُ الكائِنَ عَزْماً ورَصانَةً وصَبراً وصِدْقَ نظرٍ في الحياةِ، إلى غيرِ ذلكَ منْ عناصِرِ النّجاحِ. ونحنُ منْ مُحيطِ العربِ القَبَليِّ أمامَ تَنازُعٍ لا يَعْرِفُ الهُدْنَةَ، وغِلابٍ لا يَنْتهي أوْ يَنْتَهِيَ الأحياءُ المُتنازِعونَ أي التّفاني. وهذا يُفْضِي بنا إلى نتيجةٍ مُهِمَّةٍ، وهي أنّ المُجْتَمَعَ القَبَليَّ الّذي يَظْهَرُ فيه عملُ قانونِ التّنازعِ على صورةٍ أبْلَغَ، يكونُ أفرادُه أحسنَ آسْتِعْداداً

---

(٩) راجعْ أثرَ التّنازعِ على البقاءِ في تَكْوينِ الشّعبِ الممتازِ، في كتاب: **مقدمة الحضارات الأولى** لغوستاف لوبون، ص ١١٣. وهذه الملاحَظَةُ على العربِ جديرةٌ جدّاً بإنْعامِ النّظرِ وتَوْفيرِه. وقد فاتَتْ كلَّ نَقَدَةِ التّاريخِ الّذين عَرَضُوا لِبَحْثِ التّوَسُّعِ العربيِّ السّريعِ، وتَدُلُّنا على الحَسَنَةِ الوحيدةِ الّتي آسْتَفادَها العَرَبُ من رُسوخِ النّظامِ القبليِّ في مُحيطِهِم.

للحياةِ، وأجدرَ بالنّجاحِ في حَوْمَةِ الاعْتراكِ السّياسيّ والاجتماعيّ، من حيثُ ما يَجْتَمِعُ فيهِمْ من عَناصرِ الامْتيازِ الطّبيعيّ والقابِليّات.

إذاً فمِنْ أسبابِ تَبْريزِ العربِ في الغِلابِ الّذي أخذوا العالَمَ القديمَ به، وتوسُّعِهم السَّريعِ فيهِ بالصّورةِ المُذْهِلَةِ الهائِلةِ، أنّهم الشعبُ المُنْتَخَبُ بفعلِ التّنازعِ على البقاءِ الطّويلِ، وهؤلاءِ حينَما أُخِذُوا بالتّهذيبِ الأدبيّ الإسلاميّ وتوسَّعتْ آفاقُ نَظَرِهم، أضْحَوْا رِجالاً مُمتازينَ من كُلِّ وجهٍ، وبذلك أعْطَوا النّتيجةَ التي لا تزالُ محلَّ دَهْشَةِ المؤرّخينَ، ومنْ ثَمَّ نَسْتَنْتِجُ بأنّ الشّعْبَ القَبَليَّ أكْفَأُ دائِماً في الكِفاحِ والتّوَسّعِ، ولكنّه يَضْعُفُ[١٠] عنْ تَعَهُّدِ الحياةِ المدنيّةِ وتوجيهِها إلّا بَعْدَ أنْ يُدْخَلَ به في مَراحِلَ تَهْذيبيّةٍ طويلةٍ، فإذا أُهْمِلَ من هذه الناحيةِ وتُرِكَ لطبيعتِه فإنّه يَرْتَدُّ بنُزوعِهِ القَبَليّ داخِلَ نِطاقِهِ نَفْسِهِ ولكنْ على نَحْوٍ نِسْبيّ في دَرَجَةِ القُرْبِ أوِ البُعْدِ ومن هنا أُتِيَ العربُ في نظري، ومن ثَمَّ ظَلّوا قَبَلِيّينَ أيضاً.

ونَسْتَخْلِصُ من هذا أنّ نِظامَ القبيلةِ مَرحلةٌ آجْتماعيّة، وأنّ العربَ وَجَدوا في بيئَتِهم ما يُساعِدُهم على التّمكينِ لها، ثمّ تَخَلَّفَتْ بهم طَبيعةُ الأرضِ عن قَطْعِها وبُلوغِ مرحلةِ القَوْمِيّات، وأنَّ كلَّ شعبٍ، مهْما تَكُنْ عُنصريَّتُه، مَقْضِيٌّ عليه بهذا النّظامِ والعيشِ في ظِلِّه، ما دامَ في حُدودِ بيئةٍ كالجزيرةِ، والسُّلالةَ مهْما كانتْ درجتُها من السُّمُوِّ فإنّها، إذا لم تجِدْ في البيئةِ ما يُساعِدُها على عملِ طَبائِعِها الأدبيّةِ والخُلُقِيّةِ المُكْتَسَبَةِ من تراكُمِ الوِراثاتِ، تَتَقَهْقَرُ وتُسِفُّ حتّى تَتّسِقَ مع المُكَيِّفاتِ الطّبيعيّةِ الخاصّةِ. وقد رأيْنا في مَوْجاتِ العربِ

---

(١٠) وشاهدُ هذا في حُكومةِ آبنِ سُعودٍ في نشأتِها الأولى، فإنّها بدونِ شَكٍّ تُشْبِهُ حكوماتِ العربِ الغابرةَ، فإنّ القبائلَ تَنْتَظِمُهُم القوّةُ وحدَها والقوّةُ لا تُكوِّنُ المِزاجَ العقليّ والرّوحَ الشّعبيّةَ للأُمّة، وبذلكَ نَقْطَعُ بأنّ أيَّ آمتِحانٍ يُصيبُ القوّةَ الّتي تَرْبُطُ القبائِلَ والجماعاتِ فيما يُفَسِّخُهم ويعودُ بهم إلى نظامِهم العتيقِ، فهي نوعٌ من الدَّوْليّةِ. فإذا فَرَضْنا أنّ دولةَ آبْنِ سعودٍ آمْتَدّتْ في بيئاتٍ حضاريّةٍ ثمّ لم تَعُدْ شأْنَها القَبَليّ فليسَ لأنّ العربَ من طبيعتِهم القَبَليّةُ فلا يَصْلُحونَ للمُلْكِ والدّولةِ كما يزعُمُ الشُّعوبيّون، وإنّما لأنّهم لم يُعالِجوا معالَجةً كافيةً لخَلْقِ الرّوحِ الشّعبيّ والمِزاجِ العقليّ. راجع كتابي: **ابن سعود** لكلٍ من مستر وليمز وأرمسترونغ.

القديمةِ ما يُبَرْهِنُ على هذا، ورأينا كيفَ تَشكّلَتْ في حَضاراتٍ مَرْموقةٍ في بابِلَ وآشورَ، وكيفَ أكْسَبَتِ العربَ صفاتٍ أدبيّةً جديدة.

وإنّ التركيزَ للصّفاتِ القبَلِيّةِ، وعَدَمَ العِنايةِ بمُكافَحَتِها على الطّريقةِ الّتي آستَنَّها النّبيُّ (ص)، غلبَ الدّولةَ بآثارِهِ في كلِّ عهد.

والغريبُ في نَزْعَةِ الدّرس الحديثِ لتاريخ العربِ مُبالَغَةُ المؤرّخينَ بإظْهارِ نظامِ القَبَلِيّةِ بمَظْهَرِ الدّولةِ أو المُقاطَعَةِ، وهو خطأٌ مَحْضٌ، ولعلَّ الحادِيَ لهم على هذا التّصَنُّعِ رَغْبَتُهم في الظُّهورِ بمَظْهَرِ المُدافِعينَ عنِ الاجتماعِ العربيِّ القديم. وهمْ بذلكَ يُسيئونَ إليه من حيثُ يَظُنّونَ أنّهم يخدُمونَه، فإنّ مَعْنى التّسليمِ بأنّ القبيلةَ، منَ النّاحيةِ السياسيّةِ، دَوْلَةٌ، التّسليمُ بأنّ البيئةَ العربيّةَ تَجْمَعُ المؤهّلاتِ الخاصّة بالدّولةِ. وفي هذا تأْكيدُ ما تُوْسَمُ بهِ السُّلالةُ العربيّة من أنّها لا تَصْلُحُ إلّا لنوعِ هذا النّظامِ مهما آختَلَفَتْ بها البيئةُ. والحقُّ أنّ القبيلةَ لا يُمكِنُ أنْ تُعْتَبَر كذلكَ لأنَّ منْ خصائصِ الوَحْدَةِ السياسيّةِ: الأرضَ، والشّعبَ، والاسْتقرارَ، والنّظامَ، والاشْتراكَ في الآمالِ.

ومنْ هذا يَظْهَرُ أنَّ القبيلةَ المُتَقَلْقِلَةَ لا يُمكِنُ بحالٍ أنْ تُعَدَّ مَظْهراً للدّولة أوِ المُقاطَعَةِ؛ وإنّما هي أُسْرَةٌ بنظامِها ومِزاجِها.

القبيلة ونظامها: لكيْ نَتَحَقّقَ من صِدْقِ هذهِ النّظريّاتِ يَلْزَمُنا أنْ نَسْتَعْرِضَ، على وَجْهٍ سريعٍ، القبيلةَ والنّظامَ القبليَّ الذي كان سائِداً عندَ عربِ الجاهليّة. فالقبيلةُ طائِفةٌ مُتَبَدِّيَةٌ من النّاسِ تعيشُ مُتَقَلْقِلَةً فوقَ بِقاعٍ من الأرضِ تَصْلُحُ للحياةِ بأضيقِ معانيها. ومنْ فَرْطِ تَماسُكِها تَذْهَبُ إلى أنّها أُسْرَةٌ حقيقيّةٌ لها أبٌ واحدٌ قديمٌ، كَرَّمُوه بأنّه مَصْدَرُ التّاريخُ أوِ التّاريخُ نفسُه، على ما أطْبَقَتْ عليه المعاجِمُ نصّاً... والغريبُ غَفْلَةُ الباحثينَ القوميّينَ عن هذا النّصِّ الثّمينِ، الّذي يُشْرِعُ مَغالقَ الماضي المُوصَدَةَ على ما يَتَعَلّقُ بالمعنى الاجتِماعِيِّ للقَبيلَةِ في الخَيالِ العَرَبيِّ البِدائِيِّ، وما فيه من مَفْهومٍ عُضْوِيٍّ يُداخِلُهُ مفهومٌ زمانيٌّ مُتَمادٍ في أعْماقِ الماضي البعيد.

هذا النّصُّ يَعْدِلُ، من حيثُ القيمةُ الفَنّيّةُ الآثاريَّةُ، نُقوشَ مِسَلَّةٍ من مَسَالِّ قُدَماءِ الفراعِين، وأغنى النّصّ اللُّغويّ القاطِعَ بأنَّ التّاريخَ كلمةٌ في مقدِّمَةِ مَعانيها الأصيلةِ: الجَدُّ، أي الأبُ الأعلى الأكبر.

والقبيلةُ، من وجهٍ عامٍّ، وَحْدَةُ العرب الاجتماعيّةُ، ونِظامُها يميلُ إلى الاشتراكيّةِ السّاذَجَةِ، إلّا أنّها آستطاعتْ أنْ تُذيبَ الفَرْدِيَّةَ تماماً من جِهةٍ، وأنْ تُحَقِّقَ صِلَةَ الجماعةِ بالفَرْدِ من جهةٍ أُخرى. فكما لم يكنْ له آستقلالٌ شَخْصِيٌّ فيما تَتّجِهُ إليه الجماعةُ، كانَ عليْها أنْ تَكْلأَ جانبَ الفَرْدِ وتَحوطَه من العُدْوانِ. وكان يُشْرِفُ على هذا النّظامِ رئيسٌ له شِبْهُ سُلطةٍ مُطْلَقَةٍ، ومن فَرْطِ خضوعِهم لنوعِ هذا النِّظامِ، آسْتِجابةً لمطالِبِ البيئَةِ الّتي لا تَسْمَحُ للفردِ أنْ يعيشَ وحدَه، فَيَطْلُبَ دائماً الاندماجَ في الجماعةِ، سَيْطَرَ عليهم الحماسُ للقبيلةِ وتَوَهَّجَ بنارِه في نُفوسِهم. وهكذا تَكَوَّنَتِ العصبيّةُ العنيفَةُ عندَ القبيلةِ للفردِ، وعندَ الفردِ للقبيلةِ. هذهِ العصبيّةُ الّتي كان من شِعارِها «أُنْصُرْ أخاكَ ظالِماً أوْ مظلوماً» وقول قُرَيْطِ بْنِ أُنيْف:

لا يَسْألونَ أخاهُمْ حينَ ينْدُبُهُمْ ... في النّائِباتِ علَى ما قالَ بُرْهَانا

حَنَتْ نفوسُ العربِ على آعْتِباراتٍ شديدةِ الخُطورةِ في تَوْزيعِ الشّعورِ وبَدَواتِ الإحساسِ، وأقامَتْ مُيولَهم على قاعِدةٍ بالِغةِ الضِّيقِ بالِغةِ الحَرَج. وبرُغْمِ أضْرارِها كانتْ ضَرورَةً مِن ضَروراتِ المحافظةِ على البقاءِ في حُدودِ القبيلةِ، من حيثُ رَكَّزَتْ في طِباعِهم وَحْدَةَ المطالبِ والغاياتِ والأفكارِ والعاداتِ، وَوَسَمتْهم بِسِمَةِ التّكافُلِ والتّضامُنِ السّابِغَيْن. فكانَ هذا الوضعُ الحَيَوِيُّ لديهمْ يُشْبِهُ نظيرَه عندَ الإسْبَرْطِيِّينَ، وإن كانَ وضْعُ الحياةِ في إسْبَرْطَةَ أكثرَ مَيْلاً إلى اللّونِ الحضاريِّ والطّابَعِ القَوْميِّ.

إنَّ ضَرورةَ التّعاوُنِ في الدِّفاعِ عن النفسِ، صَيَّرَ بينَ القبيلةِ آصِرَةً قويّةً ولُحْمَةً تَكادُ تَكونُ عَضَلِيَّةً مُجْتَمِعَةَ الأليافِ، وأقامَتِ المجتمعَ العربيَّ على العَصَبِيَّةِ النَّكْراءِ. ولقدْ غَلَتْ

بهم حتّى آمْتَدَّتْ بآثارِها إلى القانونِ والعُرْفِ، وحتّى آسْتحالَ تاريخُ العربِ القَبَليُّ إلى تاريخِ للدِّماءِ. وإذا أرَدْنا أنْ نَحْصُرَ بَواعِثَ التّاريخِ لَدَيْهِم فلا نَجِدُ شيئاً وراءَ هذه الدَّاعِيَةِ العنيفةِ؛ وقدْ نكونُ أكثَر تَحْقيقاً إذا قَرَّرنا أنّها كانتِ المُحَرِّكَ الحيويَّ العامَّ، فقدْ ظَهَرَتْ بألْوانِها في الاجتماعِ والأخلاقِ والأدبيّاتِ وفي المُثُلِ أيضاً. فكانَ لكُلِّ قبيلةٍ طَوْطَمٌ خاصٌّ بها، بِحَسَبِ التَّسْمياتِ الحديثةِ، وطقوسٌ تُرْضي تَصَوُّراتِها وتَنْسَجِمُ مع مَذاهبِ ميولِها. ولم تكنْ عندَ العربِ نَزْعَةٌ ما، تَفُوقُ هذه النَّزْعَةَ في عُنْفِها وشِدَّتِها، وكانتْ إلى جانبِ هذا مَعِيْناً، تَمُدُّ خَيالَهم الأدبيَّ والمثاليَّ. فآسْتِحكامُ القَبَلِيَّةِ على هذهِ الشَّاكِلَةِ عندَ الجاهليّينَ يُظْهِرُنا على مِقدارِ الجُهودِ الواجبِ بَذْلُها، لتطهيرِ النّفسِ العربيّةِ، وإعْدادِها بسبيلِ المبادىءِ الجديدَة.

والنّبيُّ (ص) آعْتَمَدَ في كِفاحِ العصبيّةِ على شتّى الوسائلِ، وطاوَلَها مُطاوَلةً كانتْ قَمينـةً بأنْ تَأْتيَ عليها، وبالفِعلِ رأَيْنا أنّها آسْتَتَرَتْ في زمنِ النبيّ (ص) وآسْتَخْفَتْ كما يَسْتَخْفي الميكروبُ في أنحاءِ الدَّمِ، حتّى إذا هادَنَهُ العِلاجُ ظَهَرَ بعُنْفِهِ وقُوّتِه وآنْتَشَرَ بحُمّاهُ. وسِياسَةُ النّبيِّ (ص) تَتَلَخَّصُ بالسُّمُوِّ ببيئةِ العربِ، والقضاءِ على المِزاجِ العَقْليِّ القَبَليِّ بإعطائِهم مِزاجاً عقليّاً جديداً خليقاً بتصريفِ حركاتِهم في كِيانِهِم الدَّوْليِّ الجديدِ، وتَهْيِئَتِهِمْ معَ الزّمنِ لما يُسَمّونَهُ بِخَلْقِ الأُمّةِ على شكْلٍ صالحٍ. وهذا يَسْتَدْعي منَ العِنايةِ العمَليّةِ أكْبَرَها، وإلّا فمُجَرَّدُ[11] التّعاليمِ لا تكفي لتغييرِ روحِ الأُمّةِ، ولذا قال نُقّادُ الثّورةِ الفرنسيّةِ إنَّ الشّعبَ الفرنسيَّ سار في طُرُقِ المَلَكِيّةِ منْ حيثُ لا شُعورَ، وكذلكَ الشّأنُ في العربِ فإنّهم عادوا، في ظِلِّ الحُكومةِ الجديدةِ والتَّعْليمِ الجديدِ، إلى مِزاجِهم العقليِّ القديمِ. وعندي

---

(١١) وشاهدُ هذا أنّ التّنافُسَ على القُرُباتِ الدّينيّةِ دَخَلَهُ شيءٌ كبيرٌ مِنَ العصبيّةِ أيْ أنها تأثّرتْ بالمزاجِ العقليِّ القديمِ. ذَكَرَ آبْنُ جريرٍ الطّبريّ في ج ٣، ص ٧: «أن هذين الحيَّيْنِ من الأنصارِ، الأوسَ والخزرَجَ، كانا يَتَصاولانِ مع رَسولِ اللّه (ص) تَصاوُلَ الفَحْلَيْنِ، لا تَصْنَعُ الأوْسُ شيئاً فيه غَناءٌ عن رَسول اللّهِ إلّا قالتِ الخَزرَجُ واللّهِ لا يَذْهبونَ بهذِهِ فَضْلاً علينا عندَ رَسولِ اللّهِ في الإسلامِ، فلا يَنْتَهون حتّى يوقِعُوا مِثْلَها... إلخ»، وهذا خبرٌ يُرينا مِقْدارَ تأثيرِ المِزاجِ العَقليِّ الّذي لم تَضْعُفْ شَكيمَتُه بعدُ، برُغْمِ ما كانَ يَأْخُذُهم النّبيُّ بهِ من تهذيبٍ، فالقَبَليّةُ بلا شَكٍّ كانَتْ لدى العَربِ مُسَيِّراً أعظم.

أنّ في جملةِ الأسبابِ الّتي أعانَتْ على أنْ تَنْجُمَ العصبيّةُ مرّةً أُخرى أمرَيْنِ مُهمَّيْنِ:

١ـ التّعَجُّلُ بالفتوحِ قبلَ الاختمارِ الدِّينيِّ الّذي يُؤَلِّفُ مِنْ مجموعِ الصّفاتِ النّفسيّةِ للأفرادِ صِفَةً عامّةً، وهي الّتي يُعَبِّرُ عنها لدى الباحثينَ القوميّينَ بخُلُقِ الأُمّةِ. ممّا أدّى إلى أنْ يَخْرُجَ هذا الخليطُ الكبيرُ منَ العربِ، ويَنْتَشِرَ في بِقاعٍ واسعةٍ من الأرضِ، حاملاً غَريزَتَهُ الاجتماعيّةَ الّتي كانتْ لا تزالُ أكثرَ اتّصالاً بأسبابِ نَفْسِه، ولقدْ تَمْتَدُّ فَتَصْبُغُ كلَّ صِفاتِه الأدبيّة بِصِبْغَتِها.

٢ـ عَدَمُ عنايةِ حكومةِ الخُلفاءِ بِبَثِّ التّربيةِ الدّينيّةِ على النَّحْوِ الّذي جَرى عليهِ النّبيُّ (ص)، هذه التربيةِ الّتي إذا اقْتَرَنَتْ بالزّمنِ كَوَّنَتِ المِزاجَ العقليَّ للأُمّةِ الّذي هو الوَحْدةُ الحقيقيّةُ لها، والرِّباطُ المعنويُّ الثّابتُ. فإنّه يعملُ في تَطَوُّرِ الأُمَمِ من وراءِ النُّظُمِ والفُنونِ والتقلُّباتِ السياسيّة.

وهذانِ سببانِ مُهمّانِ، سَنَتَكَلَّمُ عليهما عندَما نَتَناوَلُ الفكرةَ الدينيّةَ عندَ العربِ، لأنّهما أكبرُ مَساساً واتّصالاً بها. وخليقٌ بنا أنْ نَسْتَعْرِضَ المناسَباتِ الّتي ظَهَرَتْ فيها الفِكرةُ القَبَلِيَّةُ بشكلِها العنيفِ بعدَ أنْ أسْلَمَ النبيُّ (ص) نَفْسَه ولَحِقَ بالرَّفيقِ الأعْلى. وأَهَمُّ المواقِفِ الّتي غَلَتْ فيها العصبيّةُ، أو كانَتْ مُعْتَرَكاً للعصبيّاتِ في عَهْدِ الخُلفاءِ، هي:

١ـ الانتخابُ يومَ السّقيفَةِ: فقدْ كانَ تَنازُعاً تَمُدُّهُ العَصَبِيَّةُ بأسْبابها، وأيُّ واقفٍ على الخبرِ لا يَخْفَى عليهِ جانبُ العَصَبِيّةِ في هذا النِّزاعِ. بَيْدَ أنّه كان مُتَمَيِّزاً مع ذلك بصفةٍ هامّةٍ، وهو التّنازُعُ والخلافُ ضِمْنَ نِطاقٍ محدودٍ تَحْتَرِمُهُ الجماعةُ كافّةً، وفي حُدودِ رَمْزٍ واحدٍ يَخْتَلِفونَ إلّا عليه، ولذلكَ لم تعملِ العصبيّةُ عملَها النّكيرَ، وكانتْ عَقيمةَ الأثَرِ، لأنَّ الجمهورَ المُتَنازِعَ كانَ مُخْتَمِرَ النَّفسِ، مَشْبوبَ العقيدةِ، عامرَ القلبِ بالمبدأ السّامي. وهذا يُظْهِرُ صِدْقَ نظريَّتِنا في أنَّ الخُلَفاءَ لو عُنُوا ببثِّ التربيةِ الدينيّةِ على الشّكلِ الذي بثَّهُ النبيُّ (ص) في نُفوسِ الجُموعِ القريبةِ منه، لما تَفَرَّقَ العربُ قِدَداً، وتَطَوَّحوا في مذاهبَ مُخْتَلِفةٍ. وإليك

خَبرَ هذا اليومِ الّذي يُعْتبَرُ أولَ آجْتماعٍ آنْتخابيٍّ في تاريخِ الدّولةِ العربيّةِ:

إجتمعَ الأنصارُ في سقيفةِ بني ساعدةَ، وقدْ عَقَدوا أمْرَهم على تَوْلِيَةِ سعدِ بنِ عُبادةَ، ثمَّ تَوافى النّاسُ إليهم، فَتَكَلّمَ سَعْدٌ، وكان مَنْطِقُ خُطْبَتِهِ يدورُ على أنّ الغُنْمَ بالغُرْمِ. والأنصارُ هم الّذين غَرِمُوا في سِلْسِلةِ الحروبِ وحركاتِ الجهادِ الّتي قام بها النّبيُّ (ص)، وهاتانِ المُقَدّمتانِ تُسْلِمانِ إلى النّتيجةِ الّتي يَتَوَخّاها سعدٌ زعيمُ الحزبِ الأنْصاريِّ الّذي يقولُ بأنّ الخلافةَ للأنصارِ. ثمّ تَكَلَّمَ أبو بكرٍ، وكانتْ عناصِرُ دِفاعِهِ عن قَضِيَّةِ المهاجرينَ تَرْجِعُ إلى أنّ قاعدةَ الغُنْمِ لا تَصِحُّ ضِدَّ المهاجرِينَ الأوّلينَ الذين كانوا التُّرْبَةَ الأولى للنّواةِ الإسلاميّةِ، فهم زُملاءُ النّبيِّ (ص) في الدّعوةِ إلى الدّينِ الجديدِ، فلِلأنصارِ مَنْزِلَتُهم ولكنْ على غَيْرِ هؤلاءِ الأُشابَةِ المختارَةِ. وهذا المَنْطِقُ أسْلَمَه إلى النّتيجةِ الّتي شَغَلَتِ الأنصارَ وجعلتْهم يُفَكِّرونَ في شيءٍ جديدٍ، وهي الّتي طَرَحَها أبو بَكْرٍ «نحنُ الأمراءُ وأنْتُم الوزراءُ».

وأعْتَقِدُ بأنّ خُطبةَ أبي بكرٍ كانتْ مُداوَرَةً لَبِقَةً أكثرَ ممّا كانتْ دِفاعاً بالمعنى المقْصودِ من هذا اللّفْظِ، وبراعتُهُ الفائِقَةُ ظَهَرَتْ في الفِكرةِ الجديدةِ الّتي آنْتَهى إليها، ففيها إغراءٌ، وبذلكَ أطْمَعَهم وحرَّك آمالَهم، وفيها تسليمٌ بقاعدةِ الغُنْمِ بالغُرْمِ، وبذلك أعْطى على نفسِه وحِزْبِهِ ضَماناً للأنصارِ بأنَّ لهم أنْ يَسْتفيدوا من المراكزِ الّتي تَلي الخِلافةَ بالذّات.

وكَمْ كانَ أبو بكرٍ دقيقاً حينَ خَصَّ دِفاعَه بطائِفةِ المهاجرين الأوّلينَ فقطْ دونَ المهاجرينَ عامّةً، وإلّا لَتَهَدَّمَ دِفاعُهُ من أساسِهِ لأنّه ليسَ لِعامّةِ المهاجرين هذهِ الصِّفةُ التي أوْسَعها في خِطابه، كما أنّه بذلك لمْ يُوقِظِ العَصَبِيَّةَ الرّاكِدةَ. ولا ريبَ في أنّ أوّلَ أثَرٍ يترُكُه هذا الدِّفاعُ في جماعةِ الحِزْبِ الأنْصاريِّ الانقسامُ، وقد أحسَّ بهذا الانقسامِ الحُبَابُ بنُ المُنْذِرِ من الأنصارِ، فآجْتَهَدَ بأنْ يُنْقِذَ الموقِفَ بآقْتراحٍ جديدٍ وهو «منّا أميرٌ ومنكم أميرٌ». وكانَ خليقاً أنْ لا يُلاقيَ أشْيَاعاً لأنّه رُجوعٌ إلى المنطِقِ القَبَليِّ الخالِصِ. على أنّ العصبيّة أبَتْ إلّا أنْ تَذُرَّ قَرْنَها وسَطَ هذا الانتخابِ فقالَ عمرُ: «واللهِ لا تَرْضى العربُ أنْ يُؤَمِّروكُمْ ونَبِيُّها منْ

غيركم ولكنَّ العربَ لا تَمْتَنِعُ أنْ تُوَلِّيَ أمْرَها منْ كانتِ النُّبُوَّةُ فيهمْ وَوَلِيُّ أمرِها منهم، مَنْ ذا يُنازِعُنا سُلْطانَ مُحَمَّدٍ وإمارَتَه، ونحنُ أوْلياؤُه وعشيرتُه، إلّا مُدِلٌّ بباطلٍ أو مُتَوَرِّطٌ في هُلَكَة».

فقالَ الحُبابُ بنُ المنذرِ ردّاً عليهِ: «يا مَعْشَرَ الأنصارِ آمْلِكوا على أيديكم ولا تَسْمَعوا مقالةَ هذا وأصحابِهِ، فيَذْهَبوا بنَصيبِكمْ منْ هذا الأمرِ، فإنْ أبَوْا عليكمْ ما سألْتُموهُ فآجْلوهُم عن هذه البلادِ وتولَّوْا عليهم هذه الأمورَ، أنا جُذَيْلُها المُحَكَّكُ وعُذَيْقُها المُرَجَّبُ أمّا واللّهِ لئِنْ شِئْتُمْ لَنُعِيدَنَّها جَذَعَة».

وقال سعدُ بنُ عُبادة لِعُمَرَ: «واللّهِ لو أنَّ بي قُوّةَ ما أقوى على النّهوضِ لَسَمِعْتَ منّي في أقْطارِها وسِكَكِها زئيراً يُجْحِرُكَ وأصحابَكَ، أمّا واللّه إذاً لأُلْحِقَنَّك بقوْمٍ كُنْتَ فيهم تابِعاً غيرَ متبوع».

ومنْ هذهِ المُقاوَلاتِ نَفْهَمُ أنَّ فكرةَ الدّولةِ كانتْ بعيدةً عن أذْهانِهم، كما نَلْمِسُ مِقدارَ الأثَرِ القَبَليِّ في الخِلافِ، ولكنّه لم يَتَحَوَّلْ إلى صراعٍ فَفَوْضى كبيرةٍ، لأنّ نُفوسَ المُخْتَلفينَ كانَتْ أكثرَ تَهْذيباً بآثارِ النُّبُوَّةِ، فلذلك كانَتْ أقَلَّ عُنفاً.

٢ـ الارتداد: كانَ الارْتِدادُ حركةً يُرَادُ بها في أوّلِ الأمر الخروجُ على السُّلطةِ المركزيّةِ الّتي تُمَثِّلها هيئةٌ حاكمةٌ في المدينةِ. ولا رَيْبَ في أن الباعِثَ الأعَمَّ عليها هو العصبيّةُ التّاريخيّةُ بين طوائِفِ الشّمالِ وطوائفِ الجَنوبِ. ثُمَّ غَلَتِ العَصَبِيّةُ في جَماعاتٍ، فَعَمَدوا إلى الانْفصالِ بكلِّ الأشكالِ حتّى في الدِّينِ، فقدْ قَدَّموا أنبياءَ أيضاً قاصِدينَ بذلك القَضاءَ على كُلِّ ما يُشْتَمُّ منه رائحةُ الاتّصال.

وهؤلاءِ المُتَنَبِّئُونَ لاقَوْا تَعْضِيداً من أغلبِ المُرْتَدِّينَ الّذين وَجَدوا فيهم الرَّمْزَ الرّوحيَّ المفقودَ لحركتِهم الانفصاليّةِ، الّتي كانت جُزْءاً من الصِّراعِ القديمِ بينَ الشّمالِ والجَنوبِ، وبالتّالي بين القَحْطانيّةِ[١٢] والعَدْنانيّةِ. ونحنُ إذا لاحظْنا أنّ الرُّوحَ القبَليَّ لا يَنْسجِمُ والحُكْمَ

---

(١٢) يَذْهَبُ العلاّمَةُ جويدي المستشرقُ الإيطاليُّ إلى أنّ الأوْلى في التقسيم الاعْتِمادُ على النّسبةِ الجغرافيةِ لأنّ في الشّمال قَحطانيّين وفي الجُنوبِ أيضاً عدنانيّين.

المركزيَّ بحالٍ، نَقَعُ على الحافزِ المُهِمِّ الّذي دَفَعَ المُرْتَدّينَ إلى تشكيلِ حركتِهم الكبيرةِ بشكلِها العنيفِ، ونرى أيضاً كيفَ عَثَروا بسرعةٍ على ما يُوَحِّدُ بينَ جُهودِهم الخاصّةِ. ويَحْسُنُ بنا أنْ نَتَكَلَّمَ بإجمالٍ عن كلمةِ آرْتدادٍ، وعن عوامِلِه الأُخْرى.

لم يكن[١٣] لهذا اللّفظِ مَعناه الفِقْهيُّ الذي يُرادِفُ الإلْحادَ في ذلك الزّمنِ، وإنّما أُطْلِقَ بمعناهُ اللُّغَويِّ فقطْ، الّذي يُفيدُ النُّكولَ والرُّجوعَ، لأنَّ من جُملةِ طوائفِ المُرتَدّينَ جماعاتٍ لم تَكْفُرْ ولم تُلْحِدْ، وإنّما آمْتَنَعَتْ عنِ التَّقَيُّدِ بممارسةِ النّظامِ الماليِّ الّذي كانتْ تُمارِسُه في زمنِ النّبيِّ (ص). وعليه فالمُرْتَدُّونَ قِسمان:

١ـ المُلحِدُونَ وهمُ المُفرِطونَ في العَصَبيّة.

٢ـ الخارِجُونَ على السُّلطةِ المركزيّة في المدينةِ.

وعواملُ هذه الحركةِ، عدا ما ذَكَرْناه، كثيرةٌ منها:

أ ـ الجُحودُ الطّبيعيُّ في النفسِ البَدَويّة، وحالَةُ الشَّكِّ الدّينيِّ المُتَوَلِّدِ عندَهم من تناحُرِ الدّياناتِ المُخْتَلِفَةِ.

ب ـ فَقْرُ العرب.

ج ـ نَظَرِيَّتُهُم في الحكومةِ بأنّها عُدْوانٌ على الحُرّيّةِ الشّخصيةِ والكِيانِ الفَرْدِيِّ.

د ـ نظريَّتُهم في الزّكاةِ بأنّها ضريبةٌ تَمَسُّ الاستقْلالَ الماليَّ للفردِ، وتُنافي المِلْكِيّاتِ الخاصّة.

ويُضافُ إلى هذا سببٌ آخرُ مبْنيٌّ على نظامِ[١٤] الطّبقاتِ حَسَبَ ما هو وارِدٌ في الهامِشِ.

---

(١٣) ومنْ هذا يَظْهَرُ ما في تَقْريرِ بَعْضِ المؤرّخينَ مِنْ أنّ هذا اللّفْظَ أطلَقَهُ عليهم خُصومُهم للتّهْييجِ، من مُجازَفةٍ وعدَمِ تَحْقيق.

(١٤) كانتِ القبيلةُ تَعرِفُ نِظامَ الطّبقاتِ فكانَتْ عندَهم:

١ـ طَبقةُ الأحرارِ أي العربُ الخُلّصُ الذين لم يجرِ عليهم رِقٌّ.

٢ـ طبقةُ العبيدِ وهمْ أسارَى الحربِ أو الذين يُشْرَوْنَ بالمال.

٣ـ طبقةُ المَوالي، وهي طَبَقَةٌ وُسْطى بينَ الحُرِّ والعبْدِ. وأنواعُ الوَلاءِ كثيرةٌ، منها مولى الموالاةِ ومَوْلى النسَبِ ومَوْلى العِتاقة.

هـ - فَهْمُهُم للزّكاةِ بأنّها حقٌّ لازمٌ للطَّبَقَةِ الفقيرةِ يُؤْخَذُ منهم بالكَرْهِ، وفي هذا تَهْديدٌ لنُفوذِ الطَّبقةِ الماليّةِ، فلا بِدْعَ إنْ رَأوْا في نِظامِ الزّكاةِ آسْتِطالةً وتَطَفُّلاً. وبذلك نَفْهَمُ أنّ حركةَ المُرْتدّينَ، في حقيقتِها، كانَتْ «ثورةَ شِبْهِ الرأسماليّةِ على المبادىءِ الاشتراكيّةِ الجديدةِ» تُحَمِّسُها العصبيّةُ ويُذْكِيها الرّوحُ القَبَليُّ.

والآنَ نعودُ إلى صَدْرِ الحديثِ لنُجيبَ على سؤالٍ وهو: كيفَ آستساغَ هؤلاءِ الحُكْمَ المركزيَّ في ظِلِّ حكومةِ النّبيِّ (ص) ولم يَسْتسيغوهُ بعدَ ذلك؟

يَرْجِعُ السّببُ في هذا إلى أنّهم أخذوا حكومةَ النّبيِّ (ص) من جانبِها الرّوحيِّ ونَظَروا إليها من هذهِ النّاحيَةِ فقطْ، فلمْ يَجِدوا فيها ما يُحْيي عَنْعَناتِهم العَصبيّةَ القديمةَ، وما يُهيجُ فيهم الحَماسَ التّقليديَّ. إن النَّظَرَ إلى النّبيِّ (ص) كانَ دينيّاً مَحْضاً على أنّه، وإنْ مارسَ السُّلْطَةَ الزمنيّةَ، فقد كانتِ الصِّبْغَةُ الدينيّةُ تَغْمُرُها حتّى لَتُخْفي بَوَاديَ الحُكْمِ والسّيطرةِ، ويكفي أنْ نَعْرِفَ أنّ الاعتقادَ حينَئذٍ بأنّ إسْلاسَ القِيادِ في يدِ النّبيِّ (ص) قُرْبَةٌ دينيّةٌ وذَخيرةٌ أُخْرَوِيّةٌ، وليسَ كذلكَ الخليفةُ بعدَه، مهما كانتْ مَزاياه. ونحنُ إذا دَرَسْنا كلمةَ «خليفَة» الّتي تُفيدُ معنى النِّيابةِ في الحكمِ دونَ الاستقلاليّةِ فيه، نَشْعُرُ بأنّ الهيئةَ الحاكمةَ إنّما آختارَتْها لَقَباً لِيُلينوا من شَكيمةِ أولئكَ النّافرينَ، حينَ لا يكونُ من مَعْناها شيءٌ سِوى الإشْرافِ على الحُكم بالوِكالة، وفي هذا اللّفظِ لَباقَةٌ تُسَهِّلُ وَقْعَه.

وهذا التّحليلُ يُظْهِرُنا على أنّ السّلطةَ لو أُسْنِدَتْ منْ أوّلِ الأمرِ إلى شخصٍ من أُسرةِ النّبيِّ (ص) لكانتْ أكثرَ آنْسِجاماً معَ الرّوحِ العربيّةِ السّاذَجَةِ البعيدةِ عنْ مَذْهَبِ الحُكمِ، منْ حيثُ إنّها تَمْنَحُهُ جُزءاً من نَظَرِها الرّوحيِّ الذي كانَتْ تَنْظُرُ به وحدَه إلى النّبيِّ (ص).

وكانَ لهذا النّظامِ نَتائجُ هامّةٌ، فالعبدُ عديمُ الحقوقِ جُمْلَةً، والحرُّ يَتَمَتَّعُ بالحقوقِ العامّةِ كاملةً، وهي الّتي تُسَمّى الآنَ مدنيّةً، والمولى وَسَطٌ بينَ التّمَتُّعِ بالحقوقِ كامِلةً والحرمانِ منها جُملةً، فليْس من حقِّ المولى أنْ يَنْتَسِبَ إلى القبيلةِ إلّا مَسْبوقاً بكلمة حليفٍ، ولهُ أنْ يَرِثَ من حَليفِه بخِلافِ العَبد.

ويَحْسُنُ أنْ نُعْنى بِفَهْمِ وُجْهَةِ هذا النّظرِ لأنّه يُجْلي لنا السِّرَّ في آنْدفاعِ قبائلِ الجُنوبِ إلى الخُروجِ، كما أنّه يُعَرِّفُنا أنّ الأساسَ الّذي قامتْ عليه الحُكومةُ لم يَكُنْ ثابتاً إلى حدٍّ كبير.

نحنُ نَعْرِفُ أنّ الاعتقادَ في حكومةِ النّبيّ (ص) قائمٌ على أنّها إلهيَّةٌ مَحْضٌ، وأنّ مُمارسَتَهُ لها ضَرْبٌ من رِسالتِه التّشريعيّةِ، فلا عَجَبَ إذا مالتِ القَبائلُ إلى الرِّضا والاستسلامِ، ولم تُحارِبِ السُّلطةَ المُطْلَقَةَ في شَخْصِ النّبيّ (ص). وموتُ النّبيِّ وَضَعَ حدّاً لهذا الاعْتقادِ في الأشخاصِ، فلم يكنْ بِدْعاً أنْ تَنْظُرَ القبائلُ إلى القائِم بأعباءِ الحُكمِ من بَعْدِه بالنّظرِ الآخَرِ الّذي يُحْيي فيهم النّزَعاتِ الكامِنَةَ، ويوقِظُ لَدَيْهم الحماسَ القبَليَّ القديمَ، بقَطْعِ النَّظَرِ عنِ الصّلاحياتِ والمزايا الّتي يَتَمَتّعُ بها المُرشَّحُ. هذهِ الصَّلاحيّاتُ الّتي كانتْ بعيدةً عن فَهْمِ أولئكَ العربِ الفِطْريّين.

ومِمّا يشهدُ لهذا أنّ بعضَ الصَّحابةِ حينَما تُوُفِّيَ النّبيُّ (ص) آعْتَقَدُوا بأنّ كلَّ شيءٍ قدِ آنْتهى ومالُوا إلى العُزْلةِ مُمارسينَ واجباتِهم الدّينيّةَ بينَهم وبينَ أنْفُسِهم، مِمّا دَعا أبا بَكْرٍ إلى تَذْكيرِهم بأخْبارِ النّبيّ (ص) المُتَعَلِّقةِ بَغَلَبَةِ كِسرى وقيصر. وهذا يُظْهِرُنا على أنّ العربَ حينَذاك لم تَكُنْ لهمْ فِكرةٌ عن الحكومةِ الزَّمَنيّةِ أبداً، ولا رَغْبَةٌ خاصّةٌ بعيدةٌ عنِ الدّينِ في المحافظةِ على الدّولةِ العربيّةِ الفَتِيّةِ.

إذاً فأوّلُ ما يتبادَرُ إلى ذِهنِ الأعْرابِ، إذا رَأَوْا رَجُلاً من عامّةِ العربِ يَتَبَوَّأُ كُرْسِيَّ الحُكْمِ، أنّ الأمرَ تمَّ له بالغلَبَةِ فقطْ، والنّتيجةُ المنطِقِيّةُ لهذا أنّهم ما داموا ذَوِي سلطةٍ تُخَوِّلُ لهم الغَلَبَةَ في حَوْمَةِ الصِّراعِ فَهُمْ أحقُّ وأجْدَرُ بالأمرِ. وثَبّتَ صِدْقَ هذا النَّظرِ عندَهم، الخلافُ على التّرشيحِ الّذي نُميَ إليهم من أخبارِه، ولا شَكَّ قدْ كانَ فيهِم مَنْ يَرْثي لمصيرِ عليٍّ (ع) وهو الّذي عَرَفوهُ عن قُربٍ، وأحَبّوا فيهِ شخصيَّتَه الممتازةَ، ونحنُ نَعْرِفُ أيضاً بأنّ آعتقادَ الفِطْريّينَ يَنْصَرِفُ إلى الوِراثةِ الدّينيّةِ؛ وأُسْرَةُ النّبيِّ (ص) عريقةٌ بهذا النّوعِ من التّخصيصِ والامتيازِ الرّوحيِّ، فلم يَكُنْ بعيداً أنْ يَطْمَئِنَّ العربُ النّاؤونَ إلى مُمارسةِ هذهِ

الأسْرَةِ الحُكْمَ في ظِلِّ الدينِ بالخِلافةِ والنِّيابةِ. والّذي يَدُلُّنا على صِدْقِ هذا التَّقْديرِ آحْتِجاجُ عُمَرَ (ض) الّذي آصْطَنَعَ فيه مَنْطِقاً صَوَّرَ فيهِ النّفسيّةَ العربيّةَ من هذه النّاحيةِ خيرَ تصويرٍ، فقد أشارَ لنا في كلمةٍ له يومَذاك إلى أنّ العربيَّ شديدُ النُّفورِ منَ السُّلطةِ إلّا عنْ نَبْعَةِ الدّينِ. ومنَ الخَيْرِ أنْ نَذْكُرَها على طولِها، لِما لها من القيمةِ الجَوْهَرِيّةِ في بَحْثِ هذا الموضوعِ، قال:

«واللّهِ لا تَرْضى العربُ أنْ يُؤَمِّروكُمْ وَنَبِيُّها من غَيْرِكم، ولكنَّ العربَ لا تَمْتَنِعُ أنْ تُوَلّيَ أمْرَها مَنْ كانتِ النّبوّةُ فيهم ووَلِيُّ أمرِها منهم، ولنا بذلكَ، على مَنْ أبى مِنَ العَرَبِ، الحُجّةُ الظّاهرةُ والسُّلطانُ المبينُ، مَنْ ذا يُنازِعُنا سُلطانَ مُحَمّدٍ وإمارَتَه ونحنُ أوْلِياؤُهُ وعشيرتُه، إلّا مُدِلٌّ بباطلٍ أوْ متجانِفٌ لإثْمٍ أوْ مُتَوَرِّطٌ في هُلَكَةٍ»[15].

تأمّلْ قولَه: «ولكنّ العربَ لا تَمْتَنِعُ أن تُوَلّيَ أمرَها مَنْ كانتِ النُّبُوّةُ فيهم»، الّذي هو بيانٌ تَصْويريٌّ يَكْشِفُ بِجَلاءٍ عن خَوافي النّفسيّةِ العربيّةِ من هذه النّاحيةِ. ونحنُ الآن نَسْتطيعُ أنْ نَستفيدَ من مَنْطِق عُمَرَ (ض) الّذي آسْتَعْمَلَه ضِدَّ خُصومِه السّياسيّينَ في آكْتسابِ قضيّةِ التّرشيحِ، من حيثُ هو شاهِدٌ على ما نَدَّعِي من أنّ النّفسَ العربيّةَ تَنْبو عنْ كُلِّ سلطةٍ على أيّةِ شاكِلَةٍ، إلّا إذا جاءتْ من جانبِ الدِّينِ فَتَلينُ شَكيمَتُها. وعُمَرُ بعدَ ذلكَ يَتوسَّلُ بأنّهم عشيرةُ النّبيِّ (ص) فهمْ أخْلَقُ بتمثيلِه، ومِنْ هذا نَنْتَزِعُ الدّليلَ على أنَّ السُّلْطةَ لو وُكِلَتْ إلى أُسْرةِ النّبيِّ (ص) من أوّلِ الأمرِ لَمَا شَجَرَ هذا الخلافُ، ولما ظَهَرَتْ حركةُ الارْتدادِ في أغلبِ الظّنِّ. وهذا لا يَعْني أنّ الأمْرَ سَيُفْضِي في النّهايةِ إلى الحُكمِ على نِظامِ الأسْرةِ، بل يَعْني أنّ شَكْلَه كذلكَ أكثرُ آنْسِجاماً معَ الرّوحِ السّائدةِ إذْ ذاك، وبالتّكَتُّلِ التّاريخيِّ، وقُرْبِ الأُمّةِ شيئاً بعدَ شيءٍ مِنْ فَهْمِ مذاهبِ الحكمِ، تَتَغَيَّرُ نَظْرَتُها.

وأذكرُ الآنَ، كَتَعْليقٍ على حركةِ الارْتدادِ، بأنّ الشِّدَّةَ الّتي أخَذَهُم بها أبو بكْرٍ (ض)

---

(١٥) راجع: تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٢٠٩.

وتَشديدَه الضَّربةَ القويّةَ إليهم كانت لِخَيْرِ الدّولةِ، لأنَّ أُوْلى النّتائِجِ الّتي تَرَتَّبَتْ على حركتِه المُوَفَّقَةِ هيَ إيجادُ الوَحْدَتَينِ السّياسيةِ والعسكريّةِ بِشَكْلِهِما الحقيقيّ. ونحنُ لا نُنْكِرُ بأنّ ظُهورَ الوَحْدَةِ العسكريّةِ التّامّةِ كانَ على يَدَيْ أبي بَكْرٍ، وإليهِ يرجِعُ الفَضْلُ فيها من أقْرَبِ طريقٍ، سواءٌ كانتْ هذه الوَحْدَةُ العسكريّةُ هدفَه أم لا.

٣- **إقْتِناعُ قُرَيْشٍ بِعَدَمِ العِصيانِ**، أو بتعبيرِ ذلك العَصر بعدَمِ الارْتدادِ: يُحدِّثُنا التّاريخُ بأنّ قُريشاً حاوَلتْ، ككثيرٍ منَ العربِ، أنْ تَخْرُجَ وتُعْلِنَ العِصيانَ، ولكنَّها عادت فرَكَدَتْ. وفي هذا الرُّكودِ السّريعِ ما يدعو إلى الدَّهْشَةِ، ويَحْمِلُ الدّارسَ على إنعامِ النّظرِ لِفهْمِ السّرِّ الصّحيحِ. وأعْتقِدُ بأنّ المؤرِّخينَ عُموماً لم يَكْتَنِهُوا الأسبابَ الحقيقيّةَ لِرِضا قُريشٍ بالتّعاوُنِ معَ حُكومةِ المدينةِ بالخضوعِ لها.

وتَعْليلُه عندِي بأنَّ التّنازُعَ على الخلافةِ يومَ السّقيفةِ كانَ في ظاهِرِهِ بينَ حِزبَيْنِ: كُتْلَةِ المهاجِرينَ وكُتلَةِ الأنصارِ، وفي حقيقتِه بينَ مكّةَ والمدينةِ. وكانَ الظَّنُّ القَريبُ أنّ المدينةَ سَتَفوزُ في الخِلافِ المُنْتَظَرِ، ولو تمَّ الأمرُ بِغَلَبَةِ الأنصارِ لما أخْلَدَتْ قريشٌ إلى السَّكينةِ أبداً، ولكنّ آنْسِيَاقَ الفَوْزِ إلى جانب المهاجِرينَ - أي فَوْزَ مكّةَ في الصّراعِ الانْتخابيّ - سهَّلَ على قُريشٍ الخضوعَ والاسْتِسْلامَ. ومعنى فوزِ مكّةَ في الحقيقةِ البعيدةِ فوزُ أكْبَرِ أُسَرِها المدنيّةِ، فلم يَفُزْ بنو تَيمٍ بفوزِ أبي بكرٍ بلْ فازَ الأُمَويّونَ وحدَهم، ولذلكَ صَبَغوا الدَّوْلةَ بصِبْغَتِهم، وأثَّروا في سِياستِها، وهمْ بعيدونَ عن الحكمِ، كما يُحَدِّثُنا المقريزي في رسالتِه **النّزاع والتخاصم**.

ومنْ تاريخِ هذا الفَوْزِ الانتخابيِّ بَدَأتْ سِعَايَةُ بني أُمَيّةَ لِتَهْيِئَةِ الأسْبابِ إلى الانْقلابِ الّذي سَيُفْضي في نهايتِه إلى آسْتِحْواذِهم على السُّلطةِ. وأيُّ ناظرٍ في حركاتِ أبي سُفيانَ لا يَشُكُّ بأنّه بَدَأ يعمَلُ بهِمّةٍ لا تعرِفُ الكلَلَ لتعبيدِ الأمورِ على ما يريدُ، فقد رأيْنا كيفَ يُفكِّرُ بآسْتعجالِ الأُمورِ منْ وراءِ شخصِ عليٍّ والعبّاسِ، وكيفَ يَسْتَعِدُّ ويُغْلِبُهما بآسْتِعدادِهِ لإحْداثِ الانْقلابِ، مُسْتَغِلّاً العناصرَ غيرَ الرّاضِيةِ عنْ نتائجِ الانتخاب.

وبالنَّظرِ إلى هذا التَّحليلِ لِرُكودِ قُريشٍ بعدَ التَّهَيُّؤ للثَّورةِ، نَلْمِسُ عملَ العصبيَّةِ الكبيرَ في هذا الحادثِ، ونَضَعُ أيدِيَنا على السّرِّ الصّحيحِ في مُحيط القَبَلِيّاتِ. وإنَّ مِنَ الغَرارَةِ الرُّكونَ إلى تصويرِ المؤرِّخينَ السّاذَجِ لهذا الحادثِ بأنّه نتيجةُ تعنيفِ الضميرِ الدّينيِّ وهو لم يَبْلُغْ بعدُ. إنّ الواجبَ التّاريخيَّ يَقْضي علينا بأنْ نَفْهَمَ كُلَّ حادثٍ في مُحيطِ القَبَليّةِ على ضوئِها لأنّها بآثارِها أقْوى من كُلِّ عاملٍ آخرَ، كالدّين مثلاً الذي لم يَخْتَمِرْ بَعْدُ في نُفوسِ العربِ آخْتِمارَ القَبَلِيَّةِ. ونحنُ، حينَما نُديرُ البحثَ في هذه الفَتْرةِ من التّاريخِ على قاعدةِ الدِّينِ قبلَ كلِّ شيءٍ، نُغالِطُ أنفُسَنا في حقائقِ الطَّبيعةِ البشريّةِ وأوّلِيّاتِ عِلمِ النَّفْسِ، كما أنَّ الميزانَ التّاريخيَّ الّذي قَرَّرْناهُ في التّصديرِ يَقْضي بأنْ يكونَ أثَرُ الدِّينِ البَديءِ، والمُثُلِ الجديدةِ في هذه النفوسِ، جُزْئِيّاً وعامِلاً على نَحْوٍ ما.

٤ـ التّعيينات الحكوميّة: أبْدى المَقْريزيُّ دَهْشَتَه المصْحوبةَ بتَساؤُلٍ حائرٍ، من حِرْمانِ بني هاشِمٍ مِنَ التَّعْيينِ في الولاياتِ، بينَما كانتْ مغمورَةً بالعُنْصُرِ الأُمَويِّ، ففي كُلِّ جِهَةٍ والٍ من أُمَيَّةَ. والمقريزيُّ لا يُخْفي دَهَشَه الشَّديدَ من هذا الإجْراءِ، لأنّه لا يُمْكِنُ تَبْريرُه بأنَّه لم يَكُنْ بينَ الهاشميّينَ رجلٌ واحدٌ كَفِيٌّ بأعْباءِ الوِلايةِ وتَبِعاتِ الإمارةِ، وهذا إذا أمْكنَ فَرَضِيّاً فإنّه يَسْتحيلُ في الواقِعِ. ونحنُ بهذا لا نُريدُ أنْ نَنْتَهِيَ إلى أنّ هذه السّياسةَ الإداريّةَ كانتْ مقصودةً من الخليفةِ القائِمِ تَحزُّباً وعصبيّةً، وإنّما دَلَلْنا عليها لِنَشْهَدَ من خِلالِ هذه السّياسةِ مقدارَ نُفوذِ الإصْبَعِ الأُمَويِّ في تَسْييرِ دَفّةِ الأُمورِ. وقد ساعَدَهم على آكتسابِ ثِقةِ الخُلَفاءِ أنّهم الأسْرَةُ السّياسيةُ العريقةُ ـ إذا صَحَّ هذا التّعبيرُ ـ فالخلفاءُ لذلك يُقَدِّرونَ مَواهِبَهم المدنيّةَ الموروثةَ. ومنْ ثَمَّ نَصِلُ إلى النّتيجةِ الخطيرةِ الّتي نَسْعى إلى تقريرِها وإيضاحِها وهي أنّ أكثريّةَ الأمراءِ والوُلاةِ كانوا من بني أُمَيَّةَ في أزْمانِ أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ، وإذا علِمنا أنَّ إثارةَ العصبيّاتِ المكْبوتَةِ كانتْ جُزءاً من سياسةِ الحِزْبِ الأُمَويِّ ذي المطامِعِ الكبيرةِ، آسْتَطَعْنا أنْ نَقْطَعَ بأنّ هؤلاءِ الوُلاةَ كانوا، وهمْ يُمارسونَ إمارَتَهم في زمنِ أبي بكْرٍ وعُمَرَ، لا يفتَؤُون

يُحْيُونَ كَوامِنَ النَّزعاتِ ويُرَبِّبُونَها لِيُلْهِبُوا المُجْتَمَعَ الإسلاميَّ الزَّاخرَ بما فيه من شُؤون.

وهذا تقديرٌ سَوْفَ يَسْتَبْعِدُه جُلُّ الدّارسين، ولكنَّهُ حقيقةٌ تُناصِرُها الشَّواهِدُ الكثيرةُ وتُعَلِّلُ الاضطِّرابَ السّريع.

٥ـ **التَّعْبِئَةُ القَبَليّةُ**: ونعني بهذا تنظيمَ الجيشِ تنظيماً بِحَسَبِ القَبائلِ، فكلُّ قبيلةٍ كانتْ تُشَكِّلُ فِرْقَةً من الجيشِ وقائِدُها هو الزّعيمُ القَبَلِيُّ نفسُه. وهذا، وإن كان يُوَلِّدُ مُنافَسَةً مَحْمُودَةً من حيثُ الاستبسالُ في الفَتْحِ، إلّا أنّ أضْرارَه في النّتيجةِ تفوقُ كلَّ تلك المزايا. ولقد سَمِعْنا في آحْتجاجِ أولئكَ الزُّعماءِ نَغْمَةَ أنّهم مَغْبُونُونَ وأنَّ ما نالَهم من فوائِدِ الحربِ أقلُّ بكثيرٍ من تَضْحِياتِهم، مِمّا يُؤَيِّدُ وُجْهَةَ نَظَرِنا في أنّ هذا المنطقَ آسْتَوْلى عليهم وظَهَرَ بعدَ حينٍ بخَطَرِه العَنيف.

٦ـ **السّياسةُ الماليّة**: لا رَيْبَ في أنّ النّظامَ الماليَّ لم يكنْ بعيداً عنِ التّأثُّرِ بهذهِ النَّزْعةِ القبليّةِ، وبالأخَصِّ في خلافةِ عثمانَ حيثُ ظَهَرَتْ فيه بكُلِّ جَلاءٍ. وسَيَأْتي لنا بَحْثُ النّظامِ الماليِّ حينَما نَتَناوَلُ بالدَّرسِ النّظامَ العامَّ، وسَتَرى هُناك أيَّ أثَرٍ كبيرٍ تَرَكَتْه السّياسةُ الماليّةُ الّتي قامتْ على أساسٍ قَلِقٍ، من شَأْنِه أن يُثيرَ الاضطّرابَ في كُلِّ مُناسَبةٍ، كبيرةٍ أو صغيرةٍ. وأنَّ مِمّا يَعْكِسُ لنا صورةً من قَبَلِيّةِ هذا النظامِ، تَرْتيبُ الدَّواوينِ على القبائلِ، وتَنْسيقُ القَيْدِ في السّجِلّاتِ على سُنَّتِها.

إذاً فقدْ ظَهَرَتِ القَبليّةُ في مُناسباتٍ شَتّى وظروفٍ كثيرةٍ، بلْ وفي كلِّ ظَرْفٍ منذُ وفاةِ النّبيِّ (ص). وهذه المناسَباتُ أيْقَظَتِ العَصَبيّةَ الكامِنةَ حتّى آنْطلقتْ في النِّهايةِ من عِقالِها وشكَّلَتِ الثّورةَ العنيفَةَ. وكان الواجبُ النظاميُّ يقْضي على هؤلاءِ الخُلفاءِ بآتِّباعِ السّياسةِ النبويّةِ في القضاءِ على العصبيّةِ النّكيرةِ، الّتي كانتْ تقومُ على أساسَيْنِ مُهِمَّيْنِ:

الأوّل: تَأْنيسُ النُّفوسِ الآبِدَةِ بتَطْرياتِ العقيدةِ، وصَقْلُ الضّمائرِ الخَشِنَةِ حتّى تعودَ إنسانيّةً نبيلةً تؤلِّفُ بينها مُثُلٌ واحِدةٌ تقومُ عليها وتَصْدُرُ عنها. وهو ما عنَيْناه ببَثِّ التّربيةِ الدّينيّةِ الّتي كانتْ لازِمةً لذلك المجتمعِ لُزومَ التّربيةِ الوطنيةِ في نظامِ القوميّاتِ الحديثِ. ولا

شكٌّ بأنّ دَفْعَ العَربِ الفِطْرِيّينَ إلى الفتحِ والجِهادِ، ثَنَى نُفوسَهم وجَوانِحَهم على تقاليدِهم القديمةِ وعاداتِهم السَّحيقةِ مُرَدّاةً برداءِ الدّينِ. فكانتْ تَرْبِيَتُهُم الدّينيّةُ شكليّةً مَحْضَةً.

وقد ذَكَرْتُ في كتابِ **سُمُوّ المعنى في سُمُوّ الذّات** طائفةً من الأخبارِ، تَشْهَدُ بأنّ الأعْرابَ خصوصاً لم يَتَضَلَّعُوا منَ الدّينِ. وقد كَبُرَ على كثيرينَ القولُ بأنّ الخلفاءَ لم يُعْنَوْا بهذا اللّونِ من التّربيةِ، فَتَساءَلوا عنِ الأشخاصِ الّذين أوْصَلوا الدّينَ إلى الجهاتِ المختلفةِ، وأعْطَوْا تلكَ المجموعةَ الإسلاميّةَ الكُبرى. ونحنُ لم نُنْكِرْ بأنّ الخلفاءَ عُنُوا بالفَتْحِ، وهو يَسْتَتْبِعُه دائماً دُخولُ أقوامٍ لا عِدادَ لهم في دينِ الغالبينَ، ولكنَّ دُخولَهم على هذا الشّكلِ لا يَعْني أكثرَ من أنّهم مُسْلِمونَ بالكَمِّ فقطْ، وهذا ما لم نُعْنَ به، وإنّما آنْصرَفْنا إلى دَرْسِ إسلاميّةِ هؤلاءِ وأولئكَ، من حيثُ آثارُها في الضّميرِ. والنّبيُّ (ص) أنْبَهَنا إلى أنّ المدارَ على الضّميرِ الدينيّ وَحْدَهُ الّذي يَجِبُ تَخْصيبُه ومدُّه بنَميرِ التّعاليمِ الصّالحةِ لإرْوائِهِ بقولِهِ عليه السّلامُ: «رَجَعْنا منَ الجهادِ الأصغرِ إلى الجهاد الأكبر»؛ جِهادِ النَّفْسِ. وبهذا أجْلَى النّبيّ (ص) عن خُطَّتِهِ الرّشيدةِ في الفَتْحِ والتّهذيبِ. ولا يُنْكَرُ أنّ سياسةَ الخُلفاءِ كانتْ سياسةَ فَتْحٍ فقطْ، وعليه فقد أهْمَلَتْ أهمَّ الجانِبَيْنِ منَ السّياسةِ النّبويّةِ.

الثاني: تَحْضيرُ العربِ بتَمْصيرِهم وتَخْطيطِ الأراضي ليقوموا عليها بالزِّراعةِ، فالنّبيُّ (ص) كان جُهْدُه مُنْصَرِفاً إلى:

أولاً: تَرْغيبِ العَربِ في سَكْنى الأمصارِ، ولذلكَ حضَّ الأعْرابَ على الهِجرةِ إلى المدينةِ لتُبَدِّلَ من نَفْسِيّاتِهِم الجَافِيَةِ.

ثانياً: ترغيبِهِم في الزِّراعةِ. فقدْ قال (ص): «خيرُ المال سِكَّةٌ مَأْبُورةٌ، وشاةٌ مَوْمُورَةٌ». وفي هذا الحديثِ حضٌّ للعربِ على أنْ يكونوا زُرّاعاً مُسْتَقِرّينَ، وهو يَكْشِفُ عن مقدارِ شَغَفِ النّبيِّ بالعُمران.

ونحنُ إذا دَرَسْنا السّياسةَ الّتي أدّى إليها آجتهادُ الخليفةِ الصّالحِ عمرَ بنِ الخطّابِ، نراها

سِياسةً حربيّةً خالِصةً حتّى[١٦] مَنَعَ آدّخارَ الأموالِ، وحرّمَ على المسلمينَ آقتِناءَ الضّياعِ وتعاطِي الزّراعةِ، وبذلك أوْقَفَهم على الجُنْدِيّةِ، وهذا دليلٌ على أنّ نفسَ عمرَ الكبيرةَ لم تكنْ تُفكّرُ إلّا بالتّوسُّعِ، فهوَ لم يُعِدَّ الشّعبَ للاستقرارِ، وإنّما آجتهدَ بإعدادِه للفَتْحِ بسبيلِ نشْرِ المبْدأ الإسْلاميّ الجديدِ في أكبرِ رُقْعَةٍ من الأرضِ. وهذهِ الخُطّةُ، وإنْ تكنْ أفادتِ العربَ دولةً واسعةَ الأرجاءِ، إلّا أنّها غيرُ متماسكةٍ أيضاً. وسَرعانَ ما آنبعَثَتْ فيها العَصَبيّةُ القَبليّةُ والعصبيّةُ الشّعوبيّةُ، وعانَتِ الدّولةُ أشدَّ العَناءِ في رَتْقِ الفُتوقِ الّتي أوْقَفَتْ كُلَّ نشاطٍ مُثمِرٍ.

ولعلَّ أكبرَ دليلٍ على عَدَمِ نُضْجِ التّعاليمِ الإسلاميّةِ في نُفوسِ العربِ أنّهم سَمَوْا بعُنْصُرِهِمْ فوقَ العناصِرِ، حتّى لكأنّهم أرسْتُقراطِيّةٌ على النّاسِ كافّةً. والإسلامُ لا يعرِفُ أرستقراطيّةَ الجماعةِ والجِنْسِ بلْ جانَسَ بينَ الشّعوبِ حينَ خَلَقَهُمْ من ذَكَرٍ وأُنْثى وجعلَهم شُعوباً وقبائلَ ليتَعارَفوا على مُثُلٍ خاصّةٍ ومبادىءَ فُضْلى وتعاليمَ قَويمةٍ، لا تَفاضُلَ إلّا بآتّباعِها على الوَجْهِ الأمْثلِ... وإنْ آفْتُرِضَ وكانَ في الإسلامِ أرستقراطيّةٌ، فهي أرستقراطيّةُ المناقِبيّةِ ومكارِمِ الأخْلاقِ: تَخَلَّقُوا بِخُلُقِ اللّهِ، وخُلُقُ اللّهِ القُرآنُ... وهو أثَرٌ يُعْزَى إلى النّبيِّ وفيه مَقالٌ كثيرٌ عندَ رِجالِ التّخْريجِ مِن المُحَدِّثين.

ومنْ هذا يَظْهَرُ أنّ عصبيّة العربيِّ كانتْ تَعْمَلُ ضدَّ أخيهِ[١٧] العربيِّ، وضدَّ أخيهِ المُسْلِمِ من سائِرِ الشُّعوبِ، ممّا آسْتَتْبَعَه آعْتِزازُ الشُّعوبيِّ[١٨] بقبيلهِ وماضيهِ أيضاً، وفي مُعْتَرَكِ هذه العصبيّاتِ القبليّةِ والشّعوبيّة آنْحَلَّ الرِّباطُ الإسلاميُّ الصّميم.

---

(١٦) راجع: **المقريزي**، ج ٢، ص ٢٥٩.

(١٧) ذَكَرَ المُستشرقُ الكبيرُ دوزي في كتابه: **تاريخ الإسلام في إسبانيا** أنّ بُغْضَ قَيْسٍ لليَمَنِ وبُغْضَ اليمنِ لقيسٍ كان أشَدَّ من بُغْضِ العربِ للأعاجِمِ. وآرْجعْ إلى سِلسِلَةِ الحروب بينَ القيْسيّةِ واليمَنيّةِ في الأندلسِ تجدْ مِقدارَ ما عَمِلَتِ العصبيّةُ في حَلِّ عُقدةِ الرِّباط الدُّوليّ للعَرَب.

(١٨) أراد الشّعوبيُّ أنْ يَنْدَمِجَ في الدّولةِ الجديدةِ فلم يجدْ أُمّةً وإنّما وَجَدَ قبائلَ مُعْتَزّةً بأنسابِها مُتعاليةً بأحسابها فآضطُرَّ أنْ يَعْتَزَّ بنفسِهِ وقَبيلِهِ وقديمه.

التّديّن

تناحر الديانات في الجزيرة أدّى إلى حالةٍ من الشكّ: يقتضِينا البحثُ في تَشْخيصِ الرّوحِ الدّينيّ، ودرجةِ ثباتِ العقيدةِ لدى العربِ في عهْدِ الخلفاءِ، أنْ نَدْرُسَ تاريخَ المُناحَرَةِ العنيفةِ بينَ الأديانِ الّتي شَهِدَتْ فُصولَها بلادُ العربِ قبلَ الإسلامِ، وكانتْ على ما يظهرُ مُناحَرَةً رهيبةً مُرَوِّعةً. وقد يكونُ الحديثُ عنها طَريفاً عدا عنْ أنّه ضروريٌّ لازمٌ لِمَنْ يريدُ أنْ يَسْبُرَ غَوْرَ النّفسِ العربيّةِ من حيثُ العقيدةُ، ويَنْصَرِفَ إلى إماطَةِ اللّثامِ عن الحَيْرَةِ النّفسيّةِ المُبْهَمةِ الّتي شكّلتْ عندَ البعضِ إعْصاراً قويّاً، أوْرَثَهم حالاتٍ من الشّكِّ والتّعطيلِ والتّردُّدِ، وبالأخصِّ إذا عَرَفْنا أنّ العربَ كانوا لا يَمْلِكونَ[1] حتّى ذلِكَ التّاريخِ،

---

(١) والشّاهدُ على هذا خِلافُ عليٍّ وآبنِ مَسْعودٍ في حامِلٍ تُوُفِّيَ عنها زوجُها، فقال عليٌّ: تَعْتَدُّ بأبْعَدِ الأجلينِ، توفيقاً بين آيةِ البقرةِ وهي: «والّذِيْنَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ ويَذَرُوْنَ أزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بأنْفُسِهِنَّ أرْبَعَةَ أشْهُرٍ وعَشْراً» وآية سورة الطلاق: «وَأُوْلاتُ الأحْمالِ أجَلُهُنَّ أنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ». وقال آبنُ مَسْعودٍ: من شاءَ باهَلْتُهُ أنّ الثّانِيَةَ نَزَلَتْ بعدَ الأولى فهي ناسِخَةٌ. هذه القِصّةُ تَكْشِفُ لنا عن مِقدارِ السّذاجَةِ العقليّةِ الّتي لا تَسْتَقيمُ لها المُوازَنَةُ والتّحكيمُ المَنطِقيّانِ، وإنّما تَلْجأُ إلى الغَيْبِ المحضِ، فآبنُ مسعودٍ يُنْذِرُ بالمباهَلَةِ، أي الاحتكامِ إلى السّماءِ ويَسْتَنِدُ إليها كمقدّمةٍ بُرهانِيّةٍ، هذا هو المنطِقُ الغالِبُ على العربِ لذلك العَهْدِ، فليسَ بِدْعاً أنْ يَتَرَدَّدُوا ويُبالِغُوا في التّردُّدِ، وأنا أعْتَقِدُ بأنّ شعباً يَصْدُرُ عن مَنْطقٍ كهذا ما كانَ لِيَفْهَمَ عليّاً (ع). وبتَدْقيقِ النّظرِ في مَنْطِقَ عَليٍّ في هذه المسألةِ يَنْكَشِفُ لنا نِظامُ تَعَقُّلِه السّرِيِّ الغَنيِّ.

القُدرةَ المنطِقِيّةَ على المُوازَنةِ والتَّحْكيم.

والنّتيجةُ الّتي نَسْتَخْلِصُها من صِراعِ الدِّياناتِ وغِلابِ الشِّيَعِ، أنْ تَتَوَلَّدَ في العقليّةِ العربيّةِ شِبْهُ ذَبْذَباتٍ مُضطَّرِبَةٍ مُتنازِعَةٍ، فلم تكنِ النَّفْسُ العربيّةُ فِطْرِيّةً بالمعنى الصّحيحِ، ولا صحيفةً بَيْضاءَ أو ساذَجةً بلْ كان حَشِيَّتَها تعاليمُ مُخْتَلِطَةٌ آخْتِلاطاً غيرَ مُنسَّقٍ ولا مفهومٍ.

فالبيئةُ العربيّةُ من هذه النّاحيةِ كانتْ مَشُوبَةً إلى حدٍّ كبيرٍ، وإلى درجةٍ قَعِيرَةٍ ذاتِ غُؤُورٍ. والآن نأخُذُ بعَرْضِ هذه الدِّياناتِ الّتي آحْتَضَنَتْها الجزيرةُ ولعِبَتْ في ساحَتِها أدواراً مُختلفةَ الأهمِّيَّةِ، ثمَّ نعودُ إلى درْسِ أثَرِها ومدى ظُهورِه في حركاتِ ما بعدَ الإسلامِ الغامِضَةِ، فإنَّ نظريّةَ المُرْتَدِّينَ والمُتَنَبِّئِينَ وكذلك نظريّةَ الخوارِجِ والسَّبَئِيّةِ لا يُمْكِنُ فهمُها إلّا على ضوْءِ هذا التّشْخيصِ.

والنِّحَلُ المذكورَةُ هي: الوثَنِيّةُ، المجوسيّةُ، الصّابِئَةُ، اليهوديّةُ، الحنيفيّة، النَّصرانيّةُ، اليهوديّةُ النّصرانيّةُ. ومن هذا نرى أنّ جميعَ الدِّياناتِ المعروفةِ لذلك العَهْدِ في الشَّرْقَيْنِ، الأدْنى والأوْسَطِ، آجْتَمَعَتْ في بلادِ العربِ قُبَيْلَ الإسلامِ. ويَحْسُنُ بنا أنْ نُعطِيَ تعريفاتٍ سريعةً عن كلِّ ديانةٍ، حتّى إذا خُضْنا في حديثِ الصِّراعِ وآثارِه وَضَحَتْ لنا النَّتائِجُ الّتي نجتهِدُ بشرحِها وتمثيلِها عن قُرْبٍ.

الوثنيّة: كانتْ هيَ الدِّيانةَ الغالِبةَ في المُحيطِ العربيّ، وهي تقومُ على تَأْليهِ التّماثيلِ أوْ قُوى الطَّبيعةِ الّتي تَرْمُزُ إليها، على شكلٍ من وثنيّةِ اليونانِ والرّومانِ، وإنْ كانتْ بدائيّةً لا تَبْعَثُ في صاحبِها أنواعاً سامِيَةً من التّفكيرِ ولا نَظَراً خاصّاً إلى المَثَلِ الأعْلى للخَيْرِ والجَمالِ. والمَعْروفُ أنّ لكُلِّ قَبيلٍ من العربِ معبوداً خاصّاً يُرْضي ميولَه القبليّةَ ويَنْسَجِمُ معَ أهوائِه الخاصَّةِ. وبذلكَ كانتْ وثنيّةً مُفَرِّقَةً جَرَّتْ على العرَبِ التَّطاحُنَ والحربَ. فإنّ منْ أسبابِ الوَحْدَةِ السِّياسيَّةِ وَحْدَةَ المُقَدَّسِ المُطْلَقِ والأسْمَى. وقدْ بَدَتْ طلائِعُ الاجتهادِ الدّينيِّ

بينَ القبائلِ الوثَنِيَّةِ في أعمالِ الطُّقوسِ وتَقْديمِ القرابينِ مِمّا أدّى إلى تَكَوُّنِ طائفةٍ سُمِّيَتْ بالحُمْسِ[٢].

المجوسيّة: دِيانةٌ تُمَثِّلُ أحْلامَ الرّوحِ الآرِيَّةِ الّتي تَسْتَهْويها مناظرُ الطّبيعةِ، وتَخْلِبُها فُتونُ الكائِناتِ، كما أنّها ديانةٌ رَمْزِيّةٌ، أيْ تَرْمُزُ إلى المعاني والفضائلِ من طريقٍ قريبٍ إلى فَهْمِ الإنسانِ، وتَقومُ على فِكْرَتَي الخَيْرِ والشَّرِّ، وتَمازُجِهِما بَعْضاً في بعضٍ، على شَكْلِ ثُنائِيَّةٍ ساذَجَةٍ هي أوّلُ ما يَتَبَدّى للذِّهنِ مَقِيساً على ما يَعْرِضُ له من حالِ ثُنائِيَّةٍ دَوالَيْك: الجُوعِ والشِّبَعِ، الظَّمَأِ والرِّيِّ، الصِّحَّةِ والمَرَضِ... إلخ. ثُمَّ مَضَتْ في الرَّمزِ إلى أبعدَ مِنْ هذا، فاتَّخَذَتِ النّارَ رمزاً للضَّوْءِ، والضَّوءَ رمزاً للخيرِ، وبتعبيرٍ آخَرَ قالت إنَّ النّورَ من الشَّمسِ، والشَّمْسَ من النّارِ، فأصْلُ النّورِ إذاً، هي النّارُ، فَرَمَزوا بها عن الخيرِ. واتَّصَلَتْ ببلادِ العربِ

---

(٢) الحُمْسُ هم قريشٌ وكِنانةُ وخِزاعةُ وجَماعةٌ من بني عامرِ بنِ صَعْصَعَةَ، وسُمُّوا بذلكَ لِتَشَدُّدِهم في أحوالِهم ديناً ودنيا، راجع: شرحَ ديوانِ الحماسةِ للخطيب التبريزي ج ١، ص ٤. وسببُ التّسمِيَةِ يَنظُرُ إلى شيءٍ وراءَ ما وَضَح للُغَوِيّينَ، وهو عندي يَدُلُّ على مذهبٍ دينيٍّ خاصٍّ، فإنَّ القُرَيْشيّينَ عُرِفُوا بذلِك، كما تَبْعَثُ فينا هذه التّسميةُ إحساساً بأنَّ الحماسةَ كانتْ عندَ العربِ هي المَثَلَ الأعْلى، ونَظُنُّ أنَّ أبا تَمّامٍ اسْتَعْمَلَها بهذا المعنى حينَ أطْلَقَها على دِيوانِ مُخْتاراتِه من الشِّعْرِ العَرَبِيِّ. وعليهِ فقدْ كان للعربِ مَثَلٌ أعلى يُعَبِّرُ عنْ أقْصى ما تَصْبو إليه أحْلامُهم. وبالمُناسَبَةِ أذْكُرُ بأنّه وَضَحَ لي لَفْظٌ آخرُ يَصْلُحُ أنْ يكونَ هو لفظَ المثلِ الأعلى عندَهم، وهو الأمانةُ. فإنَّ العربَ الجاهليّينَ أطْلقوا لَقَبَ الأمينِ على النّبيِّ (ص) في الجاهليّةِ، لأنّه كان نسيجَ وحدِه في شمائِلِهِ العاليَةِ، وبسبَبِ ذلكَ اسْتَعْمَلُوا له كَلِمَةَ المَثَلِ الأعْلى، ويُؤَيِّدُ هذا التّقديرَ نُصوصُ القرآنِ، فقدْ أوْرَدَ مُشْتَقّاتِ هذه المادّةِ كلَّها تقريباً، وهي تَدورُ على هذه الملاحَظَةِ. ومهْما فَرَضْنا أنّ القرآنَ هُوَ الّذي طَوَّرَ هذه المشتقّاتِ وأفْرَغَ عليها مَعانيَ جديدةً فليس مِنَ الجائِزِ أبداً أنْ نَظُنَّ بأنّه تَحَلَّلَ بالكلمةِ عنْ أصْلِ مَعْناها مُطْلَقاً، فهو يَسْتَعْمِلُ الأمينَ بمعنى «القُدُسِ» بجانبِ جبريلَ وبمعنى «الرّسولِ» في سُورة الشّعراء، وبمعنى «القَوِيِّ» في سورة النّحلِ، ويَسْتَعْمِلُ الأمانةَ بمعنى «الشّريعةِ» في الأحزاب، ويَسْتَعْمِلُ المؤمنَ وصفاً لـ «اللّه» ووصفاً لـ «المُسلم». وكأنّه في جانِبِ اللّهِ بملاحَظَةِ المَثَلِ الأعلى الّذي هو مَصْدَرُ المُثُلِ، قال تعالى: «ولِلّهِ المَثَلُ الأعْلى» وفي جانِبِ المسلمِ بملاحظَةِ المَثَلِ الأعلى الّذي يَشْخَصُ النّاسُ إليه، أو الّذي هو حدٌّ للإنسانيّةِ الرّفيعةِ، ثُمَّ كلمةُ آمينَ الّتي تُسْتَعْمَلُ في الدّعاءِ، والدّاعي حينَ يَدْعو يُحاوِلُ غَرَضاً عَجِزَ عَنْه بقُوَّتِهِ فَلَجأَ إلى الغَيْبِ يَطْلُبُ منه العَوْنَ الإلهيَّ للوُصولِ إليه، وهو غَرَضٌ أسْمى له في الحالِ وفي المالِ. وبِما أنَّ الشّعبَ تَتَفاوَتُ طبقاتُه فقدْ كانَ للعربِ مَثَلان: الأوّل مَثَلُ الطّبقةِ العامّةِ وهو الحَماسَةُ: (حَلَّلَ جيّداً الفضيلةَ في «أنْصُرْ أخاكَ ظالِماً أوْ مَظْلوماً». فقد كانَ هذا التّحَمُّسُ والتّعصُّبُ فضيلةً خاصّة) والثّاني مَثَلُ الطّبقةِ الخاصّةِ وهو الأمانَة.

من الجِهَةِ الشَّرقيّةِ، فقدْ وُجِدَتْ في قبائلِ هَجَرَ وقبائلِ البَحْرَيْن. وكتابُ **أفُسْتا** لزرادشت عَرَفَه العربُ عن قُربٍ، فقد نُقِلَ إليهم، وتأثّروا بهِ إلى حدٍّ ما.

الصّابئةُ: هي ديانةٌ بابليّةٌ بَقِيَتْ بعدَ ذَواءِ يَنْبوعِها الأقْدَمِ أجْيالاً طِوالاً. وتقومُ على عِبادةِ الأجْرامِ السّماويّةِ من نُجومٍ وكَواكِبَ وما يَحْوي الفَلَكُ الدَّوّارُ، وتَسْنِدُ إليها القُدْرَةَ على تَسْييرِ النّاس، آنْتَقَلَتْ إلى بلادِ اليَمَنِ من أقْدَمِ الدَّهْرِ. وقِصّةُ بَلْقيسَ في القرآنِ شاهِدٌ على أنّها كانتِ الدِّينَ الرَّسْمِيَّ أوِ القَوْمِيَّ في دورٍ من أدْوارِ التّاريخِ القديم. ولعلَّ التّسْمِيةَ بعبدِ شمسٍ الّتي كانتْ شائِعَةً عندَ العربِ تَدُلُّنا على مَبْلَغِ سَيْطَرَةِ تلْكَ الدِّيانةِ العَتيدَةِ الوَطِيدَةِ كعقيدةٍ، وعلى درجَةِ رُسوخِ أصْباغِها كمراسيمَ وطُقُوس.

اليهوديّة: هي دِيانةٌ سَماوِيّةٌ آعْتَرَفَ بها الإسلامُ وعُنيَ بدرْسِها، وآخْتَصَّها القرآنُ بطائِفةٍ من الآياتِ. وهذا يدلُّنا على عِظَمِ أثرِها في العربِ، وأنّها كانت أكثرَ سَيْطَرَةً من سِواها وأكثرَ تأثيراً، ولَعَلَّ السّببَ في تَغَلْغُلِها بسرعةٍ وقوّةٍ في مُحيطِ العربِ يرجِعُ إلى أنّها سامِيَّةٌ كلُّ الساميّةِ، فَوَقَعَ العربُ فيها على ما يُعَبِّرُ عن تصوُّراتِهم الدّينيّةِ، ولذلك وَجَدَتْ إلى نفوسِهم مَجازاً عريضاً. وقد أثَّر آنتِشارُها في عقليّةِ العرب تَأْثيراً كبيراً، إلى حدٍّ ظَهَرَ في أدبيّاتِهم العامّةِ، وهذا نَقَلَ العربَ من حيثُ يَشْعُرونَ أوْ لا يَشْعرونَ، إلى حالٍ أرْقى في مجالِ التّصوُّرِ الدّينيّ. وكانتْ قبائِلُ يَثْرِبَ أسْرعَ تأثُّراً بها وقَبولاً لها من سائِرِ القبائلِ الوثنيّةِ الأُخْرى. وكذلك تطرّقَتْ إلى اليَمَنِ، وكانَ لها شَأْنٌ من الناحيةِ السّياسيّةِ، حتّى أنّ البيتَ المالِكَ تَهوَّدَ، وكانَ لهذا تأثيرٌ في مَجْرى الأحوالِ السّياسيّةِ، نظراً إلى وُجودِ حزبٍ آخَرَ مُناوِىءٍ يُؤَيِّدُ النَّصْرانِيّةَ.

النَّصْرانيّة: هي كسابقتِها، ديانةٌ سماويّةٌ آعترفَ بها الإسلامُ وأوْسَعَ لها مكاناً في القُرآنِ، وكان لها تأثيرٌ غيرُ يَسيرٍ في الهيْكلِ الرُّوحيِّ العامّ، غير أنّها لم تكنْ مُتَرَكِّزَةً جغرافيّاً في ناحِيَةٍ معيّنةٍ كاليهوديّةِ، على أنّ قبائلَ عديدةً تَنَصَّرتْ، بَيْدَ أنَّ تَسَرُّبَها

إلى الجزيرةِ مُكْتَنَفٌ بالغُموضِ، والظّاهرُ أنّ المذهبَ النّسطوريَّ بعدَ أنِ انتقلَ منْ بلادِ الرّومِ إلى العراقِ، نَفَذَ إلى بلادِ العَرب.

الحنيفيّة: يَذْكُرُ المستشرقُ ولهاوزن أنَّ الحنيفيَّةَ كانت مذهَباً نَصْرانيّاً ذائعَ الصّيتِ في بلادِ العربِ. وتُعارِضُه طائِفَةٌ منَ المستشرقينَ بأنّ الحنيفيّةَ لم تكنْ مذْهباً نَصْرانيّاً كما لم تكنْ مذْهباً مُعَيّناً، وإنَّما كانَ هناك أشخاصٌ من مُفَكِّري العربِ آستنْكَروا عِبادةَ الأوثانِ مُتَأثّرينَ بتعاليمِ اليهوديّةِ والنّصرانيّةِ جميعاً، حتّى دخلَ بعضُهم في اليهوديّةِ، وبعضُهم في النّصرانيّةِ، وبَقِيَ جماعةٌ منهم غيرَ مُنْتَمينَ إلى دِينٍ. جاءَ في **سيرةِ آبْنِ هشامٍ**: «أنَّ زيْدَ بنَ عمروِ بْنِ نُفَيْلٍ توقّفَ عن دُخولِ النّصرانيّةِ واليهوديّةِ، وآعْتَزَلَ دِيانةَ الأوثانِ وتقاليدَها، ونَهى عن قَتْلِ المؤؤدةِ، وكانَ يُسْنِدُ ظَهْرَه إلى الكعبةِ ويقول: يا معشرَ قُريشٍ لم يبقَ على دينِ إبراهيمَ غَيْري. ثمّ يقولُ: ألّلهمَّ لو أنّي أعلمُ أيَّ الوجوهِ أحَبُّ إليكَ عَبَدْتُك عليه ولكنّي لا أعلمه».

وأخيراً طَلَعَ الدّكتور ولفنسثون، في كتابِهِ **تاريخ اليهود في جزيرةِ العرب**، برأيٍ طَريفٍ بناهُ على دِراسةٍ لِغائِيَّةٍ[3] (فيلُولُوجيّة) دقيقةٍ لكلمةِ «حنيف» و«مِلّةِ إبراهيم» قال: هناكَ آصْطِلاحٌ مشهورٌ عندَ العربِ قبلَ الإسلام وهو «مِلّةُ إبراهيمَ حنيفاً»، وبحثُ هذا الاصطلاحِ قد يُفْهِمُنا شيئاً عنْ عادةِ الختانِ. يُعْرَفُ غِلافُ الحَشَفَةِ بَعْدَ الختانِ في العِبْرِيَّةِ بآسْم «مِلّة» وقَبْلَه بآسمِ «غُرْلَة»، وبما أنّ الختانَ من أصولِ الدّينِ الإسرائيليّ فقدْ عَبَّرَ النّاموسُ الدينيُّ عنْ كُلٍّ مَن آخْتَتَنَ أنّه دخلَ في ذِمّة إبراهيمَ. ومنْ هنا أطْلَقَ اليهودُ على كلٍّ مَن آخْتَتَنَ هذا التّعبيرَ «مِلّة إبراهيم»، وهذا اللّفظُ يقولُه العاذِرُ للطّفلِ عندما يَعْذِرُه، والحاضرون يُؤَمّنون. ولمّا كانَ الختانُ وحدَه لا يُؤدّي إلى الإيمانِ فقدْ أطلقَ اليهودُ على كلٍّ مَن آخْتَتَنَ، دونَ أنْ يَعْتَنِقَ اليهوديّةَ، آسْمَ حنيفِ الذي مَعْناهُ في العبريّةِ تملّق، إقْتَرَفَ إثماً، تَذَلَّل، داهَنَ، يَعْنونَ

---

(٣) كلمةٌ من وَضعِنا الجديد تُرادِفُ كلمة فيلولوجي. راجع كتابنا: **مقدمة لدروس لغة العرب**.

به غيرَ الصّالحِ، أي الختانَ غيرَ المُشتَوْفي للشُّروطِ، ولهذا متابعاتٌ فيما تَحفَظُ المَعاجِمُ العربيّةُ من تفسيراتٍ لكلمةِ حنيف. جاءَ في **لسان العربِ** أنّ مَنِ آخْتَتَنَ في الجاهليّة وَحَجَّ سُمِّيَ حنيفاً. قال الفرّاءُ: «الحنيفُ من سُنَّته الخِتانُ، وَتَحنَّفَ الرجلُ آخْتَتَنَ». وهو يَنْتَهي إلى أنّ الحنيفيّةَ طائفةٌ تأثّرتْ بطُقوسِ وعاداتِ اليهوديّةِ غيرَ أنّها لم تُؤْمِنْ بِجَوْهرِ الدِّيانَة.

ومن بينِ هذه التّقديراتِ نَفْهَمُ أنّ الحنيفيّةَ نِحْلَةٌ أوْ نَزْعَةٌ عُرِفَتْ بها طائفةٌ لم تكنْ بعيدةً عن التّأثُّرِ بالمسيحيّةِ واليهوديّةِ على السّواءِ، وهذهِ الطّائفةُ كانتْ أقربَ إلى الحَيْرَةِ والشّكِّ.

اليهوديّة النصرانيّة (Secte judéo - chrétienne): وهي فِرْقَةٌ تَجْمعُ بين عاداتِ اليَهودِ وعقائِدِ النّصرانيّة، عَبَرَتِ الأُرْدُنَّ وقْتَ حِصارِ الرّوم لأورشليمَ، فسكنتْ في بلادِ العرَبِ. ومن هذه الفِرقة السَّمَوْألُ[4] الشاعرُ.

ويُعارضُ بعضُ[5] المؤرّخينَ هذا الرّأيَ، بأنّه لا جدالَ في أنّه وُجِدَتْ طائفةٌ يهوديّةٌ نَصْرانيةٌ، في الحينِ الذي كانتْ فيه النّصرانيةُ دَعْوَةً يهوديّةً بَحْتَةً، وكان النّصارى شيعةً من شِيَعِ اليهودِ وقد فَنِيَتْ هذهِ الفِئَةُ بعدَ أنْ أخَذَتِ النّصرانيّةُ تنتشرُ بينَ اليونانِ والسّرْيانِ، ولم يبقَ للطّائفةِ اليهوديّةِ النّصرانيّة ذِكْرٌ في القَرْنِ الثّالثِ بعدَ الميلادِ، وليسَ لنا مَراجعُ تاريخيّةٌ تُثْبِتُ وُجودَ هذه الطّائفةِ مُنفردَةً في الجزيرة...

هذا الخليطُ منَ الدِّياناتِ والنِّحَلِ جعلَ بلادَ العربِ في شِبْهِ حركةٍ زَوْبَعيّةٍ، لأنّها لم تَكُنْ فاتِرةً بل عامِلةً ناصِبةً، ومن ثَمَّ دخلتْ في صِراعٍ عنيفٍ آتّصَلَ بأسبابِ الحياةِ العامّة، وأدّى إلى تنافُرٍ سحيقٍ وحرْبٍ مُشتَعِرَة. وأشدُّ ما كانَ الصّراعُ والتناحرُ بينَ المسيحيّةِ الّتي تُشَجّعُها الدّولةُ الرّومانيّةُ وبينَ اليهوديّةِ الّتي وَجَدَتْ في الجزيرة مَلاذاً لها يحميها من عُدْوانِ

---

(٤) راجِعْ: **شرح ديوانِ السّمَوْأل**، لِيَفْطويه، ص ١٠.

(٥) راجِعْ كتاب: **تاريخ اليهودِ في بلادِ العرب**، للدّكتور ولفنستون.

المسيحيين. ولكيْ تكونَ ضامِنَةً لمستقبلٍ مُسْتَقِرّ جَمَعَتِ آهْتمامَها لِتَصْبُغَ العربَ بَصِبْغَتِها، وفكَّرتْ لأوّلِ مرّةٍ بالدَّولَةِ[٦] اليّهوديّةِ، ولعلَّ هذهِ المحاولَةَ تَصْلُحُ أنْ تُعَدَّ فاتِحَةَ الحركاتِ اليهوديّةِ لتأسيسِ الوطنِ القوميّ، فما ذَهَبَ إليه ولفنستون من أنّ اليهوديّةَ لم تكنْ تُعْنَى بالتّبشيرِ في الجزيرةِ آسْتِناداً إلى أنّها دِيانةٌ غيرُ تبشيريّةٍ وَهْمٌ بالغٌ، لأنَّ الظّرُوفَ يَقْضي بأنْ تَتَّخِذَ التّبشيرَ وَسِيلَةً منْ وسائِلِ المُحافظةِ على البَقاءِ. كما نَعْثُرُ على دِيانةٍ ثالثةٍ كانتْ تَبْذُلُ جُهوداً لا تقِلُّ عن جُهودِ هاتَيْنِ الدِّيانتينِ وهي المجوسيّةُ الّتي آتَّخذتْها الدّولةُ الفارسيّةُ وسيلةً إلى القضاءِ على النُّفوذِ الرّومانيّ.

والشّيءُ الذي يَلْفِتُ نَظرِي أنَّ الفُرسَ كانوا يَنْظُرونَ إلى آنْتِشارِ اليهوديّةِ في بلادِ العربِ بعينِ الرِّضا، وهذا يحمِلُنا على ظَنٍّ أنَّ الفُرسَ ـ وهم الّذين عَطَفُوا على اليهودِ بعدَ

---

(٦) فَكَّرَ اليهودُ بَعْدَ تَشْتيتِهِمْ في موقفِهم كأُمّةٍ من واجِبِها الدّفاعُ عن كيانِها حَذَرَ الذّوبانِ في الأممِ والشعوبِ. وبعدَ مُحاولاتٍ كثيرةٍ تَوَصَّلَ عُقلاؤُهم في العصرِ الحديثِ إلى وُجوبِ تَخَيُّرِ مكانٍ لِيَعْتَبِروهُ وَطَناً قوميّاً لهم، ففكّروا بِبقاعٍ كثيرةٍ كالأرجنتينِ وشاطِىءِ إفريقيا الغربيّ وفلسطينَ، ولكنّ التجارِب أُخفِقَتْ إلّا في فلسطينَ حيثُ أمْكَنَ لزُعَمائِهم إقْناعُ سَوادِ اليهودِ في الشّتاتِ بسُهولةٍ، وأذْكى هذهِ الفِكْرَةَ فيهمْ مذابحُ الرّوسيا الّتي وَقَعَتْ خِلالَ القرنِ التاسعَ عشرَ فَتَخَطّوا الحدودَ إلى الأرضِ العربيّةِ البَحْتِ، وكانتْ أوّلُ هجرةٍ منظَّمَةٍ في عام ١٨٨١، وأُنْشِئَتِ الجمعيّاتُ لإيواءِ أولئكَ المتشرّدينَ، فكانتْ أوّلَ مستعمرةٍ منظّمةٍ هي ريشون لصيون، إلى أنِ آجْتَمَعَتْ في جمعيّةٍ مركزيّةٍ للإشرافِ على حركةِ الاشتيطانِ في فلسطينَ وآسْمُها جمعيةُ الاستعمارِ اليهوديّة، ثمّ ظَهَرَ هِرتزِل الداعيةُ اليَهوديُّ النّمساويّ الألمانيّ الّذي تَفَرَّغَ للدّعوةِ إلى الحركةِ المذكورةِ وجاهَرَ بها في كتابه: **الدولة اليهوديّة**، الذي بات إنجيلَ الصّهْيونيّينَ في الوقتِ الحاضر.

وكانَ قَدْ سَبقَ هرتزل يهوديٌّ آخَرُ عَمِلَ لترويجِ الفِكرةِ بوُجوبِ آنْدِماجِ اليهودِ في العناصرِ الّتي يعيشونَ بينَها، فاليهوديُّ المقيمُ في بريطانيا يَجِبُ أنْ يكونَ بريطانيّاً، وقد سُفِّهَتْ تعاليمُ هذا الرّسولِ الجديدِ المَدْعُوُّ مندلسوهن. راجع كتاب: **العقائد** لعمر عنايت، طبعة دار العصور، ١٩٢٨، ص ص ٨٩ ـ ١٠٢.

وفي نَظَري أنّ هذا النّشاطَ السّياسيّ لليهودِ ظَهَرَتْ أُولى مُحاولاتِهِ في جزيرةِ العربِ قبلَ الإسلامِ ولذلِكَ كان لانْهيارِ الدّولةِ الحِمْيَرِيّةِ اليهوديّةِ، دَوْلَةِ ذِي نُواسٍ، رَنَّةُ أسىً عندَ جميعِ اليهودِ في الجزيرةِ وخارِجَها، حتّى ظَهَرَ في أشعارِهم ومراثِيهِم الطّويلةِ لتلكَ الدّولةِ، وبَلَغَ بهم خيالُهم المذْعورُ إلى التَّوَهُّمِ بأنّ الدّولةَ لم تُمْحَ بل هي مُتَحَصِّنَةٌ في الصّحارى، ولذلك هاجَرَ اليهودُ إلى اليمنِ ليَبْحَثُوا عن حكومَتِهم المَوْهُومَةِ. راجع كتاب: **تاريخ اليهود في جزيرة العرب**، مرجع سابق.

فَتْحِ بابلَ ـ آتَّخذُوا مِنَ اليهودِ صَنائِعَ لهمْ في جزيرةِ العربِ يَسْتَغِلّونَهُمْ في الحَيْلولَةِ دونَ تَسَرُّبِ النُّفوذِ الرّومانيِّ إليها. ومَعْنى هذا أنّ الفُرسَ أغْرَوا اليَهودَ بتأْسيسِ دولةٍ يَهوديّةٍ في البلادِ العربيّةِ. ولمّا كانَ من غيرِ المُستطاعِ أنْ يَجْعَلوها يهوديّةً قَلْباً وقالِباً، وإلّا أهاجوا العربَ عليهِمْ، آكْتَفَوْا من يهوديّةِ الدّولةِ بالدِّينِ، فَحَصَروا جُهودَهم في تَهْويدِ البيتِ المالِكِ وجَعْلِ اليهوديّةِ ديناً رسميّاً للدّولةِ، ولقدْ تمَّ لهم ذلك. وهذا يُفَسِّرُ لنا أنّ حكومةَ ذي نُواسٍ كانتْ شَديدةَ الاتِّصالِ بحُكومةِ الفُرسِ، وكانتْ سياستُها العامّةُ جُزءاً من سِياسةِ الثّانيةِ، ولعلَّ حركةَ ذي نُواسٍ ضِدَّ النَّصارى كانتْ بِتَشْجيعِ الفُرسِ أنفسِهم، لتكونَ مُقَدِّمَةً لِخِصامٍ عنيفٍ، حينَ وقَفَتْ كِلتا الدَّولتَيْنِ على جُهودِ الأُخرى. فالرّومانُ آتّخذوا التَّبشيرَ في الحجازِ، والأحباشُ في الجُنوبِ، وسيلةً إلى الظَّفَرِ، وآتَّخذَ الفُرسُ وسيلتَهم إلى ذلك بإقامةِ دولةٍ يهوديّةٍ مُواليةٍ لهمْ في الجزيرةِ. والَّذي يَدُلُّنا على صِحّةِ هذا التَّقْديرِ، أنّه سَرعانَ ما آنْكَشَفَتِ الحوادِثُ عن تَماسِّ القُوى الفارسيّةِ والرّومانيّةِ مُباشَرَةً ودونَ مُباشَرَةٍ. ومِنَ الخيرِ أنْ نَذْكُرَ أدْوارَ الصِّراعِ بين المسيحيّةِ واليهوديّةِ، لِما كانَ لهُ منْ نتائجَ نفسيّةٍ وسياسيّةٍ وآجْتماعيّةٍ في المُحيطِ العربيِّ الجاهِلِيِّ العامّ.

ذهبتْ طائفةٌ من المستشرقينَ، منها العالمانِ ولهاوزن وهالقي، إلى أنّ ظُهورَ اليهوديّةِ في بلادِ حِمْيَرَ كانَ نتيجةً لِنضالٍ عنيفٍ وَقَعَ بينَ اليهوديّةِ والنّصرانيّةِ، تمكّنتْ فيه الأُولى من أنْ تتغلّبَ على الأُخرى في بادِىءِ الأمْرِ.

وذهبتْ طائفةٌ أُخرى، منها العالِمانِ جلازر وفنكر، إلى أنّ الباعثَ سِياسيٌّ مَحْضٌ، وهو أنّ ملوكَ الدّولةِ الرّومانيّةِ الشّرقيّةِ، بعدَ أن فَرَغُوا مِنَ الأقاليمِ المجاوِرةِ للجزيرةِ العربيّةِ، تَأَهّبُوا لِضَمِّ أطْرافِها إلى أملاكِهم، فَرَتَّبُوا لِتنفيذِ هذا الغَرَضِ سياسةً مُحْكَمَةً، تقومُ، من جِهَةٍ، على إرْسالِ وُفودِ الرُّهبانِ إلى الحجازِ لِيُمَثِّلوا دَوْرَ الدُّعاةِ للنَّصرانيّةِ بينَ البدْوِ والحضَرِ، ومن جِهَةٍ أُخْرى على تَمْهيدِ الأفكارِ والنُّفوسِ لِقَبولِ السُّلطانِ الرّومانيِّ. فلمّا تَنَبَّهَ مُلوكُ حِمْيَرَ لهذهِ الحِيَلِ، وأدْرَكوا ما يَتَعَرَّضُ له كِيانُهم السّياسيُّ من الخطرِ الشّديدِ بسببِها، نَشِطُوا لإحْباطِها

وفكّروا في أمْضَى الأسْلحَةِ الّتي تُمَكِّنُهُم مِنَ القضاءِ عليها، فآعْتَنَقوا اليهوديّةَ ليُقاوِموا سَيْطَرَةَ الدِّينِ الجديدِ بآعْتبارِه ديناً توحيديّاً. وبذلكَ قضى مُلوكُ حِمْيَرَ على كُلِّ الحُجَجِ الّتي كانَ مُلوكُ الدَّولةِ الرّومانيّةِ الشّرقيّةِ يَعْتمدونَ عليها في التّرويجِ لدعْوتِهم السّياسيةِ.

وكانَ مِنَ النّتائجِ المُباشِرَةِ لهذا الصِّراعِ بينَ الدِّيانَتَيْنِ، المذبحةُ الّتي آرْتكَبَها ذو نُواسٍ الحِمْيَرِيُّ بتَحْريضِ اليهودِ، وإعْدادِ الشَّعبِ لثوراتٍ آجْتماعيّةٍ داخليّةٍ. فقدْ حَدَّثَ المؤرِّخُ اليونانيُّ يوحنّا[7] من مدينةِ إفزوسْ، أنّ دومنيوسَ (ذا نُواس) قبضَ على تُجّارٍ من نَصارى الرّومِ وقَتَلَهُم، وآستَمَرَّ يُعامِلُ تُجّارَهم بالقَسْوَةِ والعُنفِ، ويَضطَّهِدُهم كُلّما مرَّ أحدُهم ببلادِ اليَمَنِ، حتّى آنْقطعَ جميعُ التّجارِ المسيحيّينَ من دُخولِ اليَمَنِ. فَكَسَدَتِ التّجارةُ وَضَعُفَتِ الحركةُ، لأنّ أسواقَها تَستَمِدُّ الحياةَ مِمّا تُصَدِّرُهُ إلى الخارجِ من الحاصِلاتِ الزّراعيةِ والمُنْتَجاتِ الصّناعيّةِ، ولأنّ ثُغورَ اليَمنِ كانتِ الواسطةَ بينَ الهندِ وجميعِ الأصْقاعِ الشرقيّةِ والغربيّةِ. فلمْ يكنْ مِنَ المُمْكِنِ أنْ يَنْظُرَ اليمنيّونَ إلى شَلِّ الحركةِ في الأسواقِ بعَيْنِ الرِّضا، فتقدَّمَ إيدوج، (قَيْلٌ وَثَنيٌّ)، إلى ذِي نواسٍ وقالَ له: «إنّ أعمالَكَ القاسِيَةَ نَقَلَتِ الحركةَ التّجاريّةَ من ثُغورِنا إلى ثُغورِ الأعداءِ». فأجابَهُ ذو نواسٍ: «إنَّ إخْوانيَ اليهودَ في بلادِ الرّومِ يَذوقونَ ألواناً شَتّى من الهَوانِ والتّعذيبِ، فأنا أريدُ أنْ أكُفَّهم عنْ ذلكَ بمعاملةِ تُجّارِهِم بِقَسْوةٍ مُماثلةٍ». ولكنّ إيدوجُ خرَجَ غيرَ راضٍ عنْ هذهِ السّياسةِ التي سَتُؤدِّي إلى خرابِ البلادِ. ففكَّرَ في أنْ يَتَخَلَّصَ من ذي نواسٍ، فآتّفقَ مع باقي الأقْيالِ الوثنيّينَ وجَمَعَ بواسِطَتِهم جُموعاً قاتَلَ بها ذا نواسٍ حتّى تَغَلَّبَ عليه وقَتَلَهُ، ثمّ آعْتَنَقَ إيدوجُ النّصرانيّةَ.

هذه الرِّوايَةُ يَشُكُّ فيها بعضُ المؤرِّخينَ لأنّها لا تُشيرُ إلى غَزْوِ الحَبَشةِ لليَمَنِ، وليسَ فيها ما يَدْعُو إلى الشّكِّ عندي لأنّ عَدَمَ تعرُّضِ الرّوايةِ للتّنْويهِ بذكرِ غزوِ الحبشةِ لا يَنْفيها،

---

(٧) راجع كتاب: **تاريخ اليهود في جزيرة العرب**، مرجع سابق.

فقدْ يُحتَمَلُ أنْ تكونَ الغَزْوَةُ الحبشيّةُ رافقتِ الثّورةَ الدّاخليّةَ. والمؤرِّخُ اليونانيُّ مُهْتَمٌّ بالسَّببِ الّذي كانَ أكثرَ مَساساً في الانْقلابِ الثّوريِّ الّذي أطاحَ بالدَّوْلَةِ الحِمْيَريّةِ المُتَهَوِّدَةِ، على أنّه صَحَّ لدينا أنّ الدِّعايةَ السّياسيَّةَ عن طَريقِ الدِّينِ للدّولةِ الرّومانيةِ الشّرقيّةِ اصْطَنَعَتْ بعضَ الشَّخصيّاتِ العربيّةِ، وأنّ تَنَصُّرَ إيدوج، أو بعبارةٍ أصحَّ، إظهارَه النَّصرانيّةَ، يدفَعُنا إلى اعتقادِ أنّه كان صَنيعةً من صَنائعِ الدّولة الرّومانيةِ، وهذا يُصَحِّحُ الرِّوايةَ منْ بعضِ الوُجوه.

وذكرَ مُؤَرِّخو العربِ ثورةً أُخرى قام بها رجلٌ يُقالُ له لَخْنيعة ينوف وتمكَّنَ هذا من الغَلَبَةِ وجَمْعِ السُّلطةِ في يدَيْهِ، ولكنَّ المصادرَ العربيّةَ لم تَذْكُرْ ما إذا كانتْ ثورةُ لَخْنيعة مُوَجَّهَةً إلى الأُسْرَةِ الحاكِمَةِ فقطْ، أو كانتْ مُتَّجِهَةً أيضاً إلى هَدْمِ كِيانِ اليهوديةِ، إذْ لا بُدَّ مِن آلةٍ يَسْتَعْمِلونَها للتّأثيرِ في نُفوسِ الشَّعبِ وتَهْييجِ عواطفِهِ، وخَيْرُ وسيلةٍ لذلك أنْ يَظْهَروا بمظهرِ المُدافِعينَ عنْ عقيدةِ الآباءِ والأجدادِ ودينِ البِلاد.

إذاً فهذه الحركاتُ التَّمَرُّدِيَّةُ الّتي دَبَّرَها القَيْلُ إيدوجُ والشّعبيُّ لَخْنيعَة كانتْ مُتأثِّرةً بالصِّراعِ بينَ الدِّيانتَيْن.

والنّتيجةُ الثّالثةُ التي تَرَتَّبَتْ على هذا الصِّراعِ، هي قَلَقُ الضَّميرِ الدينيِّ وحَيْرَةُ النَّفسِ المُفْعَمَةِ بالتَّساؤُلِ المبْهَم. فالعربيُّ لمْ يعدْ يَطْمَئِنُّ إلى وثَنِيّتِهِ الّتي لَمَسَ في أدَبِيّاتِها نوعاً من الضَّعَةِ والانْحِطاطِ بمقارَنَتِها بالأدبيّاتِ المِثاليّةِ لكِلْتا الدِّيانَتَيْنِ، كما لم يَطْمَئِنَّ إلى واحدةٍ منهما لأنّ الدُّعاةَ المُتنازِعينَ كَشَفُوا عمّا في الدِّيانَتَيْنِ من عَوْراتٍ، والمجتمعُ لم يَسْتَطِعْ تقديمَ مُصْلِحٍ عبقريٍّ يَتَسَنّى له إنقاذُ هذا الشَّعبِ الحائرِ قبلَ أنْ تُسْلِمَهُ الحَيْرَةُ إلى أسْوَإِ حالاتِها، وبالأخصِّ في قُريشٍ الّذين كانوا في حالةٍ نفسيّةٍ جِدِّ مريضةٍ، بِما اجْتَمَعَ فِيهِمْ من أُمورٍ هَيَّأَتْ لذلك، فقدْ كانوا تُجّاراً يَجُوبون العالَمَ القديمَ تقريباً للتِّجارةِ، ويَخْتَلِطونَ بشُعوبٍ تَنْتَسِبُ إلى دِياناتٍ مُختلفةٍ ويَشْهَدونَ أشكالاً مِنَ العِباداتِ تُثيرُ تَطَلُّعاتٍ نفسيَّةً مُتفاوِتةً، وتَبْعَثُ الوِجدانَ على ألْوانٍ شتّى. ولذلكَ كانوا ذَوِي قُلوبٍ غُفْلٍ حيالَ دَعْوةِ الإصلاحِ الّتي

أذْكاها النّبيُّ (ص) فَوُجِدَ فيهِمْ مَنْ يُعارِضُ مَواعظَ النّبيِّ القَوارِعَ بأقاصيصِ إسفَنْدِيار وأخبارِ الفُرسِ القُدَماءِ، لأنّهم أخَذوا دَعْوةَ النّبيّ (ص) على أنّها صِنْوٌ لِدَعْوةِ المُبَشّرينَ من ذَوي الدِّياناتِ الأُخرى، فعارَضُوه بِما آسْتَقرَّ في نُفوسِهم من تأثيرِ الدُّعاةِ المجوسِ وتأْثيرِ الدُّعاةِ الآخَرينَ. فقدْ ذَكَرَ الواقِدِيُّ أنّه وُجِدَ في مكّة يهودٌ، كما حاوَل المُسْتَعْرِبونَ، بينَهم المستشرقُ لامَنْس، أنْ يُبَرْهِنوا على أنّ عدداً كبيراً مِنَ اليهودِ كانَ يَسْكُنُ مكّةَ قُبَيْلَ ظُهورِ الإسلامِ، وأنّ منَ المؤكَّدِ أنَّ أفراداً منَ النَّصارى وعبيدِهم كانوا في مكّةَ مُختلِطين بأهلها.

فَلِهذه الحَيْرَةِ الدِّينيّةِ، ولِعَواملَ دينيّةٍ أُخْرى، لم يَسْتَسِغِ القُرَشِيّونَ دِعاوَةَ الإسلامِ ودَعْوتَه، وأمّا المدينةُ، فلأنَّ اليهوديّةَ تَرَكَّزَتْ فيها وحدَها، كانتْ عَقْلِيّةُ قاطِنيها الدّينيّةُ هادئةً كثيراً، وكانتْ أقْرَبَ إلى التّأنُّسِ بالإسلام.

وهذا التَّطْبيقُ في مُحيطِ قريشٍ يُوصِلُنا إلى نتيجةٍ هامّةٍ، وهي أنّ طَبقاتِ قُريشٍ، على آخْتِلافِها، كانتْ مغلوبةً بِحَيْرَةٍ بالغةٍ. وفي مَعْرفةِ كُلٍّ منّا أنّ آلَ هاشِمٍ كانوا يُمَثّلونَ شِبْهَ فِئَةٍ كَهَنوتِيَّةٍ، أو أنّهم حُماةُ التّقاليدِ المؤروثَةِ؛ فبِحُكْمِ هذا التّخصُّصِ كانتْ لهم تربيةٌ دينيّةٌ خاصّةٌ تَجْعَلُنا نَقْطَعُ بأنّ بيئَتَهم الدّينيّةَ ولَّدَتْ فيهم ضميراً خِصْباً بحُكمِ الوِراثةِ، فينْبغي إذاً أنْ يكونَ صاحبُ التّعاليمِ الجديدةِ منهم، وأنْ يكونوا هُمْ رعاةَ هذه التّعاليمِ أيضاً.

والّذي يُصَدِّقُ هذا التَّقْديرَ، أنَّ الوِجْدانَ الدّينيَّ كانَ يَغْلِبُ على جميعِ رِجالاتِهم في كُلِّ دَوْرٍ، فإنّ عليّاً (ع) والحسنَ وآبنَ عبّاسٍ وزينَ العابدينَ ومُحَمَّدَ بنَ إبراهيمَ شواهدُ صادِقةٌ.

فالنَّفسُ العربيةُ كانتْ حائِرةً ما في ذلك شَكٌّ، وقد تَمادى بها الشّكُّ إلى ألْوانٍ من الجُحودِ والإلحادِ الخالِصِ. فإنّ مِنَ المُحَقَّقِ أنّ الأطْفالَ، ومَنْ في مُسْتواهُم من ذَوي العقليّاتِ البَدائيّةِ الّتي تَضْعُفُ عنِ الموازَنةِ والتّحكيمِ، يَميلونَ بل يُسْرِعونَ إلى التَّصْديقِ والإيمانِ في غَيْرِ شكٍّ ولا رَيْبٍ. والمنطقُ الجازمُ هو الّذي يأخُذُ سبيلَه إلى عقولِهم

وقلوبِهم، ليَمْلأ خَلاءَها السّاذَجَ، وهذه الرّغبةُ عندَ الإنسانِ الّتي لا تَفْتَأُ ساعيةً به إلى إرواءِ ظَمَئِهِ الرّوحيّ، هي الّتي تَجْعَلُ آستعدادَه للإيمانِ غيرَ محدودٍ، وإنَّ ما يُسَمّونَهُ في الفلسفةِ بالوِجدانِ البَدِيعيّ (Sentiment ésthétique) يَدْفَعُ الإنسانَ الفطريَّ إلى إشْباعِ نَهَمِه الفِكْريّ. فالعربيُّ بَدائيٌّ، والبَدائيُّ سريعُ التَّصْديقِ، ولكنَّ نَشاطَ المُبَشّرينَ بدياناتٍ مختلفةٍ، جَعَلَه يَتَرَدَّدُ. فهو لا يُمْكِنُه الإيمانُ بها جميعاً، كما أنّها لم تكنْ دياناتٍ وثنيّةً أو تُشْبِهُ الوثنيّةَ حتّى يَجِدَ الحلَّ مِنْ قريبٍ، بأنْ يحترمَ آلهتَها بدونِ تَفْريقٍ، كما كان يَفْعَلُ الوثنيّونَ القُدماءُ. فالإسكندرُ حينَ فَتَحَ مِصْرَ تَبنّى فكرةَ المِصْريّينَ الدِّينيّةَ وحَرَّق لآلهَتِهم.

إذاً فلم يبقَ أمامَ العربيِّ إلّا أنْ يَشُكَّ ويُلِحَّ في الشَّكِّ، لأنَّ حَرْبَ الدّياناتِ بينهُم لم تَكُنْ تعرفُ هَوادَةً أو تفيءُ إلى هُدْنَةٍ. فالعربيُّ كان صاحبَ وِجدانٍ دينيٍّ لا يَخلُو من سَقَمٍ، وبالأخصِّ الّذي يَسْكُنُ الحواضِرَ. والأخبارُ الّتي حَدَّثتْنا عن شَكِّ العربيِّ في مُناسباتِ حياتِه أكثرُ مِنْ أنْ تُحْصَى، حتّى لَقَدِ آهْتَمَّ القرآنُ بشأنِ هؤلاءِ الشّاكّينَ آهْتِماماً خاصّاً، وهاجَمَهُم مُهاجَمَةً عنيفةً كلّما حَكَى أفكارَهم في مثلِ آيةِ «إنْ هِيَ إلّا حَياتُنا الدُّنْيا نَمُوتُ ونَحْيا وما يُهْلِكُنا إلّا الدَّهْرُ»[8] وآيةِ «وما نَحْنُ بِمَبْعُوثِين»[9] إلى غيرِ ذلك من الآياتِ الكثيرة. وهذا المذهبُ الدَّهْريُّ كانَ أكثرَ المذاهِبِ آنْتشاراً كما يَظْهر.

والّذي يَدُلُّ على مكانِ هذا الشّكِ في نُفوسِ العربِ شُيوعُ فكرةِ النِّفاقِ في عددٍ كَبيرٍ بعدَما قَوِيَ شأنُ النّبيِّ (ص)، وظَهَرَتْ دعوتُه الإصْلاحيّةُ، وآشتَعَلَتِ الضَّمائِرُ بالثّورةِ على القديمِ، ومالَ النّاسُ إلى تعاليمِ النّهضةِ الّتي أعَدَّ النّبيُّ (ص) هيكَلَها. بِرُغْمِ هذا التّميزِ الصّافي الذي أجراهُ النّبيُّ (ص) إلى كلِّ نفسٍ لإرْواءِ ظَمَئِها وتبريدِ غُلَّةِ الشّكِّ فيها، لم تَتَأَنَّسْ نُفوسُ المُنافِقينَ بتعاليمِ الدِّينِ الجديدِ، بلْ لم تَطْمَئِنَّ إليه، وهم مَعْذورونَ لأنّهم كانوا يُعانونَ من

---

(٨) الجاثية ٤٥: الآية ٢٣.

(٩) الأنعام ٦: الآية ٢٩.

بَرْحِ الشَّكُّ الخَفِيِّ ما جعلَ ضمائِرَهم قَلِقَةً على الدَّوام.

والأشياءُ الّتي تركَها صِراعُ الدِّياناتِ عندَ العربيِّ، سَواءٌ في الوَضْعِ النّفسيِّ أو الدّينيِّ أو الاجْتماعِيِّ هي:

١ـ الحَيْرَةُ النّفسيّةُ العَميقةُ.

٢ـ صَقْلُ الوَثنيّةِ إمّا بالفكرةِ عندَ الطّائفةِ المُستنيرةِ، كالذي حدَّثَنا به القرآنُ حاكياً قولَهم «وما نعبُدُهُم إلّا لِيُقرِّبُونا إلى اللّهِ زُلْفَى». فهذِهِ الوثنيّةُ المتطَوِّرَةُ الفِكْرَةِ لا بُدّ أنّها مَذْهَبٌ أثَّرَ في وُجودِهِ ما شاعَ بينَ العربِ من أفْكارِ الدِّياناتِ الأُخرى؛ وإمّا بالعاداتِ كالصُّوفَةِ والنَّسيءِ.

والصُّوفَةُ وظيفةٌ[10] دينيّةٌ؛ قالَ ٱبْنُ هِشام: كانَتْ صُوفَةُ تَدْفَعُ بالنّاسِ من عَرَفَةَ، وتُجيزُ لهم إذا نَفَروا مِنْ مِنى، فإذا كانَ يومُ النَّفْرِ أتَوْا لِرَمْيِ الجِمارِ، ورَجُلٌ من صُوفَةَ يَرْمي لِلّناسِ، ولا يَرْمُون حتّى يَرْمِيَ، وكانَ آخِرَهم الّذي شارَفَ الإسلامَ كَرِبُ بنُ صَفْوانَ. ويقولُ الدّكتور ولفنسْتُون إنّ صُوفةَ الّتي مَعْناها في العِبْرِيّةِ الحارِسُ أوِ الشّخصُ البصيرُ في الشُّؤونِ الدّينيّةِ، وظِيفَةٌ تَسَرَّبَتْ إلى العربِ من اليهوديّة.

والنَّسيئَةُ وظيفةٌ أيضاً، تسرَّبَتْ إلى العربِ من اليهودِ. وتَميلُ جَمْهَرَةُ المُسْتَشْرقينَ إلى تَفْسيرِ هذه الكلمةِ بما كان مَعْروفاً عِنْدَ العِبْرِيِّيْنَ من أنّ النّاسِيءَ، أي الرَّئيسَ الدّينيَّ، كانَ

---

(١٠) مِنَ المسائِلِ الّتي لم تُحَلّ حتّى الآن تَعْيينُ الأصلِ الّذي تَنْظُرُ إليه كلمةُ صُوفيّة وتَصَوُّف. وعلى كَثْرَةِ التّقديراتِ لم يَصِلِ العُلماءُ إلى رَأْيٍ قاطِعٍ، فهم تارةً يَرُدّونَها إلى الصُّوفِ وتارةً إلى الصَّفاءِ، وأحياناً يَرُدّونها إلى أصولٍ يونانيّة. ورأيي الّذي أطْمَئِنُ إليه جدّاً أنْ يكون صوفيّة وتصوّف من كلمةِ صُوفة بمعناها العِبادِيِّ، وهي من الكلماتِ المُشتركةِ النُّجارِ في السّاميّات، ومَصْدَرُ هذا الاطْمِئنانِ شيئان:

أ ـ الآصِرَةُ الشّديدةُ بينَ معنى صوفيّة ومعنَى صُوفة، فكلٌّ منهما طائِفَةٌ لها تَرتيبٌ دينيٌّ خاصٌّ وأشكالٌ تَعَبُّدِيةٌ. وإنَّ تَخَصُّصَ فريقٍ من عربِ الجاهليّةِ بوظيفةِ الصُّوفة يَجْعَلُهُم طبقةً ذاتَ شعائِرَ وٱمْتِيازٍ في مذاهِبِ حياتِها على شَكْلِ المتصوِّفة.

ب ـ مُساعدةُ قواعِدِ العربيّة في النّسبةِ والاشْتِقاقِ على هذا التّخريجِ اللّغوي.

يُؤَخِّرُ ويُقَدِّمُ الشُّهورَ، ويُعيِّنُ مواعيدَ الأعيادِ والصِّيامِ، ويُعلِنُ النّتيجةَ بواسِطَةِ وُفودٍ إلى الطَّوائفِ اليهوديّةِ المُختلِفةِ. والنّاسيءُ هو الآسْمُ الشّائِعُ لرئيسِ القَبائلِ عندَ بَني إسرائيلَ منذُ أزْمِنَةٍ غابِرَةٍ، ووجودُ هذه الوظيفةِ في بني كِنانَةَ الّتي كانَ منها بُطونٌ مُتَهَوِّدَةٌ يُرَجِّحُ هذا التّقديرَ، كما يؤيِّدُه ما ذَكَرهُ أبو معشرٍ البَلْخِيُّ في كتابِ **الألوف**، وأبو الرَّيْحانِ البَيْرونيُّ في كتاب **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، والمَقْريزيُّ في كتابِ **المواعظ والاعتبار بذِكْر الخِططِ والآثار**. ويذهبُ المستشرقُ الهولَنْدِيُّ دوزي إلى أنّ حَرَمَ مكّةَ عُمِّرَ بواسطةِ بُطونٍ[11] بني شَمْعونَ، وأنّ تقاليدَه ليستْ إلّا وِراثَةً إسرائيليّةً قديمةً. كما ذَهَبَ أيضاً إلى أنّ العربَ

---

(١١) يُداخِلُني تَظَنُّنٌ جِدُّ غريبٍ، لا يَبلُغُ حَدَّ الرأيِ لعدمِ مُساعَفَةِ الشواهدِ، في أصلِ العَدْنانيّينَ والقَحْطانيّينَ، وقد تَكَوَّنَ لَدَيَّ من تَلْويحاتٍ مَحْضِ لُغَوِيّةٍ وَفقاً للأصولِ المقرَّرةِ في كتابِ **مُقدِّمة لدرس لغة العرب** وعلى الرّغم من أنّه تقديرٌ لا يَستندُ إلى وثائقَ أو أشباهِها، فإنّها لا تَجْفُوه لاتّساقه مع رُوحِ ما هو محفوظٌ من وثائقَ بَتْراء.

ويتلخّصُ هذا التظنُّنُ، بأنّ العَرَبَ والعِبْرَ كانوا الانشِعابَةَ الأقدمَ لِلأَرُومَةِ السّامِيّةِ، في مُحيطِ الأحْقافِ والجنوبِ اليَمَنيّ... والجماعاتُ الّتي كانتْ مساكِنُها إلى الساحل سُمّوا عِبْرِيّينَ أي ساحليّينَ نسبةً إلى العِبْر، والجماعاتُ الّتي مساكِنُها إلى الصَّحراءِ أو فيها، سُمّوا عرباً أي صحراويّين من كلمةِ عربة بمعنى صحراء.

وأُقَدِّرُ أنّ هؤلاءِ الساحليّينَ كانوا يَشْتَغلونَ في البحارِ كما هو شأنُ أشباهِهِم، وقد وُفِّقوا إلى نوعٍ من نِعْمَةِ العَيْشِ وغَضارَتِه، بينَما الجماعاتُ الأُخرى الّتي لم تحاولْ عن الصحراء مُنْقَلَباً، عُرِفوا بالقَحْطانِ أي أبناءِ القحطِ. فقد ألَحَّ عليها الجُهْدُ والشَّظَفُ ولَزِمَها النعتُ لُزومَ الاسم، مثلما لَزِمَ المستقرّينَ النعتُ الآخَرُ العَدْنانُ، أي المقيم.

فكلا المفردَيْنِ: قحطان وعَدْنان، ليسا عَلَمَيْنِ على شَخْصَيْنِ تاريخيّيْنِ كما يُظَنُّ ويُتوهَّم، بل هما نَعْتانِ جُغْرافيّان... فالعدنانُ المُستَقِرُّ المُتَحَضِّرُ والقحطانُ المُتَبَدّي المترحِّلُ... ويَبْدُو هذا شديدَ الوضوحِ حينَما نتناولُ بالدّرسِ كلَّ ما تَدُلُّ عليه كلمةُ العِبْر: فهي تَدُلُّ على السّاحِلِ والشّاطِيءِ، وعلى الجَماعَةِ والمكانِ الآهل.

ثمّ إذا ضَمَمْنا إليها تَلْويحاتِ معاني جَذْر: عَدَنَ أي أقامَ، نَجِدُ أن العَدان يَدُلُّ على السّاحِلِ للبحرِ والضِفّةِ للنّهرِ، وأنّ العَدانة تَدُلُّ على الجَماعةِ... وهذا كُلُّه حَمَلَني على نحوٍ من غَلَبَةِ الظنّ، بأنَّ المكانَ المعروفَ باسم: عَدَن، إنما أُعطِيَ هذا الاسمَ في القَديمِ القَديمِ بمعنى ما نفهمُ نَحنُ اليومَ من كلمة: مَرْفَأ؛ بمَلْحَظِ أنّه مكانُ إقامةِ السُّفُن ورُسُوّ الأصامِيم من أفْواجِها.

هذا التَظَنُّنُ الّذي نَلِجُ بمِشْكاتِه، إنْ صَحَّ وكانَ له مِشْكاةٌ، إلى دَهاليزِ الماضي السَّحيق، ثمّ اتّفَقَ وظَهَرَتْ وَثائِقُ تَشْفَعُ به وتُقِيمُ أمْتَهُ وعِوَجَه، نَعْرِفُ أنَّ عدنانَ وقحطانَ أقدمُ ممّا كُنّا نظنُّ، وأبْعَدُ عن أنْ يَكونا شَخْصَيْنِ تاريخيّين.

آستعاروا أسماءَ أيّامِ الأسْبوعِ من اليهودِ، إذْ لا يُمْكِنُ تَصَوُّرُ آستعمالِ لَفْظِ السَّبْتِ بدونِ هذا، كما أنّ يومَ الجُمُعَةِ عُرِفَ عندَ أهْلِ مَكّةَ بلفظِ عَرُوبَة، وهو لَفْظٌ يُطْلَقُ عندَ اليهودِ على كُلِّ يومٍ قبلَ السّبْتِ وقبلَ الأعياد.

٣ـ فِكرةُ تَحْريمِ الأشْهرِ الّتي تُشيرُ إلى شُعورٍ آجْتِماعيٍّ خاصٍّ دَفَعَهُم إلى تَكَتُّلٍ قوميٍّ مؤَقَّتٍ، هذهِ الفكرةُ الّتي كانتْ وَليدةَ الشُّعورِ البَليغِ بالاجتماعِ. ونحنُ نَطْمَئِنُّ إلى أنّه نَتيجةُ التَّعَرُّفِ إلى نُظُمٍ جديدةٍ، فإنّه لونٌ من التّعاوُنِ الشّعبيِّ أوْسَعُ من آعْتباراتِ القَبَلِيّةِ، مُتَّخِذاً شَكْلاً دينيّاً عميقاً، بَلْهَ أنّه كانَ حاجةً أكيدةً من حاجاتِ التعايُشِ في ظِلِّ الجِنْسِ. ويَدُلُّ على أنّه غيْرُ بعيدِ النّشْأَة أنّ قَبائلَ مِنَ العَرَبِ كَلَخْمٍ لم تكنْ تَخْضَعُ لهذا التَّشريع.

والنّتائِجُ الّتي نَتوَصَّلُ إليها، بعدَ هذا العرْضِ السّريع هي:

أوّلاً: إنّ صِراعَ الدّياناتِ كانَ عنيفاً، وكان مَأْجوراً آسْتُعْمِلَتْ فيه شَرُّ الوَسائلِ، حتّى أدّى إلى مذابِحَ رَسْمِيّةٍ في الجُنوبِ على أيْدي الحِمْيَرِيّينَ[١٢]، وإلى مُناوَشاتٍ في الحِجاز.

ثانياً: إنّ الدّياناتِ لم تَظْفَرْ بتَحْويلِ العربِ عنْ عقائِدِهم، بلْ ظَفِرَتْ بإثارَةِ الشُّكوكِ.

ثالثاً: إنّ الأُسْرَةَ الهاشميّةَ كانتْ هي المأْمولَةَ بأنْ تُقَدِّمَ المُصْلِحَ أو المُخَلِّصَ، وإنّ المدينةَ هي الوَطَنُ الصّالِحُ لِنُمُوِّ الدِّيانةِ الجَديدةِ وبقائِها.

رابعاً: إنّ النِّفاقَ مَبْعَثُهُ الشّكُّ الدِّينيّ.

هذا بَحْثٌ لا يَعْنينا منهُ إلّا أنْ نَتَحَسَّسَ حالَةَ الشّكِّ عندَ العربِ قبلَ الإسلامِ، ومقدارَ ما بَقِيَ منْها في النُّفوسِ بعدَه. وقدْ ظَهَرَ لنا مِمّا سَبَقَ أنّ حالةَ الشّكِّ كانتْ مُتَحَكِّمَةً إلى حدٍّ كبيرٍ في عُقولِ العربِ ونُفوسِهم، ورَأَيْنا أيضاً كيفَ أخَذَ الشّكُّ في عهْد النّبيّ (ص) شكْلاً

(١٢) الحِمْيَرِيّونَ طائفةٌ مُبْهَمَةُ النّشْأةِ، والمؤرِّخونَ على آختِلافٍ في حقيقتِها. وأنا أُرَجِّحُ أنّهم غيرُ الخُلَّصِ الصُّرَحاءِ في أنسابِهِم وأعْراقِهِم.

آخَرَ دُعِيَ نِفاقاً. وفي كُتُبِ التّاريخِ أخبارٌ كثيرةٌ وأقاصيصُ كثيرةٌ، مِنْ مِثْلِ قِصَّةِ عمرو بْنِ معدي كرب الّتي ذَكَرْناها في مُقَدِّمَةِ[١٣] **سُمُوّ المعنى في سُمُوّ الذّات**، وقِصَّةِ تَهاوُنِ المُغيرةِ بْنِ شُعْبَةَ بالصَّلاةِ، على ما ذكره البُخاريُّ في كتابِ مواقيتِ الصّلاةِ من صحيحه، وتَهاوُنِهِ بالحُدودِ، على ما ذَكَرَهُ الأصْبَهانيُّ في كتاب **الأغاني**. وكلُّها تَدُلُّنا على مكانِ هذا الشّكِّ الّذي ظَهَرَتْ طَلَعاتُهُ وخَوالِجُهُ المكْبوتَةُ في حَرَكَةِ الارْتِدادِ وحركةِ المُتَنَبِّئين.

فإنّ حركةَ الارْتِدادِ، إذا دَرَسْناها درساً دقيقاً، دلَّتْنا على مَوْضِعِ الشّكِّ عندَ هاتيكَ الأقوامِ الفِطْرِيَّةِ، وأنّهُ آمْتَدَّ إلى نواحي نَفْسِيّاتِهِم، وصَبَغَ عليْهِم مُيولَها. وهذه الحَرَكَةُ كانتْ مُتَمِّمَةً لحركةِ التَّنَبُّؤِ الّتي بَدَتْ طلائِعُها في زمَنِ النّبيِّ (ص) آخِرَ عَهْدِهِ، وكانت شائعةً بينَ كَثيرٍ من الخواصِّ، وإنَّ ظاهِرَةَ الشّكِّ فيها كانتْ مَلْموسةً إلى حدٍّ كبيرٍ، حتّى لَتَراها في تَضاعيفِ قِصَّةِ المُتَنَبِّئينَ واضِحةً جَلِيَّةً. وقدْ تأثَّرَتْ هذه الحركةُ في نَظَري بِعَواملَ ثلاثةٍ:

الأوّل: الاستياءُ الّذي تَمَلَّكَ الطّبقاتِ الدّينيّةَ (الكُهّانَ) مِنْ ضَياعِ نُفوذِهِم بالإسلامِ، فَعَمَدوا إلى آسْتِعادةِ مَجْدِهِم المَفْقودِ بدَعْوَةٍ مُشابِهَةٍ.

الثاني: قَلَقُ الوِجْدانِ الدّينيِّ الّذي ظَهَرَ أنّه كان قَوِيّاً إلى حدٍّ ما، وقدِ آشْتَغَلَّه المُتَنَبِّئُونَ لإيصالِ دعوتِهِم إلى العُقولِ، أو على الأقَلِّ لإثارَةِ الشَّكِّ في التّعليمِ الجديدِ الّذي آطْمَأنَّ العربُ إليه آطْمِئْناناً ما. وهذا يُكْسِبُهم رُجوعَ العربِ إلى جاهليَّتِهم المُضطَّرِبَةِ.

الثالث: عَدَمُ فَهْمِهِم للنُّبُوَّةِ على حقيقتِها، فَإنَّ الّذي في خَيالِهِم عنْها كانَ تَصَوُّراً مُبْهَماً ومُشَوَّهاً. ولكي تَتَّضِحَ لنا هذه العواملُ في حركةِ المُتَنَبِّئينَ على وجهٍ أدْعى إلى التَّصْديقِ نُوردُ نُتَفاً مِنْ أخبارِهِم.

ذَكَرَ آبْنُ جَريرٍ أنّه لـمّا آشْتَكى النّبيُّ (ص) وَثَبَ الأَسْوَدُ باليَمَنِ، ومُسَيْلِمَةُ باليَمامَةِ،

---

(١٣) راجِعْ: **سموّ المعنى في سموّ الذات**، الطبعة الأولى، ص ٥١.

ووثَبَ طُلَيْحَةُ في بلادِ بني أسَد. ولعلَّ أطْرَفَ شخصيّةٍ بينَ المُتَنَبّئينَ هي سَجاحُ بنتُ الحارثِ الّتي كانتْ كاهِنَةً، وكانت على عِلْمٍ بالنّصرانيّة، وكانتْ راسخةً فيها، تأثّرَتْ بنَصارى تَغْلِبَ. وإنّما آخترْناها لأنّ شخصيّتَها آزْدَوجَتْ بشخصيّةِ مُتَنَبّىءٍ آخَرَ هو مُسَيْلِمَة.

وَخَبرُها، كما ذَكَرَهُ الطَّبَرِيُّ[١٤]، أنّها تَنَبّأتْ بعدَ موتِ رسولِ اللّهِ (ص) بالجزيرةِ في بني تَغْلِبَ، فآسْتجابَ لها الهُذَيْلُ، وتَرَكَ التَّنَصُّرَ، وكان قَصْدُها غَزْوَ أبي بَكْرٍ في المدينةِ، غيرَ أنّ الظّروفَ جعلتْها تُغَيِّرُ آتّجاهَها إلى اليمامةِ. ويقولونَ إنّه جَرى على لِسانِها: «عليكم باليمامة، ودُفّوا دَفيفَ الحمامة، فإنّها غَزْوَةُ صَرامَة، لا يَلْحَقُكُمْ بعدَها مَلامَة». فَنَهَدَتْ لبني حَنيفةَ، وبلغَ ذلك مُسَيْلِمَةَ فهابَها، فأهْدى إليها، ثمّ أرْسَلَ لها يَسْتَأمِنُها على نفسِه حتّى يأتيَها، فَنَزَلَتِ الجُنودُ على الأمْواهِ، وأذِنَتْ له وأمَّنَتْه، فجاءَها وجعلَ لها نِصْفَ الأرض. ورَوَوْا أنّها تَزَوَّجَتْهُ وطلبتْ إليه أنْ يَصْدُقَها، فَأمَرَ مؤَذِّنَها شَبْثَ بنَ رَبَعِيّ الرِّياحيَّ أنْ يؤَذِّنَ في النّاسِ أنّ مُسَيْلِمَةَ بنَ حبيبٍ، رَسولَ اللّه، قدْ وضَعَ عنكُم صَلاتَيْنِ ممّا أتاكُم بهِ مُحمّدٌ: صلاةَ العِشاءِ الآخِرَةِ وصلاةَ الفَجْرِ. وذَكَرَ الكَلْبيُّ أنّ مَشْيَخَةَ بني تميمٍ حَدَّثوه أنّ عامّةَ بني تميمٍ بالرّملِ لا يُصَلّونَهما.

وكانَ من جُمْلَةِ أصحابِها عُطارِدُ بنُ حاجبٍ، وهو الذي يقول:

أمْسَتْ نَبِيَّتُنا أُنْثى نَطيفُ بِها ‏ ‏ ‏ ‏ وأصْبَحَتْ أنْبياءُ اللّهِ ذُكْرانا

ثمّ أسْلَمَتْ وحَسُنَ إسلامُها.

هذه القِصّةُ تَذْكُرُ أنّ سَجاحَ كانتْ مُتأثّرةً بالنّصرانيّةِ إلى حدٍّ كبيرٍ، أيْ غيرَ مُطمئنّةٍ، أو حائِرَةً، وكانتْ كاهنةً، فهي لذلكَ مُشتاءةٌ حيثُ إنّ الإسلامَ وَضَعَ حدّاً للاعتقادِ بأشْباهِها، وآتّبَعَها كثيرٌ من مُتَنَصِّرَةِ تَغْلِبَ؛ وأنّها تَزَوَّجَتْ بمُسَيْلِمَةَ الّذي جعلَ صَداقَها إسقاطَ صلاتَيْنِ

---

(١٤) راجع: **تاريخ الطبري**، ج ٣، ص ص ٢٢٨ - ٢٤١.

من ديانةِ مُحَمَّدٍ (ص). ويؤكّدُ نظريّتَنا في ضميرِ العربِ الدّينيّ، وأنّه كان مُتَلَدِّداً، ما ذَكَرَهُ الكَلْبيُّ مِنْ أنّ عامّةَ بني تَميمٍ بالرّملِ لا يُصلّونَهما. على أنّنا نكادُ نَلْمِسُ الابْتِسامَةَ الماكِرَةَ السّاخرةَ في قَوْلِ عُطاردَ بْنِ حاجبٍ، وبالأخَصِّ هذا التّعبيرِ: «أُنثى نَطيفُ بها» ورُغْمِ ذلكَ نَجِدُه مُنْقاداً مُسْتَسْلِماً لأسبابٍ منْها، أو أهمُّها، الحَيْرَةُ الّتي طَبَعَتْ دَخِيلَتَهُم النَّفْسِيَّةَ.

والآنَ نَنْتَقِلُ إلى دَرْسِ هذه الظّاهرةِ في عهْدِ الخُلفاءِ، وخُصوصاً عندَ الأعرابِ ومن لَفَّ لَفَّهُمْ، وبتعبيرٍ أَصَحَّ: لافَّهُمْ. ولسْنا نَقِفُ عندَ حوادثَ جُزْئِيّةٍ وَقَعَتْ مِنَ الأشْخاصِ في بَعْضِ مُناسَباتِ حياتِهم، وإنّما نَتَّجِهُ من أوّلِ الأمْرِ إلى أحْداثٍ كبيرةٍ تجلَّتْ فيها ظاهِرَةُ الشّكِّ على نَحْوٍ يُفيدُنا أنْ نُشَخِّصَه.

ويَحْسُنُ بنا أنْ نُشيرَ هنا إلى أنّ كتابَ **نهجِ البلاغةِ**، إذا دَرَسْناه دِراسةً نَقْدِيّةً، نَقَعُ فيه على ما يُؤكِّدُ هذا الظّنَّ، ففيهِ خُطَبٌ كثيرةٌ ومَجالسُ كثيرةٌ تَدورُ على مسائِلَ من أصولِ الدِّين، كانَ النّاسُ لا يَفْتَؤونَ يَسْأَلُونَه عنْها، أو يَتَساءَلونَ عنها فيما بينَهم، وهيَ مسائلُ تَتَعَلَّقُ بالذّاتِ الإلهيّةِ في أغْلَبِ الأحيانِ، كَمِثْلِ خُطبةِ الأشباحِ، وهي منْ جَلائِلِ خُطَبِهِ، وكانَ سأَلَهُ سائِلٌ أنْ يَصِفَ اللّهَ حتّى كأنّه يراه عِياناً، فَغَضِبَ الإمامُ (ع) وعرَّفَهُم كيفَ يُنَزَّهُ اللّهُ، وخُطْبَتِهِ في ٱبْتداءِ خَلْقِ السّماواتِ والأرضِ، وخُطْبَتِهِ في تَنْزيهِ اللّهِ، وأجْوِبَتِهِ في الحرّيّةِ الأدبيّةِ، أوِ الإرادةِ الجُزئيّةِ (مُعْضِلة القضاءِ والقَدَرِ). مِمّا يدلُّنا على ما هو مُتَمَلِّكُهُمْ مِنْ حَيْرَةٍ خَفِيّةٍ؛ فإنّ الإسلامَ، برُغْمِ أنّه وَضَعَ حَدّاً لهذه الحَيْرةِ، بما فرضَ من مُثُلٍ وتَعاليمَ، عادتْ فَظَهَرتْ بأشْكالٍ إسلاميّةٍ، وبالأخَصِّ بعدَ عمليّةِ التّمازُجِ الكُبرى الّتي أدّى إليها الفَتْحُ السَّريعُ. فدُخولُ ذَوي الدِّياناتِ الأُخرى في الإسلام ـ والأُمَمُ لا تُغَيِّرُ دياناتِها كما تُغَيِّرُ أثْوابَها ـ ثَبَّتَ هذهِ الحَيْرَةَ أو أنْماها، ولكنّه أعطاها شَكْلَ الاجْتهادِ الدِّينيّ. والآن نَدْرُسُ حَرَكَةَ الخوارِجِ والسَّبَئِيّةِ على ضَوْءِ هذه النَّظَرِيّة.

نظريّة الخوارج: جاءَتِ الأخبارُ بأنّ المُتحاربينَ في صِفّينَ، لمّا ٱتّفقوا على التّحكيم، نَفَرَ

قَوْمٌ مِنْ جُنْدِ عليٍّ (ع) أكْثَرُهم منْ قَبيلةِ تَميمَ، مِنْ أنْ يُحَكِّمَ أحدٌ في كتابِ اللّه. ويَنْبَغي أنْ لا نَنْسى بأنَّ تميمَ كانتْ فيمَنِ آرْتَدَّ، وكانتْ رِدَّتُها إلحاداً، فقدْ قَدَّمَتْ نبيَّةً كان لها شَأْنٌ مُهِمٌّ، وهي سَجاحُ بنتُ الحارِث. وإنّما أنْبَهْنا على هذا ليَبْقى في ذُكْرِنا أنّهم كانوا ذَوِي ضَميرٍ دينيٍّ قَلِقٍ تَبَعاً لِما يَعْرِضُ في سَماوَةِ خَيالِهم. وبما أنّهم يَفْقِدونَ القُدْرَةَ على المُوازَنَةِ العقليّةِ فهمْ لِذلكَ يَصيرونَ إلى التَّمَسُّكِ بالرَّأْيِ أو التَرَدُّدِ. وسَنَجِدُ صِدْقَ هذا بعدَ حينٍ، فإنّ بعضَهم تشدَّدَ وَغَلا، وبَعْضَهم تَرَدَّدَ، فكانتْ أفكارُهم تَخْتَلِفُ بينَ عَشِيَّةٍ وضُحاها كما يَقولونَ، وفَقْدُهُمُ القُدْرَةَ على الموازَنةِ يُعَلِّلُ آنْقِسامَهم على أنْفُسِهم هذا الانْقِسامَ السَّريعَ. وقدْ جَعَلوا شِعارَهم هذه الكلمةَ: «لا حُكْمَ إلّا للّه» المأْخوذَةَ منْ قَوْلِهِ تَعالى «إنِ الحُكْمُ إلّا لِلّه»(١٥).

أهَمَّتْهُمْ أنْفُسُهم حينَما قَبِلَ عليٌّ (ع) بالتَّحكيم لأنَّ قبولَه، كما ذَكَرْتُ في كِتاب **سُمُوّ المعنى في سُمُوّ الذّات**، مَعْناهُ أنّ لِلْخُصومِ شُبْهَةَ حقٍّ، وهو ما لا يَسْمحونَ لأنْفسِهم بآعْتِقادِه، وإلّا فَقَدْ تَهافَتوا بَيْنَ عملِهم اليومَ وعملِهم بالأمسِ. وَهُمْ حينَ آسْتَبَدَّ بِهِمُ القَلَقُ، لِضَعْفِ الموازَنَةِ العقليّةِ عندَهم، لَم يُنْقِذْهم إلاّ أنْ يُقِرَّ عليٌّ (ع) بالخَطَإِ أي بالكُفْرِ.

ومن الخَيْرِ أنْ نَذْكُرَ طَرَفاً من تعاليمِهم لِنوجِدَ صِلَةً عقليّةً بينَ أفكارِهم، وبينَ الأفكارِ القَديمةِ من جِهةٍ، وصِلةً أُخْرى بينَ طُلوعِهِم بهذه التَّعاليم وبينَ الحَيْرَةِ المُسَيْطِرَة.

ذهَبوا في أوَّلِ الأمْرِ إلى أنّ الخلافةَ ليستْ حقّاً أصِيلاً، ولا مُكْتَسَباً لقُرَيْشٍ، وإنّما هي حقٌّ مَشاعٌ بينَ العَرَبِ، ثمّ قالوا بينَ عامَّةِ المُسْلِمين.

دَقِّقِ النَّظَرَ في هذه الفِكْرَةِ التي تَنْفَسُ على قريشٍ سُلطانَها وتَحَكُّمَها، وبينَ ما جاءَ على لسانِهم يومَ الارْتِدادِ، تَجِدِ البَواعِثَ واحِدةً. فمُسَيْلِمَةُ كان يقولُ إنَّ قريشاً قومٌ يَعْتَدونَ،

---

(١٥) الأنعام ٦: الآية ٥٧.

وقالَ قيسُ بنُ عاصم:

ألا أبْلِغا عنّي قُريشاً رِسالةً ... إذا ما أتتْها بيِّناتُ الودائِعِ

كما نَجِدُ مِنْ أهمِّ بواعِثِ الثّورةِ على عُثمانَ أيضاً، أنَّ القبائل نَفِسَتْ على قريشٍ إمْرَتَها، وقد أنْضَجَ سَخيمَتَهُم تصرُّفُ قريشٍ تَصَرُّفاً غيرَ مَشْروعٍ ولا عادِلٍ، إلى حدٍّ جَعَلَ القبائِلَ تَرْمي قريشاً بأنّها نَصَلَتْ مِنَ الدّينِ تقريباً. وآسْمَعْ إلى ما يقولُ شاعِر:

بُلينا مِنْ قريشٍ كلَّ عامٍ ... أميرٌ مُحْدِثٌ أوْ مُسْتشارُ

لنا نارٌ نُخَوِّفُها فتَخْشَى ... وليسَ لهم، فلا يَخْشَوْنَ، نارُ

فكانَ بينَ هذهِ الحركاتِ الثّلاثِ صِلَةٌ شديدةٌ، وهي في الواقِعِ حركةٌ واحِدةٌ ظَهَرَتْ في ظُروفٍ مُختلفةٍ، وكانتْ تَصْطَنِعُ لها في كلِّ ظَرْفٍ ما يُناسِبُه. فحركةُ الخوارِجِ، في نظري، بَقِيّةٌ منْ حركةِ الارْتدادِ الكامِنَةِ، ولكنّها في هذه المرّةِ أخَذَتْ شَكْلَ آجْتهادٍ دينيٍّ إسلاميّ.

ورَأْيُهُم في الخليفةِ أنّه لا يَصِحُّ لهُ أنْ يتنازلَ ولا أنْ يُحَكِّمَ، وإذا تمّ آخْتِيارُه صارَ رئيسَ المُسلمينَ، ويجبُ أنْ يَخْضَعَ خُضوعاً تامّاً لِما أمَرَ اللّهُ، وإلّا وَجَبَ عَزْلُه. ومن طوائفِ الخوارجِ مَنْ يَذْهَبُ إلى أنّه لا حاجةَ بالأُمّةِ إلى إمامٍ، وإنّما على النّاسِ أنْ يَعْمَلوا بكتابِ اللّهِ منْ أنْفسِهم، وهذا ما كانَ يُفْهَمُ منْ كلمتِهم: «لا حُكْمَ إلّا للّه». ولذا قال عليٌّ (ع): «كلمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطِلٌ، نَعَمْ إنّه لا حُكْمَ إلّا للّهِ ولكنَّ هؤلاءِ يقولون لا إمرةَ إلاّ للّهِ». يَتَبَيَّنُ لنا مِنْ هذا أنّ نظريّةَ الخوارِجِ تَرْجِعُ إلى عواملَ ثلاثةٍ:

أوّلاً: القَلَقُ الدّينيّ.

ثانياً: العَصَبِيّةُ.

ثالثاً: خضوعُ هؤلاء الأعرابِ، أيّامَ جاهليّتِهم، للكُهّانِ خُضوعاً تامّاً، فما كانوا يَقْطَعون بشيءٍ إلّا بعدَ تحكيمِهِم. والمفروضُ في الكُهّانِ أنّهم يَسْتَفْسِرون الغَيْبَ، وهذا

أدْخَلَ في فِطْرَتِهِم أنّهم مُسَيَّرونَ كَرْهاً، وجاءَ التّنَبُّؤُ فَثَبَّتَ في ضمائِرِهم أنّ الغَيْبَ هو المُحَكَّمُ في كلِّ شيءٍ. فالعربُ من هذه الناحيةِ كانوا جَبْرِيِّينَ، ونَجِدُ في **الآثار المرْوِيّة ونهج البلاغة** أنّ عليّاً (ع) آجْتَهَدَ كثيراً في تَفْهيمِهِم حقيقةَ القَدَرِ، وكانتْ لهجَتُه في ذلك قاطِعةً صارِمَةً. وتأمَّلْ قولَه في الجوابِ عن مَسْأَلَةٍ في القَدَرِ «لو كان، أيْ مَعنى القَدَرِ، كما تَظُنّون لَبَطَلَتِ الشّرائِعُ والتّكاليفُ والجَنّةُ والنّارُ، وبَطَلَ إرسالُ الرُّسُلِ، إيّاكمْ وهذه العَقيدةَ فإنّها عقيدةُ مجوسِ هذه الأُمَّةِ». هذه هيَ البَواعِثُ الحقيقيّةُ لخُروجِهِم، وإنْ كان في ظاهِرِه لا يُعطي إلّا أنّه نتيجةُ ظَرْفٍ خاصٍّ آنكَشَفَ عنه.

السَّبَئيَّة: والآن نتناوَلُ السَّبَئِيَّةَ الّتي كانتْ أدْخَلَ في وُجْهَةِ هذا النّظرِ. وهي نِحْلَةٌ تَنْتَسِبُ إلى شخصيّةٍ غامِضَةٍ كلَّ الغُموضِ، حتّى عُدَّتْ شِبْهَ تاريخيّةٍ، وهو عبدُ اللّه بْنُ سَبَأٍ. والرُّواةُ يختلِفون فيهِ إلّا أنّهم يُجْمِعونَ على الدَّوْرِ الّذي لعِبَه، وأكثرُهم يَذْهَبُ إلى أنّه يَهوديٌّ من صنعاءَ، قَدِمَ الحجازَ ودَخَلَ في الإسلام كما دخل غَيْرُه من اليهودِ. وقَدِ آبْتَدَعَ للعربِ قَضايا شَغَلَتِ الأفْكارَ، وأقامَتِ المُجْتَمَعَ العربيَّ وأذْكَتْ فيه الثّورةَ، ولعلّه الشّخصُ الّذي نَظَّمَ تعاليمَ الثّورةِ، وأعطاها شَكْلاً مُنسَّقاً مُهَذَّباً.

والمسائِلُ الّتي خَلَبَ بها النّاسَ تُنْظَمُ في صِنْفَيْن:

الأوّل: دينيٌّ، ومسائلُه هي:

أ ـ إنّ عليّاً يَجِبُ أنْ يَخْلُفَ النّبيَّ (ص) وليس أبا بكر.

ب ـ إنّ عليّاً (ع) وَصِيُّ محمّدٍ (ص)، كما كان هارونُ وصيَّ موسى (ع)، وشَمعونُ الصّفا وَصِيَّ عيسى (ع).

ج ـ إنّ مُحَمّداً (ص) سيعودُ كما عاد موسى، وكما لِلمَسيحِ رَجْعَةٌ له رَجْعَةٌ مُستنِداً إلى قولِه تعالى «إنّ الّذي فَرَضَ عليْك القُرآنَ لرادّكَ إلى مَعادٍ» (القصص ٢٨: ٨٥).

الثاني: إجتماعيّ، وهو مِنَ النَّوعِ الاشتراكيِّ المُتَطَرِّفِ، ومسائِلُه هي:

أ ـ إنّ المالَ يَجِبُ أنْ يُقَسَّمَ بين النّاسِ بالسَّوِيَّةِ، وليس هناك غَنيٌّ ولا فَقير.

ب ـ إنَّ تَسْمِيَةَ معاويةَ للمالِ بمالِ اللّهِ لا مالِ المسلمينَ آفْتِئاتٌ على حقوقِهم، وقصدُ معاويةَ من هذا، كما كانَ يُرَوِّجُ، أنْ يَسْتَأْثِرَ لهُ التَّصرّفُ به كيفَ شاءَ. ولا يَخْتَلِفُ آثْنانِ من المؤرِّخينَ بأنّ آبْن سَبَأٍ تَأَثَّرَ إلى حدٍّ كبيرٍ بتعاليمِ الدِّياناتِ المختلفةِ، وأخَصُّها المزْدَكِيَّةُ في الجانبِ الاجتماعيِّ من أفكارِه. وفي نَزْعَتِه مِصْداقُ نظريّتِنا الّتي آجْتَهَدْنا أنْ نُفَسِّرَ بها الأهْواءَ الدينيّةَ الّتي أدَّتْ إلى آخْتِلافٍ كَبير.

والمؤرِّخونَ يَرَوْنَ في عبدِاللّهِ بْنِ سَبَأٍ هذا، رَجُلاً دسّاساً خَطيراً، ونَرى فيه غيرَ ذلك. ومُقَدِّماتُ هذا الرّأْيِ الّذي كَوَّنْتُه لنفسي، أنّ السّياسةَ الماليَّة التي سارَ عليها عثمانُ (ض) من حيثُ إقْطاعُ المحاسيبِ، فَقَدْ أقْطَعَ مروانَ خُمْسَ ما فَتَحَه في أفريقيا، والإقْطاعُ شيءٌ مُسْتَحْدَثٌ في الإسلامِ، بَلْهَ أنّه خَوَّلَ قُريشاً المِلْكَ وآقْتِناءَ الضِّياعِ والتَّزَيُّدَ منها إلى أبْلغِ حَدٍّ، هذه السّياسةَ كانتْ طَفْرَةً بِالنَّظَرِ إلى سياسةِ عُمَرَ (ض) الصّارِمَةِ في هذا الجانِبِ. وقد نَشَأَ عنْها وُلوعٌ بالاسْتِكْثارِ، ورَغْبَةٌ جامِحَةٌ في التَّمَوُّلِ ضَرورةَ أنّها نُقْلَةٌ مِنَ الفَقْرِ الجَديبِ إلى الثَّراءِ العريضِ. وقد ظَهَرَ أثرُ هذا التَّسابُقِ على الامْتِلاكِ سريعاً في الوَضْعِ الاقتصاديِّ العامّ، حيثُ جعلَ العَسْكَرِيِّينَ الّذين أوْقَفُوا أنفسَهم على الجُنْدِيَّةِ طَبَقَةً فقيرةً يائِسةً بائِسَةً، وألْحَفَ عليْها الفَقْرُ بصورةٍ أشَدَّ، حينما وقفتِ الفُتوحُ أو فَتَرَتْ. وإذا عَلِمنا بأنّ العسكرِيِّينَ هم أكْثريَّةُ العربِ المسلمينَ نَصِلُ إلى أنّ الطبقةَ الفقيرةَ شَمَلَتِ العربَ أكثرَهم. وأصبحتْ قريشٌ وحدَها هي الّتي تُؤَلِّفُ الطَّبقةَ الماليَّةَ أوِ الأرسْتُقْراطيّةَ، فَعَرَتِ النّاسَ ضَغينةٌ على قُريشٍ بآعْتِبارِها المُسْتَبِدَّةَ بالمرافِقِ العامّةِ، والمُسْتَبِدّةَ بالدّولةِ، ولاعَبَتْ نفوسَهم أفكارٌ ثوريّةٌ عميقةٌ. وبحُكْمِ أنّ عبدَاللّهِ بنَ سَبَأٍ رَحّالةٌ، ويحملُ عقلاً مفكِّراً وحِسّاً نافِذاً إلى بواطنِ المجتمعاتِ، لَمَسَ أسبابَ الاسْتِياءِ العامّ، وحاولَ أنْ يتناوَلَ المُجْتَمَعَ في ناحيةِ المال بإصْلاحٍ مُناسبٍ.

ولذلكَ لاقَتْ أفْكارُه رَواجاً أيَّ رَواج.

وأمّا أنْ نَظُنَّ بأنّه آستطاعَ أن يَفْتِنَ شَعْباً مُطْمَئِنّاً إلى عقائِده وشُؤونِهِ بالدِّعايةِ الخالِصَةِ، فَخَرَقٌ بالنَّظر النَّفسيِّ والاجتماعيِّ، وأنْ يَفْتِنَ خُلَّصَ الرِّجالِ الّذين ساهموا في بناءِ الهَيْكَلِ الإسلاميِّ منْ مِثْلِ أبي ذَرٍّ (ض) الرَّجُلِ الذي طَوَّرَتْهُ الدِّيانةُ تطويراً حقيقيّاً وجعلتْ منهُ مُسلماً عميقَ الإسلاميّةِ، فإنّه يَسِمُنا بنوعٍ من البَلَهِ والسَّذاجَةِ في فَهْمِ طبائعِ النُّفوس. إذاً فقدْ كان في حُكْمِ الثّابتِ أنّ النّاسَ عامّةً شَعَروا بشُعورٍ واحدٍ، وألَّفَ بينَهم الاسْتِياءُ، ويَدُلُّ على هذا آنْتِقادُ عليٍّ (ع) نفسِه لهذه السِّياسةِ الّتي جَعَلَتْ قُرَيشاً تَبْتَلِعُ المُجْتَمَعَ الإسلاميَّ الواسعَ، وتتجاهَلُه وهو القُرَشِيُّ الصَّميمُ. وشكواه من قُرَيشٍ، الّتي كانَ يَرْمُزُ بها في ذلكَ الحينِ بآسْمِ الأُمَويِّينَ، تَمْلأُ خُطَبَهُ الّتي في النَّهج.

وإنَّ أبا ذرٍّ (ض) لَمَسَ هذا الاسْتياءَ، وحاولَ أن يَضَعَ حدّاً للتَّدَهْوُرِ الاجتماعيِّ السَّريعِ الّذي بَدَأَ يُؤْذِنُ بالثّورةِ على الرأسماليّةِ الوَليدةِ. وقَدِ آسْتنامَ إلى أفكارِ عبدِاللّه بْنِ سبأ الّتي تُؤَلِّفُ بَرْنامَجَهُ الإصْلاحيَّ، لأنَّها وافَقَتْ أفْكارَه، ولأنّه وَجَدَ فيها عِلاجاً لا يَبْعُدُ عن روحِ الإسلام في جَوْهَرِهِ، خُصوصاً وأنّ في بَرْنامَجِهِ مَرَدّاً إلى سياسةِ عُمَرَ الماليّةِ في غايتِهِ بدونِ نَظَرٍ إلى الصِّيغَةِ الّتي أُفْرِغَ فيها.

ونحنُ لا نُنْكِرُ بأنّ أفكارَه الاشتراكيّةَ مُتَطَرِّفةٌ، ولكنَّ التَّطرُّفَ دائماً شأنُ الشُّعورِ بالضِّيقِ، والمُفَكِّرُ بأفكارٍ ثوريّةٍ يكونُ على الدّوامِ مُفَكِّراً مُتَطَرِّفاً. وكذلك الشَّعْبُ الثّائرُ يكونُ مُتَطَرِّفاً على مِقدارٍ كَبيرٍ. فعبدُ اللّهِ بنُ سبأ، إن صَحَّ وكانَ، مسلمٌ ليسَ ما يَحْمِلُنا على الشَّكِّ في إسلاميّتِه، وصاحبُ أفكارٍ إصلاحيّةٍ آسْتَلْهَمها من حالةِ المجتمعِ العامّةِ لا أنّه نَفَثَها فيهِ. وهذا لا يَمْنَعُني أنْ أُقَرِّرَ أنّ بَرنامَجَه في قِسْمَيْهِ، اللّاهوتيِّ والاجتماعيِّ، كان مُقْتَبَساً من دِياناتٍ عِدّةٍ وبالأخَصِّ في القسمِ الاجتماعيِّ، إلّا أنّه سَبَكَها على شَكْلٍ لا تَتَنافى بهِ معَ

روحِ الإسلامِ[١٦]، فهو صاحِبُ فلسفةٍ دينيّةٍ مُقْتَبَسةٍ. وقد أثّر أيضاً في الخوارجِ، وسَيَأتي لنا درسُ هذا في بحثِ الثّورة على عُثمان (ض).

هذه مُقَدِّماتٌ ونتائجُ نُريدُ أنْ نَصِلَ من ورائِها إلى آستيضاحِ أثَرِ القَلَقِ في الوضْعِ الدِّينيِّ والحياةِ العامّةِ بعدَ الإسلامِ، ونحنُ في هذا الفصلِ قدْ أظْهَرْناه في حدودِ المُناسَبَةِ الّتي دَعَتْ إليه. ويَتَحَتَّمُ علينا قبلَ مُزايَلَةِ الموضوعِ أنْ نَتَكَلَّمَ عنِ السّياسة التّربويّةِ الّتي آتّخذَها النبيُّ (ص) وتَحَزَّمَ بها للقَضاءِ على القَلَقِ الدِّينيِّ الخطيرِ الأثَرِ. ونحنُ، بَعْدَ إلْمامَةٍ قصيرةٍ بالسِّيرةِ النّبويّةِ، نَجِدُ النبيَّ (ص) آعْتَمَدَ على أساليبَ تَرْبَويّةٍ خالِصةٍ لإبْلاغِ الدِّينِ إلى الضّمائِرِ في آستقرارٍ مَكينٍ. فكانَ يأخُذُ العربَ بالتّرغيبِ تارةً والتّرهيبِ أُخرى، ويأْخُذُهم أحياناً برياضاتٍ دينيّةٍ من شأْنِها أنْ تَبْعَثَ الضّميرَ الدّينيَّ المهذَّبَ. بيدَ أنّ الفترةَ الّتي قضاها النّبيُّ (ص) بينَهم كانت قصيرةً، فلم تُحَقِّقِ الاخْتِمارَ إلّا في طبقةٍ بَقِيَت لها مِيزَتُها في السّياسةِ إلى زمنٍ بعيدٍ، ومِيزَتُها في الاعْتقادِ ما بَقيَ على الأرضِ مُسْلِمون.

وكانَ على الخُلفاءِ أنْ يُتابِعوا هذه السّياسةَ التّربويّةَ الّتي أنْتَهَجها النّبيُّ (ص) لكيْ يُحَقِّقوا الاخْتمارَ الدّينيَّ المنتَظَرَ. بيدَ أنّ سياسةَ الخلفاءِ مالَتْ إلى التّوَسُّعِ في تَزَيُّدٍ أسْرَعَ بفَناءِ الطّبقاتِ الّتي تهذَّبَتْ على يَدَي المُصْطفى كالقُرّاءِ، ولم يَدَعْ فرصةً لتحقيقِ الاخْتمارِ في الباقينَ. فالتّعجيلُ بالفُتوحِ كانَ بمثابةِ آنْحسارٍ وجَذْرٍ قَوِيٍّ في النّفسيّةِ العربيّةِ الإسلاميّةِ، وقد لَمَسوا بعضاً من نتائجهِ المحسوسةِ في فَناءِ القُرّاءِ تقريباً حتّى عَمَدوا إلى كتابةِ القرآنِ صَوْناً له عنِ الضّياعِ.

---

(١٦) خالَطَ القَوْلُ بالرَّجْعَةِ وَهْمَ عمرَ (ض) بعدَما ماتَ النّبيُّ (ص) فقدْ كانَ وَقْعُ الخبرِ عليه شديداً فلمْ يُصَدِّقْ وذهب يُغالِطُ نفسَه في صِدْقِ الخبرِ بأنّه لم يَمُتْ وإنّما ذَهَبَ كما ذَهَبَ موسى وسَيَعُودُ، ومِنْ هنا أخَذَ الرّجْعَةَ آبْنُ سبأ. وأخَذَ دَعْواه في الوِصايَةِ مِنْ حديثِ «أنتَ مِنّي بمنزِلةِ هارونَ من مُوسى» الحديث.

فإنّ من المُسَلَّم به أنّه لا بُدَّ من مُرورِ الزَّمنِ لتَتَرَسَّخَ التّعاليمُ وتَتَحَوَّلَ إلى صِفَةٍ إراديّة غيرِ مشعورٍ بها، كما يُعَبِّرُ ليبنْز. فهذا الاختمارُ الدّينيُّ ضَرُوريّ جِدّاً. وقد أُصيبَ الإسْلامُ، منْ حيثُ العَجَلَةُ بالفُتوحِ، بما أُصيبَتْ به الثّورةُ الفرنسيّةُ. فإنّ حركةَ نابوليونَ جاءتْ سريعةً بحيثُ لم تَدَعْ لمبادِىءِ الثّورةِ ما كان يَلْزَمُ لها من زمنٍ. وهي، وإن تكنْ قدْ نَشَرَتْ مبادِىءَ الثّورةِ خارجَ الحُدودِ، كما نَشَرَتْ حركةُ الفَتْحِ الإسلاميُّ الدّينَ خارجَ الحدودِ، فقد حالتْ دونَ قَطْفِ ثمارِها على الوَجْهِ الّذي كان مرغوباً فيه. والثّورةُ الفرنسيّةُ كالصّورةِ الإسلاميّةِ تماماً، فقدْ تَوَلَّدَ من آمْتِدادِها في غيرِ حدودِ فرنسا، على الوجهِ المذكورِ، مذاهِبُ آجْتماعيّةٌ مُتَذَبْذِبَةٌ في كُلِّ أوروبا، كما حَدَثَ في الإسلامِ، فالماركسيّةُ والفَوضويّةُ، وما إلى هذه من مذاهبَ أُخْرى، كانت كالخوارجِ والسّبئيّةِ، لأنّ كُلّاً منهما آسْتَحالَ، بفعلِ عَدَمِ الاخْتمارِ، مذهَباً غامِضاً.

على أنّنا لا نُجَرِّدُ هذه الحَرَكَةَ من محاسِنها، بَيْدَ أنّها لا تُوازي ما نَشَأَ عنها من نتائجَ كانتْ أشدَّ خَطراً وأهمّيّةً. ولو أنّ الإسلامَ أدْرَكَه الاخْتمارُ اللّازمُ، ثمّ جرَّبَ أنْ يلعبَ دورَه العسكريَّ لَما كان مَباءةً أبداً لأيّةِ نازِعَةٍ أوْ شائبَةٍ. فتأثيرُ عمليّةِ المزْجِ الّتي كانت نتيجةً ضروريّةً للتّوَسُّعِ الإسلاميّ، جاءَ من هذا الجانبِ الاعْتقاديِّ الّذي كانَ مَريضاً.

ولا نَنْسَ هنا أثَرَ القَبَلِيّةِ الّتي ثَبَتَ لنا في الفَصْلِ السّابِقِ أنّها كانَتْ شديدَةَ التّحكُّمِ في نَفْسِ العربيِّ، وعظيمةَ التّصْريفِ لحَرَكاتِه. ويَحْسُنُ بنا أنْ نُشيرَ إلى أنّ من جُمْلةِ أسبابِ الرِّدَّةِ، أو الحركةِ الانفصاليّةِ الدينيّةِ كما أفْهَمُها، القَبَلِيّةَ، فإنّ منَ الأشياءِ الّتي سَبَقَتِ الإسلامَ تَفكيرَ النَّجْرانيّينَ بتأسيسِ كَعْبَةٍ لهم، قال ياقوت في **معجم البلدان**: «وكعبةُ نجرانَ هذه يُقال بِيْعَةٌ بَناها بَنو عبدِ المدانِ بنِ الدّيانِ الحارثيُّ على بِناءِ الكعبةِ وعظّموها مُضاهاةً للكعبةِ وسَمَّوْها كعبةَ نجرانَ، وكان فيها أساقفةٌ مُعَمَّمُونَ». غيرَ أنّ بعضَ الباحثينَ يميلُ إلى «أنّها كانتْ كعبةً للعربِ تَحُجُّ إليها قبلَ مجيءِ النَّصرانيّةِ، ثمّ آتّخَذَها النَّصارى بِيْعَةً بعدَ آنتشارِ

النَّصرانيّةِ فيها»، وهذا هو الرَّأْيُ المُحَقَّقُ في نظري. وبتأمُّلٍ بسيطٍ في الحادي على الانْفرادِ بكَعْبَةٍ نَعْثُرُ عليه في النَّزْعَةِ القَبَلِيَّةِ الّتي تميلُ إلى التّحرُّرِ من التَّبَعِيَّةِ في كُلِّ الأشياءِ وأشياءِ العِباداتِ أيضاً.

ويَظْهَرُ لنا منْ هذا أنّ الرَّغْبَةَ آتَّجَهَتْ إلى الانفصالِ الدِّينيِّ في الجاهليّةِ، ولمّا جاءَ الإسلامُ وثبّتَ التَّبعيَّةَ الدّينيّةَ، ووحّدَ الكَعَباتِ عاودتْهُمُ الرَّغْبَةُ السّالفةُ إلى الانفصالِ فأذْكَوْا حركةَ الارْتِدادِ.

يَثْبُتُ لنا من هذا، أنّ عَدَمَ الاخْتمارِ الدّينيِّ أدّى إلى البَلْبَلَةِ الّتي شَهِدْنا منْ آثارِها في المُحيطِ العربيِّ شيئاً كثيراً، وشَهِدْنا من آثارِها مثلَ ذلك بعدَ عمليّةِ المزْجِ الإسلاميِّ الواسِعة.

والمسيحيّةُ، كالإسلامِ، أدركَها بعضُ الاختمارِ في أوّلِها، ثمّ طَفَرَتْ بدُخولِ قسطنطينَ فيها، وكان بَدْءُ آنْتِشارها بدءَ آضْمِحْلالها أيضاً. فإنّ هؤلاء الّذينَ دَخَلُوها بعدَ ذلك دخلوها على وجهِ السُّرعةِ، فلم يدْخلوا وحدَهم بلْ بعقائِدِهم أيضاً، فآكْتَسَبَتِ المسيحيّةُ شكليّةً أُخرى، وبَدَأَ الانْقسامُ فيها نتيجةً للاخْتلافِ الاعتقاديِّ القديمِ، وليسَ نتيجةً للاختلافِ الاجتهادِيِّ أو التفسيرِيِّ كما يُظَنُّ.

والحقُّ أنّ الإسلامَ صادفَ ما لم يُصادِفْه دينٌ آخرُ، منْ حيثُ هُيِّئَتْ فيه سُبُلُ التّعاليمِ وفِطْرِيَّتُها، ومنْ حيثُ جُمِعَتْ له القُوّةُ أيضاً ليَحوطَها، فلم يكنْ في حاجةٍ إلى عَوْنٍ يَعْتَمِدُ عليه، ولكنّ التّحرّكَ السّريعَ أفْقَدَهُ هذه المَزِيّةَ، وظَهَرَ فضلُ ميزَةِ القُوّةِ الّتي هَيّأها مُحَمّدٌ (ص)، أكثرَ ما ظَهَرَ، في عَدَمِ تحريفِ التّعاليمِ، فإنّ التَّحْريفَ يكونُ نَتيجَةً للضَّعْفِ والتّسَتُّرِ والتّخفّي.

والنّبيُّ (ص) سَنَّ مَنْهَجَ الاخْتمارِ في دارِ الأرْقَمِ. وفي نَظَري أنّ دارَ الأرْقمِ كانت مربىً للجَماعةِ الإسلاميّة من جِهَةٍ، وكَهْفَ الثّورةِ من جِهةٍ أُخرى. وشاءتْ طبائِعُ الثّوراتِ أنْ يكونَ لها هذا الكَهْفُ أوّلَ مَنْزِلَةٍ من مَنازِلِها، ثُمّ تُطِلُّ منها ككُوّةٍ لا تَزالُ تَـتَّسِعُ وتتكوَّرُ حتّى تُسامِتَ الأُفُقَ وتَبْلُغَ دَرَجَةَ الارتفاعِ بالمعنى الفَلَكِيّ، وتضيقَ عنها الحدودُ. فكُلُّ مُطَوِّرٍ كانَ له مثلُ دارِ الأرْقَمِ، وكذلك كُلُّ ثائرٍ وكلُّ مُصْلِحٍ.

وَيَحْسُنُ أن نَسْرُدَ نتائجَ هذا الفَصْلِ بعدَ اللَّمْحَةِ الاستعراضيّةِ الّتي أتَيْنا بها لتكونَ في الدّاني القريبِ وتَذْكِرَةً لنا بِدون عَناءٍ، وهي:

أوّلاً: تناحُرُ الدّياناتِ، على شَكْلٍ أنْ يدَّعيَ كلُّ فريقٍ بأنّ الحقَّ في جانِبِهِ، أقامَ الفكرةَ الدّينيّةَ عندَ العربِ على الحَيْرَةِ المُبْهَمَةِ والشّكُّ الخالِصِ، فَفَشا فيهِمُ التَّعطيلُ والإلحادُ والقولُ بعدَمِ البَعْث.

ثانياً: الدّياناتُ الدّخيلةُ كانتْ أرقى من الوَثَنِيَّةِ فأثَّرتْ فيها تأْثيراً مُتفاوِتاً، وهذه نتيجةٌ ضَروريّةٌ للتَّفاعلِ بينَ الدّيانات والوثنيَّةِ.

ثالثاً: الدّياناتُ الّتي تُكَوِّنُ لها في نُفوس الشُّعوبِ مِزاجاً خاصّاً لا تَنْدَثِرُ بل تَتَقَمَّصُ وتَسْتَعيدُ حياتَها في زِيٍّ آخَرَ.

رابعاً: النَّزَعاتُ الإسلاميّةُ الأولى، كالخوارجِ والسَّبَئِيّةِ، تأثَّرتْ بصِفَةِ الشّكِّ الّتي لابَسَتِ النَّفسَ العربيّة.

خامساً: صِراعُ الدّيانات أعدَّ العربَ للثَّوراتِ الداخليّةِ، ولحَركاتِ الاضطِّرابِ.

سادساً: أُسْرَةُ بني هاشِمٍ هي الأُسرةُ الّتي نَضَجَ فيها الضَّميرُ الدّينيُّ حتّى زوَّدَها بحَصانَةٍ ضدَّ الشّكِّ والقَلَقِ، فهي إذاً الأُسرةُ الخَليقَةُ بأنْ تُقَدِّمَ المُصْلِحَ للمجتمعِ المَحْمومِ، وهي الخليقةُ بكَفالَةِ التّعاليمِ ورِعايتِها، لأنّ الدّينَ منها كالطَّبيعةِ الغَريزيَّةِ من كُلِّ نَفَسٍ.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النّظام العامّ

نظريّة: لكيْ نكونَ أكْثَرَ فَهْماً للنُّظام في عهدِ الخُلفاءِ، منْ شَتّى نَواحي الإدارةِ والحُكومةِ والقضاءِ فيما يتعلّقُ بالتّفصيلاتِ، نُقَدِّمُ بينَ يَدَي الموضوعِ نَظَرِيَّةً لها أهَمِّيَّتُها لأنّها كالقُطبِ الّذي يدورُ حولَه الموضوعُ، وعلى ضَوْئِها نَتَهَدّى إلى شرحِ خَفِيّاتِه وخافِياتِه. وأظُنُّ بأنّ كثيرينَ يُشارِكونَني الرَّأيَ فيها.

وهذه النّظَريةُ هي أنّ الثّورةَ الإصلاحيّةَ الّتي وَضَعَ النّبيُّ (ص) تَصْميمَها، ثُمّ أذْكاها في المُجْتَمَعِ العربيِّ الواسعِ على حُدودِه، لمْ تَدْخُلْ في دَوْرِ آستقرارٍ حقيقيٍّ. بلِ آتّصلتْ عَبْرَ الحُدودِ إلى الأقاليمِ القريبةِ والشُّعوبِ المجاوِرَة، وكذلكَ آتّسَعَتْ دائِرتُها في حركاتٍ تعاقُبِيَّةٍ سريعةٍ، وما آنتَهَتْ إلى سُكونٍ طبيعيٍّ إلّا بِقيامِ الدَّوْلةِ الأُمَويّةِ. ومعنى هذا أنّ الثّورةَ الإسلاميّةَ كان لها دَوْرانِ: الأوّلُ حينَ ألْهَبها النبيُّ (ص) في جزيرةِ العربِ، والثّاني حين ألْهَبَها الخُلفاءُ في العالَمِ القديم كُلِّه. وبآنْتِهائِها آنْتهى عهدُ الخلفاء.

ومنْ طَبيعةِ التّنظيمِ، فيما يَتَعَلَّقُ بالإجراءاتِ والتّفصيلاتِ، أنّها لا تَتِمُّ إلّا بعدَ الاستقرارِ، ضرورةَ أنّ الإدارةَ والتّنظيمَ التّامَّيْنِ عَمَلٌ تَشْييدِيٌّ لا يكونُ في فترةِ الفَتحِ والتّوسّعِ إلّا بِمقْدارِ الحاجةِ والضّرورةِ. والفَرْقُ بين مُعاطاةِ الفتحِ في عهدِ الأُمويِّينَ، وبينَه في عهدِ

الخلفاءِ، أنّ الأوّلَ كانَ من جُملةِ أعمالِ المَلِكِ المُتَمَرْكِزِ بينَما الثّاني كانَ كلَّ عملِ الخليفة.

وهذا يُوصِلُنا إلى أنّ التّنظيمَ الكاملَ لم يَتِمّ في عهدِ الخُلفاءِ، لأنّهم لم يَسْتَقِرّوا في حياةٍ مَدَنيّةٍ خالصةٍ تَدْعوهم إليه، على أنّهم قَطَعُوا أشْواطاً في سبيلِ التّنظيمِ العامّ. ولا يَتَوَهَمَنَّ مُتَوَهِّمٌ حينَما نتكلّمُ عن النِّظام أنّنا نَعْني النّاحيَةَ التّشريعيّةَ الّتي كَمَلَتْ بالقرآنِ، وإنّما نَعنيهِ مِنَ النّاحيةِ العَمَلِيّةِ الإجرائيّةِ، أيْ من ناحيةِ التّشكيلاتِ والتّراتُبيّةِ خاصّة.

وإنّ الواقفَ على الكُتُبِ الّتي عُنِيَتْ بهذه النّاحيةِ من الدّرسِ، ككتابِ الماوَرْدِي الموسومِ بـ **الأحكام السّلطانيّةِ** يقعُ على تَجْرِباتٍ تِقْنِيَّة ومحاوَلاتٍ تنظيميّةٍ تَمّتْ في عهدِ الخلفاءِ، إلّا أنّها لم تُجاوِزْ هذه الصِّفةَ، أيْ لم تُنَسَّقْ على وجْهٍ يَسْمَحُ لنا بإطْلاقِ آسْمِ النِّظامِ عليها إلّا في تَوَسُّعٍ ومَجازِيّةٍ. وهذه المحاولاتُ والتّجْرِباتُ ألْهَمَتْ ذوي العَقْلِيّاتِ القضائيّةِ العميقةِ أنْ يُقَدِّموا دُستورَ النِّظامِ العامِّ بكافَّةِ ما يلزمُ فيه. وممّا لا رَيْبَ به أنّ عليّاً (ع) كانَ صاحبَ أكبرِ عقليّةٍ قضائيّةٍ نظاميّةٍ في هذا العَهْدِ، فهو قدِ آستفادَ من كُلِّ ما مَرَّ بالحُكْمِ العربيِّ الإسلاميِّ من أشكالٍ، وأيضاً لَمَسَ حاجةَ المجتمعِ من وجهٍ، ومحاسِنَ ومَساوِىءَ المُحاوَلاتِ الّتي حاوَلَها الخلفاءُ قبلَه من وجهٍ آخرَ. فقدَّمَ دُستورَه التّنظيميَّ العظيمَ في عَهْدِه إلى الأشْتَرِ النَّخْعيِّ بعدَ الاختمارِ والامْتحانِ الواقِعيّ.

وهذا العهدُ يَشُكُّ فيه بعضُ الباحثينَ، مُستندينَ إلى أنّ الأفكارَ النّظاميّةَ الّتي يَحْتَوي عليها لا تَسْمَحُ بإضافَتِها إلى عصرِ عليٍّ (ع). وممّا ذَكَرنا نَتَبَيَّنُ بأنّه لا محلَّ للشّكِّ، لأنّ عليّاً موهوبٌ في القضاءِ والإدارةِ، ما في ذلك شكٌّ، حتّى قيل: «قضيّةٌ ولا أبا حَسَنٍ لَها». ولقدِ آهْتَمَّ المُسْتَرِعُونَ، بعدَ ذلك، بَجَمْعِ أقْضِيَتِهِ، وأحكامِهِ وتنظيماتِه، فألَّفَ التِّرمذيُّ كتاباً في مُجَلَّدَيْن دعاه **أقْضية عليّ**، وألَّفَ آبنُ قَيِّم الجوزيّة كتاباً في **السياسةِ الشرعيّةِ** مَلأه بأقْضِيَتِهِ. فهذا يدلُّنا على أنّ عليّاً كانَ يمتازُ بعقليّةٍ نادِرَةٍ في القضاءِ المُتَّصِلِ بالتّنظيم. ولأنّ

المحاولاتِ الّتي صَدَرَتْ من أبي بكر (ض) جاءَ عُمَرُ فحوَّرَ فيها، وعُمَرُ (ض) كانَ أكثرَ تشبُّثاً بالتّنظيم ومَيْلاً إليه، فكَثُرَتْ في عَهْدِهِ التّشكيلاتُ نوعاً ما، ثمّ جاءَ عُثمانُ (ض) فأقرّ نُظُماً وغَيَّرَ نُظُماً وآسْتَحْدَثَ مثلَ ذلك، وعليٌّ (ع) يَرْقُبُ كلَّ هذا التّطوّرِ النِّظاميِّ، وهو مُتَّصِلٌ بالشَّعْبِ يرى مِقدارَ رِضاه عَنْ هذه التّرتيباتِ، فآستفادَ من هذه المُحاولاتِ الّتي مَرَّتْ به، إلى ما عنْدَه من فِطرةٍ قضائيّةٍ خارِقةٍ. وبذلك آسْتطاعَ أنْ يُطابقَ بينَ أماني النّاسِ، وبينَ النُّظُمِ التي تَحْكُمُهم، وأنْ يُعْطِيَ أيضاً تشريعاتٍ إصلاحيّةً تَتَّصِلُ بالاجتماعِ والسّياسةِ والنّظامِ العامّ، فإذا كان النبيُّ (ص) هو المُشَرِّعَ القانونيَّ، فإن عليّاً (ع) هو المُشْتَرِعُ[1] النِّظاميُّ.

فعهدُ عليٍّ إلى الأَشْتَرِ النَّخْعيِّ ليسَ فيه ما يدْعونا إلى الشّكِّ فيه، أوِ آستبعادِه عنه. وهو أوّلُ دُستورٍ حُكوميٍّ صَدَرَ كمرسومٍ في الإسلام. ويَظْهَرُ من هذا العَهْدِ أنّ عليّاً (ع) كانَ يَرْمي، في مُدَّةِ خلافتِهِ، إلى أخْذِ الشَّعبِ الإسلاميِّ الذي تَرَكَّبَ، بما شَمَلَ من الأُمَمِ المُخْتَلِفَةِ، بعملٍ تَشْييدِيٍّ عظيمٍ، وكانَ عَمَلاً مُوَفَّقاً جدّاً ونظاميّاً جدّاً، لأنّه الطِّبُّ بأدْواءِ المجتمعاتِ من النّواحي التّشريعيّةِ. ولكنّ الثّورةَ الداخليّةَ الّتي أُثيرَتْ عليه ودارَتْ حولَ شَخْصِه، أعْجَلَتْه وأوْقَفَتْ كُلَّ حركاتِه الإصلاحيّةِ الّتي آبْتَدَأها بحزْمٍ وشِدّةٍ.

وأهمُّ نواحي النِّظامِ الّتي سنُديرُ البحثَ عليها هي: نِظامُ الحُكْمِ، نِظامُ المالِ، نِظامُ الإدارةِ والقضاءِ، نِظامُ الجنديّةِ.

نِظام الحُكم: نَتعَرَّضُ لصُعوبةٍ حقيقيّةٍ حينَما نُريدُ أنْ نُحَدِّدَ مِنْ أيِّ نوعٍ مِنْ أنواعِ الحكوماتِ كانتِ الحكومةُ الإسلاميّةُ في أطْوارِها الأولى. ولِنكونَ أكثرَ

---

(١) إنّما عَبّرنا بمُشترِع، وإنْ كانتْ صيغةُ آشْتَرَعَ غيرَ محفوظةٍ لأنّ غَرَضَنا أنْ نُضيفَ إلى التّشريعِ مَعْنى الاقْتباسِ الّذي يُستفادُ من صيغة آفْتَعَلَ.

قَصْداً في بحْثِنا يَحْسُنُ أنْ نُقَدِّمَ بينَ يديِ الموضوعِ تَوْطِئَةً في الدّولةِ[٢] ووظائِفِها، على ما هو معروفٌ عندَ عُلماءِ السّياسة.

يرى أرسطو أنّ أنواعَ الحكومةِ تتمايزُ بعدَدِ الأشخاصِ القابِضين على زِمامِ السُّلطةِ، فالدّولةُ الّتي يُديرُ شُؤونَها فردٌ واحدٌ تُسَمّى مَلَكِيّة، والّتي يُديرُ شؤونَها جُمهورُ الأُمّةِ تُسمّى جمهوريّةً، والّتي يديرُ شؤونَها جماعةٌ قليلةٌ تُسَمّى أرسْتقراطِيّة.

وهذه الأنواعُ الثّلاثةُ، إذا كانَتِ الدّولةُ صالحةً، أيْ كانَ الغرضُ منها رعايةَ مصالحِ الأُمّةِ، فإذا ظهرَ فيها الفسادُ، وأصبح هَمُّ الحُكّامِ تحقيقَ مطامِعهم الشّخصيّةِ، سُمّيَتِ الحكومةُ من النّوعِ الأوّل آستِبْداديّةً، ومن النّوعِ الثّاني آستِئْثاريّةً، ومنَ النّوعِ الثالثِ حكومةَ الغَوْغاءِ. ثُمّ يذهبُ إلى أنّ هذه الأشكالَ تَتعاقَبُ على الدّولةِ الواحدةِ في سُنّةٍ آجْتماعيةٍ دائمةٍ تَقْريباً. فالدّولةُ تكونُ في بدايتِها مَلَكِيّةً صالِحةً، حتّى إذا فَسَدَتْ طِباعُ المَلِكِ آنْقَلَبَتِ آسْتبداديّةً، غايتُها تحقيقُ شَهَواتِ الحاكِم، فإذا تغلَّبَ عُقلاءُ الأُمّةِ على المُلْكِ وتَقَلَّدوا زِمامَ الأحكامِ أصْبَحَتْ أرستقراطيةً، فإذا خَلَفَ من بعدِهم خَلْفٌ وُجْهَتُهُم الاسْتِئْثارُ بالسُّلطةِ والمنافعِ تَحَوَّلَتْ إلى حكومةٍ آسْتِئْثاريّةٍ، فإذا هبَّتِ الأُمّةُ لتَذودَ عَنْ مصالحِها وتولّت أمورَها بنفسِها أصْبَحَتْ جمُهوريّةً، فإذا جاوَزَ الأفرادُ حدَّ المعقولِ في آستعمالِ السُّلطةِ، وتَنازَعوا أمْرَهم بينَهم أضْحَتِ الحكومةُ فَوْضَى وفي هذا الظرْفِ تعودُ إلى المَلَكِيّةِ كما بَدَأت. وقدْ كانتِ الثّورةُ الفرنسِيّةُ مِصْداقَ نَظَرِيَّتِهِ من كُلِّ الوُجوهِ.

وذَهَبَ مونتسكيو إلى أنّ الحكومةَ لا تَخْرُجُ عنْ أنْ تكونَ مَلَكِيّةً أو جمهوريّةً أو آستبداديّةً. فالمَلَكِيّةُ عندَه ما تَوَلّى الحكمَ فيها فَرْدٌ بمُقتضى قوانينَ ثابتةٍ، والجمهوريّةُ ما كانَتِ السّيادةُ فيها للأُمّةِ أو بعضِها، والاستبداديّةُ ما كانَتِ السُّلْطَةُ فيها بيدِ فردٍ

---

(٢) راجع كتاب: تاريخ الدستور للأستاذ وايت، ص ص ٤٧ ـ ١٧٤.

يَتصَرَّفُ فيها بإرادَتِه وأهوائِه.

وقَسّمَ روسو الدُّوَلَ بآعْتبارِ عددِ الأشخاصِ الّذين يَتَوَلَّوْنَ الأمْرَ، إلى مَلَكيّةٍ، وهي الّتي يُديرُ شؤونَها فردٌ واحدٌ، وأرستقراطيّةٍ وهي الّتي يُديرُ أمورَها فِئَةٌ قليلةٌ، وديمقراطيّةٍ وهي الّتي تَسْتَمِدُّ سلطتَها من عامّةِ الشّعب. والدّيمقراطيّةُ نَوْعانِ: مباشَرَةٌ وهي لا تكونُ إلّا في الجماعةِ القليلةِ العَدَدِ المحدودةِ المطالبِ والحاجاتِ؛ وغيرُ مُباشَرَةٍ أو نيابيّة.

وزادَ بعضُ كُتّاب الألمانِ نوعاً آخرَ أسْماه الثيوقراطِيَّةَ، وهي الّتي يَسْتَمِدُّ فيها الحاكمُ نُفوذَه من السُّلطةِ الإلهيّة.

وهناكَ نظريّاتٌ مختلفةٌ في وظيفةِ الدّولة، وهي ترجِعُ إلى ثلاثٍ، إذا نحنُ أبْعَدْنا النّظريّةَ الفوضويَّةَ الّتي تَرْمي إلى القضاءِ على الحكوماتِ بآختلافِ أنواعِها.

١ـ **النّظريّة الفرديّة**: وهي تَرْمي إلى قَصْرِ عَمَلِ الحكومةِ على رَدِّ الاعتداءِ عن الأفرادِ، فَعَمَلُها سلبيٌّ وتكونُ وظيفتُها الخارجيّةُ المُحافظةَ على سلامةِ الدّولةِ من الاعتداءِ، ووظيفتُها الدّاخِلِيّةُ المُحافَظَةَ على الأمنِ العامّ، وكلُّ عَمَلٍ تأْتيه وراءَ ذلك يكونُ خُروجاً عنِ الأغراضِ التي وُجِدَتْ لأجْلِها. وكانَ سبنْسِرُ من أكبرِ دُعاةِ هذه النّظريّةِ، وقدِ آنتَشَرَتْ في أواخِرِ القرنِ الثّامنَ عشرَ.

٢ـ **النّظريّة الاشتراكيّة**: وهي تَرْمي إلى ضَرورةِ تَدَخُّلِ الحكومةِ في جميعِ الأعمالِ تَوَصُّلاً إلى زيادة هناءِ الفردِ ورفاهيّتِه. وأصحابُ هذه النّظريّةِ يَهْتَمّونَ بالحُرّيّةِ الفرديّةِ أيضاً، ولكنّهم يَرَوْنَ أنّ صِيانتَها أتَمُّ مِنْ طريقِ تَدَخُّلِ الحكومةِ، ولم يَتَّفِقْ أنصارُ هذا المذهبِ على مَدى تَدَخُّلِ الحكومةِ في شُؤونِ الأفرادِ، فهناكَ مُتطرِّفُونَ ومُعْتَدِلون.

٣ـ **النّظريّة المُتَوَسِّطة**: وهي ليست فرديّةً بَحْتَةً ولا آشتراكيّةً بَحْتَة.

والآنَ نتناولُ حكومةَ النبيِّ (ص) وحكومةَ الخُلفاءِ، حتّى نَقَعَ على الشَّبَهِ الّذي يردُّهُما إلى نوعٍ من أنواعِ هذه الحكوماتِ المذكورة.

نَعْلَمُ أنَّ النبيَّ (ص) جَمَعَ السُّلْطَةَ الزّمنيَّةَ في يَدَيْهِ، إلى جانِبِ السُّلْطةِ الدّينيّةِ، فكانَ مصدَرَ كافّةِ السُّلُطاتِ. فحكومَتُه، على ما وَصَلَ إلينا من أخبارِها، ثيوقراطيّةٌ في جوهرِها، وديمقراطيّةٌ من حيثُ إنّ الأفرادَ كانوا يُبايعونَه على إسْلامِ الأمرِ إليهِ وَمَدِّهِ بالسّلطةِ. وهذهِ المبايَعَةُ آنْتِخابٌ آكَدُ من التّصويتِ، وكانت ثيوقراطيّةً من حيثُ الصِّفةُ التّشريعيّة.

وديمقراطيّةُ حكومةِ النّبيّ (ص) مِنَ النّوعِ المباشَرِ، وهذا ما يُعطيه قولُه تعالى «وشاوِرْهُمْ في الأَمْرِ» (آل عمران ٣: ٥٩)، وكانَتْ من حَيْثُ الوظيفةُ أكثرَ آنطباقاً على النّظريّة المتوسّطةِ، فهي تُحافِظُ على الأمنِ العامِّ، وتُدافِعُ عن سلامةِ الدّولةِ الفَتِيَّة، وتَحْمي العُمرانَ وما إليه من كُلِّ ما يَتَّصِلُ بالعملِ الحكوميِّ الإيجابيّ.

وأمّا في عهدِ الخلفاءِ فقد عُرِفَ نظامٌ جديدٌ للحُكمِ يَقومُ على فِكرةِ الخلافَةِ، والأساسُ الّذي تقومُ عليه هو أنّها عَقْدٌ حقيقيٌّ بينَ المُنْتَخَبِ وبينَ الجمهورِ، وليس أمْعَنَ في الدّيمقراطيّةِ من أنْ يتعاقدَ طَرَفٌ مع آخرَ على شُروطٍ مُعَيَّنةٍ بحيثُ إذا أخَلَّ أحدُ المُتعاقِدَيْنِ بالشّروطِ آنحَلَّ العَقْدُ. يرى روسو في نظريّةِ العَقْدِ الاجتماعيِّ أنّ أساسَ الحكمِ، فَلْسَفيّاً، هو عَقْدٌ بين الجماعةِ وبينَ شخصٍ، على أنْ يَتَوَلّى حُكماً لمصلحتِها. وروسو لم يَجْلِبْ شاهِداً واقعيّاً على دَعْواهُ، وإنّما آستَنَدَ فيها إلى الفلسفةِ المَحْضِ، وفي الخلافةِ شاهِدٌ واقعيٌّ صَريح.

والّذي نَعْلَمُ من أمرِ الخِلافة أنّ المُبايَعَةَ شرطٌ ضَروريٌّ فيها، فهي إذاً قائمةٌ على الانتخابِ، وأنّ الخلفاءَ الأربعةَ لَيْسوا من أُسرةٍ واحدةٍ فإذاً هي لاوراثيّةٌ، ووُجِدَتْ بينَهم طبقةٌ دُعِيَتْ بأهْلِ الحَلِّ والعَقْدِ، ويظهرُ من آسْمِها أنّها كانتْ ذاتَ نُفوذٍ كبيرٍ في كافّةِ الشّؤونِ، مِمّا يَجْعَلُنا نَنْظرُ إليها كَطَبَقَةٍ برلمانيّةٍ، وإنْ لمْ تكنْ لها الأشكالُ عينُها، فإنّ العِبْرَةَ بالرّوحِ لا بالحَرْفيّةِ.

فالخلافةُ من هذهِ النّاحيةِ ديمقراطيّةٌ لها شكلُ المَلَكيّة، وديمقراطيّتُها كانتْ غيرَ مُباشَرةٍ، أو نِيابِيّةً بعبارةٍ أكثَرَ مجازيّةً. فإنَّ طَبقَةَ أهلِ الحَلِّ والعَقْدِ كثيرةُ الشَّبَهِ بطبقةِ النّوّابِ

لأنّهم كانوا في مَوْضِعِ الثِّقةِ من كُلِّ الطّبقاتِ الإسلاميّةِ. وبَقِيتْ هذه الصِّفةُ لحكومةِ الخلفاءِ إلى زمنِ عُثمانَ (ض) الّذي حَفَّتْ به طبقةٌ حاكمةٌ من أُسْرَتِهِ، مالتْ بالحكومةِ إلى الأرستقراطيّةِ وكانتْ وُجْهَتُهم الاستئثارَ بالمنافعِ. فإنَّ سياسةَ مَرْوانَ، الّذي أُطْلِقَتْ يَدُهُ في حكومةِ عثمانَ، كانت نَفْعِيّةً مَحْضاً. وبسببِ هذا هَبَّتِ الأُمّةُ لتذودَ عنْ مصالِحِها فأحْدَثَتِ الثّورةَ الّتي آنتهتْ بمَصْرَعِ الخليفةِ، وتولَّتْ أُمورَها بنفسِها في عهدِ عليٍّ[٣]، فكانَ المُنْتَخَبَ الجمهوريَّ بدونِ وِساطةِ أهلِ الحَلِّ والعَقْدِ، فَقَدْ بايَعَهُ أوّلَ مَنْ بايَعَهُ الأشترُ الثّائِرُ، وبذلك كانَتْ حكومَتُهُ جمهوريّةً بكلِّ المعنى.

وكانَ، كما يَظْهَرُ من عهدِهِ إلى الأشترِ، أنّه يميلُ في وظيفةِ الحكومةِ إلى النظريّةِ الاشتراكيّة الخالِصَة، فإنّنا نَجِدُه يُوجِبُ على الحُكومةِ التّدَخُّلَ في كُلِّ ما من شأنِهِ أنْ يُؤَدّيَ إلى ضَرَرٍ إذا تُرِكَ لحرّيّةِ الأفرادِ، كالضَّربِ على أيدي المُحْتكرينَ وتسهيلِ السَّبيلِ للتّاجرِ المُغامرِ، وهو الّذي عَبَّر عنهُ بالمضطّربِ بمالِه، وأوْجَبَ الإصلاحَ العُمْرانيَّ والزّراعيَّ في مُقابلِ الضّرائِبِ. ولكنّ هؤلاءِ الجُمهوريّينَ جاوَزوا الحدَّ في التّدَخُّلِ، وتنازَعوا أمرَهم بينَهم فَظَهَرَتِ الفوضويّةُ، الّتي يقولُ عنْها أرسطو، في الخوارجِ الّذين قالوا «لا حُكْمَ إلّا للّه»، أيْ لا إمْرَةَ إلّا للّهِ، وبذلك أعَدُّوا الظُّروفَ إلى المَلكيّة.

من هذا تَتَبَيّنُ أنّ في تسلسُلِ الحُكومةِ الإسلاميّةِ، الّتي آبْتَدأتْ بالنّبيِّ (ص) وآنتَهتْ بعليٍّ (ع)، مِصْداقاً منْ بعضِ الوُجوهِ لنظريّةِ أرسطو في تَعاقُبِ أنواعِ الحكوماتِ. فلم يَكُنْ لدولةِ الخلفاءِ صفةٌ واحدةٌ، كما يَظُنُّ أكثرُ المؤرِّخينَ، بلْ تشكّلتْ بأشكالٍ شَتّى، على ما ذَكَرْناه، فكانت:

١ـ إلهيّةً (ثيوقراطيّة) لها شَكْلُ الدّيمقراطيّةِ في مُدّةِ حكومةِ النّبيِّ (ص)، ومِنْ حيثُ

---

(٣) لم يَكُنْ نُفوذُ الجُمهورِ في دَوْرٍ أقوى منه في هذا الدّورِ، وظَهَرَ أثَرُ قوّةِ الجُمهورِ في إكراهِ عليٍّ (ع) على التّحكيمِ يومَ صِفّينَ، وفي التّصميمِ على الإيقاعِ بالبَصْرةِ يومَ الجَمَلِ، برُغْمِ أنّ رأيَ عليٍّ آتّجَهَ إلى المُطاوَلَة.

الوظيفةُ متوسّطة[٤].

٢ـ ديمقراطيّةٌ لها شَكْلُ المَلكِيّةِ في مُدّةِ حكومةِ أبي بكْرٍ وعُمَرَ (ض) ومنْ حيثُ الوظيفةُ متوسّطة.

٣ـ أرستقراطيّةٌ لها شَكْلُ الجمهوريّةِ في مدّةِ حكومةِ عثمانَ (ض)، ومن حيثُ الوظيفةُ متوسّطة.

٤ـ جمهوريّةٌ بَحْتَةٌ في مدّةِ حكومةِ عليٍّ (ع)، ومِنْ حيثُ الوظيفةُ اشتراكيّة.

٥ـ فوضويّةٌ في حُكومة الخوارجِ إلى ما قبلَ تأْمِيرِ[٥] عبدِاللّهِ بنِ وَهَبٍ الرّاسبيّ.

---

(٤) كانَ في دوْلةِ النّبيّ (ص) تشريعٌ ضافٍ للأُسرةِ، وهو ما نُسمّيه اليومَ بقانونِ الأحوالِ الشخصية، حَضَّ على الزّواجِ الّذي هو الطّريقةُ الوحيدةُ للتّكْثير القَوْمِيّ، وبَيّنَ موانِعَهُ وَوَضَعَ قانونَ الرّضاع والعِنايةِ بالطّفلِ والأيتامِ وقانونَ الطّلاقِ والإرْثِ وورْثَ الطِفلَ المُستَكِنّ، ولم يَكُنِ العربُ يُورّثونَهُ، وتَشْريعٌ في المُعامَلاتِ وهو ما نُسَمّيهِ القانونَ المَدَنيّ ويدور على:

أ ـ العَقْد الّذي هو أساسُ المعامَلاتِ الشّرعية.

ب ـ طُرُق الإثباتِ كالشّهودِ والكِتابةِ والرّهنِ.

ج ـ عَرَضَ للمُعاملاتِ الرئيسيّةِ كالبَيْعِ وتَحْريمِ الرِّبا والغِشّ والتّدْليسِ والتّطْفيف وبَيْعِ الغَرَرِ، وَوَضَعَ آداباً للمُداينةِ كالرِّفقِ بالمَدِينِ (وإنْ كانَ ذُوْ عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ) وسَنَّ التّأجيلَ الجَبْرِيَّ للدُّيون (المورتوريوم). وسَنّ قانونَ العقوبات وسمّاها القرآنُ حُدوداً. والمنصوصُ عليها في القُرآنِ أرْبَعَةٌ:

١ـ القَتْلُ مع تفصيلٍ في العَمْدِ وغيرِ العَمْدِ، والعَمْدُ جزاؤهُ القتلُ.

٢ـ عقُوبةُ السّارِقِ.

٣ـ عقُوبةُ قَطْعِ الطّريقِ.

٤ـ عُقوبَةُ الزّنى وعُقوبةُ القذْفِ واللّعانِ.

وهي عقوباتٌ قاسيةٌ وُضِعَتْ للزّجْرِ القاطعِ وكُلُّ ما أوْصَلَ إلى هذهِ الغايةِ من عُقوباتٍ، تقومُ مقامَها كما ذَهَبَ إليه بعضُ الفقهاءِ على ما ذَكَرَهُ السّرَخسِيّ في المبسوط، على أنّ الشّريعةَ اشْتَرَطَتْ شُروطاً شديدةً في إثباتِ العُقوبةِ كما تركتِ العُقوبَةَ للشُّبْهَةِ البَسيطةِ، أيْ فَسّرتْها في مصلحةِ المُتّهَمِ، وما سِوى هذه الحُدودِ تُسَمّى تعازير، وهي متروكَةٌ إلى تقديرِ الحاكِمِ، وعلى كُلٍّ فالعُقوباتُ مُراعى بها المكانُ والزّمانُ كما يَظْهَرُ مِن اخْتِلافِ الفُقهاء.

(٥) قال ابْنُ أبي الحديدِ «إنّ الخوارجَ كانوا في بَدْءِ أمْرِهم يقولونَ لا حُكْمَ إلّا للّهِ أي لا إمْرَةَ إلّا للّه، ويَذْهبونَ إلى أنّه لا حاجَةَ إلى

ولأنَّ مُهمَّتَنا هنا وصْفيّةٌ خالصةٌ فلا نَغْتَرّ بكَلِمَتَيْ خلافة وخليفة اللّتَيْنِ أُطْلِقَتا على هؤلاءِ الأربعةِ، فَنَصِفَ حكومَتَهُمْ بصفةٍ واحدةٍ بآعْتبارِ وَحْدَةِ الاسْمِ، كما وَقَعَ لجُمهورِ المؤرِّخينَ. إنَّ الحكومةَ في عهدِ الخلفاءِ تشكَّلَتْ بأشكالٍ آجْتَهَدْنا بِرَدِّها إلى شُعَبِها بالمقدارِ الّذي وَضَحَ لنا. ومحاولتُنا هذه لا تَعْدو أنْ تكونَ تطْبيقاً لنظريّةِ أرسطو من أكثرِ الوجوه.

وفي الخلافةِ نظريّاتٌ دينيّةٌ قامَتْ على أساسِها فِرَقٌ شَتّى في الإسلامِ، ولم تزلْ إلى آخِرِ العهدِ الكَلامِيّ مَوْضِعاً للأخْذِ والرَّدِّ، حتّى عَقَدَ المتكلّمونَ لها باباً خاصّاً، ودَعَوْه بالإمامةِ، ولمّا تزلْ مَحَلّاً للخلافِ من وُجْهَةِ النّظرِ الدّينيّ، ونحنُ هنا لا نَتَعَرَّضُ لشيءٍ منها لِئَلّا تجُرَّنا المناسبَةُ إلى مناسبةٍ أُخرى نَخْرُجُ بها عنِ الموضوعِ خُروجاً كلّيّاً.

نظام المال: نجدُ في السّيرةِ النّبويّةِ أنَّ أُسُسَ هذا النّظامِ الماليّ الكبيرِ وُضِعَتْ في زمنِ النّبيّ (ص). فقد رَتَّبَ أهمَّ مواردِ الدّولةِ الإسلاميّةِ، وأقامَها على توازُنٍ دقيقٍ بينَ رأسِ المالِ وقُوَّتِهِ على الإنتاجِ، ولذلك خالفَ بينَ الأنصِبَةِ الّتي تَجِبُ فيها الزّكاةُ بحَسَبِ أنواعِ المالِ. وفَرَضَها في مُعادَلَةٍ مُقدَّرَةٍ بينَ آسْتفادةِ الفردِ من المجموعِ بإنتاجِه[6]، وبينَ آسْتِفادةِ المجموعِ من الفردِ بآستهلاكِهِ، وبذلك حَقَّقَ الصِّلَةَ بين الفردِ والجماعةِ على أساسٍ عادلٍ،

الإمام، ثم رَجَعوا عن ذلك القولِ لَمّا أمَّروا عليهم عبدَ الله بنَ وهبٍ الرّاسبي» راجع: **شرح نهج البلاغة** لابن أبي الحديد، ج ١، ص ٢١٥.

(٦) نَعْني بهذا أنَّ الفَرْدَ يَسْتَفيدُ من المجموعِ بما يُنْتِجُهُ والمجموعُ مُستهلِكٌ، فلِلمجموعِ حقٌّ في ثَرْوةِ الأفرادِ الّذين آسْتَغَلّوه في جَمْعِها بزياداتٍ تكونُ في أغلبِ الأحيانِ فاحِشَةً بالنّسبةِ إلى رأْسِ المالِ والمَجْهودِ، فلِلجُمهورِ إذاً حقٌّ أكيدٌ. وعلى هذا النَّظَرِ بُنِيَ تشريعُ الزّكاةِ كما يَتَّضِحُ. وهذه ملاحَظَةٌ وَقَعَتْ في خيالِ أبي العلاءِ فَصَوَّرَها بصورةٍ نَثْرِيّةٍ جميلةٍ قال: إنَّ الخلائِقَ دُعُوا إلى مائِدةِ اللّهِ فَسَبَقَ إليها أقوامٌ، وليسَ من حقِّهم أنْ يَمْنَعُوا الآخرينَ، وإنّما عليهم، إذا لم يَتَمَكَّنُوا مِنَ الوُصولِ أن يُناوِلوهم مِمّا ثَمّتَ على المائِدةِ وأنْ يُساعِدوهم على الوُصول إليها.

بحيثُ لم يَسْمَحْ لنُمُوِّ الفرديّةِ إلّا بمِقْدارٍ، كما لم يَسْمَحْ لنُمُوِّ الاشتراكيّةِ إلّا بمقدارٍ، فكانَ نظامُه (ص) بَرْزَخاً بينَ مَدِّ القوّتَيْنِ، وعِلاجاً لُمشكِلةِ[7] الإنسانيّةِ الدّائمةِ. وكانَ خُضوعُ الأفرادِ لنظامِ المالِ، في أوّلِ الأمرِ، خُضوعاً فَرْدِيّاً، فَكُلُّ مُسْلِمٍ يُخْرِجُ الزَّكاةَ بنفسِه، فلم يكنْ للحكومةِ القائمةِ جُباةٌ مُخَصَّصُونَ، ولم تكنْ تُشْرِفُ بنفسِها على درجةِ تطْبيقِ النِّظامِ. ولكنْ في أواخِرِ عهدِ النّبيِّ (ص) جُعِلَ نظامٌ للصَّدَقاتِ ووُكِلَ إلى طائِفةٍ من العُمّالِ الموظّفينَ أمْرُ مُقاضاتِها. ولمّا آتَّسَعَ نِطاقُ الهَيْمَنَةِ الإسلامية آتَّسَعَ نِطاقُ عملِهِم.

ومقاديرُ الزّكاةِ، أي ضريبةُ الأموالِ، مُقَدَّرَةٌ مفروضةٌ على مَنْ بَلَغَ عندَه النِّصابُ، ويَخْتَلِفُ بآختلافِ الأصنافِ، وهذا تشريعٌ بقَدْرٍ مَوْزونٍ قائمٍ على أدَقِّ نَظَريّاتِ المالِ وقوّةِ إنتاجِه، وهذه القوّةُ هي مَدارُ التّفاوُتِ. وأمّا الجِزْيَةُ فقد تَرَكَ النّبيُّ (ص) تقديرَها لوَليِّ الأمْرِ، لأنّها تَخْضَعُ لأحوالٍ دائِبةِ التَّغَيُّرِ، كحالةِ الأرضِ وحالةِ المالِ وحالةِ الزَّرْعِ وحالةِ الجوِّ. فكان النّبيُّ (ص) يُرْسِلُ أحدَ أصحابِهِ، إلى خَيْبَرَ ليَقْسِمَ ثمرَها بينَه وبينَ المُلّاكِ.

هذا هو العملُ في جِزيةِ الأراضي، وكذلك كانَ الحالُ في جِزيةِ الرُّؤوسِ، فالمُدُنُ الكُبرى كاليَمَنِ مثلاً، حيثُ يوجَدُ السُّكّانُ الّذين يَشْتَغِلونَ بالصِّناعةِ، فأحياناً تكونُ ديناراً وأحياناً أقلَّ أوْ أكثر.

---

(٧) وبحقٍّ نقولُ إنّها مُشْكِلَةُ الإنسانيّةِ الّتي لا تَفْتَأُ عابِثةً بالقُوى البشريّةِ ودافِعةً لها في مَضايِقَ تَبْعَثُها بَعْثاً عنيفاً إلى النّزاعِ والتّخاصُمِ. ولوُضوحِ هذه الظّاهرةِ ذَهَبَ الماركسيّونَ إلى النظريّةِ المادّيّةِ في تَعْليلِ حركاتِ التاريخ. وإذا وُفِّقَ المُصْلِحونَ إلى تقريرِ التّكافُؤِ بينَ الشّعبِ الواحِد فلم يُوَفَّقوا إلى تحقيقِهِ بينَ الشّعوبِ المتخلِّفةِ والدّولِ الآخذةِ بأسبابِ التّقدمِ الحَيويِّ. فالمجالُ الحَيَويُّ الواسعُ هو هَدَفُ كلِّ شعبٍ وكلِّ دولةٍ. وفي الإسلامِ تحقيقٌ مَكينٌ راسخٌ لهذا التّكافؤِ البشريِّ العامّ. ويُعْجِبُني أنْ أدُلَّ القُرّاءَ على روايةٍ عربيّةٍ عَرَضَتْ لهذه الفكرةِ وداوَرَتِ النّظامَ الماليَّ للشُّعوبِ مداوَرَةً تَنْتَهي إلى أنَّ في الإمكانِ الوُصولَ إلى هذا الهدفِ المكينِ عن طريقِ النّظامِ الماليِّ في الإسلامِ. وهذا عَرْضٌ جميلٌ ونظرٌ مُوَفَّقٌ، والرّوايةُ المذكورةُ بعنوانِ: **الحرب والسلم** للأستاذ هاشم الدَّفْتردار المدنيّ، وفيها عَرْضٌ للعواملِ المختلفةِ الّتي تُحَتِّمُ على الشّعوبِ الخروجَ من حالةِ التّجانُسِ إلى التّنافرِ على سُنّةٍ دائمةٍ مُطَّرِدَة.

وعندَما فَتَحَ العربُ الشّامَ والعِراقَ وَجَدوا نوعاً آخَرَ آسْمُه الخَراجُ، فَخَصّوا الجزية بضريبةِ الرُّؤوسِ، والخَراجَ بضريبةِ الأراضي، وعليه فالخَراجُ في جَوْهَرِهِ ليس ضريبةً جديدةً، وإنّما تَدْخُلُ في حَدِّ التّشكيلاتِ فقط. والنِّظامُ الذي آتُّبِعَ فيها لا يخرُجُ عنِ النِّظام القديم في دولةِ الرّومانِ ودولةِ الفُرْسِ، فالعَرَبُ وَجَدوا في الأقاليم المفتوحةِ نظامَ[٨] الضّرائبِ وجِبايَتِها، فَرَأوا الإبْقاءَ عليه مع تَغْييرٍ مالَ بِهِ الفاتِحُ إلى التّخفيفِ ومُلاءَمةِ روحِ الشّريعةِ التي يَعْمَلُ على نَشْرِها، وهذانِ اللّفظانِ[٩] كانا مَعْروفَيْنِ قُبَيْلَ الإسلامِ.

والجِزْيَةُ من المَوارِدِ الماليّةِ الهامّةِ، وزادَ في أهمّيّتِها أنّ الشّريعةَ لم تُقَيِّدْها بنُصوصٍ خاصّة، فهي تُقَدَّرُ كيفَما آقْتَضَتْ حالةُ الدّولةِ، كما لم تكنْ مُقَيَّدَةً أيضاً في وُجوهِ إنْفاقِها، ولِوَلِيِّ الأمرِ حُرِّيَّةُ التّصرّفِ بها في جميعِ مرافقِ الدّولة.

والخَراجُ مالُوا به، في التّصنيفِ الجديدِ، إلى تَخْصيصِه بضريبةِ الأرضِ، والأراضي الّتي يَشْمَلُها هي الّتي تَحْتَ يدِ أهْلِ الذِّمَّةِ فقط، وكانت على أنواعٍ: عَنْوَةً وهي الّتي تُفْتَحُ قَسْراً، وأرضَ صُلْحٍ وهي التي تُؤْخَذُ عنْ طريق المُفاوضَةِ والاتّفاقِ. والأُولى تُصْبحُ مِلْكاً للفاتحينَ، والثّانيةُ تظلُّ مُسْتَمْسِكَةً بحُرّيّتِها وآستقلالِها، ومِلْكِيَّتُها تَبْقى في أيْدي أصحابِها. ومنَ النّوعِ الأوّلِ أكثرُ أراضي الشّامِ والعِراقِ فأصبحتْ مِلكاً للعربِ الفاتحينَ، أيْ غنائِمَ، وَحُكْمُ الغنائمِ أنّها تُقْسَمُ إلى خمسةِ أقسامٍ، أربعةٌ للجيشِ، والخُمْسُ الباقي لبيتِ المال.

---

(٨) وعلى هذا بَنَى مَنْ قال مِنَ المستشرقينَ بتأْثير الفِقهِ الرّومانيِّ في الفقهِ الإسلاميِّ منْ حَيثُ التّفصيلاتُ لأنَّ الإسلامَ وَرِثَ الشّعبَ والنّظامَ الإجرائيَّ، فَتَأثّر به من الناحيةِ العمليّةِ في حَدٍّ ما وعلى نَحْوٍ ما. وبما أنّ هذه التّفصيلاتِ والإجراءاتِ أقرّها الخُلفاءُ وفُقهاءُ الصّحابة كَسُنَّةٍ من سُنَنِ الإدارةِ آعْتَمَدها المجتهدونَ في عهدِ التّقنينِ العظيمِ وفرّعُوا عليها. وهذا يجعلُنا نَذْهَبُ إلى أنّ تأثُّرَ الفِقْهِ الإسلاميِّ في المادّةِ الحُقوقيّةِ كانَ طفيفاً جدّاً ومَحْدوداً جدّاً، وإنّما التّأثُّرُ العظيمُ آتّصَلَ بطرائِقِ العملِ والإدارة. والّذين يَزْعُمونَ غيرَ ذلكَ تَنْقُصُهم الشّواهِدُ الضّروريّة.

(٩) يُقالُ إنّهما من اللّغةِ النَّبطيّةِ جِزْيَتْ، وخَرْجَة.

والخَراجُ على أشكالٍ ثلاثة:

الأوّل: خَراجُ المِساحةِ، أي على كُلِّ مِساحةٍ مُعَيَّنَةٍ مِقدارٌ مِنَ المالِ.

الثاني: خَراجُ المُقاسَمَةِ، وهو الذي عُرِفَ في زَمَنِ الرسّولِ (ص)، ويُقْسَمُ المَحْصولُ بينَ الدّولةِ وبينَ صاحبِ الأرضِ.

الثالث: خَراجُ المُقاطعةِ، وهو أن يُفْرَضَ على صاحبِ الأرضِ مِقدارٌ مِنَ المحصولِ يُؤَدِّيهِ بآستمرار.

وكانَ السّائدُ في مِصْرَ خَراجَ المِساحةِ، وفي الشّامِ خَراجَ المُقاطعةِ، وفي العراقِ خَراجَ المُقاسَمَةِ، فَكُلُّ جِهَةٍ كانَ لها نِظامٌ خاصٌّ يُلائِمُها.

وهنا عَرَضَتْ مشكلةٌ قانونيّةٌ، وهي كيفَ تُقَسَّمُ هذه الأمبراطوريَّةُ الجديدةُ بينَ الجنودِ، وهذا الأمرُ يُؤَدّي إلى فَوْضى وإرهاقٍ منَ النّاحيةِ الاقتصاديّةِ. على أنّ أهلَ البلادِ الأصليّينَ يُوَطِّنُون أنفسَهم على الثّوراتِ دائماً. فآستَشارَ عُمَرُ الصّحابةَ في حَلِّ المُشْكِلةِ على صورةٍ تَضْمَنُ حقوقَ الجميعِ. فمنْهم مَنْ أشارَ بآتّباعِ النَّصِّ وكان الجُندُ من أنصارِ هذا الرّأْيِ، ولم يَرْضَ عُمَرُ به لأنّ تنفيذَه يَجُرُّ إلى مشاكلَ كبيرةٍ، منها حِرْمانُ الدّولةِ منَ المواردِ الهامّةِ الّتي بواسطتِها تستطيعُ حمايةَ نَفْسِها من غاراتِ العدوِّ وترعى مصالِحَها، ومنها القَضاءُ على الرّوحِ العسكريّةِ في العربِ، فمالَ عمرُ إلى رأيٍ آخَرَ وهو أنْ تَبْقى في أيدي أصحابِها ويُؤْخَذَ منهم الخَراجُ ويُوَزَّعَ على المُسْتَحِقّينَ، وبذلكَ أجْرَى الأراضيَ المفتوحةَ عَنْوَةً مَجْرى الأراضي المفتوحةِ صُلْحاً.

هذا الرّأيُ يكونُ مُوَفَّقاً له لو كانَ عندَ العربِ في ذلكَ الحينِ خِدْمَةٌ عسكريّةٌ دائمةٌ، ولكنْ أمّا والجُنْدِيَّةُ عندَهم مُؤَقَّتَةٌ بالقَدْرِ الذي يقتضيهِ الظّرْفُ، ثمَّ يعودُ العسكريّونَ إلى مَدَنِيّينَ، فَمِنَ المُنْتَظَرِ أنْ يتألَّبَ هؤلاءِ حينَما يَرَوْنَ أنفسَهم أكثريّةً فقيرةً، ثمّ يثورونَ، وهذا ما حدثَ بالفعلِ، ومِنْ ثَمَّ يظهَرُ سِرُّ التّشريعِ النّبويِّ الذي كانَ يَرْمي إلى تمليكِ هؤُلاءِ الجنودِ

المؤقّتينَ، لكي يعودوا إلى نَظْمِ أنفُسِهم في حياةٍ مدنيّةٍ ذاتِ غَضارةٍ، ويكونَ منهم طبقةٌ ماليّةٌ مُنْتِجَةٌ تُغْنى بالأرضِ والثّروةِ. والأمرُ الذي لا رَيْبَ فيهِ أنّ عُمَرَ (ض) كان يَرْمي إلى تأسيسِ نِظامِ الجُنديّةِ الدّائمِ، وهذا التّشريعُ الماليُّ عُنوانٌ على كان ما يجولُ في نفسِهِ.

وعَرَضَتْ مُشكلَةٌ أُخرى وهي تقديرُ العطاءِ، وكانَ العملُ في زَمَنِ النّبيِّ (ص) وأبي بكرٍ جارياً على التّسويةِ العامّةِ، إلّا أن عُمَرَ رأى، وخالَفَهُ عليٌّ[10]، أنْ لا يُجْعَلَ مَنْ قاتَلَ رسولَ اللّهِ كَمَنْ قاتَلَ مَعَهُ، فجعلَ الامتيازَ بحَسَبِ السّابِقَةِ، فالّذي قاتلَ يومَ بدرٍ يَفْضُلُ من قاتلَ في فُتوحِ العراقِ والشّامِ. ومن هنا حَدَثَ التّفاوُتُ الملموسُ في الأُعْطِياتِ وتشكَّلَ على طبقاتٍ ومَراتبَ. فطائفةٌ تأخذُ عَطاءً كبيراً، وأخرى عطاءً مُتَوَسّطاً، والأكثريّةُ يأخُذون عطاءً ضَئيلاً. وكانتِ الطّبقاتُ على هذه الشاكلة:

١ـ زوجاتُ النّبيِّ (ص) وأقربُ النّاسِ إليه في حياتِه، لهم بضعةُ آلافٍ من الدّنانيرِ سنويّاً.

٢ـ كبارُ المهاجرين.

٣ـ كبارُ الأنصار.

٤ـ مَنِ آشْتَرَكَ في الغَزَواتِ حَسَبَ أهمّيّتِها.

٥ـ كلُّ مَنْ جاءَ من البادِيَةِ وآشْتَرَكَ في الحرب.

هذا التّنظيمُ الماليُّ أوْجَدَ تمايُزاً كبيراً، وأقامَ المُجْتَمَعَ العربيَّ على قاعِدةِ الطّبقاتِ، بعدَ أنْ كانوا سَواءً في نظرِ القانونِ (الشريعة). فقدْ أوْجَدَ، بدونِ شُعورٍ، أرستقراطيّةً وشَعْباً وعامّةً، وبما أنّ التّجنيدَ شَمَلَ كافّةَ العربِ، فقدِ آشتَرَكوا بالعطاءِ آشتراكيّةً فَذَّةً. ولَمّا رَكَدَتِ

---

(١٠) راجع كتاب: **الأحكام السلطانية** للماوردي، ص ١٧٧.

الفُتوحُ وآسْتَقَرَّ الجُنْدُ في الأمصارِ فكَّروا في أنفُسِهم وفيما صاروا وآنتَهَوْا إليه من عطاءٍ قليلٍ، وقالوا لو قُسِمَتِ الأرضُ علينا لكانَ أرْفَقَ بنا، فآنْتَشَرَتْ هذه الفكرةُ آنتشاراً ذَريعاً ومُريعاً، وذَكَتْ حفيظَتُهم حينَ قارنوا أنفُسَهم بما وَصَلَ إليه نَفَرٌ من قريشٍ، فآستَقَرَّ في رُوْعِهِم أنَّ قريشاً آسْتَأْثَرَتْ بالمالِ، وكان هذا مُهَيِّئاً للثورةِ ومُقَدِّمَةً إلى الفِتْنَة.

ومنْ هذا نَسْتَنْتِجُ أنَّ الثّورةَ الّتي دارتْ على عُثمانَ (ض) لم تكنْ نتيجةَ سياستِهِ الخاصَّةِ وحدَها، بل ونتيجةُ مُجاوَزاتٍ سياسيّةٍ سابقةٍ ظهرَ أثَرُها الكامنُ حينَ آسْتَعَدَّ الظُّروفُ وحانَ حينُه، وقدْ فكَّرَ عُمَرُ، لمّا كَثُرَتِ الأموالُ بكَثْرةِ الفُتوحِ، أنْ يُدَوِّنَ الدّواوينَ فكانَ يَحْضُرُ أسماءَ الجنودِ في دِيوانٍ، وأمامَ كلِّ جُنْديٍّ عَطاؤُه. ورُتِّبَتِ الأسماءُ على حَسَبِ الأنسابِ، وآعتُمِدَ، في ترتيبِ القبائِلِ وتنظيمِها في الدّيوانِ، جانبُ البُعْدِ[11] والقُربِ من قُريش.

وكانتِ الأموالُ تُنْفَقُ على صورةِ أنْ يَبْدَأَ كُلُّ قُطْرٍ بِسَدِّ حاجتِه ويُرْسِلَ الباقيَ إلى المدينةِ، وأوّلُ شيءٍ يَفْعَلُهُ الخليفةُ هو أن يُعطِيَ كُلَّ جنديٍّ عطاءَه، وفي آخِرِ كُلِّ سنةٍ يوزِّعُ ما يبقى في الخزينةِ على المُسْتَحِقّينَ. وإذا علِمنا أنَّ كُلَّ عربيٍّ خَرَجَ غازِياً إلّا مَنْ لم يستطِعِ آحْتِمالَ الجِهادِ لِهَرَمٍ أو مَرَضٍ نَعْلَمُ أنّه بعدَما رَكَدَتِ الفتوحُ آنقَلَبَ العربُ، وهم أفقرُ النّاسِ، لأنَّ الميزانيّةَ لا تَـتَحَمَّلُ على الدَّوامِ مَدَّهم بما يَكْفيهِمْ، وليستْ لهم ثروةٌ عَقاريّةٌ يَعْتَمِدونَ

---

(١١) يَظُنُّ بعضُ المستشرقينَ الّذين ذَهبُوا إلى الشَّكِّ في الأنسابِ عندَ العربِ، أنَّ ترتيبَ الدّيوانِ على الشّكلِ الّذي تَمَّ عليهِ في زمنِ عُمَرَ هو الأساسُ الّذي بُنِيَتْ عليه مُشجَّراتُ الأنسابِ المُحْكَمَة. ونحنُ نَسْتَنِدُ إلى هذا التّرتيبِ أيضاً للقَطْعِ بصِحّتها ونَفْيِ الشّكِّ عنها، لأنّها لو لم تَكُنْ أصَحَّ ما يكونُ وأحْكَمَ ما يكونُ لَمَا جَنَحَ إليها عُمَرُ في التّنظيم الماليِّ الّذي يُبْنى عادةً على أدَقِّ الأشياءِ وأصَحِّها. والنّظاميّونَ في عهدِ عمرَ (ض) لَمّا لم يَجِدُوا أدَقَّ وأصْدَقَ مِنَ الأنسابِ لِيَجْعَلوهُ قاعدةً للتّنظيمِ آعْتَمدُوها كقاعِدةٍ للسّيرِ النّظاميّ، فلو لم تَكُنْ تلكَ الأنسابُ مُقَرَّرَةً معروفةً فكيفَ يُحَقِّقُ البُعدُ والقُربُ من قُريش. ونحنُ من تنظيمِ عُمَر على الأنسابِ بينَ أمْرَيْنِ، إما أنْ نَشُكَّ فيها وهذا الفرضُ لا يَتِمُّ إلّا بتقديرِ أنّ عمرَ آخْتَرَعَ أيضاً مُشَجَّراتِ الأنسابِ ثمّ أقامَ الدّيوانَ عليها، وإما أنْ نَعْتَمِدَها آعْتِمادَ ما لامِرْيَةَ فيه ولا شَكّ.

عليها في سدِّ حاجاتِهم فقد حِيْلَ بينَهم وبينَها بمُقْتَضى النُّظامِ الّذي جَرَى عليهِ عمرُ (ض) في قِسمةِ الأرض.

نظام الإدارة والقضاء: بَقِيَتِ الوظائِفُ الإداريّةُ مُخْتَلِطَةً في الدّولةِ آختِلاطاً كبيراً، فكانتْ تجْتَمِعُ في شخصِ الخليفةِ أحياناً بحيثُ يُباشِرُها بنفسِهِ، وأحياناً يَنْتَدِبُ لها أشخاصاً آنْتِداباً بدونِ تَعْيينٍ. حتّى جاءَ عمرُ (ض) فرتَّبَها ترتيباً حسناً قامَ على التَّخَصُّصِ وفصْلِ الوظائفِ، فجعلَ في كُلِّ مِصْرٍ قاضِياً ووالِياً، وكانَ الوَضْعُ في الأمْصارِ صورةً مُصَغَّرةً عمّا هو عليهِ في المدينةِ. فالْوالي يُمَثِّلُ الخليفةَ وسُلْطَتُه محدودةٌ، من فوقُ، بالخليفةِ، ومنْ تحتُ بهيئَةِ المُشيرينَ الّذين هم رُؤساءُ القبائِلِ، وكانَ آخْتصاصُه يَشْمَلُ الأُسُسَ الثّلاثَةَ الآتيةَ وهي:

١ـ أنْ يَؤُمَّ النّاسَ في الصّلاةِ.

٢ـ أنْ يقودَهم إلى الحربِ.

٣ـ أنْ يَجْبيَ الأموالَ.

على أنّه سَرعانَ ما وُجِدَ التّخصُّصُ الإداريُّ حتّى في هذه الصّلاحيّاتِ المذكورة. فآخْتَصَّ رجلٌ بالإمامةِ، وآخرُ بقيادةِ الجيشِ، وثالثٌ بجِبايَةِ الأموالِ أُطْلِقَ عليه صاحِبُ الخَراجِ. وأُضيفَ إليهم قاضٍ مَرْجِعُه الخليفةُ رأساً ليَفْصِلَ في الخُصومات.

وهنا أُثْبِتُ ملاحظةً عَرَضَتْ لي في **سُمُوّ المعنى في سُمُوّ الذات**، ومنَ الخيرِ أنْ أنْقُلَها بالنّصِّ. قُلْتُ: «على أنّ الخُلَفاءَ قد آضطرُّوا أحياناً إلى فَصْلِ السُّلطتيْنِ في الوِلاياتِ، فقد كانَ الخليفةُ كَعُمَرَ يبعثُ بالوالي الزّمنيِّ وبالقاضي معاً، بحيثُ لا يكونُ للوالي سُلطةٌ على القاضِي بل يَعْمَلانِ مُتَعاوِنَيْنِ، وهذا مُمارَسَةٌ لفصْلِ السُّلطَتَيْنِ في مناطقَ محدودةٍ»[١٢].

---

(١٢) راجع كتاب: **سموّ المعنى في سموّ الذات**، ص ٧٣.

هذه مُلاحَظَةٌ ذاتُ أهمّيّةٍ في فَهْمِ كثرةِ الخِلافِ على وُلاةِ الأمْصارِ، وكأنَّ عُمَرَ (ض) رَمَى من وراءِ هذا الفصلِ بين السُّلطتيْنِ أن يُوجِدَ رَقابَةً مُتبادَلةً من وَجْهٍ، ويُقَلِّلَ من حِدّةِ الانتقادِ على الحاكمِ الزّمنيِّ منْ وَجْهٍ آخرَ. ويَحْسُنُ أنْ نوردَ عبارةَ آبْنِ خلدونٍ في وظيفةِ القضاءِ، كما كانَتْ في عهدِ الخلفاءِ قال: «وأمّا القَضاءُ فهو من الوظائفِ الدّاخلةِ تحتَ الخلافةِ، لأنّه مَنْصِبُ الفَصْلِ في الخُصوماتِ حَسْماً للتّداعي وقَطْعاً للتّنازُعِ، إلّا أنّه بالأحكامِ الشّرعيّةِ المُتَلَقّاةِ من الكِتابِ والسُّنَّةِ، فكانَ لذلكَ من وظائِفِ الخلافةِ، ومُنْدَرِجاً في عُمومِها. وكانَ الخلفاءُ في صَدْرِ الإسلامِ يُباشِرونَهُ بأنفُسِهِم ولا يَجْعَلونَ القضاءَ إلى سِواهُم. وأوّلُ من دَفَعَه إلى غيرِهِ وفوَّضَ فيهِ عُمَرُ، فَوَلَّى أبا الدَّرْداءِ معه بالمدينةِ، وولَّى شُرَيْحاً بالبَصْرَةِ، وولّى أبا موسى الأشعَرِيَّ بالكوفةِ، وكتبَ له في ذلك الكتابَ المشهورَ الّذي تدورُ عليهِ أحكامُ القُضاةِ وهي مُستوفاةٌ فيه، يقول: «أمّا بعدُ، فإنَّ القضاءَ فريضةٌ مُحْكَمَةٌ وسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ فآفهَمْ إذا أُدْلِيَ إليك، فإنّه لا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بحقٍّ لا نَفاذَ له، وآسِ بينَ النّاسِ في وَجْهِكَ ومَجْلِسِكَ وَعَدْلِكَ، حتّى لا يطمَعَ شريفٌ في حَيْفِكَ ولا ييأسَ ضعيفٌ من عَدْلِكَ. البَيِّنَةُ على مَنِ آدَّعَى، واليَمينُ على مَنْ أنْكَرَ. والصُّلْحُ جائِزٌ بينَ المُسلمينَ إلّا صُلحاً أحَلَّ حَراماً أو حَرَّمَ حلالاً، ولا يَمْنَعْكَ قضاءٌ قَضَيْتَهُ أمسِ فراجَعْتَ فيه عقلَكَ وهُدِيتَ فيه لرُشْدِكَ أنْ تَرْجِعَ إلى الحَقِ، فإنَّ الحقَّ قديمٌ ومُراجَعَةُ الحقِّ خيرٌ منَ التّمادي في الباطِلِ. الفَهْمَ الفَهْمَ فيما يَتلَجْلَجُ في صدرِك ممّا ليسَ في كِتابٍ ولا سُنّةٍ. ثمّ آعْرِفِ الأمثالَ والأشباهَ، وقِسِ الأمورَ بنظائِرِها وآجْعَلْ لمن آدَّعى حقّاً غائِباً أو بيّنةً، أمَداً ينتهي إليه، فإنْ أحْضَرَ بَيِّنَتَه أخَذْتَ له بحقِّهِ وإلّا آسْتَحْلَلْتَ القضاءَ عليه. فإنّ ذلك أنْفى للشّكِّ وأجْلى للعَمَى. المسلمونَ عُدولٌ بعضُهم على بعضٍ إلّا مَجْلوداً في حدٍّ أو مُجْرىً عليه شهادةُ زورٍ، أو ظَنِيناً في نَسَبٍ أو وَلاءٍ. فإنّ اللّهَ سُبحانَه عفا عنِ الأيْمانِ ودَرَأ بالبيّناتِ، وإيّاكَ والقَلَقَ والضَّجرَ والتّأفُّفَ بالخُصومِ، فإنّ آسْتِقْرارَ الحَقِّ في مواطِنِ الحقِّ يُعَظِّمُ اللّهُ بهِ الأجْرَ ويُحْسِنُ به الذِّكْرَ،

والسلامُ». (انتهى كتاب عمر). وإنّما كانوا يُقَلِّدونَ القَضاءَ لغيرِهم وإنْ كانَ ممّا يَتَعَلَّقُ بهم لقيامِهم بالسّياسةِ العامّةِ. والقاضي إنّما كانَ له في عَصْرِ الخُلفاءِ الفَصْلُ بينَ الخصومِ فقطْ. ثمَّ دُفِعَ له بعدَ ذلكَ أمورٌ أُخرى على التّدريجِ بحَسَبِ آشْتِغالِ الخلفاءِ والملوكِ بالسّياسةِ الكُبرى. وآسْتَقَرَّ مَنْصِبُ القضاءِ، آخِرَ الأمرِ، على أنّه يَجْمَعُ مع الفَصْلِ بينَ الخُصُومِ آستيفاءَ بعضِ الحقوقِ العامّةِ للمُسْلمينَ بالنَّظرِ في أمْوالِ المَحْجورِ عليهم مِنَ المَجانِينِ واليتامى والمُفْلِسينَ وأهلِ السَّفَهِ، وفي وَصايا المُسلمينَ وأوقافِهم وتَزْويجِ الأيامَى عندَ فَقْدِ الأولياءِ على رَأْيِ مَنْ رآه، والنَّظَرِ في مَصالحِ الطُّرُقاتِ والأبْنِيَةِ وتَصَفُّحِ الشُّهودِ والأُمَناءِ والنُّوّابِ وآسْتيفاءِ العلمِ والخِبْرَةِ فيهم بالعَدالةِ والجَرْحِ لِيَتَحَصَّلَ لهم الوُثُوقُ بهم، وصارتْ هذه كُلُّها من تعلُّقاتِ وظيفتِهِ وتوابعِ ولايته»[١٣].

هذه العِبارةُ تضعُ بينَ أيدينا شيئاً عنْ نَشْأةِ القضاءِ وتَطَوُّراتِه، وهي تُفيدُنا أنّ الخلفاءَ الرّاشدينَ آهْتمّوا منْ كُلِّ وظائفِ الدّولة بهذه الوظيفةِ، فَعالَجوها كثيراً ونَظَّموها كثيراً لتَجيءَ شيئاً يَرْضَوْنَ عنه، وأحاديثُ نَزاهةِ قضائِهم وعدالتِه جاوزَتِ الإحصاءَ. حتّى قيلَ: كانَ القضاءُ في عَهْدِهِم ساحةً يَقِفُ فيها الظَّبْيُ الأغَنُّ مع الأسدِ الرِّئبالِ فلا يَهابُه ولا يَخْشاهُ. وقدِ آجْتَذَبَتْ سياستُهم القضائيّةُ عَدَداً كبيراً إلى الإسلام.

وكتابُ عُمَرَ مرسومٌ آشْتِراعيٌّ عظيمٌ أُصْدِرَ وصُدِّقَ في حكومَتِهِ، وفيه تقريرٌ لِمَبْدَأ الاستئنافِ ونقْضِ الحكم إلّا أنّه جعلَ هذه الصّلاحيّةَ للقاضي نَفْسِه، فكانَ ثَمَّتَ آزْدِواجٌ في البدايةِ والاستئنافِ. على أنّ الخليفةَ كانَ المَرْجِعَ الأعلى للقضاءِ فكانَ بمثابةِ مَحْكَمَةِ النَّقْضِ والإبرامِ، كما يَظْهَرُ من القصَصِ الّتي ذَكَرَها المَقْريزيُّ وغيرُه من أنّه كان يَنْقُضُ على القُضاةِ والوُلاةِ أحكامَهم وإجراءاتِهم.

---

(١٣) راجع: مقدمة ابن خلدون، ص ص ٢٢٠- ٢٢١.

نظام الجنديّة: لم يَخْرُجْ في ترتيباتِهِ العسكريَّةِ على القاعِدةِ المُتَّبَعةِ في حروبِ العربِ[١٤] التَّقْليديَّةِ القَبَلِيَّةِ إلّا بمقدارٍ يَسيرٍ، وكانَ النَّوْعُ الغالبُ على حركاتِهِم، حربَ الإزْعاجِ والعِصاباتِ، والعربُ يُسمّونَهُ حربَ الإجْهادِ والإنْهاكِ (Guerre d'usure)، ولَجَؤُوا إلى هذا النَّوعِ في حربِ الشّامِ والعِراقِ أوّلَ الأمْرِ.

وكانت فِرَقُ الجُيوشِ تسيرُ مُستقلّةً آسْتِقلالاً تامّاً، فلمْ يكنْ عندَهم قائدٌ أعلى للجيْشِ يُناطُ به توْحيدُ القيادةِ وتَنْظيمُ الحركاتِ العامَّةِ. كما أنّ الكتائبَ تُؤَلَّفُ تأْليفاً قَبَلِيّاً. فَرَئيسُ الكتيبَةِ هو الزّعيمُ القَبَليُّ نفسُه. وعددُ الفِرْقَةِ كانَ يتراوحُ بين ثلاثةِ آلافٍ إلى سَبْعَةِ آلافٍ، ولها مَدَدٌ، أيْ قُوىً آحْتِياطيّة.

وكان همُّهم يَنْصَرِفُ إلى المُدُنِ والعواصمِ، وتحاشي الالْتقاءِ بالجيْشِ، وهذهِ الخُطَّةُ أدَّتْ بهم إلى آنْهزاماتٍ كَثيرةٍ وآنْدِحاراتٍ جَمّةٍ، فقدِ آسْتَوْلى جيشُ الشّامِ على كثيرٍ من المُدُنِ كحِمْصَ، ثُمَّ آضْطُرّ إلى إخلائِها والجَلاءِ عنها. ومنَ الأوّليّاتِ المُتّبعةِ في حركةِ السَّوْقِ الجيشيّةِ، الابْتِداءُ بِقَهْرِ الجيشِ أوّلاً في معركةٍ فاصِلةٍ، وعلى نتائِجها يَتَرَتَّبُ تَعْيينُ الأهدافِ التّاليةِ والتّدابيرِ الأُخرى.

والصِّفةُ العامّةُ لحركاتِهم الخِفَّةُ والسُّرعةُ والاحتفاظُ بخَطِّ الرَّجْعةِ، خوفاً من التَّطْويقِ والالْتفافِ مِنَ الوراءِ، ولعلَّ السُّرْعَةَ الفائِقةَ كانتْ أكبرَ ميزَةِ المُحارِبِ العربيِّ، ويَظْهَرُ هذا جَلِيّاً في المُجازَفَةِ الّتي قامَ بها خالدُ بنُ الوليدِ، حينما آنتَقَلَ بجيشِهِ من العراقِ لإنْجاد جيشِ الشّامِ. وهي مِثالٌ نادِرٌ مِنْ سُرعةِ القَرارِ وخِفَّةِ الحركةِ، ولا يُشْبِهها إلّا حركةُ نابوليونَ في معركةِ واغرام الشّهيرةِ، فقدِ آنتَقَلَ حينَما بَلَغَهُ تَجَمُّعُ الأُوروبّيّينَ ضدَّه من إسبانيا، بسرعةِ البَرْقِ كما يقولون، ودخلَ معهمْ في معركةٍ قاسِيةٍ.

---

(١٤) راجع: حركات خالد بن الوليد العسكرية، للفريق طه باشا الهاشمي.

وهذه التّرتيباتُ غيرُ المُنَظَّمَةِ بَقِيَتْ، إلى ما قبلَ اليَرْموكِ، المعركةَ النِّظاميّةَ الأُولى في الفَتْحِ العربيِّ. فقدْ غَيَّرَ، لأوَّلِ مرّةٍ، خالدُ بنُ الوليدِ من نِظامِ الحربِ المُتَّبَعِ، بعدَ أنِ آسْتَطْلَعَ حالةَ خَصْمِهِ ودقَّقَ تشكيلاتِه وطِرازَ تعبِئَتِه، وآقتنَعَ(١٥) بأنّه لا بُدَّ منْ تَقْسيمِ جيشِهِ وتَرْتيبِهِ على طِرازِ الجيشِ الرومانيِّ، فَعَمَدَ إلى تَنْسيقِهِ وَفْقَ الأصولِ الرّومانيّةِ. قَسَمَ الجيشَ إلى كَراديسَ بلغَ مجموعُها من ٢٦ إلى ٤٠ كُرْدوساً، عَيَّنَ لكلٍّ منها قائداً، ثمّ ألَّفَ الكراديسَ فِرَقاً من ١٠ إلى ٢٠ كُرْدوساً، وَجَعَلَ على كُلٍّ منها قائِداً كبيراً، وخَصَّصَ للقَلْبِ (المركز) فِرْقَةً وللمَيْمَنَةِ فِرقةً وللمَيْسَرَةِ فرقةً، وأنْشأَ هيئَةَ أركانِ الحربِ، وكان لَدَيْهِ من هيئَةِ أركانِ المقَرِّ (مقرِّ القيادةِ العامّةِ) أبو الدّرداءِ قاضي الجيشِ، وأبو سفيانَ آبنُ حربٍ القاصُّ (أي خطيبُ الجيشِ، ومِنْ وظيفتِهِ أيضاً إيصالُ الأخبارِ إلى الفِرَقِ المُحارِبَةِ ونَقْلُ الأوامرِ)، وعبدُاللّهِ بنُ مسعودٍ مأمورُ الإقباضِ (أي الذي يُمَوِّنُ الجيشَ ويَجْمَعُ الغنائِمَ)، وأقامَ أمامَ الجيْشِ طَلائعَ (خُفَراءَ الأمامِ)، وكانتْ هذه التَّعْبِئَةُ في اليرموكِ أوّلَ تَعْبِئَةٍ نِظاميّة.

فالعربُ آسْتفادوا منَ الرّومانِ والفُرسِ نِظاماً جديداً فيما يَتّصِلُ بالتّشْكيلاتِ الحربيّةِ والتّعبِئَةِ والقيادةِ العامّةِ، وخُطَّةِ آسْتِدراجِ الجيشِ قبلَ كلِّ شيءٍ للإيقاعِ به وإبطالِ مُقاوَمَتِه؛ وكلماتٍ كثيرةً منْها كُردوس التي يُقَدِّرونَ أنّها مُحَرَّفَةٌ، أو مُعَرَّبَةٌ عن كلمةِ Kortis الرّومانيةِ، وهي بمثابَةِ كتيبةٍ، وأَرْطَبون وهي مُحَرَّفَةٌ عن كلمة Tribum ومعناها قائِدُ فِرقةٍ.

بَيْدَ أنّهم لم يَسْتفيدوا شيئاً ممّا يَتَّصِلُ بالتّربيةِ العسكريّةِ الّتي تُعَلِّمُ الطّاعةَ والانضباطَ، وتَقْضي على الرّوحِ القَبَليِّ قضاءً حاسِماً، والجُنديّةِ الدّائمةِ الّتي تُحَدِّدُ المدنيّينَ والعسكريّينَ، وتَخْلُقُ شُعوراً في الصِّنْفَيْنِ يُدْرِكونَ به صَلاحِيّاتِهم ومدَى أهْليّةِ تَدَخُّلِهم. وهذا ما لاحظْناهُ في مُقَدِّمَةِ **سُمُوّ المعنى في سُمُوِّ الذات**، وأسْمَيْناه فَساداً عسكريّاً أدّى إلى كثيرٍ من النّتائجِ

(١٥) راجع: محاضرة عسكرية في خطط خالدٍ في فتح الشام لأحمد بك اللحام، قائم مقام أركان الحرب.

السّيِّئةِ المُؤْلِمةِ، وهذا ما قُلتُ عنه: «وفائدةُ النِّظامِ العسكريِّ أنّه يُعَلِّمُ الائْتِمارَ، ويَحْسُرُ النَّظَرَ عنِ التَّطَلُّعِ إلّا في حدودِ المِهنَةِ، ويَبْعُدُ بنَفْسِ العسكريِّ عن المُناقَشَةِ للشُّؤونِ العامّةِ، ويَرُوضُه على التَّمَسُّكِ بالحاكِمِ المَدَنيِّ القائمِ. ومِنْ فضائلِ هذا النِّظامِ الواضِحةِ تَحامي الرَّجلِ العسكريِّ مَهْما سَما قَدْرُهُ عن وضْعِ نفسِه في مَرْكزٍ مَدَنيٍّ صِرْفٍ، وتَحَمُّلِ المسؤوليّاتِ، والأعْباءِ العامّةِ. إذاً فَعَدَمُ وُجودِ نِظامٍ مِنْ هذا النّوعِ في مُحيطِ العرَبِ، جَعَلَ الرِّجالاتِ العَسكريّينَ الّذين اشْتُهِروا بالبُطولةِ يُفَكِّرونَ بالدَّعوةِ لأنفسِهم، والانْتِقاضِ لاحْتِواءِ السُّلطة»[١٦].

وأهمُّ نتائجِ هذا الفصلِ هي:

١ـ إنَّ نِظامَ الحكومةِ لم تكنْ له قاعِدَةٌ واحِدةٌ، بل سارَ مِنَ الدّيمقراطيّةِ إلى الأرستقراطيّةِ فالجُمهوريّةِ فالفَوْضَويّةِ.

٢ـ إنّ نِظامَ الأموالِ لم يَقُمْ على قاعِدةٍ تَكْفُلُ حاجاتِ المُجْتَمَعِ وتُحَقِّقُ أمانِيَه.

٣ـ إنّ نِظامَ الجُنْديَّةِ خَلا مِنَ الرّوحِ العسكريَّةِ الصِّرْفِ الّتي تَبْعَثُها التّربيةُ الخاصّةُ.

---

(١٦) راجع كتاب: سموّ المعنى في سموّ الذات، ص ص ٢٢ـ ٢٣.

الحزبيّة

تَطْمَئِنُّ جمهرةُ الباحثينَ إلى أنَّ التَّشَرذُمِيَّةَ الحِزْبيَّةَ عَلِقَتْ بمُجْتمعِ العرَبِ الوليدِ، وهذه ككلِّ الطُّفَيْليّاتِ الاجتماعيّةِ ما عَلِقَتْ بمحيطٍ إلّا أثَّرَتْ فيه تأثيراً سيّئاً. لأنّ نشاطَها يَنْصَرِفُ إلى تأْييدِ أهدافِ الحِزْبِ وأغراضِه الرئيسيّةِ، وبالأخَصِّ إذا لم يكنْ لها مَثَلٌ رَمْزِيٌّ تَعْمَلُ له جميعُها وتَقِفُ جُهودَها في سبيلِه، على آختلافٍ في الوسائلِ والطُّرُقِ.

وهذه الحزبيّةُ التي نَتَحَدَّثُ عنها، لم تكنْ من طِرازِ الحزبيّةِ ذاتِ اللّونِ المفيدِ المُنْتِجِ، بلْ كانتْ مُغْرِضَةً نَفْعِيَّةً في أغلبِ طوائِفِها، تدورُ على الانتهازيّةِ والافْتِراص.

ومِنَ المعلومِ أنَّ الوَسَطَ القَبَليَّ أصْلَحُ ما يكونُ لهذا الضَّرْبِ من التَّحَزُّبِ، وزادَ فيه التَّرَكُّبُ الأُمَميُّ الّذي أدّى إليه الفَتْحُ السَّريعُ. فلمْ تكنْ دولةُ العربِ في ذلكَ الحينِ بَسيطةً بلْ مُرَكَّبَةً تركيباً صِناعيّاً غيرَ مُحْكَمٍ. فكانَ ضَروريّاً أنْ تَتَوَلَّدَ فيها تيّاراتٌ مُخْتَلِفَةُ القُوَّةِ مُخْتَلِفَةُ العُنْفِ، تَلْعَبُ بالجماهيرِ وتَعْبَثُ بالقُوى العامَّةِ. وما مِنْ أُمَّةٍ قامتْ على أطْلالِ أُمَمٍ أُخْرى، إلّا وبَقِيَتْ مَمْلوءَةً بالانقساماتِ الدّاخليّةِ والتّقَلُّباتِ المُخْتَلِفَةِ، ولا تَنْقَضي حتّى تَسْتَقِرَّ الأخلاقُ النفسيّةُ الجديدة.

والمُلاحَظُ على هذه الحزبيّةِ الّتي نَتَحَدَّثُ عنها أنّها كانتْ تَنْدَفِعُ بِعَوامَلَ ثلاثةٍ:

الأوّل: القَبَلِيَّةُ وكانتْ على صِنْفَين:

أ ـ قَبَلِيَّةٌ خالِصَةٌ كالتّحَزُّبِ ضِدَّ قريشٍ والتحَزّبِ ضدَّ المَعَدِّيّة[1].

ب ـ قَبَلِيّةٌ نَفْعِيّةٌ كالتّحَزّبِ الأُمَوِيّ والتّحزّبِ القَحطانيّ الّذي حاربَه معاوِيةُ مُحارَبَةً قويّةً على ما يَظْهَر من خَبرٍ[2] ذكرَه البُخارِيُّ في صَحيحه.

الثاني: الشُّعوبيّةُ: ظَهَرَتْ هذه الحزبيّةُ نتيجةَ آنْحِلالِ عناصِرَ شَتّى وأُمَمٍ شَتّى، دَخَلَتْ في دَوْرِ تفاعُلٍ عنيفٍ ولمّا تَنْتَهِ إلى آتّحادٍ راسِخٍ يقومُ على مِزاجٍ عقليٍّ واحِدٍ وخُلُقٍ شَعْبيٍّ وسَطِيٍّ، أيْ يُمَثِّلُ الوسَطَ كصورةِ كثيرةِ الصِّدقِ، وهو ما يُعَبَّرُ عنه بالمِثالِ الوسَطِ في الأُمَمِ النّاضِجَةِ آجْتِماعيّاً أوِ المُكْتَمِلَةِ التّطوُّر.

إن العُنْصُرَ الّذي كان مَفْقوداً في دولةِ العربِ الفَتِيّةِ هو هذا الـخُلُقُ الشّعبيُّ الّذي يُقَرِّرُ مُستقبلَ[3] أيّةِ أُمّةٍ، وهو موجودٌ على الدّوامِ خَلْفَ العواملِ الّتي فرضَها النّاسُ سَبَباً لأعمالِهم.

فالتَّحَزُّبُ الشُّعوبيُّ في المُحيطِ العربيِّ كان مُنْفَعِلاً بهذا الامْتزاجِ السّريعِ، وأعْتَقِدُ بأنَّ الحِزْبَ الشُّعوبيَّ كان صَنيعَةً من صَنائِعِ الحِزْبِ الأُمَوِيِّ يُحرّكونَه في سبيلِ أغْراضِهم، وكانتْ شَخْصِيّاتُه آلاتٍ مُسَخَّرةً في أيديهم، وأبْعَدُ ما يكونُ عنِ الظّنِّ أنّهم كانوا يَشْتَغِلونَ

---

(١) ذَكَرَ آبْنُ قُتَيْبَةَ في الشعر والشعراء أنَّ عمرو بنَ مَعْدي كَرِب الزّبَيْدِيّ كان يَقُصُّ أقاصيصَ من أخبارِ فَتْكِهِ، فَقَصَّ على شُجاعٍ من شُجعانِ العَرَبِ، وهو لا يَعْرِفُه، أنّه غزا قومَه وبارَزَ الشّجاعَ الّذي كان يَتَحَدَّثُ إليه وقَتَلَ به فقالَ له مُحَدِّثُه ليَهْنِكَ يا أبا ثورٍ، إنَّ صَرِيعَكَ هو مُحدِّثُكَ فقال عَمرو بدونِ دَهْشَةٍ: إسْمَعْ يا هذا لِـما يُلْقَى عليك فإنّا بهذِه الأحاديثِ نُرْهِبُ هؤلاءِ المَعَدِّيَةَ. وكانَ تخطيطُ الكوفةِ تخطيطاً قَبَلِيّاً.

(٢) أخْرَجَ البخاري بِسَنَدِهِ أنّه بَلَغَ معاويةَ، وعندَه وَفْدٌ من قريشٍ، أنَّ آبْنَ عمرَ يُحَدِّثُ بأنّهُ سيكونَ مَلِكٌ من قَحطانَ، فَغَضِبَ فقامَ فأثْنَى على اللّهِ بِما هو أهْلُه ثُمّ قالَ: «أمّا بَعْدُ فإنّه بَلَغَني أنّ رِجالاً مِنْكُم يُحدِّثونَ أحاديثَ لَيْسَتْ في كتابِ اللّهِ ولا تُؤْثَرُ عَنْ رسولِ اللّهِ (ص) وأولئِك جُهّالُكُم فإيّاكُم والأمانِيَّ الّتي تُضِلُّ أهْلَها فإنّي سَمِعْتُ رسولَ اللّه (ص) يقولُ إنّ هذا الأمْرَ في قريشٍ لا يُعاديهم أحَدٌ إلاّ كَبَّهُ اللّهُ على وجهِهِ ما أقامُوا الّدينَ». راجِعْ: **صحيح البخاري**، ج ٩، ص ٦٢.

(٣) راجع كتاب: **سر تطور الأمم** لغوستاف لوبون، ص ٣٥.

على وَجْهِ الاسْتقلال. وهذا تَقْديرٌ وَقَعَ في خاطِرِ عُمَرَ (ض) فَحَذَّرَ من الموالي، لأنّهم سَرْعانَ ما يَنْقَلِبونَ آلةً في أيدي ذَوي الأغراضِ، وإلّا فَهُمْ على الانْفرادِ أضْعَفُ من أنْ يَحُوكوا المُؤامَراتِ. وهذا أمْرٌ نُشاهِدُ مثلَه اليومَ، فإنّ الفِدائيّينَ، أي «القِداوِيّة»، الّذين تَصْطَنِعُهم الأحزابُ لأغراضٍ إجراميّةٍ كبيرةٍ، إنّما يكونونَ عادةً من النُّفاةِ الغُرَباءِ الأفّاقِينَ. والمُشاهَدُ أنّهم لا يقومونَ بعَمَلٍ آسْتِقْلاليٍّ أبداً، وهذا من الوُجْهَةِ النّفسيّةِ صحيحٌ جدّاً. والموالي كانوا بهذِهِ المَثابَةِ، فما أسْرَعَ ما يُسْتَخْدَمُونَ بسبيلِ هذه الأغراضِ لِمُتَحَزِّبينَ ذَوي نُفوذ.

الثالث: المِثاليَّةُ الجديدةُ الّتي وَضَعَ النبيُّ (ص) أُسُسَها، وشَيَّدَ هَيْكَلَها الرّوحيَّ والاجْتماعيَّ. كان لها شَخْصيّاتٌ تُحافِظُ على مبادِئِها وتُحامي عنْ ذِمارِها وتَعْمَلُ بسبيلِ خِدْمَةِ أغْراضِها ونَشْرِ تعاليمِها، ومنْ هؤلاءِ عليٌّ وأبو ذرٍّ وأبو أيّوبَ الأنْصاريّ ورافعُ بنُ خديج وسائِرُ الطَّبقَةِ القديمةِ من المهاجرينَ والأنْصار.

وكان هؤلاءِ يُشَكِّلونَ حِزْباً مُحافِظاً مُتَقَيِّداً بالرُّسومِ والطَّرائِقِ النّبويَّةِ وأساليبِها السّياسيّة. وقدِ آهْتَمَّ بدراسةِ الأحْزابِ عددٌ من كبارِ المستشرقينَ أهَمُّهُم فانْ فلوتِنْ في كتابِه **السيادة العربيّة**، ونحنُ توسَّعْنا بهذا البَحْثِ بِناءً على مُلاحَظَةٍ عَرَضَتْ لنا في كتاب **سُمُوّ المعنى في سُمُوّ الذات**، جاء فيها: «إنّ الأحزابَ الّتي نَستطيعُ أن نُعَيِّنَها في ذلك العَهْدِ، والّتي كانتْ تَعْمَلُ مُتنازِعَةً هي: حزبُ عُثمانَ أو الحزبُ الأمَويُّ، وحزبُ طلحةَ ومن أكبرِ شخصيّاتِه عائِشَةُ، وحزبُ أبناءِ عُمَرَ ومن أكبرِ شخصيّاتِه أبو موسى الأشْعَريُّ، وحزبُ المُنْشَقِّينَ من بني أُمَيَّةَ ومن أكْبَرِ شخصيّاتِه عمرو بنُ العاصِ، وحزبُ عليٍّ (ع) أو الحزبُ المُحافظ»[٤].

ولاحَظْنا في الكتابِ المذكور أيضاً أنّ السَّببَ في آسْتِشْراءِ الحِزبيّةِ لعهدِ عُثمانَ هو

---

(٤) راجع: **سموّ المعنى في سموّ الذات**، ص ص ٣٦ - ٣٨.

حَصْرُ التّرشيحِ في عَدَدٍ من الأشخاصِ الذي آرْتآهُ عُمَرُ (ض). وهذهِ الأحزابُ أكْثَرُها وَليدٌ في عَهْدِ عُثمانَ. ونحن عُنينا بها هناكَ لأنّ قَصْدَنا كانَ مُنصرِفاً إلى تَأْريخ هذه الفَتْرَةِ من عهدِ الخلفاءِ الرّاشدين، بَيْدَ أنّنا إذا تَناوَلْنا العهدَ مجموعاً خَرَجَتْ لنا أحزابٌ أكْثَرُ عدداً وأكثرُ آختِلافاً في الغاياتِ والأغراضِ. وهذه الأحزابُ هي:

١ـ حزبُ الثلاثة: وهذا الحِزبُ مالَ إلى القَوْلِ بوُجودِهِ طائِفَةٌ كبيرةٌ مِنَ المُسْتِشرِقِينَ بينَهم الأبُ لامَنس، ودَرَسوا على ضَوْءِ هذا التّقديرِ كثيراً من المسائلِ كمسْألَةِ التّرشيحِ والانتخابِ. وفي رأْيِهِم أنّ هذا الحزبَ كانَ مؤلَّفاً من أبي بكرٍ وعُمَرَ وأبي عبيدةَ آبْنِ الجرّاحِ، وقد سبقَ تأليفُه وفاةَ النبيِّ (ص). والثّلاثةُ تعاقَدوا على أنَّه إذا تَمّتِ الخِلافةُ لأحَدِهِم نَقَلها مِنْ بَعْدِه إلى صاحِبَيْهِ. ويَسْتَنِدونَ فيه إلى أمورٍ ثلاثةٍ:

أوّلها: الجُهْدُ الجميعُ الذي بَذَلوه معاً في حركةِ الانْتخابِ، فقدْ كانوا مُتَضامِنينَ تضامُناً قويّاً كأنّه نتيجةُ خُطّةٍ سابِقةٍ آتّفَقوا عليْها.

ثانيها: تبادُلُهُمُ التّرشيحَ يومَ السّقيفةِ، فقدْ رشَّح أبو بكرٍ عمرَ أو أبا عبيدة وهما رشَّحاه.

ثالثها: لمّا سُئِلَ عمرُ رأيَه فيمَنْ يكونُ بعدَه قال: لوْ كان أبو عبيدَةَ حيّاً لَعَهِدْتُ إليه.

وهذه القَرائِنُ الثّلاثُ عندَهم تؤلِّفُ ما يُثير شُبْهَةً في أنّهم كانوا حِزْباً واحداً، ونحنُ لا نرى فيها ما يُساعِدُ على آعْتِمادِ هذا التّقديرِ.

٢ـ حزبُ الأُمَويّين: وهذا الحزبُ ذَهَبَ إلى أنّه قدْ كانَ عددٌ من كِبارِ المؤرِّخينَ، ونحنُ لا نَشُكُّ في وُجودِهِ أيضاً، ولعلّه أخطرُ حزبٍ آستطاعَ أنْ يُثيرَ الجماهيرَ ويَتَحَكَّمَ فيهِمْ ويُحْدِثَ القَلاقِلَ. وأهدافُهُ الّتي كان يَعْمَلُ لها مِنْ أخْطَرِ الأهدافِ، وهي تَتَناوَلُ الوَضْعَ السّياسيَّ والاجتماعيَّ مِنْ كلِّ الوُجوهِ، وأهمُّ نظريّاتِه حَصْرُ السُّلُطاتِ العُلْيا في أُسْرَةٍ، وتقريرُ

مَبْدَأُ المَلَكِيَّةِ المُطْلَقَةِ في السُّلْطةِ(٥) الأولى، ونظامُ(٦) الوِراثةِ، وتَسْليطُ العُنْصُرِ(٧) العربيِّ على الشّعوبِ، وفَرْضُ العربِ كطبقةٍ أرستقراطيّةٍ، وفرضُ نظامٍ(٨) إداريٍّ مُقْتَبَسٍ مَن النُّظُمِ الأَجْنَبِيّةِ، أيْ غَيْرِ مُشْتَقٍّ من طبيعةِ الحياةِ العربيّةِ والتّشريعِ الإسلاميِّ الجديدِ، وتحويرُ نِظامِ(٩) المالِ إلى ما يُؤَيِّدُ سلطتَهم عليهِ وإطلاقَ أيديهِم فيهِ، وفرضُ(١٠) الإقطاعِ، والقضاءُ(١١) على الطّبقةِ الدينيّةِ المرموقَةِ الّتي ساهمتْ في بناءِ الشّريعةِ لأنَّها كانت تَحُولُ بينَهم وبينَ أغراضِهم، وتَشميمُ المعنويّةِ الجديدةِ الّتي خَلَقَتْها الدِّيانةُ الجديدةُ، وتشجيعُ(١٢) المُجونِ والحياةِ اللّاهيةِ بكلِّ أشكالِها.

هذهِ هيَ أهْدافُهُمُ الرّئيسيّةُ، وكانوا يَعْمَلونَ لها سِرّاً في ظلِّ الحكوماتِ السّابقةِ لحكومةِ عُثمانَ، ويتوسّلُونَ إليها بأساليبَ تَجْمَعُ بينَ الإغْراءِ والإرْهابِ، وقدْ ساعَدَتْهُمُ الحَظْوَةُ الّتي رُزِقوها مِنَ الخلفاءِ على إعْدادِ الجُمهورِ، وكانَ نُفوذُهم يَمْتَدُّ حتّى يَطْغَى على أكْثرِ الأحزابِ ويَسْتَخْدِمُها في تَنْفيذِ رَغائِبه. وتاريخُ حَرَكاتِ هذا الحزبِ مُفيدٌ أيَّما فائِدةٍ، وطريفٌ أيَّما طَرافة.

نعلمُ أنَّ بينَ الأُسْرَتَيْنِ الهاشِميّةِ والأُمَويّةِ خِلافاً تاريخيّاً يَتّصِلُ بعهدٍ جاهليٍّ بعيدٍ، ثُمَّ

---

(٥) ظَهَرَ أنّه من أهدافِهم بالانقلابِ المَلَكِيِّ الّذي أحْدَثَه معاويةُ في أيامِ حكومتِهِ.

(٦) ظَهَرَ من قولِ أبي سُفيانَ حينَما تَوَلّى عثمانُ: «لَتَصيرَنَّ إلى أولادِكم وِراثَةً»، ومِنْ صَنيعِ معاويةَ حينَما عَهِدَ إلى ٱبْنِهِ.

(٧) ظَهَرَ هذا ظُهوراً واضِحاً في كُلِّ أيّامِ سيطرتِهِم وحُكْمِهم.

(٨) نَصّ التّاريخُ على أنّ عمرَ (ض) لَمّا وَرَدَ الشّامَ رَأى طلائِعَ هذا النّظامِ في حكومتِهِ فٱنْتَقَدَه.

(٩) يَدُلُّ على أنّه من أهدافِهِم ٱنْتِقادُ أبي ذرٍّ.

(١٠) يَدُلُّ عليهِ إقْطاعُ مروانَ في حكومةِ عثمانَ، وإقطاعُ عبدِاللّهِ بنِ أبي سَرْحٍ.

(١١) يَدُلُّ عليهِ حَرَكَةُ يَزيدَ في القَضاءِ على أهْلِ المدينةِ قَضاءً قاسِياً، وسمّى فانْ فلوتِنْ هذه الطّبَقَةَ حِزْبَ أهْلِ المدينةِ وقال المسعوديُّ: بعدَ حركةِ يَزيدَ لم يبقَ بَدْرِيٌّ. راجع كتاب: **سمو المعنى في سمو الذات**، ص ص ٢٦ ـ ٢٧.

(١٢) دَلَّ عليهِ تغاضِيهِمْ عن أغانِيثِ عُمَرَ ٱبْنِ أبي ربيعةَ ولَفيفِهِ الإباحيّةِ. **المصدر نفسه**، ص ص ٢٧ ـ ٢٨.

أخذَ شكْلاً أكثرَ عُنفاً بعدَ الدَّعوةِ الإسلاميّةِ الّتي ظَهَرَ بها الرّسولُ الهاشميُّ، فَجَهِدَ الأُمويّونَ بوضعِ الصِّعابِ حَيلولَةً عن نَجاحِها. بَيْدَ أنَّ صاحبَ الرِّسالةِ شَقَّ طريقَه بينَ الجلامِدِ والصُّخورِ مُتغَلِّباً على كافّةِ الحواجزِ المُعْتَرِضةِ، ناجحاً في آطِّرادٍ مُمْهودٍ. وبذلكَ غَدَوْا فِئَةً مُسْتَضْعَفَةً عديمةَ القيمةِ ثُمَّ لا وزنَ لها سِياسيّاً، فَعَمَدوا إلى العملِ سِرّاً لكي يَسْتَعيدوا مجدَهم المفقودَ ومكانَتَهم الضّائعةَ في ظِلِّ الحُكومةِ الإسلاميّةِ.

وكانتِ الحركةُ الانتِخابيّةُ أوَّلَ مُناسبةٍ آستَغَلّوها، فَتَحَرّكَ أبو سُفيانَ ـ زعيمُ الحزبِ الأُمويِّ السرّيِّ في الإسلامِ، كما كانَ زعيمَ الحزبِ المُعْلَنِ قبلَ فَتْحِ مكّةَ ـ للعملِ في حَماسٍ ونشاطٍ، مُسْتَغِلّاً العناصرَ غيرَ الرّاضيةِ عن نتائجِ الانتخابِ، ولكنّه فَشِلَ فَشَلاً ذريعاً لمّا آكْتَشَفَ عليٌّ (ع) دَسيسَتَه. على أنّ الحزبَ آستفادَ من هذه المناسبةِ الانتخابيّةِ شَيْئَيْنِ:

١ـ ثُبوتُ الخلافةِ في قُريشٍ.

٢ـ إبعادُ الهاشميّينَ عن الحُكمِ. وهم لا يَحْسُبونَ حِساباً لغيْرِهِم مِنْ سائِرِ الأُسَرِ القُرَشِيّةِ، فآعْتَقَدوا بأنَّ مَصيرَ الحُكمِ لهمْ إنْ قريباً أوْ بعيداً. وهذا ما يَشْهَدُ به قولُ أبي سُفيانَ، بعدَ فوزِ عثمانَ بالخلافةِ: «فوالّذي يَحْلِفُ بهِ أبو سُفيانَ ما زِلْتُ أرْجوها لكم».

ولِنَعْلَمَ مِقدارَ نُفوذِهم النَّفْسيِّ العميقِ على غَيْرِهم مِنْ قريشٍ، نَذْكُرُ قِصّةً أوْرَدَها المَسْعوديُّ، قال:

«بلغَ أبا بكرٍ (ض) عَنْ أبي سُفيانَ صَخْرِ بنِ حَرْبٍ أمْرٌ فأحْضَرَه وأقبلَ يصيحُ عليهِ، وأبو سفيانَ يَتَمَلَّقُهُ ويتَذَلَّلُ له، وأقْبَلَ أبو قُحافَةَ فَسَمِعَ صِياحَ أبي بكرٍ، فقالَ لقائدِه: على مَنْ يصيحُ آبْني، فقالَ له: على أبي سفيانَ. فدنا من أبي بكرٍ وقال له: أعلى أبي سُفيانَ تَرْفَعُ صوتَك يا عتيق؟... لقد تعَدَّيْتَ طَوْرَكَ وجُزْتَ مِقْدارَك. فَتَبَسَّمَ أبو بكرٍ ومَنْ حَضَرَه مِنَ المهاجرينَ والأنصارِ، وقالَ له: يا أبَتِ إنَّ اللّهَ قد رَفَعَ بالإسلامِ قَوْماً وأذلَّ به آخرَين»[١٣].

(١٣) راجع: مروج الذهب بهامش نفح الطيب، ج ٢، ص ٢١٩.

وهذه القِصّةُ لا تحْتاجُ إلى تعليقٍ فيما يَخْتَصُّ بمَدَى سُلْطَتِهم على قريشٍ ومَبْلَغِ نُفوذِهم، وفي دَهْشَةِ أبي قُحافةَ وجَوابِ أبي بكرٍ دليلٌ على ذلكَ. فالذِّلَّةُ الّتي لحِقَتْهم ـ كما يقولُ أبو بكرٍ ـ والمفروضُ فيهم أنّهم الأعِزَّةُ، حَمَلَتْهم حَمْلاً عنيفاً على السَّعْيِ الحثيثِ للاسْتِحواذِ على السُّلْطةِ بأيِّ ثَمَنٍ، وآسْتِردادِ عِزّتِهم المَدْحورَةِ. ويَظْهَرُ أنّ الفَشَلَ جَعَلَهُمْ يُغَيِّرونَ أُسلوبَ العملِ، فَعَمَدوا إلى تملُّقِ الخلفاءِ وإظْهارِ الرَّغبةِ في الخِدمةِ الإداريّةِ بإخلاصٍ، فأكثرَ أبو بكرٍ وعمرُ من تعيينِهم في شتّى المراكزِ. وبذلك آنفَسَحَ أمامَهم سبيلُ العملِ ضرورةَ أنّ السُّلطةَ الإقليميّةَ أصْبَحَتْ في أيْديهِم، فَهُمْ يُصَرِّفونَها على الشَّكْلِ الّذي يُلائِمُ مصالِحَهُمْ ويَخْدُمُها. فكانتْ وسائِلُهم كثيرةً ومَعِينُ أفكارِهم لا يَنْضُبُ، فتارَةً يَسْتَخْدِمونَ نُفوذَ الحكومةِ، وتارةً يَميلونَ إلى الإغْراءِ والإطْماعِ. وقدْ دَلَّلْتُ في فَصْلِ القَبَليّةِ مِنْ هذا الكتابِ على أُسْلوبٍ من جُملةِ الأساليبِ الكَثيرةِ الّتي كانوا يَعْتَمِدونَ عليْها في تقويةِ حَرَكَتِهم، لمّا ذَكَرْتُ أنّ أكثريّةَ الوُلاةِ كانتْ منْهم، وكانَ من خُطّةِ الحزبِ الأُمَويِّ أنْ يُشَجِّعَ العَصَبيّاتِ ويَزيدَ في أُوارِها. فإنّ كلَّ حركةٍ من هذا القبيلِ تُضْعِفُ التّحزُّبَ السِّياسيَّ ضدَّ قريشٍ، وهمْ يَنْزِلونَ من قريشٍ مَنْزِلَةَ الزُّعماءِ. وهذه وَسيلةٌ سَلْبيّةٌ هامّةٌ، ولهم وسائِلُ إيجابيةٌ كثيرةٌ منْها، أو أهَمُّها، الرَّغْبَةُ في الإدارة الإقليميّةِ وقيادةِ الجيوشِ، ولقدْ تَمَّ لهم من ذلك شيءٌ غيرُ قليلٍ.

ولمْ تَزَلِ الأيّامُ تُؤاتيهِمْ وتَجْري وَفْقَ أهْوائِهم حتّى أواخرِ عَهْدِ عمرَ (ض)، فقدْ بَدَأَ يميلُ إلى بني هاشِمٍ مَيْلاً ما وعلى نحوٍ ما، فهو يَتَوَسَّلُ حينَ الجَدْبِ بالعبّاسِ، ويُقَرِّبُ آبْنَه عبدَاللّهِ، ويُشيدُ بسابقاتِ عليٍّ (ع) في الإسلامِ، ويَقْتَرِنُ بآبْنَتِهِ أمِّ كُلْثومٍ في أُخْرَياتِ أيامِهِ، ويُفْضِي إلى عبدِاللّهِ بنِ عباسٍ بأشياءَ كثيرةٍ عنِ الخلافةِ، وأنّهم، أيْ آلَ هاشِمٍ[١٤]، أحَقُّ

(١٤) راجع: **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص ص ٣٠ ـ ٣١.

بهذا الأمرِ، وميلُ عمرَ هذا يُذَكِّرنا بميْلِ المأمونِ الّذي حَمَلَه على العَهْدِ لعليٍّ الرّضا.

وقد تأكّدَ الأمويّونَ، وهمُ السّاهِرونَ على قضيّتِهم، بأنّ عمرَ لا بُدَّ صائِرٌ إلى تَرْشيح زعيمِ الهاشميّينَ عليٍّ للسّلطانِ الأعْلى، وبذلكَ يَنْهارُ حَجَرُ الأساسِ من بِنائِهم، فَفَكَّروا كثيراً ثُمَّ أجْمعوا أمْرَهم على شَأْنٍ رَهيبٍ، وهو في أغْلبِ ظنّي آغْتِيالُ عُمَرَ قَبْلَ أنْ يُعْلِنَ شيئاً ممّا يدورُ بِخَلَدِه. وقلتُ، منذُ حينٍ، بأنّ الشُّعوبيّينَ كانوا يُسْتَخْدَمُونَ لمَآرِبِ الأحزابِ الكبيرةِ، وكانَ الحزبُ الأُمَويُّ أقوى الأحزابِ القائمةِ وأمْلَكَهُم لوسائِلِ الإغراءِ، فضمَّ إليهِ، كأدَواتٍ مُنَفِّذَةٍ، أبا لؤلؤةَ وجُفَيْنَةَ وكعْبَ الأحبارِ وسِواهم، وكانَ لِكُلٍّ واحدٍ من هؤلاءِ دَوْرٌ خاصٌّ يقومُ به.

ثُمّ عَمَدوا إلى الاسْتِفادةِ من الظّرْفِ الجديدِ الذي خَلَقوه لعمرَ، فَدَسُّوا له عَبْدَ الرّحمنِ بنَ عَوْفٍ بعدَ الاعْتداءِ فكانَ لا يُفارِقُه تَقْريباً، ولا نَدْري لماذا، إنْ لمْ يَكُنْ لذلك. وعندي أنَّ عبدَ الرحمنِ كانَ في نَظَرِ عمرَ مُفكِّراً ألْمَعِيّاً، فهو بهذا الاعتقادِ، ولأنّه صَريعٌ مَنْزوفٌ لا يَمْلِكُ كاملَ قُوَّتِه، يَسْتطيعُ أنْ يُؤَثِّرَ عليه وأنْ يُوَجِّهَ أفكارَه كيفَ شاءَ، وقدْ ظَهَرَ صِدْقُ هذا التّقديرِ فيما ذكَرَه[١٥] الطَبَريُّ منْ أنَّ عمرَ حينَما سُئِل رأْيَه فيمَنْ يكونُ وليَّ الأمْرِ منْ بعدِهِ، لم يَتَرَدّدْ في ترشيحِ عليٍّ «وما عَتَّمَ الأمْرُ حتّى آشْتَبِهَتْ عليه وُجوهُ الرّأيِ مُدّةً» ثُمَّ جَعَلها في السّتّةِ المعْروفينَ. لا شَكَّ في أنّ تَصْريحَه الجازِمَ أوّلاً، وتَرَدُّدَهُ ثانياً، والعَهْدَ أخيراً لهؤلاءِ السّتّةِ، يَدُلّنا على مِقْدارِ ما عَراه من وَهَنٍ في المجموعِ العصبيِّ، نتيجةً للنّزيفِ الدَّمَوِيِّ الهائلِ، فلمْ يَعدْ، رحِمَه اللّهُ، صاحبَ تلكَ الإرادةِ الحديديّةِ الصّارِمَةِ بلِ آنْقَلَبَ لَيِّنَ العَريكَةِ سهلَ القِيادِ والتّأْثيرِ عليه، وسادِراً يُفَكِّرُ بما يُوحى إليه، وهذا التّقديرُ صحيحٌ فيزيولوجيّاً، وقدْ نَزَفَ دَمُه الزَّكِيُّ. إنّ عمرَ الحازمَ العظيمَ والمُفَكِّرَ العميقَ ما كانَ

---

(١٥) المرجع نفسه، ص ٣٤.

لِيُعْطِيَ هذا الرَّأْيَ الواهِنَ لو كانَ بكامِلِ أعْصابِهِ وقُواه.

وأوّلُ ما عَرَضَ لي هذا الرَّأْيُ في **سموّ المعنى في سموّ الذّات**[١٦]، فقد قُلْتُ هناك: «إذا عَرَفْنا أنّ المُغيرةَ بْنَ شعبةَ كان أشَدَّ ما يكونُ إخلاصاً لهذا البَيْتِ الأُمَويِّ وتَعَلُّقاً به ونِفاقاً على غَيْرِه - وعلائِقُ الثَّقَفِيِّينَ ببَني أُمَيّةَ وطيدةٌ - وعَرَفْنا أنّ أبا لُؤلُؤةَ كان غُلاماً للمُغيرةِ بْنِ شُعْبَةَ، وعَرَفْنا أنّ هناك حِزْباً أُمَوِيّاً يَعْمَلُ له المغيرةُ، خَرَجَت لنا قَضِيّةٌ مُتَرَتِّبةُ الحَلَقاتِ، مُتَوالِيةُ الوقائِعِ على نَسَقٍ طبيعيٍّ واضِحٍ. ومنْ ثمَّ يَظْهَرُ أنّ اغْتِيالَ عمرَ لم يكنْ بفكرةٍ فارسيّةٍ أبَداً، وإنّما كان وليدَ فِكرةٍ مَوْضِعِيّةٍ خالِصَةٍ، وأُمَوِيّةٍ بَحْتَةٍ. وإذا لم يَكُنْ هذا التّقْديرُ صَحيحاً، فلِماذا اجتَهَدَ المُغيرةُ بإدْخالِ هذا الفارسيِّ المدينةَ مَعَ عِلْمِهِ بمَنْعِ عمرَ مِن ذلك؟ وبماذا نُفَسِّرَ هذه المُصادَفَةَ في أنْ يكونَ قاتِلُ عُمَرَ هو غُلامَ المغيرةِ الّذي كانَ أُمَويَّ الرّأْيِ والهَوَى.

فهذا الاغْتيالُ أحْدَثَ بَلْبَلَةً كبيرةً في الأفكارِ، وهَيَّأَ المجتمعَ لِنُقْلَةٍ جديدةٍ، وقدْ ظَهَرَتْ في سماءِ المجتمعِ برامجُ لا عَهْدَ للعَرَبِ بها، أدَّتْ إلى زيادةِ التَّبَلْبُلِ الفِكْرِيِّ، من مِثْلِ حَصْرِ السُّلْطاتِ العُلْيا في أُسْرةٍ أو قبيلةٍ، هذه الفكرةُ الّتي رَوَّجَ لها الحزبُ الأُمَويُّ وعَمِلَ على نَشْرِها وتَعَصَّبَ لها، ثمَّ لمْ يُعْرَفْ حديثُ «الإمامة في قريش» إلّا عن طريقِهم وهمْ رُواتُه. وكانَ ردُّ الفِعلِ على التّمهيدِ لنظريّتِهم، ظُهورَ نظريّةِ الخوارِجِ وأنّها لعامّةِ العربِ أو لعامّةِ المسلمينَ. فنظريّةُ الخوارجِ ردُّ فِعْلٍ قويٍّ للنَّظريّة الأمويّةِ الّتي جَنَحوا إلى تطبيقِها بصورةٍ غيرِ لَبِقةٍ، أيْقَظَتْ عَنْعَناتِ العربِ الآخرينَ، فإنَّ المعروفَ عنِ الخوارِجِ أنَّ أكثرَهم مِنْ غَيْرِ الحِجازيّينَ، وزادَ في عَنْعَنَتِهِمْ حَصْرُ الصّلاحيّةِ في أُسْرَةٍ ثمّ الوِراثةُ المَلَكِيّة.

فالانتقالُ مِنَ الدّيمقراطيّةِ الّتي هي طبيعةٌ عربيّةٌ تَتَّصِلُ بأسبابِ النَّفْسِ والمِزاجِ العَقْليِّ،

---

(١٦) راجع: **سموّ المعنى في سموّ الذات**، ص ص ٣٢ - ٣٤.

إلى الأرستقراطيّةِ فالمَلَكِيَّةِ الوراثيّةِ، أيْقَظَ المجتمعَ وأعَدَّه لِثَوْراتٍ مُتواصلةٍ يَسْجُرُ نَفْسَه في أتونِها. إذاً فقدْ كان في عَهْدِ عُثمانَ نظريّتانِ تَتَحاربانِ بدونِ هَوادَةٍ ولا هُدْنَةٍ أوِ آسْتِجْمامٍ: النّظريّةُ الأمويّةُ والنّظريّةُ الجُمهوريّةُ وأشْياعُها جُمهورُ العربِ، وآحْتَكّتا كثيراً حتّى تَوَلّدَ، من الاحتكاكِ الشّديدِ والتّماسِّ العنيفِ، شرارةٌ آتّصَلَتْ بالمجتمعِ من أقطارِه.

والّذي يَدُلُّ على أنّ الحزبَ الأُمويَّ كانَ يَعْمَلُ لأهْدافٍ ثابتَةٍ، تَغَيُّرُ السّياسةِ دُفْعَةً واحِدةً، ومن أساسِها أيضاً في عهدِ عثمانَ الّذي تَرَكَ لهم سِياسةَ الأمورِ العامّةِ، وأطْلَقَ أيْدِيَهم في كُلِّ المُقدَّراتِ. ولكنّ الشّعبَ بَدَأَ يَسْتَيْقِظُ ويَسْتَفيقُ على أعمالِهم من سُباتِه العميقِ، فَرَأى آفتِئاتاً على حُقوقِهِ، ورأى آنْتِهاباً وآغْتِصاباً في كُلِّ المرافقِ، ولَمَسَ الفَسادَ يَدُبُّ في طُرُقِ الإجراءِ والإدارةِ وشَعَرَ بالحاجةِ المُلِحَّةِ إلى الإصلاحِ، فمضى مُعْلِناً الثّورةَ، ودقَّ النّاقوسَ الشّعبيَّ الأقْدَس.

ولم يجدْ بَعْدَ زَوْبَعَتِه مُصْلِحاً يَنْسَجِمُ معَ مُيولِه إلّا عَلِياً، فَتَرامَى الشَّعْبُ في أحضانِهِ، وسَقَطَ بكَلْكَلِهِ عليْه.

فالحِزبُ الأُمويُّ كان يعملُ بِوَحْيٍ خاصٍّ ولمآربَ خاصّةٍ على مَنْهَجٍ مُقَرَّرٍ، وبِرُغْمِ الظُّروفِ المُخْتَلِفَةِ الّتي غَمَرَتْه نَجِدُ لحركاتِه طابَعاً خاصّاً لا يَتَغَيَّرُ، فعهدُ مُعاويةَ كَعَهْدِ عُثمانَ في الجوْهرِ السّياسيِّ عندَ التّدْقيقِ والعُمْقِ، وميزَةُ عَهْدِ عثمانَ أنّه كانَ أكْثَرَ آتّصالاً بالرّأيِ الشّعبيِّ في السّياسةِ العامّةِ، وذلكَ بِسَبَبِ أنّه كانَ التّجْرِبَةَ الأُولى منْ تَجْرِباتِ الحزبِ، وأنّه نُقْلَةٌ بينَ عَهْدَينِ. ثُمّ تَسَنّى للحزبِ في الدَّوْرِ الثّاني، أيْ في عَهْدِ معاويةَ، أنْ يَحْكُمَ بصورةٍ مباشَرَةٍ، وأنْ يُعَطِّلَ الصّلاحِيّاتِ الشّعبيّةَ ويُكمِّمَ الحرّيّاتِ، ويَتَحَلَّلَ مِنْ كُلِّ مَسْؤوليّةٍ أمامَ الشَّعبِ، ولم يعدْ يَعْتَرِفُ بالرّقابَةِ الشّعبيةِ على أيّةِ أشكالِها.

هذا هو الحزبُ الأُمَويُّ السّرِّيُّ بأشكالِه وأهدافِه بالقَدْرِ الّذي وَضَحَ لي، وعَسى أنْ يَجِدَ المؤرّخونَ ما يَجْعَلُهم أقْدَرَ على تَشْخيصِه. وهذا الحزبُ تَسَمّى بأسْماءٍ مُختلفةٍ بِحَسَبِ

الظُّروفِ، فكانَ أوّلاً القُرَشِيَّ[١٧] لأنّه نَصَّبَ نفسَه مُدافِعاً عن قضيةِ قُريشٍ، ثُمَّ العثمانيَّ لأنّه قامَ دِفاعاً عن الدّمِ المطْلولِ، ثُمَّ الأُمويَّ وقد تَكَشَّفَ مِنْ أسْتارِهِ في عَهْدِ مُعاوية.

٣ـ حزب الشعب: كانَ يَجْمَعُ جُمهورَ العربِ الّذي أحَسَّ بعَدَمِ صلاحِيّةِ الوضْعِ الرّاهنِ للمجتمعِ، وأنَّ الإصْلاحَ يجبُ أنْ يَمَسَّ كُلَّ شيءٍ، مُتناوِلاً الأساسَ أيضاً. شَعَرَ هؤلاءِ بأنّ الهيئةَ الحاكِمَةَ الّتي فُرِضَتْ عليهم فَوضاً لـم تَعُدْ تُطاقُ، وأنَّ ضَغْطَها آخِذٌ في الزِّيادَةِ فَقرّروا الثّورةَ، بعدَ أنْ وَجَدُوا أنْ لا مَذْهَبَ عنْها ولا مَحِيدَ، وأنّها العِلاجُ الوحيدُ لطُغْيانِ المُنْتَدَبِينَ للحُكمِ الّذين لم يَفْهَموا حقيقَةَ تمثيلِهم.

والحكومةُ الجُمهوريّةُ، إذا تجاوَزَتْ في فَهْمِ صلاحيّاتِها، أو بعبارَةٍ أصَحَّ إذا فسَدَتْ، كانَتْ نَكْبةً أشَدَّ مِنَ النَّكْبةِ بالمَلِكِ المستَبِدِّ أو الدّيكتاتورِ الحاكِمِ بأمْرِهِ ـ كما يقولُ جون ستيوارْت ميل في كتاب **الحريّة** ـ لأنَّ الوضْعَ في رأيِهِ لم يَخْرُجْ عنِ آسْتِبدادِ الفردِ إلّا إلى آسْتِبدادِ الجماعةِ الّذي هو أشَدُّ هَوْلاً.

وقد وُفِّقَ الشّعبُ المُضطَرِمُ إلى مُعَلّمٍ ثَوْرِيٍّ هو، كما أُقَدِّرُ ويَظْهَرُ للوَهْلَةِ الأُولى، عبدُاللّه بنُ سبأ، فصاغَ مَطالِبَ الإصلاح بأُسْلوبٍ موجَزٍ مُغْرٍ، يَجْعَلُها قمينَةً بسرعةِ الانتشارِ. وكانَ أكبرَ شَخْصِيّاتِ الحِزْبِ الشّعبيِّ في الشّامِ أبو ذرٍّ الغفاريُّ (ض)، وفي العِراقِ الأشْتَرُ النَّخعيُّ، وفي مِصْرَ محمدُ بنُ أبي حُذَيْفَةَ ومحمدُ بنُ أبي بكرٍ. وهذا الحزبُ يُمَثِّلُ المُعارَضَةَ المُتَطَرِّفَةَ. ونحنُ إذا أطْلَقْنا عليه كلمةَ حزبٍ فبِتَجَوُّزٍ وتَوَسُّعٍ، وإلّا فالحزبُ بالمعْنى المعروفِ لنا اليومَ لمْ يكنْ صِفَةً إلّا للحزبِ الأُمويِّ خاصّة.

٤ـ حزبُ عليٍّ (ع) أو الحزبُ المُحافِظ: كان هذا الحزبُ يَضُمُّ إليه أكثرَ ذَوِي السّابقةِ في الإسلامِ، ويقومُ على مبادِىءِ المَثَلِ الأعْلى الّذي فَرَضَه الدِّينُ الجديدُ. ومُهِمَّتُه

---

(١٧) أدْرَكَ عليٌّ (ع) الغَرضَ المقصودَ وراءَ هذه التّسميةِ الّتي كانت تَعْني الأُمويّةَ، فحاربَها كثيراً، ونَهْجُ البلاغَةِ مليءٌ بذلك.

إرشادُ الحُكومةِ وتَسْديدُ خُطُواتِها حتّى لا يَسْتَعْجِلَ بها الظَّرفُ ويَتأزَّمَ عليها. وبذلك كانَ يعملُ في حُدودِ المُعارضةِ المُعْتَدِلَةِ، ويقومُ بدَوْرِ الرَّقيبِ على تصرُّفاتِ الحكومةِ ودورِ الكَفيلِ لمصالِحِ الشَّعْبِ في حُدود المَنْهَجِ الإسْلاميِّ القَويم. وكانَ في الوقتِ نَفْسِه يَعْطِفُ على الحِزْبِ الشّعبيِّ المُتطرّفِ ويَكْبَحُ جِماحَه. ولم يَفْتَأْ حزبُ المحافظينَ عنْ تَصْحيحِ أساليبِ الحُكْمِ المُتَّبَعَةِ، والعملِ على إبقاءِ الصِّلةِ بينَ الهَيْئَةِ الحاكِمةِ والهَيْئَةِ الشّعبيّةِ جُهْدَهُ، فكانَ أحياناً، وفي بعضِ المُناسباتِ، ضامناً أمامَ الشّعبِ الهائِجِ للهيئةِ الحكوميّةِ لِيُخَفِّفَ من حِدّتِهِ وغُلَوائِه. وقدْ قُلْتُ في **سُموّ المعنى في سُموّ الذّات**، «لولا وُجودُ عليٍّ (ع) في خلافةِ عُثمانَ لانْهارَتْ من أوّلِ عاصفةٍ، ولكنّ علياً كانَ دِعامتَها وسنَدَها المتينَ»[١٨]. وإليكَ هذه القِصَّةَ الّتي ذَكَرَها المسعوديُّ، قال: «لمّا جاءَتْ جُموعُ الأمصارِ إلى المدينةِ وأُخْبِرَ بهمْ عُثمانُ بَعثَ إلى عليِّ بنِ أبي طالبٍ، فأَحْضَرَهُ وسألَه أنْ يَخْرُجَ إليهم ويَضْمَنَ لهم عنهُ كلَّ ما يُريدونَ من العَدْلِ وحُسْنِ السّيرَةِ، فسارَ عليٌّ إليهم، فكانَ بينَهم خَطْبٌ طويلٌ فأجابوهُ إلى ما أرادَ وانْصَرفوا».

نَعْلَمُ من هذا أنّ حزبَ عليٍّ (ع) كانَ يقومُ بالنُّصْحِ والإرْشادِ والتَّوَسُّطِ أحياناً لحلِّ المشاكِلِ الدّاهِمَةِ أو المُفاجِئَةِ. والّذي كانَ يَبعَثُ الشّعبيّينَ على الاطْمِئنانِ إلى شخصيّاتِ هذا الحزبِ، أنَّهُمْ يُمَثِّلونَ العَهْدَ الذّهَبيَّ للإسلامِ، أي عَهْدَ النبيِّ (ص)، ولأنَّ على رأسِهم أكْبَرَ قانونيٍّ ومُشْتَرِعٍ، يَسْتَطيعُ أنْ يعبّرَ عن أمانيِّهم ويُوَجِّهَ الهَيْئَةَ الحاكِمَةَ إليها. ولكنَّ تَطَرُّفَ هذه الهيئةِ نُتِجَ عنه تَطَرُّفُ الهيئةِ الشعبيّةِ أيضاً ودَخَلَها اليأسُ من صَلاحِها، ووَقَعتِ الثّورةُ الّتي لم يَعُدْ مِنْها مَناصٌ، وتَخَطّى الشّعبُ الحزبَ المُحافِظَ الّذي يَحْتَرِمُه وعَمِلَ بنفسِهِ.

---

(١٨) راجع كتاب: **سموّ المعنى في سموّ الذات**، ص ٣٨.

وكانَ مِنْ أكبرِ شَخْصِيّاتِ حزبِ المحافظِينَ عليٌّ (ع)، وأبو أيُّوبِ الأنصاريُّ وعبدُاللّهِ بنُ عبّاسٍ، وعمّارُ بنُ ياسرٍ، والمِقْدادُ بنُ الأسود.

٥ـ الحزب الشُّعوبيّ: هذا الحزبُ كان يَضُمُّ المَوْتُورينَ من ذَوِي الحكوماتِ المُنْقَرِضَةِ والأُمَمِ المُنْحَلَّةِ. وَهُمْ يَعْمَلونَ بينَ الضَّغينَةِ والمِزاجِ العَقْليِّ المَوْرُوثِ على تَسْميمِ مُجْتَمَعِ العربِ، وبالفِعْلِ ظَهَرَ تأثيرُهم الكبيرُ على أفْئِدةِ العَربِ الغَضَّةِ، وعَمِلَ عَمَلَهُ الخطيرَ بينَهم. غيرَ أنَّ مَدَى حَرَكَتِهم لم يكنْ يَعْدو نَفْثَ الأفكارِ المُفَرِّقَةِ والتعاليمِ المُؤَجِّجَةِ، أوْ أنْ يُسْتَخْدَموا كأدواتٍ هَدّامةٍ[١٩] في أيْدي الأحزابِ القَوِيَّةِ. ومثلُهم في مُجْتَمَعِنا اليومَ كمثَلِ الأقلّيّاتِ المأجورَةِ المُسَمَّمَةِ التي تَكونُ باباً إلى الأُمّةِ النّاهضَةِ المتماسِكةِ، وهذه الأقلّيّاتُ الّتي لا تَنْسَجِمُ معَ الأُمّةِ في مِزاجِها العقليِّ وروحِها الشَّعبيّةِ أوِ المِلّيّةِ، كما يُعَبِّرُ لوبون، ثمّ لا تُشارِكُها في شيءٍ من وِراثاتِها، لا تكونُ سِوى مَعاوِلَ للتَّخْريبِ، فيها من مَعْنى التّخْريبِ، وفيها من قُوّةِ المِعْوَلِ.

وكانَتِ الأقلّيّةُ في المجتمَعِ الإسلاميِّ الأوّلِ هي البقيّةَ المنهوكةَ من كُلِّ أُمَّةٍ أطاحَها الإسلامُ وَهَوى بها. ويَعْرِفُ التّاريخُ من شَخْصيّاتِ هذا الحزبِ أبا لؤلؤَةَ وجُفَيْنَةَ وكعبَ الأحْبارِ والهُرْمُزانَ، لأنّهم آقْتَرنوا آقْتِراناً وثيقاً بحادِثِ الاغتيالِ الفظيعِ.

٦ـ حزب أهل المدينة: هذا الحزبُ أكَّدَ وُجودَه المستشرقُ ڤان فلوتِن في كتابِهِ **السيادة العربيّة**، قال: «والمُنْتَمونَ إليه يَعْتَبِرونَ أنّ وُصولَ بني أُمَيَّةَ إلى الحُكمِ، معناهُ آنْتِصارُ

---

(١٩) للمرحومِ حافظ بك إبراهيم الشّاعر المصريِّ الكبيرِ أبياتٌ جميلةٌ حكيمةٌ في هذا المعنى ضَمَّنَها قصيدتَه العُمَرِيَّةَ وهي:

والله ما غالَها قِدماً وكادَ لها ... وآجتَثَّ دَوْحَتَها إلّا مَواليها

لَوْ أنّها في صميمِ العُرْبِ قد بَقِيَتْ ... لَما نَعاها على الأيّامِ ناعِيها

يا لَيْتَهُم سَمِعُوا ما قالَهُ عُمَرٌ ... والرُّوحُ قَدْ بَلَغَت مِنْهُ تراقِيها

لا تُكْثِروا مِنْ مَواليكُم فَإنَّ لَهُم ... مَطامِعاً بَسَماتُ الضَّعفِ تُخْفيها

أعدائِهم القُدامى من مُشْركي مَكّة».

ونحنُ لا نَسْتَبْعِدُ وُجودَ حزبٍ له هذا الطّابَعُ وهذه المِسْحَةُ، بلْ لدَيْنا شواهِدُ تاريخيّةٌ تُشَجِّعُ على المُضِيِّ في آعْتمادِ الرّأْيِ المذْكورِ. وكانَ، كما يَظْهَرُ، يَعْمَلُ ضِدَّ الحزبِ الأُمَويِّ بالذّاتِ، ويُقاوِمُه مُقاومةً عنيفةً، ويُسيءُ به الظّنَّ. والّذي جعلَ أهْلَ المدينةِ يَنْشَطونَ لصِراعِ الأُمَويّةِ تَعَلُّقُ هؤلاءِ بالدَّعْوَةِ لقضيّةِ قريشٍ تعلُّقاً مُفرِطاً مِمّا أحْرجَهم وجَعَلَهُمْ يَتَمَلْمَلونَ، وبذلكَ نَظُنُّ بأنّه قَدْ كان للغِلابِ التّاريخيِّ القديمِ بينَ مكّةَ، بِرَمْزِ الأُمَويّةِ، والمدينةِ، عَوْدَةٌ مرّةً أُخْرى، وبالأخَصِّ حينَما نافَسُوهم على المدينةِ مَوْطِنِهم العتيقِ.

على أنَّ الشّبابَ في المدينةِ، وهُم النّاشِئَةُ الجديدةُ كانوا أكْثَرَ[٢٠] نَزَقاً وآنْدِفاعاً، ولهم أيضاً تفكيرُهُم الخاصُّ في الخِلافةِ وما يَتْبَعُها من الشُّؤونِ السّياسيّةِ، كما وَجَدُوا أنّ الضّمانَ الذي قَطَعَهُ الخليفةُ الأوّلُ لهم، بأنّهم الوُزراءُ، لم تَسْعَ حكومةٌ إلى تَحْقيقِهِ فَتَحَمَّسوا ولَجُّوا في الحَماسِ وخُصوصاً في أواخرِ عهدِ عثمانَ، وآتّصَلَ إلى عهدِ يزيدَ. وهذا كشابٌّ بالغِ النَّزَقِ ومُضْغِنٍ ذي إحْنَةٍ وتِراتٍ جرَّبَ أنْ يَضْرِبَهم ضربَةً حاسِمَةً قاسِيةً.

وكانت للأُمويّينَ سِياسةٌ خاصّةٌ نحوَ المدينةِ تقوم على:

أوّلاً: تَسْميمُ المَعْنَويّةِ المثاليّةِ فيهم، وبذلكَ يَسْقُطُ مكانُهم الأدبيُّ في النّظرِ الإسلاميِّ العامّ فَشَجَّعوا المُجونَ[٢١] وآستأْجروا طوائفَ من الشّعراءِ والمُخَنَّثينَ لينْشُروا حياةً تَقْرُبُ في ألوانِها مِنَ الإباحِيّةِ.

ثانياً: أخْذُهم بالعُنفِ دائماً، فَوَلَّوْا أمراءَ آضْطُهادِيّين.

ثالثاً: تخصيصُ زُمْرَةٍ من أعلامِ الأدَبِ يُهاجِمونَهُم بكشْفِ سَوْءاتِهِم، وكانتْ منزلةُ

---

(٢٠) راجعْ قِصّةَ تَحَدِّي عبدِ الرحمنِ بن حسّانَ للأمويّين وعَبَثِه بهم في الأغاني.

(٢١) راجع كتاب: سموّ المعنى في سموّ الذات، ص ص ٢٧ ـ ٢٨.

هؤلاءِ الأعلامِ في العُصورِ القديمةِ كمَنْزِلَةِ الصُّحُفِيّينَ اليومَ، يُتَوَسَّلُ بهم إلى نَشْرِ الدِّعايات. ويَشْهَدُ لهذا أنّ معاوية لـمّا أرادَ العَهْدَ ليزيدَ[٢٢] آستَخْدَمَ طائفةً من الشّعراءِ منهم المِسْكينُ الدّارِميُّ الذي يقولُ:

إذا المِنْبَرُ الغَرْبِيُّ خَلّى مكانَه   فإنّ أميرَ المؤمنينَ يَزيدُ

ومن شخصيّاتِ حِزْبِ أهلِ المدينةِ قيسُ بنُ سعدِ بنِ عُبادةَ، وعبدُ الرحمن بنُ حسّان.

هذه أحزابٌ رئيسيّةٌ آستَخْلَصْتُ خَبَرَها مُسْتأْنِساً بإشاراتٍ مُتَفَرِّقاتٍ، كانَ لها آثارٌ مُتَفاوِتَةٌ إلّا أنّها شَرَعٌ سَواءٌ فيما أحْدَثَتْه من تيّاراتٍ مُتعاكسةٍ مُتدافعةٍ جَعَلَتِ المجتمعَ يمورُ ويَضْطَرِبُ في حركاتٍ جَذْرِيّةٍ عنيفةٍ تَتّصِلُ بالأغْوارِ. وهناك أحزابٌ ثانويّةٌ أُخرى، ونُثْبِتُها هُنا كما وَرَدَتْ في **سُمُوّ المعنى في سُمُوّ الذّات**. وقدِ آنْصَرَفْنا[٢٣] هناك، في مُقَدِّمَةِ الكتاب المذكورةِ، إلى تَعْليلِ نُشوءِ هذه الأحزابِ الثّانويّةِ، بحصْرِ عُمَرَ الانتخابَ في عددٍ مَخْصوصٍ «فإنّ هذا التّعيينَ أوْجدَ حزبيّةً وَبيلَةً، وهَيّأ لها أنْ تَعْمَلَ أسْوَأ أعمالِها، ولم تَقِفْ عندَ حُدودِ النّجاحِ أو الفَشَلِ في الانْتخابِ فَحَسْبُ وإلّا هانَ أمْرُها. والذّي يجبُ أنْ نَفْهَمَه جيّداً أنّ حَصْرَ التّرشيحِ في عددٍ جعلَ لكُلِّ مُرَشَّحٍ حِزباً يُناصِرُه بضَرورةِ حَصْرِ دائرةِ الانتخابِ، وزادَ في حَرَجِ الانتخابِ أنْ يُنَصَّ على الحُكمِ الانتخابيّ (عبدِ الرّحمنِ بنِ عوفٍ) ممّا يُسَهِّلُ سبيلَ الظَّفَرِ لحزبٍ بعينِهِ إذا آستطاعَ أنْ يَسْتَميلَ الحَكَمَ، ولقد كان كذلك بالفعلِ». وهذه الأحزابُ الثّانويّةُ هي:

٧ـ حزبُ طلحةَ والزبيرِ: وهذا حِزْبٌ يقومُ على عَصَبيّةٍ شَخْصِيّةٍ بسببِ ما مُنِيا بِهِ من

---

(٢٢) راجع كتاب: **الشعر والشعراء** لآبْنِ قتيبةَ. ويُرْوَى البيتُ على وجهٍ آخرَ هو: إذا المنبرُ الغربيُّ خَلّاهُ رَبُّهُ.

(٢٣) يَحْسُنُ جِدّاً مُراجعةُ هذا البحثِ في كتاب: **سُموّ المعنى في سموّ الذات**، ص ص ٢٩ ـ ٣٦.

فَشَلٍ في الانتخابِ، وكانَ يَنْضَوي إليه بعضٌ منَ النّاقمينَ على سياسةِ عثمانَ، ومِنْ أكبرِ شخصيّاتِ هذا الحزبِ عائِشةُ.

٨ـ حزبُ أبناءِ عمرَ بنِ الخطّابِ: هذا حزبٌ لا يُحَدِّثُنا التّاريخُ عنه كثيراً، ولا يُسَجِّلُ له ظُهوراً، ولكنّي أُرَجِّحُ أنّه قد كانَ. فإنّ موقفَ عمرَ من أهلِ بَيْتِهِ لم يكنْ مُرْضياً ووُجِدَ في الناسِ مَنْ يَدْعو لآلِ الخَطّابِ، ومن أكبرِ الشخصيّاتِ المُنْتَسِبَةِ إليه أبو موسى الأشْعَريُّ الّذي رأيْنا منْ خُروجِهِ على صلاحِيّةِ الحَكَمِ في صِفّينَ إلى إسْقاطِ الإمامِ القائمِ ومُعاويةَ، وترشيحِ عبدِاللّهِ بنِ عمرَ للخِلافةِ الّتي لم يَرَها له أبوه (ض).

٩ـ الحزبُ الأمويُّ المُنْشَقُّ: كان يعملُ ضِدَّ الخليفةِ بالّذاتِ، ويقومُ بدَوْرِ الجاسوسيّةِ عليهِ لحسابِ بعضِ الأحزابِ، كحزبِ طلحةَ ـ على ما يظهرُ من قِصَّةٍ ذَكَرَها المسعوديُّ ـ ومن أكبرِ شخصيّاتِهِ عَمْرو بنُ العاصِ.

فهذه الحِزبيّاتُ المتصارِعَةُ أدَّتْ إلى حالةٍ منَ الاضطّرابِ والشُّعورِ المُشْتَرَكِ بالحاجَةِ إلى الإصلاحِ.

والحَقيقةُ الواضِحةُ هي أنَّ الحزبَ الأُمويَّ كان يَرْمي إلى إعْدادِ ثورةٍ في المجتمعِ تُغَيِّرُ كلَّ شيءٍ، وتَأْتي على ما هو مَعْروفٌ من أوْضاعٍ، ما دامتْ مُتَحَكِّمَةً بالشّعبِ فلنْ يَسْتَطيعَ تَحْقيقَ أهدافِهِ الّتي يَسْعى إليها جُهْدَه. وقدْ رَأيْنا من أهدافِهِ الّتي ذَكَرْناها، وعُنِيْنا بإحْصائِها منَ الظّواهرِ الّتي صاحَبَتْ حُكْمَهُ، أنّه كانَ يَبْغي التَّحَلُّلَ المُطْلَقَ والسَّيْطرةَ المطلَقَةَ، وقدْ نَجَحَ في كُلِّ شيءٍ، وأهمُّ ما نَجَحَ فيه أنّ الثّورةَ طالتْ وآلْتَفَّتْ على نفسِها بحيثُ أتَتْ على الطّبقَةِ القديمةِ الّتي كانَ يَرْهَبُها كثيراً ويَفْرَقُ منها كثيراً، وبذلكَ مزَّقَ أعْصابَ الشَّعْبِ أيضاً وحَمَلَه على الاسْتِكانَةِ.

إنّ الثّورةَ، حينَما طالَ أمَدُها، أطاحَتْ بأكْثَرِ الزّعماءِ والجمهرةِ الإسلاميّةِ الأُولى،

وأنْهَكَتْ قُوى الجمهورِ، فَرَضِيَ بالأمرِ الواقعِ. وهذا الشُّعورُ الّذي لَمَسَهُ الحَسَنُ بنُ عليٍّ (ع) ظاهراً واضحاً في نفسيّةِ الجمهورِ حَمَلَهُ على المُسالَمَةِ وَوَضْعِ أوْزارِ الحرْبِ.

ونتائجُ هذا الفصلِ هي:

أ ـ أنَّ الحزبيّةَ عَلِقَتْ بمجتمعِ العربِ وكانت مُغْرِضَةً نَفْعِيَّةً في أكثرِ جهاتِها وحالاتها.

ب ـ أنّ الحزْبَ الأُمويَّ كان يَرْمي إلى تَغْييرِ كافّةِ الأوضاعِ، وكانَ يقومُ بِدَوْرِ المعارضَةِ المُتطرِّفَةِ الحزبُ الشَّعْبيُّ، وبدورِ المعارضةِ المعتدِلةِ حزبُ المحافظين.

ج ـ أنَّ الصِّراعَ الرَّهيبَ كانَ بينَ الحزبِ الأُمويّ، من جهةٍ، والحزبِ الشَّعبيِّ وحزبِ أهلِ المدينةِ، من جِهَةٍ أُخرى، ومعارضةُ الأوّلِ كانَتْ من وُجْهَةٍ سياسيّةٍ، بينَما كانتْ معارضةُ الثّاني من وُجْهَةٍ نفسيّةٍ مَحْضَة.

د ـ أنّ الثَّورةَ من بعض جَوانِبها، كانتْ وليدةَ صِراعِ الحزبيّات.



القديم والجديد

منْ طبيعةِ المُجتمعاتِ أنّها تَظَلُّ في حالةِ تغيُّرٍ وتَزايُلٍ دائمةٍ، فأيُّ مجتمعٍ لا يَبْقَى حافِظاً لأوْضاعِهِ أمَداً طويلاً، بَلْ يَطْلُبُ أشْكالاً جديدةً، وخُصوصاً حينَ يَتَّصِلُ ويَحْتَكُّ بمُجْتمعاتٍ أُخرى، فإنّه يتأثَّرُ بها إلى نِسَبٍ مُتفاوِتَةٍ. وهذا راجِعٌ إلى الطَّبيعةِ في الكائنِ الحيِّ الّذي يُؤَلِّفُ المُجْتمعَ. وقَدْ كَشَفْنا في التَّصديرِ عنْ مِقْدارِ ما يَعْرِضُ للمُجْتَمَعِ بآعْتِبارِهِ كائناً مُرَكَّباً يَعْرِضُ له ما يَعْرِضُ للكائنِ البَسيطِ، هذه الخاصَّةُ في كُلٍّ منَ الكائنِ الحيِّ والكائنِ الاجتماعيِّ على نِسْبَةٍ مُتَقارِبَةٍ، هيَ الأساسُ الّذي بَنَيْنا عليهِ النَّظَرِيّةَ الجديدةَ في التّاريخِ. فالارْتِقاءُ خاصّيَّةٌ لازِمَةٌ للجماعةِ ما لمْ تَحُلِ الموانِعُ دونَ عَمَلِها، وهذا هو التَّجْديد.

إذاً فَتَجَدُّدُ المُجْتَمَعِ ضَرْبَةُ لازِبٍ، وهذا بعينِهِ ما صادَفَ المُجْتَمَعَ العربيَّ الوليدَ، حينَ مالَتِ الجماعَةُ الأولى إلى الزَّوالِ مُفْسِحَةً المَجالَ ليحِلَّ مَحَلَّهم نَشْءٌ جديدٌ لهُ أفكارُه ومُيولُه ومَذاهِبُه، وهذا النَّشْءُ، بما آجْتَمَعَ له من أشكالٍ آجْتِماعيّةٍ وأوضاعٍ مَدَنِيَّةٍ لأُمَمٍ شتّى، كوَّنَ لِنَفْسِه فِكرةً ولَوْناً مُتَمَيِّزاً، ودخَلَ بأشْيائِهِ الجديدةِ في دَوْرِ صِراعٍ معَ الجماعةِ الأولى بأشيائِها القديمةِ، وتَفاعَلَ الجديدُ معَ القديمِ تفاعُلَ تناحُرٍ ضرورةَ أنَّ كُلّاً منْهما يَتَشَبَّثُ بأسبابِ البقاءِ.

ولعلّ أحداً لا يَشُكُّ بأنّ محمدَ بنَ أبي بكرٍ كانَ يَنْظُرُ إلى الحياةِ من غَيْرِ النّاحيةِ الّتي كان يَنظُرُ منها أبوه. فالنَّظْرَةُ العامَّةُ له آنْحَرَفَتْ في كثيرٍ أوْ قليلٍ. كما نَلْمِسُ أيضاً تَأثُّرَ كثيرٍ من رِجالاتِ القديم بالألْوانِ الجديدةِ الّتي آنْتَقَلَتْ إلى العربِ بضمِّ مُجتمعاتٍ كثيرةٍ ذاتِ حضارةٍ سامِيَةٍ، وكانَ من هؤلاءِ طوائِفُ كبيرةٌ من مِثْلِ طَلْحَةَ والزُّبيرِ وزيدِ بنِ ثابتٍ وعبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ ويَعلى بنِ أميّةَ الّذينَ أخَذوا بالتَّرَفِ وحياةِ الغَضارةِ النّاعمةِ، فآسْتَكْثَروا منَ الأموالِ، ومالوا إلى آعْتِناقِ النِّظامِ الأرستقراطيّ مُتَأثِّرينَ بوضْعِ الأُمَمِ الّتي فَتَحوها، وتَنَصَّلوا بدَرَجةٍ كبيرةٍ من النِّظامِ الديمقراطيّ الّذي فَرَضَتْه الطَّبيعةُ العربيّةُ والدِّينُ[1]. وهذا ما كانَ يَتَخَوَّفُه النّبيُّ (ص). فقد وَرَدَ في **أعلام النُّبُوَّةِ**: «إنّما أخافُ عليْكم من بعدي ما يَفْتَحُ عليكُم من زهْرَةِ الدُّنيا وزينتِها، إنّه لا يأْتي الخيرُ بالشّرِّ، وإنَّ ممّا يُنْبِتُ الرَّبيعُ ما يَقْتُلُ[2] حَبَطاً أو يُلِمُّ إلّا آكِلَةَ[3] الخَضِرِ فإنّها أكَلَتْ حتّى إذا آمْتَلأتْ خاصِرَتاها آسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمسِ فثَلَطَتْ وبالَتْ ثُمّ رَتَعَتْ، وإنّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوةٌ ونِعْمَ صاحبُ المُسْلِمِ، هو لِمَنْ أعْطاهُ المِسكينَ واليتيمَ وآبنَ السَّبيل، فَمَنْ أخَذَه بحقِّهِ ووضَعَه في حقِّهِ فنِعْمَ المعونَةُ هو، ومن أخَذَهُ بغير حقِّهِ كانَ كالّذي يَأكُلُ ولا يَشْبَعُ ويكونُ شهيداً عليهِ يومَ القِيامة».

فالنّبيُّ (ص) يُحَذِّرُ منَ التّعلُّقِ بما سمّاهُ زَهْرَةَ الدُّنيا كأنّه كانَ يَسْتَقْبِلُه واقِعاً مادّيّاً مَحْسوساً.

---

(١) أخرَجَه البُخاريّ ومُسلم عن أبي سعيدِ الخُدْرِيّ نسبة الى حيّ من الأنصار آسمُه خُدْرَة، وذَكَرَهُ المَيْدانيّ في **مجمع الأمثال**.

(٢) هذا مَثَلٌ ضَرَبه النّبيُّ للمُتَزَيِّدِ المُفْرِطِ في جمعِ المال من أيّةِ طريقٍ، وحَبِطَتِ الدّابة حَبَطاً إذا أصابَت مَرْعىً طيّباً فأفرَطَتْ في الأكلِ حتّى تَنْتَفِخَ وتَنْشَقَّ أمعاؤُها وتَهْلِك.

(٣) هذا مَثَلٌ للمُقْتَصِدِ فإنّ الخَضِرَ لَيْستْ من أحْرارِ البُقولِ وإنّما تَنْبُتُ بَعْدَها، فَضَرَبها النّبيّ (ص) مَثَلاً لِمَنْ يَقْتَصِدُ في أخذِ الدّنيا فهو يَنْجو من أخطارِها كما نَجَتْ آكِلَةُ الخَضِرِ، فإنّها إذا شَبِعَتْ منها بَرَكَتْ مُستقبلةَ الشّمسَ تَسْتَمْرِىءُ بذلكَ ما أكَلَتْ وتَجْتَرّ. راجع **مجمع الأمثال** للميداني في المثل «إنّ ما يُنْبِتُ الرّبيعُ ما يَقْتُلُ حَبَطاً أو يُلِمّ»، ص ص ٧ ـ ٨.

إذاً، فقدْ كانَ في المجتمع العربيّ الأوّلِ الّذي نُعنَى بدرسِه قديمٌ وجديدٌ، وهذا الأخيرُ تَطْمَئِنُّ إليه وتَنْتَصِرُ له أكْثَرِيَّةُ الشّبابِ، وطوائفُ كبيرةٌ من الشُّيوخِ الّذين عايَشوا النّبيَّ (ص) طويلاً.

وكانتْ فِكرةُ الجديدِ تَقومُ على الأرستقراطيّةِ الاجتماعيّةِ، وظهرتْ في التّنافُسِ على الإماراتِ المَدَنِيّةِ والعسكريّةِ، وعلى التَّزَيُّدِ منَ الأموالِ، وعلى التَّحَلُّلِ بالحياةِ المُتَخَفِّفَة من القُيودِ، وإعطائِها صِفَةً من الحرّيّة أكْثرَ سَعَةً.

وكانتْ فِكرةُ القديمِ تَقُومُ على قاعدةٍ تُناقِضُ ذلكَ مُناقضةً تامّةً، فهو يُؤَيِّدُ الديمقراطيّةَ، ويُبيحُ الأخْذَ منَ الأموالِ بقَدْرٍ فَقَطْ، ويَتَشَدَّدُ في القُدْوَةِ وآتّباعِ الأوْضاعِ. فالهُوَّةُ بينَ القديمِ والجديدِ كانتْ واسعةً، وزادَتْ معَ الأيّامِ سَعَةً وآمْتِداداً. فالابْتعادُ آتَّصَلَ بالعقليّةِ والفِكرةِ والشُّعورِ، مِمّا جَعَلَ نَظْرَةَ كُلٍّ إلى أشياءِ الحياةِ تَخْتَلِفُ عنِ الأُخْرى.

ونَعْرِضُ الآن للعوامِلِ الّتي نَزَعَتْ بالنّاسِ إلى التَّجديدِ والبُعْدِ شيئاً فشيئاً عن خُطَّةِ الوَضْعِ القديمِ، والذي وَضَحَ لي منها، عدا الارْتِقاءِ الطّبيعيِّ، هي:

أوّلاً ـ **العقليّةُ الفِطْرِيَّةُ**: وهي تميلُ دائماً إلى الاحْتِذاءِ والتَّقْليدِ، فالأُمّةُ العربيّةُ آتّسَعَتْ بسُهولةٍ وسُرعةٍ، وآهْتَضَمَتْ عناصِرَ شتّى ونُظُماً كثيرةً، وبحُكْمِ فِطْرِيَّتِها آحْتَذَتْ أكثرَ ألْوانِها. وظهرَ في التّجديدِ آخْتِلافٌ أيضاً، لأنّ العربَ كشعبٍ غَيْرِ ثَقافيٍّ في بَداءتِهم، فقدْ تَأثَّرَ كُلُّ قَبيلٍ منهم بأوضاعِ ونُظُمِ الأُممِ الّتي حَلُّوا عليْها، فالّذين نَزَلوا أرْضَ فارسَ تَأثَّروا بلَوْنِ الحياةِ الفارسيّةِ وقامتْ في نُفوسِهم فِكرةُ البيتِ المالِك. وكذلكَ كانَ شَأْنُ الّذين حَلُّوا بلادَ الرّومِ. وهذا وَجَّهَ أفْكارَ العربِ وُجهاتٍ مُخْتَلِفَةً كانَ لها أثرُها في التَّشريعِ والاجْتماعِ والنَّظَرِ العامِّ. وعليهِ فلمْ تكنْ للتّجديدِ صِفَةٌ بعيْنِها، بل كان يَخْتَلِفُ بآخْتِلافِ اللَّوْن الّذي آعْتَنَقَه العربيُّ بحُكمِ البيئةِ الجديدةِ. ومِثْلُ هذا الاختلافِ الواقعِ في نَزْعَةِ التّجديد، الاختلافُ بينَنا اليومَ. فإنّ المُثَقَّفَ مِنْ ينابيعَ لاتينيّةٍ يَنْصُرُها ويَجْتَهِدُ بتحْويلِ مُجتمعِه إليها، وكذلكَ المُثَقَّفُ من

ينابيعَ ألمانيّةٍ أو سَكْسونيّةٍ أوْ روسيّةٍ. فآخْتِلافُ نَزْعَةِ التّجديدِ في العَهْدِ الأوّلِ الإسلاميّ كانَ خاضِعاً لآخْتلافِ البيئةِ الجديدةِ، وفي عَهْدِنا خاضِعٌ لآخْتلافِ اليَنْبوعِ الثّقافيّ.

ثانياً ـ **أطْماعُ الشيوخ**: وهُمْ منَ الطَّبقَةِ القديمةِ إلّا أنّ آحْتِكامَ نفوسِهم بأطماعٍ لا حدَّ لها جَعَلَهُم يَنْزِعونَ قَسْراً إلى الجَديدِ، ويعتنقونَه في ظَمَأٍ وآطْمِئنانٍ. فَهُمْ حينَما وجَدُوا فُتُوناً لا حَدَّ لها ومُغْرِياتٍ لا عَهْدَ لهم بمثلِها، نَزَعَتْ نفوسُهم إليها، كما يَنْزِعُ السَّهْمُ منَ اليدِ الّتي كانت تُمْسِكُه، مُندفعينَ بشيءٍ منْ مُيولِهم كالوَتَرِ الّذي أكْسَبَ السَّهمَ قُوَّةَ الانْدفاعِ والاسْتمرار.

والمُلاحَظُ على البَدائيّينَ أنّهم أكْثَرُ تَحَلُّلاً في سبيلِ هَوى النُّفوسِ، بحيثُ لا يَرْعَوْنَ لشيءٍ من أشياءِ القديم إلّاً ولا ذِمّةً، ما دامَ في الجديدِ ما يُرضي رغائِبَهُم المَكْبوتَةَ. وهذه الظّاهرةُ تُعَلَّلُ بالظَّمَأِ الطّبيعيّ أو الكَبْتِ الطّبيعيّ، فإنّ البَداوةَ لا تَكْبِتُ على المرءِ شَهَواتِه إلّا بمِقدارٍ، فهو حينَ يَجِدُ سبيلاً إليها يَنْقَلِبُ مَلَكِيّاً أكثرَ منَ المَلِكِ. وهذا ما رَهَّبَهُ النّبيُّ (ص) في الحديث السّابقِ وأسماهُ «زَهْرَةَ الدُّنْيا» ورغَّب عنهُ. إنّ النّبيَّ، ذا النَّظَرِ العميقِ في أسرارِ النُّفوسِ وطبائِعها، آعْتَمَدَ في تَهْذيبِ العَرَبِ على كُلِّ الطَّرائِقِ التّربويّةِ الّتي تُهيِّىءُ الاخْتِمارَ النّاقلَ للوِراثاتِ. إنَّ كهربائيّةَ الوِراثةِ المُمْتَدّةِ إنّما تَصْنَعُ أسلاكَها من مادّةِ الاختمار.

ثالثاً ـ **الشُّبابُ وأطماعُهم**: كَثُرَ الشّبابُ كَثْرةً مُطلقةً، وآحْتَلُّوا مكانَهم في الحياةِ العامّةِ، وعَمَدوا إلى المُساهَمَةِ فيها بأفكارِهم وأحاسيسِهِمْ، ولا رَيْبَ في أنّها لا تَتَّفِقُ في كثيرٍ مع أفكارِ الشُّيوخِ وأحاسيسِهم، فَظَهَرَ التَّفاوُتُ المَنْطِقيُّ بينَ الفِئَتَيْنِ، كما أنَّ الشّبابَ يَكونونَ أسْرَعَ تَأثُّراً بما يُرْضي الغرائِزَ ويُشيعُ فيها النَّشَواتِ. فالحركةُ السّريعةُ للفتحِ العربيِّ وَجَدَتْ سبيلَها إلى أفْئِدةِ الشَّبابِ فَطَفَرَتْ بهم.

رابعاً ـ **الغِنى المُفاجِىءُ**: نَقَلَ الشّبابَ وطائِفةً من الشُّيوخِ إلى جانبِ آخَرَ غَيْرِ

الجانِبِ الّذي كانوا يَسيرونُ فيه، وغَمَسَهم غَمْساً بمثْلِ أَلْوانِ التَّرَفِ عندَ الأُمَمِ الّتي حَكَموها.

خامساً ـ **قوةُ الضُّعفاء**: هذه القُوّةُ على الدَّوامِ تُنْتِجُ الميلَ إلى الأرستقراطيّةِ، وقدْ وَقَعَ هذا المَلْحَظُ في خاطرِ أبي تمّام الشّاعِرِ فَعَبَّرَ عنه تعبيراً فذّاً:

وضَـعـيـفـةٍ، فـإذا أصـابَـتْ فُـرصـةً
قَـتَـلَـتْ كـذلِـك قُـدْرَةُ الـضُّـعَـفـاءِ

سادساً ـ **ظهورُ المرأة**: وهيَ كَثيراً ما تَنْساقُ بحَوافِزَ عاطفيّةٍ لا تَتَّسِعُ للأفكارِ الكُلّيّةِ العامّةِ، وإنّما تُفَكِّرُ تفكيراً جُزْئيّاً خاصّاً، فكان لها أثَرٌ في التَّوجيهِ الجديدِ. وقدْ ظَهَرَتِ المرأةُ بِحَرَكاتٍ كبيرةٍ آسْتِقلاليّةٍ في مُناسَبَتَيْنِ:

أ ـ يومَ الرِّدَّة في آمْرَأتَيْنِ إحداهُما سَجاحُ بنتُ الحارثِ وتَقَدَّمَ خَبَرُها[٤]. والأُخرى هي سَلْمى آبْنَةُ مالكٍ بنِ حُذَيْفَةَ[٥] الّتي سُبِيَتْ أيّامَ رسولِ اللّه (ص) ووَقَعَتْ لعائِشةَ فأعْتَقَتْها، وقد قادتْ جُموعَ غَطَفانَ وهَوازِنَ وسُلَيْمٍ وأسَدٍ وطَيِّىءٍ ثائرةً، فَنَزَلَ خالدُ بنُ الوليدِ عليْها وعلى جُمّاعِها فآقْتَتلوا، وهي واقفةٌ على جَمَلِ أُمِّها. وكانتْ مَزْهوبةً عظيمةَ المَنْزِلَة تَسْتَنْهِضُ الجُموعَ وتُعَزِّزُ الحَماسَ، وقَدْ قُتِلَ حولَ جَمَلِها مائةُ رجلٍ، ثم قُتِلَتْ وتَفَلَّلَتِ الجُموعُ. لقدِ آرْتَدَّتْ هذه المرأةُ نتيجةً لتفكيرٍ جُزْئيٍّ، أوْ قُلْ سَطْحِيٍّ، فهي تُريدُ أنْ تَثأرَ لأخيها حِكْمَةَ الّذي قُتِلَ أيّام النَّبيِّ (ص).

ب ـ ظُهورُ المرأةِ يومَ الجَمَلِ في شَخْصِ عائشةَ (ض)، فإنّها لَعِبَتْ مثلَ دورِ عَتيقَتِها سَلْمى آبْنَةِ مالكٍ، فقدْ خَرَجَتْ على حُكومةِ عليٍّ (ع) كما خَرَجَتِ الأُخرى على حُكومةِ

---

(٤) راجع ص ٨٧ من هذا الكتاب.

(٥) راجع تاريخ الطبري، ج ٣، ص ص ٢٣٣ - ٢٣٤.

أبيها، ولغرضٍ مُشابِهٍ تقريباً؛ فتلكَ تَثأرُ لأخيها، وهذهِ تَثأرُ لعُثمانَ، وقدْ عَقَدَتِ الصَّداقةُ بينَهُما زمناً طويلاً، فقدْ كانتْ سَلْمى تَخْتَلِفُ إلى عائشةَ كثيراً وتَنْزِلُ عليْها دائِماً. ولا يَبْعُدُ عِنْدي أنْ يَكونَ في جُمْلَةِ الرَّغَباتِ الّتي دَفَعَتْ عائشةَ إلى الخُروجِ، أنّها كانتْ مُعْجَبَةً بالدَّوْرِ الّذي لَعِبَتْه سَلْمى، وقد كانَ دوراً مُعْجِباً حقّاً لَهَجَ بِهِ النّاسُ كثيراً، حتّى قيلَ بَلَغَ من عِزِّها أنّه وُضِعَ مائةٌ من الإبِلِ لمنْ يَجْرُؤُ على نَخْسِ جَمَلِها.

والمرأةُ ذاتُ تفكيرٍ جُزْئيٍّ تَشيعُ فيهِ المُيولُ والعواطِفُ. لذلكَ لا أسْتَبْعِدُ أن تَكونَ عائشةُ قدِ آنْطَوَتْ على إعجابٍ عميقٍ بسَلْمى. وهذا الإعجابُ كانَ عامِلاً نفسيّاً كبيراً هَوَّنَ عليها سبيلَ الخُروجِ لتَلْعَبَ دوراً مماثِلاً تَكونُ فيه القائِدَةَ وعلى جَمَلٍ أيضاً يُضَحّي دونَه كثيرونَ، وكانَ المصيرُ واحِداً تقريباً. وهذا من أغْرَبِ المُصادَفاتِ التّاريخيّةِ، ولْيُتَنَبَّهْ إلى أنّنا لا نقولُ بأنَّ إعجابَ عائِشةَ بسَلْمى كانَ عامِلاً من عوامِلِ[6] خُروجِها، بلْ نَقولُ كان رَغْبَةً في جُملةِ الدَّوافِعِ الّتي تَرَكَّزَ عليها عَزْمُها.

فخروجُ عائشةَ كآمْرأةٍ للقِيادةِ العامَّةِ شيءٌ جديدٌ في المجتمَعِ الإسلاميِّ الأوّلِ، فثارَ حَوْلَهُ تفكيرٌ طويلٌ في أنّه هلْ للمرأةِ أنْ تأْخُذَ مِثْلَ هذهِ المُبادَراتِ أم لا؟ وكانَ التّفكيرُ في ذلكَ منْ وُجْهَةٍ دينيّةٍ مَحْضَةٍ. فأُمُّ سَلَمَة[7] (ض)، زَوْجُ النّبيِّ، والطّائِفَةُ المحافِظَةُ على القديمِ ذَهَبوا إلى أنّه لا يَجوزُ ذلك لها، وطلحةُ والزُّبَيْرُ والعربُ الّذين سَكَنُوا البصْرةَ وتأثَّروا بأفكارِ الفُرسِ ذَهَبُوا، كما يَظْهَرُ مِن عَمَلِهِم، إلى جوازِه. فظُهورُ المرأةِ شيءٌ جديدٌ طَرَحَ مسألةً جديدةً مِثْلَ مُشْكِلَةٍ ما في ذلك شَكّ.

سابعاً ـ **غَمْرُ الاسلامِ للأديانِ:** فإنّ الإسلامَ حينَما غَمَرَ في طريقهِ هذهِ الأديانَ

---

(٦) راجعْ عوامِلَ خروجِ عائشةَ على عليٍّ (ع) في كتابِ: سمو المعنى في سموّ الذات، ص ٤٦.

(٧) أوْضَحَتْ رَأْيَها هذا في كِتابها الحكيمِ إلى عائشةَ. وتَجْدُرُ بكلِّ قارئٍ مُطالَعَتُه وهو موجودٌ في الإمامة والسّياسة لآبْنِ قتيبة.

الكثيرة، فَقَدِ آنْبَعَثَتْ فيه ثانيةً وأحْدَثَتْ فكرةً دينيّةً جديدةً لها شَكْلِيّةٌ إسلاميّة وحقيقةٌ من كلِّ دينٍ. فكانَ في المُحيطِ الإسلاميّ يَهودِيّةٌ إسلاميّةٌ، ومسيحيّةٌ إسلاميّةٌ، ووثنيّةٌ إسلاميّةٌ لبَّسَتْ في عقائِدِها بلْ فيما يَتَّصِلُ بتأْليفِ أشْكالِها وإشكالاتِها، كما يَظْهَرُ في عِلْمِ الأديانِ المُقارَنِ، وبَقِيَتْ تَتَكاثَرُ على مِثْلِ التَّوالُدِ الذّاتيِّ حتّى أتَتْ في أكبرِ عددٍ مفروض.

من هذا نَعْلَمُ أنّ العربَ قبلَ مَصْرَعِ عُثمانَ (ض) شَعَروا بشيءٍ جديدٍ، شَمَلَ الاعتقادَ والاجتماعَ والحرّيّاتِ الأدبيّةَ وآدابَ السّلوكِ، وشَهِدوا صِراعاً خَفِيّاً بينَ الجديدِ والقديمِ أدّى إلى الذَّبْذَبَةِ والاضطّراب.



الثّوْرة

بعدَ ذلكَ العَرْضِ المُسْهَبِ للبواعِثِ التّاريخيّةِ الّتي آتّصَلَتْ بالمُجْتَمَعِ الإسلاميِّ الأوّلِ، وتَشْخيصِها بالمِقْدارِ الّذي يَسْمَحُ لنا بفَهْمِ المحرّكاتِ الرئيسيّةِ لذلك العهدِ، تَبْدو لنا الثّورةُ حادِثاً طبيعيّاً لطائِفَةِ المُحرّضاتِ المُجْتَمِعَةِ الّتي تُؤَدّي كُلٌّ منْها إلى توليدِ حركةٍ ذاتِ صِفَةٍ بعينِها، فإذا آخْتَلَطَتْ حركتُها وتشابَكَتْ تشكّلَتِ الثّورةُ على وَجْهٍ طبيعيٍّ جداً.

وفي كلمةِ التّصْديرِ أعطيْنا تعريفاً جديداً للثّورةِ يَحْسُنُ بنا أنْ نُعيدَه مَرّةً أُخرى، فقدْ قَرّرْتُ هناك (صفحة ٣٦ وما بعدها من هذا الكتاب) بأنَّ الثّورةَ هي الارْتيابُ في المَثَلِ الأعْلى حينَ يَتَشَكّلُ ويكونُ عَمَلاً عنيفاً، وهو يَتَحَرّكُ إلى هَدَفٍ مُعَيَّنٍ ويَدورُ على فكرةٍ خاصّةٍ. وهذا تعريفٌ جِدُّ حقيقيٍّ يُفْهِمُنا أنَّ الثّورةَ الاجتماعيّةَ على الدّوامِ تُعَبِّرُ عن فَسادٍ في الحُكمِ ونُضْجٍ في الشّعبِ. وكذلكَ كانَتِ الثّورةُ الأولى في الإسلامِ أوِ الثّورةُ على عُثمان.

فَهِمْنا من الفُصولِ المارّةِ، أنَّ مِزاجَ الشّعبِ العقليَّ لم يَزَلْ قَبَلِيّاً، وفَهِمْنا أنّ القَلَقَ الدّينيَّ لم يَزَلْ يَتَمَلّكُ الأفرادَ في كثيرٍ من التّأثيرِ، وفهِمنا أنّ قضيّةَ المالِ لم تُسَوَّ على الوَجْهِ الّذي يُحَقّقُ الأمانيَّ، وأنّ كثيراً من المجتمعاتِ، بِنُظُمِها وقوانينِها، آنْحَلّتْ في المُجْتَمَعِ الإسلاميِّ ولم يُمَثّلْها أوْ يَهْضُمْها هَضْماً حَسَناً، وفهِمْنا أنّ الحِزبيّةَ البغيضَةَ عَلِقَتْ بذلِكَ

المجتمعِ الوليدِ، وأخيراً شهِدْنا صِراعاً بينَ القديمِ والجديدِ يَشْطُرُ العالَمَ الإسلاميَّ في الفكرةِ إلى مُعَسْكرَيْنِ.

إذاً، فقدْ مادَ المُجْتَمَعُ العربيُّ تحتَ عواملَ نَفْسِيَّةٍ وآجْتماعيَّةٍ مَيَداناً شديداً وتَطَلَّعَ الشّعبُ إلى الإصلاحِ الشّاملِ، وبالأخصّ بعدَ أن آسْتَقَلَّ بالحكومةِ الحزبُ الأُمويُّ، ومالَ بها إلى الأرستقراطيّةِ وحَكَمَ النّاسَ بسياسةِ اللّامُبالاةِ في الإدارة والأموالِ وشتّى نواحي النّظام. إنّ سياسةَ الضّغْطِ والانتهازِ الّتي سارَ على مِنْوالها الأُمويّونَ، جَعَلَتِ الشّعبَ يَحْتَجُّ ويُبالِغُ في الاحْتجاجِ مُطالِباً بضَرورةِ الإصلاحِ السّياسيّ، مُرْتَقِباً آسْتردادَ حُرّيّاتِهِ المُغْتَصَبَةِ. ولكنّ الحِزبَ لم يَشَأْ تَغْييرَ شيءٍ منْ سياستِهِ التّقليديّةِ، فثارَ الشّعبُ المُتذمِّرُ وأعْلَنَ العِصيان.

أعْلَنَ الشّعبُ الثّورةَ لأنّ الأوضاعَ الّتي كانَتْ تَصْلُحُ لسياسةِ المجتمعِ يومَ كانَ محدوداً ضيِّقاً، لم تَعُدْ تَصْلُحُ له بعدَ أنْ أدْخَلَ تحتَ جَناحَيْهِ أكثرَ العالَمِ القديمِ، وهو مُخْتَلِفُ العاداتِ والتّقاليدِ والتّربياتِ. ولأنّ الطّماعيّةَ أو الجَشَعَ، الّتي دعاها موللر لبير Pleonexia، تَسَلَّطَتْ على كافّةِ مواردِ الدّولةِ في حُكومةِ الحِزْبِ الأُمويّ، حتّى حَلُّوا كثيراً من المِلْكِيّاتِ وجَعَلوها وَقْفاً عليهم، وهذا ما صَرَّحَ بهِ كبيرٌ من وُلاتِهم، وهو سعيدُ بنُ العاصِ، فقدْ قالَ: «إنّما هذا السّوادُ، سَوادُ العراقِ، بُستانٌ لقريشٍ»، وآسْتَبَدّوا بالأموالِ آسْتِبداداً كبيراً. ولأنّ الفكرةَ الاجتماعيّةَ بَلَغَتْ في النّاسِ مَبْلَغَ النُّضوجِ تقريباً بتأثيرِ نُظُمِ الأُمَمِ الّتي آنْتَقَلَتْ إلى نظامِهم، ويُشيرُ إلى هذا أنّ أكْثَرَ الثّائرينَ من الجهاتِ الّتي خَضَعَتْ في يومٍ من الأيّامِ لحكوماتٍ نِظاميّةٍ قديمةٍ كمِصْرَ والعِراقِ، ولأنّ الأخْطاءَ السّياسيّةَ للحُكوماتِ السّابقةِ تجسَّمَتْ في عهدِ عُثمانَ فأخَذَ بها، من مِثْلِ سياسةِ الأموالِ الّتي وُضِعَتْ في حُكومةِ عُمَرَ، فإنّ تَمليكَ الأكَرَةِ والفلّاحينَ الأرضَ الّتي كانوا يعملونَ[1] فيها على نِظامِ القَنانَةِ، وهو

---

(١) راجع مُحاضَرةَ علي ماهر باشا في التّربية والتّاريخ، المنشورة في مجموعة متخرجي المدرسة الخديوية سنة ١٩٠١، ص ص ٣٥ ـ ٣٦.

يَجْعَلُهُم تابعينَ للأراضي في عهدِ الحُكوماتِ المقهورَةِ، أدّى إلى الفَوْضى من حيثُ إنّ الفاتحَ العربيَّ لم يُمَلِّكِ المالِكَ الأوّل وحدَه، بل أوْجَدَ مالِكاً جديداً هو الفلّاحُ، وكان أوْلى أنْ يجعلَ هذا المالكَ الجديدَ الشّريكَ هو المجاهدَ العربيَّ. إنَّ ما هَرَبَ منه عمرُ وَقَعَ فيه. هَرَبَ منْ تمليكِ العربيِّ حتّى لا يَحْرِمَ المالكَ القديمَ، فيُؤَدّيَ إلى الاضطّرابِ، فوَقَعَ على أيِّ حالٍ فيما يماثِلُه حيثُ أشْرَكَ مالِكاً جديداً مع المالِكِ القديم. وكان الأفْضَلُ، من وُجْهَةِ النّظرِ الاقتصاديّ، حيثُ حُلّتِ المِلْكِيّات بالفَتْحِ عَنْوَةً، أنْ يُشارِكَ المُجاهدُ العربيُّ المالِكَ القديمَ.

فثورةُ الشَّعبِ كانتْ نتيجةً لرَغْبَةٍ أكيدةٍ في الإصلاحِ، وهذه الثّورةُ هي الّتي أوْحَتْ لِعَليٍّ (ع) بنظامِ الإصلاحِ الّذي ضَمَّنَهُ العَهْدَ إلى الأشْتَرِ. ومِنْ هذا يَظْهَرُ أنّ عَهْدَه المَذْكورَ لم يَكُنْ مُرْتَجَلاً بلْ كان نتيجةَ التّرَوّي العميقِ والتّمَرُّسِ بنُظُمٍ قديمةٍ وجديدة.

ولعلَّ أقْربَ الثّوراتِ في التّاريخِ الحديثِ إلى ثورةِ العربِ الشّعبيّةِ هي الحربُ الأهليّةُ[٢] الإنجليزيّةُ الّتي قادَها أوليفر كرومول ضدَّ المَلِكِ كارلوس الأوّلِ الّذي أُخِذَ بأخطاءِ أبيه وأخْطائِهِ. فكانَ كأبيهِ يَكْرَهُ الحُكْمَ الذاتيَّ وحُقوقَ الشّعبِ السياسيّةَ وتقييدَ يَدَيْه وأيدي حاشِيَـتِه في الماليّةِ؛ ولكنَّ الشّعب قَدَّمَ «عريضةَ الحَقّ» وقَبِلَها الملكُ بعدَ أن أقَرّها مَجْلِسا اللّورداتِ والعامّةِ بصفةٍ نهائيّةٍ. إلّا أنّ الصِّلَةَ بينَ الشّعبِ والمَلِكِ عادَتْ فَتَحَرَّجَتْ، فَحَلَّ المَلِكُ البَرْلَمانَ الّذي طَلَبَ مُحاكَمَةَ الدّوقِ بوكنهام، وكان سَيِّىءَ السُّمْعَةِ مُحرِّضاً للمَلِكِ، وآحْتَجَّ الشّعبُ آحْتِجاجَه العنيفَ الّذي أغْضَبَ المَلِكَ غَضَباً شديداً، فَعزا إلى الزُّعَماءِ جريمةَ التمرُّدِ، ولَمّا لم يَكُنْ منْ أساسٍ للتُّهْمَةِ آعْتُبِرَتْ غيرَ قانونيّةٍ وحاولَ القَبْضَ عليهم فَأخْفقَ.

لذلك آعْتَبَرَ مجلسُ العامّةِ أنّ الملكَ بِفِعْلِه أعْلَنَ الحربَ ضِدَّ حُرّيّةِ الشّعبِ وخافَ أنْ

---

(٢) راجع كتاب: **تاريخ أساس الشّرائع الإنجليزية**، للأستاذ دافيد وطسن راني، ص ص ١٣٧ ـ ١٤٨، ترجمة نقولا حداد ط .القاهرة سنة ١٩٠٦.

يَسْتَخْدِمَ الجيشَ ضِدَّهُ، فاقْتَرَحَ وُجوبَ أنْ يَتِمَّ تَعْيينُ قُوّادِ الجُنديّةِ في مجلِسِ العُمومِ فرَفَضَ الملكُ، وشَبَّتِ الحربُ الأهليّةُ، وقادَ الشّعبَ كرومْوِلُ الّذي انْتَصَر على الملكِ وأخَذَهُ أسيراً، ثمَّ حاكَمَهُ وحكَم عليهِ بالإعدامِ، باعْتِبارِ أنّه صاحبُ فِتَنٍ ودسائِسَ ضِدَّ الشّريعةِ وحُرّيّةِ البلادِ. وتَغَطْرَسَ الجنودُ المنتصرونَ غَطْرَسَةً فيها شيءٌ من الاستهانةِ بالبَرْلمان.

هذهِ الثّورةُ، في كثيرٍ منْ ظُروفِها وأغْراضِها، تَتَّفِقُ معَ ثورةِ الشّعبِ العربيِّ الأُولى. فإنّ الدِّينَ أكْسَبَ الأُمّةَ الحقَّ في حُكْمِ نفسِها و«أمْرُهم شُورى بينهم»[٣]. «وشاوِرْهُمْ في الأمْرِ»[٤]، وفرَضَ الطّاعةَ للسّلطةِ التّنفيذيّةِ في حُدودِ طاعةِ السّلطةِ نَفْسِها للقانون «يا أيُّها الّذِينَ آمَنوا أطيعُوا اللّهَ وأطيعُوا الرَّسُولَ وأُولي الأمْرِ مِنْكُم، فإنْ تَنازَعْتُمْ في شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللّهِ والرَّسولِ إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ باللّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ، ذلِكَ خَيْرٌ وأحْسَنُ تَأْويلاً»[٥]. والتّنازُعُ في الآيةِ على وَجْهَيْن: تنازُعُ الأفرادِ على الحُقوقِ، وتنازُعُ الشّعبِ مع السُّلطةِ الحاكِمةِ الّتي عَبَّرَ القرآنُ عنها بـ «أُولي الأمرِ» وحُكْمُهما واحدٌ في ضَرورةِ الرُّجوعِ إلى القانونِ المؤلَّفِ من القُرآنِ وأقْوالِ النّبيِّ وأفْعالِه، وبذلكَ خُوِّلَ الشَّعْبُ، إذا كانَ الحَقُّ في جانِبِه، أنْ يَأْخُذَها بمُقْتَضى قانونِ الجزاءِ السّياسيِّ، على ما هو مَشْروحٌ في السُّنَّةِ مِنِ انْحِلالِ البَيْعةِ وما يَتْبعُها، كما يُؤْخَذُ الأفْرادُ بمُقْتَضى قانون الجَزاءِ العَدْليِّ[٦].

إذاً فالقانونُ الدُّستوريُّ للإسلامِ أثْبَتَ حُقوقَ الشّعْبِ، وأعطاهُ الحُرّيّةَ الواسِعَةَ للمُحافظةِ على هذه الحقوقِ، والشعبُ اعْتَنَقَ هذا القانونَ، فهو لا تَمُرُّ به سانِحَةٌ، تُجاوِزُ فيها السُّلطةُ

---

(٣) الشورى ٤٢: الآية ٣٨.

(٤) آل عمران ٣: الآية ١٥٩.

(٥) النساء ٤: الآية ٥٩.

(٦) هذهِ الآيةُ لم يَفْهَمْها كثيرٌ من المُفسّرينَ على وَجْهِها الصّحيح حينَ قَصَروها على الوَجْهِ الأوّلِ من التنازُع، ولكنّ اقْتصارَ الآيةِ بعدَ ذلكَ على ذِكرِ اللّهِ ورسولِهِ دونَ أولي الأمر يَدُلُّ على أنّه يُريدُ أن يَتناوَلَ أيضاً وَجهَ النّزاعِ الثّاني الّذي هو بَيْنَ المؤمنين (الشَّعْبِ) وأولي الأمرِ (الهيئةِ الحاكمةِ).

غايةَ القانونِ، إلّا آحْتَجَّ ورَفَعَ صَوْتَه مُطالِباً بآحْتِرامِ الدُّستورِ.

ولـمّا جاءَ الدَّوْرُ لحُكمِ الحِزبِ الأُمويِّ، وتَجاوَزَ المبادِئَ المُقَرَّرَةَ، وخَطَّ لنفسِه سِياسةً ليستْ مُشْتَقَّةً على أيِّ وجهٍ من حُقوقِ الشَّعْبِ، عارضَ الشَّعْبُ وآحْتَجَّ وطَلَبَ الإصلاحَ، فأظْهَرَتِ الهيئةُ الحاكمةُ قَبولَها، ولكنْ سَرعانَ ما عادتْ إلى النَّكْثِ والتَّجاوُزِ، وعادَ الشَّعْبُ إلى الاحْتِجاجِ، وزادَ في عُنْفِهِ إطْلاقُ الخليفةِ أيْدِيَ حاشِيَتِهِ في الماليّةِ وإقْطاعُهم. ولكنَّ الهيئةَ الحاكمةَ عادَتْ فَوَعَدَتْ بتَغْييرِ الخُطَّةِ السِّياسيّةِ ومِنهاجِ الحُكْمِ، ولم تَلْبَثْ حتّى رَجَعَتْ إلى سابِقَةِ أمْرِها. وهُنا هُدِيَ الشَّعْبُ إلى مُعَلِّمينَ ثَوْرِيِّينَ نظَّموا مَطالبَ الإصلاحِ أو عريضَةَ الحقِّ، فَقَرَّرَتِ الهيئةُ الحاكمةُ القَبْضَ على الزُّعماءِ، فقَبَضَ عليهِمْ معاويةُ، وفيهم الأشترُ، وأسْلَمَهُم إلى القائِم بأعمالِ حِمْصَ، فآضطَهَدَهُمْ وعامَلَهُمْ بقَسْوَةٍ ثمّ عادَ فأطْلَقَهم. ولكنَّ هؤلاءِ لم تَخْمُدْ حَرَكتُهُمُ الإصلاحيّةُ فعادوا يُطالبونَ بالإصلاحِ ويَتَشَبَّثونَ بمُحاكَمَةِ مَروانَ بنِ الحَكَمِ مُستشارِ الخليفةِ الّذي ثَبَتَ لهم أنّهُ الوحيدُ الّذي يَتلاعَبُ بمُقَدَّراتِ الحُكمِ، فأبى الخليفةُ وتَمَسَّكَ به، وتَحَرَّجَتِ الأمورُ سريعاً نتيجةَ أخْطاءٍ سياسيّةٍ بَليغَةٍ، وأعْلَنَ الشّعبُ الثّورةَ بزعامةِ الأشْتَرِ ووقَعَتِ الكارِثَةُ بمصْرَعِ الخليفةِ.

وتَلافِياً للأُمورِ حتّى لا تَطْغى الثّورةُ وتُشَكِّلَ حركةً زَوْبَعِيّةً لا يُعْلَمُ مداها، قَرَّرَ الثّوّارُ وُجوبَ تعيينِ الحاكِمِ الأوّلِ (الخليفةِ) فآنتَخبوا عليّاً (ع) للخِلافةِ، أو قُلْ أكْرَهوهُ عليها. وقد فَهِمَ عليٌّ أنّ الظَّرْفَ يَقْتَضي أخْذَ الأُمورِ بالحَزْمِ والشِّدّةِ، لأنّ طلائِعَ الفَوْضى بَدَأتْ تَذُرُّ قَرْنَها وتَلْعَبُ من بعيدٍ، وفي مِثْلِ هذا الظَّرفِ لا تَنْجَحُ إلّا حُكومةُ الحَزْمِ، غيرَ أنّ النّاصِحينَ ذَوي النَّظَرِ الضَّيِّقِ في طبائِعِ النُّفوسِ والحَرَكاتِ الاجْتماعيّةِ الكبيرةِ أشاروا عليهِ بالمُلايَنَةِ، وهذا هُراءٌ لم يُصْغِ إليه الخَليفةُ العبقريُّ، فعَمَدَ إلى سياسَةِ البطْشِ والشِّدَّةِ، فَضَرَبَ الخارجينَ يومَ الجَملِ ضَرْبَةً صاعِقةً، أخْضَعَتِ العِراقَ والحِجازَ واليَمنَ، وأرْهَبَتِ الشّامَ. ولقدْ باتَ الحِزبُ الأُمويُّ في مِثْلِ رَهْبةِ الظِّربانِ، ومُعاويةُ لم يَعُدْ على ثِقَةٍ بنفسِه، ويَدُلُّ على هذا

الرِّعْدَةُ الّتي أخَذَتْهُ حتّى مالَ إلى الاسْتسلامِ بدونِ قيْدٍ ولا شرْطٍ، كما يَظْهَرُ من كتابِه إلى المُغيرةِ بنِ شُعبةَ الّذي قالَ فيه: «قَدْ ظَهَرَ من رَأْيِ آبْنِ أبي طالبٍ ما كانَ يُقَدِّمُ في وَعْدِه لكَ في طَلْحَةَ والزُّبَيْرِ فما الّذي بقيَ من رَأْيِهِ فينا».

وحركةُ عليٍّ (ع)السّريعةُ في الانتقالِ من حَرْبِ البصرةِ إلى حربِ الشّامِ، تُرينا مَوْضِعَ الإحْكامِ في خُطَّتِه، فلمْ يترُكْ لخُصومِه ظَرْفاً يتأشَّبُون عليهِ فيهِ، كما لم يَدَعِ الجَذْوَةَ المُتَّقِدَةَ في نُفوسِ جَيْشِه تَخْمُدُ، وعَمِلَ على آسْتِغلالِ أثَرِ الرَّهْبَةِ الّتي أوْرَثَتْها وقعةُ الجَمَلِ. وهذهِ الحركةُ السّريعةُ واجبةٌ إذا دَرَسْناها على ضَوْءِ الفوضى حينَ تَـتَمَلَّكُ النُّفوسَ، فإنّه لا يَثْبُتُ في هذا الغِمارِ إلّا الرّجلُ المُبادِرُ الّذي يَسوسُ المُتَمَرِّدينَ لِلْوَهْلَةِ، كما فَعَلَ عليٌّ (ع)، ولكنّه إنّما أُتيَ من جانِبِ تَسَلُّطِ المِزاجِ العقليِّ القَبَليِّ بطَلَعاتِه على نُفوسِ جُنْدِه، وهذا يجعلُهم نَفْعِيِّينَ نَفْعِيَّةً مُطلقةً، كما أنّ تَضْحِياتِهِم لم تَجُرَّ الى مَغْنَمٍ يُنْسيهِمْ فَداحَتَها، فلنْ يُجَرّوا إذاً إلى آخِرِ الشَّوْطِ بدونِ غُنْمٍ على أنّه بمغارِمَ كثيرةٍ. وعَليٌّ مُتَشَبِّعٌ بِقَضايا الحقِّ والعَدْلِ ووجوبِ الإصلاحِ من أقْرَبِ الطُّرُقِ، فلمْ يُخَوِّلْهُم شيئاً من أموالِ خُصومِهِم ومُحارِبيهم.

إنّ كُلَّ المؤرِّخينَ الّذين آنتَقَدوا سِياسةَ عليٍّ كانوا ساذَجينَ في دَرْسِ التّاريخِ على مُقْتَضى الطّبائِعِ النّفسيّةِ، إنّ عليّاً (ع) يَجِبُ أنْ يَفْعَلَ ما قدْ فَعَلَ مِنْ عَزْلٍ وتَعْيينٍ وأخْذٍ بالشِّدَّةِ، فإنّه لنْ يُحَدَّدَ مدَى آتِّساعِ الفَوْضى، وقدْ عَلِقَتْ بالنّفوسِ، إلّا سِياسَةٌ تقومُ على هذه الشّاكِلَةِ، فإنّ كُلَّ الرّجالِ الّذين رافَقَتْهم ظروفٌ فَوْضَوِيّةٌ كانتْ سياسَتُهم تَقومُ على الحَزْمِ الشّديدِ.

وعليهِ فالثّورةُ على عُثمانَ (ض) كانتْ نتيجةً للنُّضْجِ الاجْتماعيِّ، وكانتْ إصْلاحيّةً إلى حدٍّ كبيرٍ تقومُ على فِكرةٍ بعيْنِها، ولكنْ لأنَّ فُصولَها تَتالَتْ مُسرعةً آنْتَقَلَتْ إلى فَوْضى. والّذي يَدُلّ على أنّه قد كانتْ تَعْمَلُ فيها أفْكارٌ، آنْكِشافُها عنْ نَظَرِيّاتٍ جديدةٍ منْ مِثْلِ نظريّةِ الخوارِجِ. إذاً فقدْ بَقِيَتْ لها صِفَةُ الثّورةِ إلى أنِ آبْتَدَأَ الصِّراعُ بينَ عليٍّ ومعاوِيةَ، ومِنْ

ثَمَّ آنْحَرَفَتْ وأخَذَتْ صِفَةَ الفَوْضى، وهذهِ الصِّفةُ لها كانتْ تَروقُ في عينِ مُعاويةَ فَدَفَعَ الجِزْيَةَ إلى مَلِكِ الرّومِ لإطالة الصِّراعِ، فإنّ منْ أُولى نَتائِجِ المُطاوَلَةِ تَمْزيقَ الأعْصابِ وإنْهاكَ الجُموعِ الّتي تميلُ مَعَه إلى الاسْتسلامِ. وقد بَقِيَ هذا الشُّعورُ يتزايَدُ في كُلِّ نَفْسٍ إلى أنْ بَلَغَ الغايةَ بوفاةِ عليٍّ (ع)، فلم يَجِدِ الحَسَنُ (ع) خُطَّةً أضْمَنَ وأفْضَلَ من الاسْتِسْلامِ.

والتّلْخيصُ العامُّ لأهَمِّ ما جاءَ في فُصولِ المقدِّماتِ ممّا هو مُتَّصِلٌ بالثَّورة هو:

أوّلاً: إنّ عُمرَ تَرَدَّدَ بينَ أنْ يَتَّبِعَ طريقةَ أبي بكرٍ أو طريقةَ النّبيِّ (ص)، وخافَ الاخْتِلافَ فجَمَعَ بينَ الطّريقَتَيْنِ. غيرَ أنّ السّتَّةَ الّذين حُصِرَ الانتخابُ بهِم آخْتَلَفوا وهو حَيٌّ، ولا شَكَّ في أنّ هذا الاخْتلافَ آنتَقَلَ إلى أنصارِهِمْ في الخارجِ وعَمِلَتِ العَصَبِيّةُ عَمَلَها وتشكَّلَتِ الأحزابُ الثّانَويّةُ. وعبدُ الرحمنِ بنُ عَوْفٍ لَعِبَ دَوْراً مُهِمّاً حينَ وسَّعَ دائرةَ الانتخابِ وآنْتقَل به نَحْوَ الشّعبِ حتّى لمْ يُتِمَّ مُدّةَ الشّورى. وذلك لأنّ علياً (ع) كانَ الفائزَ لا محالةَ في الانتخابِ التَّداوُليِّ الذي دارَ بينَ السّتَّةِ، فإنّ المُؤَهّلاتِ الّتي آجْتَمَعَتْ لهُ لمْ تَجْتَمِعْ لواحدٍ منْهم، على أنّه خاضَ معركَةَ الانتخابِ للرّئاسةِ ضِدَّ أبي بكر (ض) ولم يَخُضْها سواهُ من سائرِ السّتّةِ المجتمعينَ. ولا نَنْسَ أنّ الزُّبيرَ آنْحازَ إلى عَليٍّ ضِدَّ أبي بكرٍ في المعركةِ الانتخابيّةِ الأولى، على ما ذَكَرَهُ آبْنُ الوَرْدِيِّ في تاريخه.

ويَقولُ بعضُ مُؤَرِّخي الفَرَنْجَةِ إنّ عبدَ الرّحمنِ لم يَتْرُكِ الانتخابَ حُرّاً بلِ آسْتَعْمَلَ فيهِ طريقةَ المُداوَرَةِ والانْتِهازيّةِ، كما لم يَسْتَشِرْ عبدَ اللّهِ بنَ عُمَرَ، وهو المستشارُ في وَصِيَّةِ عُمَرَ، ولمّا نَقَلَ عبدُ الرّحمنِ الانتخابَ إلى الشّعبِ ووَسَّعَ دائرتَه، والحزبُ الأُمويُّ قدْ أعَدَّ القبائلَ لنُصْرَتِه، ونحنُ نَعْلَمُ أنّ كَثرةً من القبائِلِ كانتْ صَنائِعَ لبني أُميّةَ في القديمِ. فَتَعْيينُ التّرشيحِ في سِتّةٍ[٧] مَهَّدَ السّبيلَ لِدَسِّ الأُمويّينَ وآسْتِغلالِ الموقِفِ، وقدْ وَصَلَ إلى مِثْلِ هذه

---

(٧) المُستشرقونَ يَرَوْنَ هؤلاءِ السّتّةَ آجْتَمَعُوا من تلقاء أنْفُسهم، ويَسْتَنِدونَ إلى أنّ رجلاً مَطْعوناً لا يَسْتَطيعُ أن يُفَكِّرَ تفكيراً ما في أمْرِ

النّتيجةِ من قبلُ، سيّدُ أمير عليّ الهنديُّ. قال:

«إنَّ حِرْصَ عمرَ على مصلحةِ المسلمينَ دَفَعَهُ إلى آختيارِ هؤلاءِ السّتّةِ من خِيرةِ أهْلِ المدينةِ دونَ أنْ يَتَّبِعَ سياسةَ سَلَفِه. وكانَ للأُمويّينَ حِزبٌ قويٌّ في المدينةِ، ومنْ هنا مَهَّدَ آختيارُه السّبيلَ لمكائِدِ الأُمويّين ودَسائِسِهِم، هؤلاءِ الّذين ناصبَوا الإسلامَ العَداءَ، ثم دَخَلُوا فيهِ وسيلةً لِسَدِّ مطامِعِهم الأشْعَبِيَّةِ وتَشْييدِ صَرْحِ مَجْدِهم على أكتافِ المسلمين»[٨].

ثانياً - إنّ نِظامَ المالِ الموضوعَ في عَهْدِ عمرَ فَتَّ في عَضُدِ الجيشِ، وقدْ أصابَ ولهاوزن حينَ قالَ في كتابِهِ **المملكةُ العربيّة وسقُوطُها**: «وكانَتِ المُقاتِلَةُ تَحْتَمِلُ طالَما كانَتْ تَدُرُّ عليهم الغَنيمَةُ، ولكنْ أمّا وَقْد مَنَعَ توزيعَ الأراضي عليهِم، فقدْ لانَ عَزْمُهم وَوَهَنَتْ شَكيمَتُهم، وبعدَ أنْ كانَتِ الحُكوماتُ تَعْتَمِدُ على مُساعَدةِ الجيشِ أصْبَحَ الجيشُ يَعْتَمِدُ على مُساعدةِ الحُكومةِ، ومن ثَمَّ لا نَعْجَبُ إذا ظَنَّ المُقاتِلَةُ أنَّهم خُدِعوا منْ جانِبِ الحُكومةِ. على أنَّ المحسوبِيَّةَ ذَرَّتْ قَرْنَها في التّنْسيقاتِ والتَّعْيينات، والأُعْطِياتِ، وهذا ما يقولُه الشّاعِرُ الثّائِرُ عبدُ الرّحمن الكِنديُّ لعثمانَ:

وَلكِنْ خَلَقْتَ لنا فِتْنَةً ... لِكَيْ نُبْتَلَى بكَ أو تُبْتَلى

فأعْطَيْتَ مَرْوانَ خُمْسَ العِبادِ ... ظُلْماً لَهُم وحَمَيْتَ الحِمى

ثالثاً: الشُّعورُ بالحاجةِ إلى الإصلاح.

دقيقٍ كهذا، يَسْتَدْعي كثيراً من التَّوازُنِ وضَبْطِ الأعصابِ، ولا أجِدُ ما يَدْعو إلى الشّكّ في أنّه رشَّحَ السّتّةَ المذكورينَ. على أنّ ظاهِرَةَ هذا الضَّعْفِ وَضَحَتْ أيَّما وُضوحٍ في وَصِيَّتِه التي كانتْ أقْرَبَ إلى الأفكارِ المُتَقَطِّعَةِ المُختلِطَة. فهو يَتَمَنّى لو كان أبو عُبيدَةَ حيّاً ويَتَمَنّى لو كان سالِمٌ مولى أبي حذيفةَ حيّاً، ثمّ يَدُلُّ تارةً على عليٍّ (ع) وتارةً يَتَرَدَّدُ وتارةً يَجْعَلُها في السّتّةِ ويَأْبى إلّا أنْ يَتِمّ آنتِخابُ واحِدٍ منهُم قبلَ موتِه، ثُمّ يُمَدِّدُهُ إلى ثلاثةِ أيّامٍ من وفاته مِمّا يَجْعَلُنا نَعْتَقِد بأنّه قد عَرَتْهُ حالةٌ مَرَضِيَّةٌ جعلته يَهْجُرُ. وهذه الظّاهِرةُ الّتي تَطْبَعُ روايةَ وَصِيَّتِه تُصَحِّحُها بلا رَيْبٍ لأنّها تَحْمِلُ صِفَةَ المَنْزوفِ الخائِرِ القُوى.

(٨) راجع كتابه المسمى *A Short History of the Saracens*، ص ٥٥.

رابعاً: تجاوُزُ السُّلطةِ.

خامساً: التّكتُّلُ الحزبيُّ: فقدْ ذَكَرَ آبنُ الوَرْدِيِّ في تاريخه أنَّ هَوَى المِصْرِيّينَ كانَ معَ عليٍّ، وهوى الكوفيّينَ مع الزُّبير، وهوى البَصْرِيّينَ مع طَلْحة.

هذه هي الثّورةُ الإسلاميّةُ الأولى، وكانتْ ثورةً آجتماعيّةً رَفِيعَةً سامِيَةً، ثمّ هي لا تَقِلُّ شأْناً عنْ أنْبَلِ الثّوراتِ الإصلاحيّةِ الّتي عَرَفَها التّاريخُ. ولكنَّ الحِزبَ الأُمويَّ سَمَّمَها وآنْحَرَفَ بها إلى فَوْضى مُهَدِّمَةٍ خَطيرةٍ.

ومهْما كانتْ، ثورةً أو فَوْضى، فقدْ بَنَتِ الدّولَةَ بناءً أقْوى في الإدارةِ والنّظامِ، لولا ما حَفَلَتْ بهِ من دِماءٍ زَكيّةٍ عزيزٍ علينا طَلُّها، ومَصارِعَ لم يَزَلْ لها في أعماقِ الذِّكرى جِراحٌ ونُدوب.



الحسين (ع)
في عهد النّبي (ص)



طفولة سامية

في مَنْزِلِ السُّمُوِّ النّفسيِّ وهيْكَلِ الرّوحِ الأقْدسِ، حيثُ كانتْ عَبَقاتُ السّماءِ تَهُبُّ مِثْلَما يَتَضَوَّعُ عبيرُ الزّنبقةِ في اللّيلةِ الحالمةِ الأُضحِيانةِ[1]، وحيثُ كانتْ أرْسالُ الملائِكِ تَتَّصِلُ بالأرضِ كما يَتَّصِلُ شُؤبوبُ المطْرَةِ الرَّيِّقُ؛ هذا لِيَمَسَّ التُّربةَ بالحياةِ وهذا لِيَمَسَّ النُّفوسَ بالمَعْنى الحيِّ، بَرَزَتْ منَ الغَيْبِ طفولةٌ ساميَة...

غَرَسَ بطلٌ عربيٌّ، كما يُسمّيهِ كارلايل، في طبيعةِ العربِ نَواةً اتَّصلتْ من فَوْقِ رِمالِ الصّحراءِ، والصحراءُ أبديّةٌ مكشوفةٌ، ولكنَّ النَّواةَ لم تُخْرِجْ عُشْباً أو شيئاً يُشْبِهُ العُشْبَ، وإنّما أخْرَجَتْ إنسانيّةً مَشْبوبَةً لِتَحُلَّ في هَيْكلِ العالَمِ الخاوي، وبَقيَ اليَنْبوعُ الصّافي يطَّرِدُ على النَّواةِ ليتَّصِلَ فيها الرِّيُّ، ومنْ عينِ ذلكَ اليَنْبوعِ تَبَلْوَرَتْ طُفولةٌ ساميةٌ...

في الغارِ أوْ في الكَهْفِ[2] أسرارٌ مُبْهَمَةٌ مَجْهولةٌ، لا يَزالُ الشُّعراءُ يَقِفونَ عندَه ويَسْتَلْهِمونَ، والحُكماءُ يَتَطَلّعونَ إليه بعُيونٍ نَهِمَةٍ ويَسْتَلْهِمونَ، لأنَّ الحقيقةَ العُظْمى تَتَّخِذُ

---

(١) الأُضحِيانة هي اللّيلَةُ المُقمِرَةُ الشّديدةُ الضِّياء.

(٢) أجرى أفلاطون في الغارِ أو الكهفِ خيالَه في المَثَل والمِثاليّة.

أصدافَها منه، ولكنّها تَجذِبُ إليها البَشَريَّ الكامل لتَحِلَّ فيه، فدَخَلَ النّبيُّ (ص) الغارَ وخَرَجَ منهُ بمَعْناهُ فلمْ يَعُدْ في الغارِ ذلكَ السِرُّ المُبْهَمُ، لأنَّ الغارَ أطْلَعَ سِرَّهُ ليَمْشِيَ في ضَوْءِ النّهارِ، ومِنْ أسرارِ الغارِ الأقْدسِ آنْفَصَلَتْ طُفولةٌ سامِيَةٌ...

حينَما ضُفِّرَ إكْليلُ الغارِ على فَتى الغارِ (ص) الّذي آنْتَظَمَ الأمجادَ مجْداً إلى مجدٍ، كما تَنْتَظِمُ الأزاهيرُ على حِفافِ الوادي، آشْتُقَّتْ مِنْ مَنْظومَةِ الأمْجادِ طُفولةٌ سامِيَةٌ...

قانونُ الوِراثَةِ ناموسٌ طبيعيٌّ، والوِراثَةُ كَهْرَبائِيَّةٌ خَفِيَّةٌ تَنْتَقِلُ بتيّارِها في مراحِل النَّسْلِ المُمْتَدِّ، فتلكَ الوِراثةُ السّامِيَةُ أعْطَتْ هذهِ الطّفولةَ السّامِيَةَ...

لَيْسَتِ الأرستقراطيّةُ الحقيقيّةُ بما يَحْتَبِكُ للمَرْءِ من ظِلالِ الدُّنْيا الّتي تَغيبُ في عينِ الشّمسِ، وإنّما هي شيءٌ في الكُنهِ «الجَوْهَرِ» ومعنىً في الرّوحِ، وما خَرَجَ عنْهما أوْ وَقَعَ دونَهما فَسُخْرياتٌ وأشباهُ سُخْرياتٍ، فلِلّهِ كمْ أجَنَّتْ بما فيها من الوِراثاتِ تلكَ الطُّفولةُ السّامِيَةُ...

إنّ التّهاويلَ الّتي يَجْمَعُها المَرْءُ من حَوْلِه، حتّى يبيتَ منها في إطارٍ، لا تَجْعَلُه هائِلاً ما لمْ يكنْ هو كذلك، لأنّها ظِلالٌ لِما ثَبَتَ منها في الدّمِ، فإذا لم يَكُنْ له دمُ العِظامِيِّ فلا تَزيدُه تهاويلُهُ الّتي سَوَّرَ بها نَفْسَه، عن أنْ يكونَ دُمْيَةً تُسْنَدُ إلى حائِطٍ أو تُنْقَشُ فيهِ لتكونَ مَجْلىً للفَنِّ، وأمّا حقيقةُ الدُّمْيَةِ فهي[٣] ذاوِيَةٌ بينَ الفَنِّ الّذي تَلَبَّستْ بهِ، وبينَ النّاظرِ الّذي أُخِذَ بما فيها مِنْ بَدَواتِ الرُّواءِ، فللّهِ كمْ ثَبَتَ من التّهاويلِ في تِلْكِ الطُّفولَةِ السّامِيَة...

طفولةٌ خَرَجَتْ سامِيَةً وكبيرةً بِما آجْتَمَعَ لها من الوِراثاتِ ساعَةَ آنْفَصَلَتْ من عالَمٍ وآسْتَقَرَّتْ في عالَمٍ، وهيَ هيَ بينَ العالَمَيْنِ مَحْدودةٌ بمعنى السُّمُوِّ والكِبَرِ.

طُفولةٌ لم تكنْ تَزْهو بحَرَكةِ العَصَبِ والدَّمِ، بل بحَرَكةِ المعْنى الثّابِتِ في الدَّمِ، فهيَ

---

(٣) أكثَرُ الّذين يَظْهَرونَ بهذهِ التّهاويلِ يَفْتَقِرونَ إليها، كالمُمثِّلِ الّذي يَقومُ بدَوْرِ المَلِكِ يَضُمُّ إليه أثوابَه ومظاهِرَه ولكنّه لا يكونُ بها مَلِكاً إلّا بِمِقْدارِ ما يُشْبِعُ عَبَثَ الجُمهورِ المُشاهِدِ ويُشيعُ فيه فُضُولَه الظّامِىءَ.

تَحْمِلُ في معنى طُفولَتِها مَعْنى سَمُوِّها أيضاً...

طُفولةٌ لولا ما دَخَلَها من عُنْصرِ الزَّمَنِ، لكانَتْ حقيقةَ الكِبَرِ في الكبيرِ، فكمْ من كبيرٍ هو طِفْلٌ في مَداهُ، وطفلٍ هو الكبيرُ في مداهُ ومعناهُ...



أذان

في أُمسِيَّةِ يومٍ من أماسي شَعْبانَ[1]، وَلَدَتْ فاطمةُ حُسَيْناً فأخَذَهُ النّبيُّ (ص) وأذَّنَ في أُذُنِه كما يُؤَذَّنُ للصّلاة.

أذانٌ كان هَمْسَةً ناعِمةً خافِتَةً، وهو نِداءُ الرّوحِ للرّوحِ، وليسَ نِداءَ الأشباحِ للأشباحِ حتّى تَجْتَمِعَ على عَمَلِ الطُّقوسِ. إنّه نِداءٌ يَحْمِلُ إلى القلبِ سِرَّ وُجودِه وإلى الضّميرِ سِرَّ العِبادةِ، وعلى مَوْجاتِه الأثيريّةِ تَتلاقَحُ الرّوحانِ. إنّ نِداءَ الأشْباحِ نداءٌ للرّوحِ الشّارِدَةِ الحائِرَةِ، وهذا نِداءٌ حتّى لا تَشْرُدَ الرّوحُ أو تَتَحَيَّرَ. وهوَ بعدَ ذلكَ سَكْبٌ لكلِّ المَعْنى في كُلِّ الظُّروفِ حتّى يَتَبَلْورَ بِهِ فلا يكونَ له وُجودٌ دونَه أو بعيداً عنْه.

وهو إعلامٌ للرّوحِ الطّبيعيّةِ قبلَ أنْ تَتناوَلَها أشياءُ الحياةِ، بأنّ هذا مَبْدَأُها وهذا قاعِدَةُ

(١) رَوَى ابْنُ الأثيرِ في **أسدِ الغابةِ** أنّه وُلِدَ في لَيالٍ خَلَونَ مِنْ شَعْبانَ سنةَ أربعٍ، وكذلكَ ذَكَرَ الأصْبَهانيُّ في **مَقاتِلِ الطّالِبيّينَ**، وابْنُ حُجْرٍ في **فَتْحِ الباري** والمفيد في **الإرشاد**، والصبّان في **إسعافِ الراغبين**. ولابْنِ الأثيرِ في **أسد الغابة** روايةٌ أُخرى بأنه وُلِدَ في السّنَةِ السّابِعَةِ من الهجرةِ، ولمُحمّدِ بْنِ يَعْقوب الكليني في **الكافي** روايةٌ بأنّه وُلِدَ سنةَ ثَلاثٍ. وأخْرَجَ أبو داود والترمذي في **السُّنَن**، عن أبي رافِعٍ مولى النّبيّ (ص) قال: رَأيْتُ النّبيَّ أذَّنَ في أُذُنِ الحُسينِ حينَ وَلَدَتْه فاطمةُ كما يُؤَذَّنُ للصّلاةِ، وذَكَرَ الصّبّان في **إسعاف الراغبين** أنَّهُ حَنَّكَهُ بريقِهِ وأذَّنَ في أُذُنِهِ ودَعا لهُ وسَمّاهُ حُسَيْناً يومَ السّابعِ وعَقَّ عَنْه، وذَكَرَ المفيدُ في **الإرشادِ** أنّ النبيّ عقّ عنه كَبْشاً.

وُجودِها، فلا تكونُ بعدَ ذلكَ إلّا مُؤْمِنَةً تَقِيَّةً، لأنّ الإيمانَ أوّلُ لَوْنٍ آنْصَبَغَتْ به، والتَّقْوى آخِرُ لَوْنٍ تَتَشَكَّلُ فيه.

والأذانُ في أصْلِ مَعْناه، إعلانُ الإنْسانِ بأنّ اللّهَ يَدْعوهُ ليَعْمَلَ في طبيعتِهِ عمليّةَ التَّصْعيدِ الّتي تُرَسِّبُ ما عَلِقَ بالطّبيعةِ من أقْذاءٍ وأدْرانٍ حالَتْ بها عن أصْلِ الفِطْرة.

نَبَراتٌ يَنْطَلِقُ بها لِسانُ المُؤَذِّنِ، ولكنّها إيذانٌ بأنّ كلَّ سُمُوٍّ وطُهْرٍ، وكلَّ فضيلةٍ ومعنىً إنْسانيٍّ قدِ آنْطَلَقَ أيضاً معَ هذهِ النَّبَراتِ الرّوحانيّةِ الّتي هي لَيْسَتْ من لُغَةِ صاحِبِها ولا منْ صَوْتِه، نَبَراتٌ تَعْلو منْ فوقِ ضَجيجِ الحياةِ وصَخَبِها، ومنْ فوقِ الإنسانيّةِ المُخْتَنِقَةِ بنَسَماتِ الضَّراوَةِ والحَيَوانِيَّةِ، لِتَرُدَّها إلى الطّهارةِ الّتي وَضَعَها اللّهُ قاعِدَةً لأعْمالِها. وقرارُ الأذانِ يَتَخافَتُ في الضّمائرِ بأنّ كَلِمَةَ اللّهِ هي العُلْيا، ثمَّ يَنْقَطِعُ الرَّجْعُ لِتَبْقَى تلكَ الحقيقةُ ناطِقةً وحدَها رُغْمَ الأباطيلِ الّتي تَميدُ.

هذا الأذانُ بمعناهُ يَهْمِسُ بهِ النّبيُّ (ص) في أُذُنِ فَتاهُ، ليقولَ لتلكَ الرّوحِ المُرَفْرِفَةِ شيئاً، ولِيَبْذُرَ في نفسِه بُذوراً إذا آذَنَتْ بالنَّماءِ أعْطَتِ الخيرَ المُطْلَقَ والطُّهْرَ المحضَ والإنسانيَّةَ المهذَّبةَ.

همسةٌ ناعمةٌ في أُذُنٍ، إلّا أنّ رَجْعَها في ضميرِ الفَتى سَيَتَّصِلُ ويَتَّصِلُ ما آخْتَلَجَتِ الحياةُ به، وسَتَظَلُّ في أعماقِ نفسِه نَغَماً حيّاً يَمْلِكُ عليه آتّجاهَهُ نحوَ الفَلاحِ والبِرِّ والعملِ الصّالحِ.

أرْسَل النّبيُّ في ضميرِ الفَتى هذا النِّداءَ ليظلَّ أُنْشودَةَ نفسِهِ اللّاشُعوريَّةَ، وبذلكَ أقامَ في قلبِهِ مَعْبَداً يَنْبِضُ بأحاسيسِ التَّقْوى، وفي ضميرِه شُعوراً يفَيضُ بأحاسيسِ الفضيلةِ ثمّ لا تَخْتَلِفُ عليه. كما أقامَ في نفسِهِ، إذْ أرْسَلَ هذه الكَلِمَةَ الهادِئةَ مِشْعلاً يُضيءُ عليه، فلا تُخالِطُهُ ظَلامِيّةٌ أوْ دُجُنّةٌ في سبيلِ حياتِه المُطْمَئِنّ.

والأذانُ نِداءٌ يَمْحو فُتونَ الدُّنيا وأباطيلَها من النّفسِ ساعةً، وهذا نِداءٌ في أُذُنِ المولودِ

يحولُ دونَ وِلادةِ الفُتونِ والأباطيلِ في دُنْياهُ، وبذلكَ يَظَلُّ في دُنيا النّاسِ رَمْزاً لشيءٍ آخَرَ لا تَكْمُلُ إلّا به.

أفْرَغَ النّبيُّ (ص) بعضاً من روحِهِ في سَريرةِ الفَتى، ليُعْطِيَ بَعْضاً من النّبُوّةِ في بعضٍ من أعمالِ النّاسِ.

بَقيَ أذانُ النّبيِّ (ص) في أُذُنِ الفَتى نَشيدَ الأنْشادِ في قَلْبِه، فكانتْ آخِرُ خَلَجاتِ هذا القلبِ المفعَمِ كأوَّلِها «اللّه أكْبَرُ، اللّه أكْبَر، لا إلهَ إلّا اللّهُ».



درس وتحليل

يَحْسُنُ بنا أنْ نَعْرِضَ الآن إلى دَرْسِ ناحيةٍ هامّةٍ من نواحي طُفولةِ الحُسينِ (ع)، وهي الوِراثةُ ومكانُها منه.

يَظْهَرُ للباحثِ في قانونِ الوِارثةِ بأنّها على صِنْفَيْنِ: وِراثةٍ تاريخيّةٍ، ووِراثةٍ تأثُّريَّةٍ أوِ آنْفِعاليّةٍ؛ ونَعْني بالأولى آنْتِقالَ الصِّفاتِ النفسيَّةِ التي للأجْدادِ إلى المَوْلودِ، وبالثّانيةِ آنْتِقالَ أنواعِ الشُّعورِ الّتي تَتَأثَّرُ بها الأمُّ إلى الجَنينِ. وهذا الصِّنْفُ من الوِراثةِ ثابتُ الأثَرِ، وهو قانونٌ طبيعيٌّ تَخْضَعُ له جميعُ قُوى الإنسانِ ومدارِكه المادّيّةِ والعَقْلِيّةِ والأدبيّة. والأمثلةُ على هذا كثيرةٌ ونَذْكُرُ منها على سبيلِ الإيضاحِ ما يأتي:

كان الفيلسوفُ[1] هوبس، الإنكليزيُّ، يُعَلِّلُ ما فيه من خُلُقِ الجُبْنِ، بما لاقَتْه أُمُّه منَ الأهْوالِ أثْناءَ حَمْلِها به، حينَما كانتِ العَمارَةُ الإسبانيّةُ الشَّهيرةُ المُسَمّاةُ «أرْمادَة» تُهَدِّدُ إنكلترا، وتطوفُ حولَ سواحِلِها وكانَ ما يَتَحَمَّلُهُ أهْلُها من صورةِ إغارةِ الأعْداءِ عليهِم يُلْقي الرُّعْبَ في القُلوبِ.

---

(١) راجعْ كتاب: **التربية الاستقلاليّة**، ترجمة عبد العزيز بك محمد، ص ٥٠.

ورَوى[٢] أحدُ العُلماءِ أنَّ والِدَةَ فلاكسمان النَّقّاشِ الشّهيرِ، كانت مُولَعَةً بالفُنونِ الجميلةِ وخُصوصاً النَّقْشَ والتّصويرَ، وكانت، مُدّةَ الحَمْلِ، تُكْثِرُ من مُشاهدةِ الرُّسومِ والنّقوشِ الّتي أبْدَعها أشْهَرُ الفنّانينَ، فلمّا رُزِقَتْ وَلَدَها فلاكسمان ظَهَرَتْ عليه، وهو صَبيٌّ، مُيولٌ فِطْرِيّةٌ إلى النَّقْشِ والتّصويرِ، ولمّا بَلَغَ أشُدَّه أبْدَعَ أجملَ التّماثيلِ وأعْظَمَها.

ونحنُ على ضَوْءِ قانونِ الوِراثة، بصِنْفَيْها، نَجْتَهِدُ بأنْ نَدْرُسَ الحُسينَ (ع) ونَفْهَمَ طِباعَهُ الثّابتةَ والّتي هي في حُكمِ الثّابتة.

ذَكَرْتُ في فَصْلِ التّدَيُّنِ من هذا الكتابِ[٣]، أنّ آلَ هاشِمٍ مالوا مُنْذُ أقْدَمِ التّاريخِ إلى التّخَصُّصِ بالشُّؤونِ الدّينيّةِ، فكانوا يُشْرِفونَ على المناسِكِ في الجاهليّةِ وَيَتَوَلَّوْنَ أعْمالَها بينَ أيْدي النّاسِ. وكانَ لَهُمْ، بحُكْمِ هذا التّخَصُّصِ، تَرْبيَةٌ خاصّةٌ تَتَّصِلُ اتّصالاً وَثيقاً بإبداعِ الضّميرِ الدّينيِّ، وإذْكاءِ الشّعورِ ذي اللّونِ التألُّهِيِّ. وبالفِعلِ نَرى أكثرَ رِجالاتِهم في الجاهِلِيّةِ يَضْفو عليهم شُعورٌ من هذا القبيلِ، فهاشمٌ وعبدُ المطّلِبِ وأبو طالبٍ، ثلاثَتُهم، على لَوْنٍ واحدٍ من النُّزوعِ الدّينيِّ والأخْذِ الاجْتماعيِّ. وقد كَمُلَتِ الوِراثةُ الدّينيّةُ بالنّبيِّ (ص) إذْ كانَ مَظْهَراً للضّميرِ الدّينيِّ على أتَمِّ أشْكالِه وأكْمَلِ أوْضاعِهِ.

إذاً فالحسينُ كانَ غنِيّاً، ما في ذلك شكٌّ، بما تَراكَبَ في دمِهِ من الوِراثاتِ الدّينيّةِ المُتَّصلةِ على طولِ حَبْلِ النَّسْلِ المَمْدودِ في أعْماقِ الماضي البعيدِ.

ولقدْ كان لهذه الوِراثةِ بَوادي ظاهِرَةٌ في كُلِّ تَصَرُّفاتِهِ الخاصّةِ والعامّةِ، وعليهِ فإنّ من الواجِبِ أنْ نَدْرُسَ مآتيهِ على ضَوْءِ هذه الوِراثةِ الدّينيّةِ النّبيلةِ، وعلى ضَوْءِ ما تُضْفي منْ أحاسيسَ تَنْزِعُ بصاحبِها إلى المحافظةِ والتّمَسُّكِ بأهْدابِ المُثُلِ، وسَكْبِ الجُهودِ بسبيلِ صيانَتِها.

هذا أثَرُ الوِراثةِ التّاريخيّةِ في الحُسينِ (ع). والآنَ نَتَناوَلُ أثَرَ الوِراثةِ التأثُّرِيّةِ عليه. نَعْلَمُ

(٢) راجع كتاب: **التربية الأخلاقيّة** للأستاذ أبادير حكيم، ص ٧٩.

(٣) راجع فصل التديّن، ص ٨١ من هذا الكتاب.

أنّ السّيّدةَ فاطمةَ وَضَعَتِ الحُسينَ ولها من العُمرِ عِشْرونَ[٤] سنة تقريباً، وكانتْ، كما جاءَ في مناقِبِها، عَمَلاً بِرّاً ومَغْنىً صالحاً، فهي لا تَفْتَأُ جاهِدَةً على أعمالِ التّقوى. وفي سنةِ ثلاثٍ للهِجْرَةِ الّتي كانَ فيها الحسينُ جَنيناً، وَقَعَتْ غزوةُ أُحُدٍ، وهذهِ أحْدثَتْ أبْلغَ الأسى وأعْمَقَه في النّفوسِ عامّةً، ونَشَرَتْ على الوُجوهِ نَوْعاً من الكآبةِ، ومَسَحَتْها بسَهامَةٍ قاتِمَةٍ، بِسَبَبِ ما أصابَ المُسلمينَ، حتّى وَلَجَتِ الوتيرةُ والدّخلُ كلَّ بيتٍ، والنّبيُّ (ص) أُصيبَ بعمِّه حَمْزَةَ (ض).

وهذا يُشْعِرُنا بأنّ السّيّدةَ فاطمةَ جَزِعَتْ من نتائجِ هذه الغَزْوَةِ الّتي نَبَتْ فأصابَتْ جَيْشَ أبيها، وأدْرَكَها الأسَى العميقُ والحُزْنُ المريرُ بفَقْدِ حَمْزَةَ. ومعنى هذا أنّ الانْفِعالاتِ الّتي تأثّرتْ بها وَرَّثَتْها لجنينِها وهي:

١ـ أخْذُ النّفْسِ بأعمالِ البِرّ والتّعَلّقُ بحبائلِ التّقْوى.

٢ـ غَلَبَةُ الشّعورِ بنَوْعٍ منَ الأسى، فقدْ كانتْ هذه الظّاهرةُ واضحةً عندَ الحُسينِ في حياتِه. ولذا نَراهُ قليلَ المَرَحِ قليلَ العَبَثِ، كثيرَ التّفكيرِ بمستقبلِ الأُمورِ وَسَطَ هذه الزّعازِعِ النّاشِبةِ والعالِقَةِ بأطْرافِ المجتمعِ، وكانَ يَميلُ في تفكيرِهِ إلى نَوْعٍ من الأسَى.

٣ـ نُضْجُ السّخيمةِ عندَه على النّاكِلِينَ عنْ طريقِ الهُدى، فإنّ السّيّدةَ فاطمةَ لا شَكَّ في أنّهُ قدْ مَلَكَ مشاعِرَها تَحَرُّقٌ شديدٌ للتِّرَةِ منْ أعْداءِ أبيها ولو في التّمنّي، وهذا الشّعورُ وَرِثَهُ الحُسينُ، وشاءَتِ الظّروفُ أنْ يكونَ أعْداءُ جَدِّهِ الّذين وَتَروهُ في أُحُدٍ، هُمْ أعْداءَهُ يومَ آسْتَقْبَلَ الأُمويّينَ بالكِفاحِ وقَدْ وَتَروهُ أيضاً.

---

(٤) الخِلافُ في هذا يَتْبَعُ الخِلافَ في سِنّها حينَ تَزَوَّجَتْ من عَليٍّ (ع) فعندَ آبْنِ سَعْدٍ في الطبقات أنّها تَزَوَّجَتْ بنتَ ثماني عَشْرَةَ سَنَةً، وعندَ الكَلْبِيِّ أنّها تَزَوّجَتْ بِنتَ سِتٍّ وعِشرينَ سَنَةً، وعندَ الصّبان في **إسعاف الرّاغبين** أنّها تَزَوّجتْ بنتَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وعند الكليني أنّها تَزَوَّجَتْ بنتَ آثْنَتيْ عَشْرَةَ سَنَةً، والصّوابُ مِنْ بينِ هذه الآراءِ أنّها تَزَوَّجَتْ بنتَ ثماني عَشْرَةَ كما يَقُول آبْنُ سعدٍ وَرّاق الواقدي.

فالحسينُ منْ هذهِ النّاحِيَةِ كانَ مُثْقَلاً بِمَتارِكِ الوِراثةِ التّأثُّرِيّةِ ومُتَلَبّدات الوِراثةِ التّاريخيّةِ، وهو مِنْ بينِ هاتَيْنِ الوِراثَتَينِ، كانتْ له سيرتُه الخاصّةُ ونهجُهُ الخاصُّ الّذي يَنْزِلُ منهُ مَنْزِلةَ الطَّبْعِ لا يَحورُ عنهُ ولا يَحولُ.

ولقدْ ساعَدَ هذه الوِراثةَ على آتِّباعِ خُطَّتِها، لونُ التّربيةِ في الطُّفولةِ، ومشاهِدُ الرُّجولةِ الكبيرةِ الأهمِّيَّةِ، ومُرورُه بعدَّة ثَوراتٍ لها خَطَرُها كالثّورةِ على عُثمان، وثورةِ الخوارجِ على أبيهِ، وثورةِ أهلِ المدينةِ الّتي كانت تُعَدُّ في الخَفاءِ.

فهذه الوِراثةُ، وما آقْتَرَنَ بها من التّربيةِ والمُشاهَداتِ، أعَدَّتْ منهُ رَجُلاً كبيراً خَليقاً بأنْ يقومَ بتطْبيقِ أفكارِ الإصلاحِ الشّاملِ الّتي أعَدَّها أبوه العظيمُ، وسَلَكَها في نِظامٍ دُستوريٍّ نَضيدٍ.

وإنْ كُنْتُ أعْجَبُ من شَيءٍ، فمِنْ أولئِكَ المؤرِّخينَ الذين يَأْخُذونَه بحَرَكتِهِ ويَعْنُفُونَ عليهِ، ونحنُ في كُلِّ يومٍ نُحَيِّي، كأبْطالٍ، الرِّجالَ الّذينَ يَثورونَ على حُكوماتِهم الفاسِدةِ لقلْبِ وَضْعٍ وتركيزِ وَضْعٍ، ونَنْتَزِعُ منهم عَناوينَ مجيدةً عنِ القَلْبِ الكَبيرِ النَّبيلِ الذي يَفيضُ بأسْمى معاني الإخلاصِ. مِنْ هؤلاءِ أو أعْظَمَ هؤلاءِ كانَ الحسينُ بنُ عليّ...

المَرْبَت أو المَرْبَى النّبويّ

حَفَلَ النّبيُّ (ص) بمَوْلودِه، ثمّ آنْصَرَف إليه يُمارِسُ فيهِ عملَ الإنسانِ الكامِلِ، حتّى إذا تَرَكَهُ تَرَكَ فيه إنسانيّةً رفيعةً على الشّكلِ الّذي وَضَعَ اللّهُ تصميمَه في القُرآنِ.

فالنّبيُّ (ص) كانَ يُحاوِلُ أنْ يُفرِغُ ما آنْطَوَتْ عليهِ نَفْسُه الكبيرةُ من مَكْنوناتٍ إفراغاً في روحِ الفَتى، بأُسلوبٍ كما تَشاءُ الطُّفولةُ، يَجْمَعُ بينَ طراوَتِها وبينَ جِدِّ المَعْنى الكبيرِ الّذي يُعِدُّهُ له، وكان يَعْمَلُ على أنْ يَنْقُضَ في رُقْعَةِ نَفْسِ الفَتى ما آجْتَمَعَ في رُقْعَةِ نفسِه، وكان ما آسْتَوى في نفِسِه (ص) لا يَعْدو الإنسانيّةَ المثاليّةَ والمعنى الأتَمَّ للحقِّ والإيمانِ.

فالمَرْبَتُ[1] النّبَويُّ أخرجَ آثْنَيْنِ فقطْ، كانَ أحَدُهما مِثالاً لكلمةِ الحقِّ الهادِيَةِ، وكان الآخرُ مِثالاً لتلك الكلمةِ أيضاً حينَ تُشْتَقُّ طبيعةُ النّاسِ من طبيعةِ الحديدِ المُتراكِبِ بالصَّدأ، ولا تَجْلو طبيعةَ الإنسانِ إلّا صَرْخَةُ الحقِّ المدوّيَةُ، كما لا يَجْلو طبيعةَ الحديدِ إلّا هديرُ النّارِ الفائِرُ وتلظّي الجمرِ الوقيدُ. فأحَدُهما مثالٌ للدّاعي إلى الحَقِّ، والآخَرُ مثالٌ للمُحامي الذّائِدِ

(١) كَلِمَةٌ مِنْ وَضْعِنا الجديدِ تَرْجَمَةً لكلمةِ Kindergarten (روضة الأطفال) من مادّة رَبَتَ أي ضَرَبَ على كَتِفِ الطِّفْلِ لينامَ، ويَرْجِعُ الفضلُ في إنشاءِ المَرْبَتِ إلى فريدريك فروبل الألماني الّذي دَرَسَ طبائعَ الأطفالِ ومَلَكاتِهِم وَوَضَعَ المبادِىءَ الأوّلِيّةَ لتربيتهم. راجع كِتاب: **التربية الأخلاقيّة** مرجع سابق، ص ١٥.

عنْه غامِساً نَفْسَه بالنّارِ المُلْتَهِبَةِ دونَه، وهو واثِقٌ بأنّ هذه النّارَ الّتي أُعِدَّتْ له حتّى تُسَجَّرَ عليه دَعْوَتَه، سَيَتْرُكُ فيها كلمةَ الحقِّ الّتي تَدَعُ النّارَ تَؤُجُّ وتَؤُجُّ، ثمّ لا تَتَناهى إلّا بآلْتِهامِ الّذين سَجَّروها أنْفُسِهم.

والّذي نَعْلَمُ من أساليبِ النّبيِّ (ص) التّربويّةِ للطُّفولةِ أنَّهُ يأخُذُ الجِسْمَ والعقلَ والنَّفْسَ جميعاً بعملٍ مُشْتَرَكٍ من شأنِهِ توزيعُ النَّماءِ على هذه القُوى، فلا تَضْعُفُ قُوَّةٌ بسبيلِ الأخرى، وهو من وراءِ ذلك يَغْمُرُه بالحنانِ، لِيُشْعِرَهُ بوجودِه الذّاتيِّ وتَتَكَوَّنَ بذلك شخصيّتُه الاستقلاليّة.

ذكرَ أبو رافعٍ مَوْلى النّبيِّ (ص) أنّه كان يُلاعِبُ الحَسَنَ والحُسينَ بالمَداحي[٢]. وعنْ أبي هُريرةَ أنَّ الحسنَ والحسينَ[٣] كانا يَصْطَرِعان بينَ يَدَيْ رسولِ اللّه (ص). وعن يَعْلي[٤] العامريِّ أنّ رسولَ اللّهِ (ص) خَرَجَ إلى طعامٍ فإذا حسينٌ في السِّكَّةِ مع غِلْمانٍ يَلْعَبُ، فَتَقَدَّمَ رسولُ اللّهِ أمامَ القَوْمِ وبَسَطَ يديْهِ، فجَعَلَ الغُلامُ يَفِرُّ ها هُنا وها هُنا، وجَعَلَ رسولُ اللّهِ يُضاحِكُه حتّى أخَذَه فَوَضَعَ إحْدَى يديْهِ تحتَ قَفاهُ والأُخْرى تحتَ ذَقْنِهِ وقَبَّلَه.

وعنْ شدّادٍ قالَ: خَرَجَ علينا رسولُ اللّه في إحْدى صَلاتَي العِشاءِ، وهو حامِلٌ حُسيناً، فَتَقَدَّمَ النبيُّ (ص) فوضَعَهُ ثُمّ كبَّرَ للصّلاةِ فأطال سَجْدَةَ الصّلاةِ، فرفَعْتُ رأسي فإذا الصّبيُّ على ظهرِهِ وهو ساجِدٌ، فرَجَعْتُ إلى سُجُودِي فَلَمّا قَضى الصّلاةَ، قيل يا رسولَ اللّه: إنّكَ سجَدْتَ بينَ ظَهْرَي صَلاتِك سَجْدَةً أطَلْتَها حتّى ظَنَنّا أنّه قد حَدَثَ أمْرٌ أو أنّهُ يُوحَى إليك، قال: كلُّ ذلك لم يَكُنْ، ولكِنَّ آبْني آرْتَحَلَني فَكَرِهْتُ أن أُعْجِلَهُ حتّى يَقْضِيَ حاجَتَه.

---

(٢) ذَكَرَهُ آبْنُ الأثير في النّهاية. والمَداحي جمع أُدْحِيَّة وهي أحْجارٌ يَحْفِرونَ لها حُفَراً يَحْذِفُها إليها المُلاعِبُ فإنِ آسْتَقَرَّ الحجرُ فيها غَلَبَ وإلّا غُلِبَ.

(٣) ذَكَرَهُ آبْنُ الأثيرِ في أسد الغابة، ج ٢.

(٤) إبنُ ماجة في السّنن، وآبْنُ عساكر في التاريخ، ج ٤، ص ٣١٥.

وذَكَرَ البَزّازُ الكردريُّ أنَّ عبدَ الرّحمنِ السّلميَّ كان يُعَلِّمُ الحسنَ والحسينَ القرآنَ.

هذهِ بعضٌ من أخبارِ الحسينِ (ع) وهي تُرينا أَلْوانَ التّربيةِ الّتي كانَ النّبيُّ يأخُذُه بها، وفيها كلُّ ما يُحْسَبُ من سُمُوٍّ وكلُّ ما يُحْسَبُ من تكميل. وفي تَناوُلِ النّبيِّ (ص) هذه الحقيقةَ الكونيّةَ بكُلِّ حنانِه إشعارُها بأنْ تَـتَناوَلَه الإنسانيّةُ بكُلِّ حنانِها.

درس وتـحليل: يحْسُنُ بالدّارسِ أنْ يُنْعِمَ النّظرَ كثيراً في هذه الفَتْرَةِ أو المُدَيْدَةِ من حياةِ الحُسينِ (ع)، لأنّها تُفْهِمُنا سِرَّ حَرَكاتِهِ الّتي أتاها في أزْمانِ رُجولته، فإنّ هذا الوُجودَ الصّغيرَ للكائنِ يَطْبَعُ عليهِ وجودَه الكبيرَ بطوابِعَ قَلَّما يَتَحَلَّلُ منها أو يَتَنَصَّلُ من آثارِها. فَتَعَهُّدُ الطّفلِ في هذا الدَّوْرِ هو ما يجعلُنا نَطْمئِنُّ إليه ونَثِقُ به، فإنّ رعايةَ غرائزِهِ وتوجيهَها يَحْفَظُ عليه توازُنَه الّذي هو أُسُّ الشّخصيّةِ الكاملة.

ويجدُرُ بي أنْ أنْقُلَ تصويرَ الأستاذ بستالوزي وتمثيلَه الرّائعَ للتّربيةِ، قال:

«تَـتَمَثَّلُ ليَ التّربيةُ بشجرةٍ مُثْمِرةٍ بجانبِ جَدْوَلِ مياهٍ جارٍ، وما أصْلُها إلّا حبّةٌ صغيرةٌ أوْدَعَ الخالِقُ فيها شَكْلَ هذهِ الشّجرةِ وخواصَّها وأثمارَها، فلمّا غُرِسَتْ وتَعَهَّدَها الزّارِعُ بما يُساعِدُ الطّبيعةَ على عَمَلِها ظَهَرَتْ تلكَ الحَبّةُ في شكلِ نباتٍ، ثُمّ نَمَتْ وتَرَعْرَعَتْ حتّى كَبُرَتْ وأيْنَعَتْ وأثْمَرَتْ، وما هِيَ إلّا الحبّةُ الصغيرةُ مُكَبَّرَةً ناميَة.

وهذا هو الحالُ في الطِّفلِ الّذي أوْدَعَ فيه الخالِقُ تلكَ القُوَى الّتي تَنْمو وتَظْهَرُ معهُ بالتَّدريب، فتَنْمو أعضاؤه ومَلَكاتُه تدريجاً حتّى يُصْبِحَ من مَجْموعِها وَحْدَةً. فَيَجِبُ على المُربّي أنْ يُساعِدَ قُوى الطِّفلِ البَدَنِيّةَ والأدبيّةَ والعقليّةَ على النُّمو الطّبيعيِّ، دونَ آسْتِعمالِ الطُّرُقِ الصّناعيّةِ، فيجبُ أنْ يُنْمَى الإيمانُ في الطِّفلِ لا بِواسِطَةِ الكلامِ النّظريِّ، بل بما يُنَشَّأُ عليهِ الطِّفلُ بِتَصْدِيقِهِ الفِعليِّ ورُسُوخِ الاعتقادِ في نَفْسِه».

هذا تَمْثيلٌ حقيقيٌّ لِعَمَلِ التّربيةِ في إنماءِ القُوى الأدبيّةِ وما إليها، وهي لا تزالُ تَعْمَلُ عملَها حتّى تعودَ الأدبيّاتُ مَلَكاتٍ راسِخةً. وبذلك يَتَحَقَّقُ الغَرَضُ الأسْمى منَ التّربيةِ

الأخلاقيّةِ، الّذي هو أنْ تَستحيلَ الأفعالُ الأخلاقيّةُ الإراديّة أفعالاً لاإراديّةً، على ما يَقولُ لوبون في كتابه **روح التربية**.

هذا الغَرَضُ التّربويُّ هو الّذي أرادَ النّبيُّ (ص) أنْ يُشِيعَهُ في نَفْسِ الغُلامِ، وكذلك عليٌّ (ع) من بَعْدِهِ الّذي ما فَتِيءَ يَمُدُّهُ بالمعنويّةِ المُتَدَفِّقَةِ، تلك المعنويّةِ الّتي لم يَكُنْ يُدْرِكُها آنحسارٌ، بل هي في مدٍّ على الدّوامِ، وذلك لأنَّ إيمانَهُ كانَ غَرْسَ الطّفولةِ والشّبابِ والكُهولةِ والهَرَمِ، فأدبيّاتُ الإسلامِ ومثاليّاتُه عادَتْ في نَفْسِ الفتى من الصِّنْفِ اللّاإراديِّ.

والإسلامُ، في طُقوسِه ورِياضاتِه، يَرْمي إلى هذا الهدفِ العميقِ، الهدفِ الّذي كانَ يَعْمَلُ له أهلُ إسبرطةَ القُدماءُ، كما يقول مونتسكيو في كتابه **روح الشرائع**، فإنّهم كانوا يَفْهَمون التّربيةَ لا على شَكْلٍ أنْ يكون المرءُ معها فاضِلاً، بلْ على شكْلٍ أنْ لا يُمْكِنَ له أنْ يكونَ إلّا كذلك. فأعمالُ الفضيلةِ عندَهم لا تكونُ شيئاً إذا كان يَصْحَبُها القَصْدُ الأخلاقيُّ، فإنّها بذلكَ تكونُ مُتَكَلَّفَةً سَرعانَ ما تَحُورُ إذا وَجَدَتِ الدّوافِعَ عنْها والجَواذِبَ إلى مُنافِياتِها، فالإسبرطيُّ كانَ يَصْدُقُ لا لأنَّ الصِّدْقَ فضيلةٌ وعملٌ من الأخلاقِ بل لأنّه لا يَسْتَطيعُ أنْ يَكونَ إلّا كذلكَ.

هذا النّوعُ من التّربيةِ عندَ الإسبرطيّينَ هو ما سَنَّتْ مِثْلَهُ الرّياضَةُ التّربويّةُ في الإسلامِ، فالمُسْلمُ الصّحيحُ الإسلاميّةِ فاضِلٌ عَصَباً ودَماً قبلَ أنْ يكونَ كذلك في المَيْلِ والشُّعورِ. وللمُسْلِمِ طبيعةٌ كأنّها مُشْتَقَّةٌ من الطَّبْعِ كما يَتَفَتَّحُ ويَنْشَقُّ عنه بُرْعُمُ النّافِجَةِ (وعاء المِسْكِ) لا تُنْتِجُ إلّا ما آسْتوى في تَرْكيبِها، وتركيبُ المسلم الصّحيحِ آسْتوى على مُثُلٍ من الفَضيلةِ وأعمالٍ من الأخلاقِ، فهو لا يجاوزُها إلّا إذا لم يَكْمُلْ تركيبُه الإسلاميُّ أو نَقَصَ منه شيءٌ أفْسَدَ على آليّتِها حركتَها.

فالنّبيُّ (ص) كذلك أرادَ سِبْطَهُ، فبارَكَ طُفولتَه وأخذَه بضَرْبٍ من التّهذيبِ العميقِ الّذي كانتْ له نتائجُ مُثْلى، بواسطةِ ما يَدْعونَهُ، في الفلسفةِ، بالفَعاليّةِ الصّامِتَةِ الكامِنَةِ في

وسُقوط الدّولة الرّومانية. ومن المُسْتَحْسَنِ أنْ أنْقُلَ هنا ما جاء في مؤلَّفِ بستالوزي[٧] النّفيسِ فيما يَتعَلّقُ بالتّربيةِ الدّينيّةِ لِنُشَخِّصَ أثَرَ والدتِهِ فيه، قال:

«وهنا أسْعى لحلِّ مَسْألتي في نفسي، فأسْألُ كيفَ تَوَلَّدَتْ فكرةُ اللّهِ في نَفْسي؟ وكيفَ وصلتُ للاعْتقادِ فيهِ تعالى حتّى أرْتَمِيَ بينَ ذِراعيْهِ وأشْعُرَ بنعمتِهِ كلَّما أحْبَبْتُه واعْتَمَدْتُ عليه وشَكَرْتُه وأطَعْتُه؟

فأرى أنَّ هذه الإحساساتِ، إحساساتِ المحبّةِ والشُّكرِ والثّقةِ والطّاعةِ، لا بُدَّ من وجودِها في داخلي قبلَ أنْ أشْعُرَ بها نحوَ اللّهِ تعالى. إذْ يَجِبُ أنْ يكونَ لديَّ هذهِ المحبّةُ والشُّكرُ والثِّقةُ والطّاعةُ نحوَ الناسِ قبلَ شُعُوري بالمحبّةِ والشّكرِ والثّقةِ والطّاعةِ نحوَ اللّهِ تعالى. لأنّ مَنْ لا يُحِبُّ أخاهُ الّذي يراهُ فكيفَ يُمْكِنُ أنْ يُحِبَّ اللّه تَعالى الّذي لم يَرَه؟

حينَئِذٍ أسْألُ نفسي كيفَ وَصَلْتُ إلى مَحَبَّةِ النّاسِ وشُكرِهم وطاعتِهم والثِّقةِ فيهم؟ وكيفَ نَمَتْ هذه الإحساساتُ في طبيعتي حيثُ تَشكلُ المحبّةُ الإنسانيّةُ والشُّكرُ الإنسانيُّ والثّقةُ الإنسانيّةُ والطّاعةُ الإنسانيّة؟ فَأجِدُ أنّ الأصْلَ الوحيدَ لكلِّ هذهِ العواطفِ تَأتّى مِنَ العَلاقاتِ الكامِنَةِ بينَ المولودِ ووالدَيه. فالوالِدَةُ، بما أُوْدِعَ فيها منَ الغريزةِ الفِطْريّة، مدفوعةٌ إلى العنايةِ بمولودِها فَيَبْتَهِجُ خاطِرُه، ومنْ ذلك تَتَوَلَّدُ في فُؤادِهِ عاطفةُ المحبّةِ والثّقةِ والشُّكرِ. يَعْرِفُ الطّفلُ وَقْعَ قَدَمَيْ والدتِه ويَبْتَسِمُ كلّما شاهدَ خيالَها، ويُحِبُّ كُلَّ مَنْ على شاكِلَتِها، ويَعْتَقِدُ أنّ كلَّ مَخْلوقٍ مثلِها هو مخلوقٌ طيِّبٌ، فكَما يَبْتَسِمُ في وَجْهِ والدتِه

---

(٥) راجعْ كتاب: **الفلسفة الحديثة**، ج ١، ص ٦٥. تعريب جميل البحرة، طبع دمشق سنة ١٩٣٧، ورَأيْتُ في كتاب: **درس في الغرائز**، أنّ أبا العلاءِ كَفَتْهُ الحاضِنَةُ الّتي بَقِيَتْ عامِلةً عندَه إلى سِنِّ الثالثةِ أن تُزَوِّدَهُ بخيالٍ تَصْويريٍّ عميقٍ فَتَأتّى له معها أنْ يُتْحِفَ الأدبَ بكثيرٍ من الصّورِ الشّعريةِ الرّائعة.

(٦) Le seuil de la conscience

الكَبيرةِ. والظّاهِرَةُ البادِيةُ في تربيةِ النّبيِّ الّتي كانت لا تَخْفى حتّى لكَأنّها المدارُ هي الأخلاقُ، وأنّها قبلَ كلِّ شيءٍ. وهذا أساسٌ متينٌ، فإنّ الأخلاقَ عاملُ تَقَدُّمٍ وبقاءٍ، كما أنّ آنْحِلالَها عاملُ السّقوطِ الآكَدُ، على ما يَظْهَرُ مِنْ مُطَوَّلِ جيبون، المؤرِّخِ الشّهيرِ، عن **رِفْعَة وسُقوط الدّولة الرّومانية**. ومن المُسْتَحْسَنِ أنْ أنْقُلَ هنا ما جاء في مؤلَّفِ بستالوزي[7] النّفيسِ فيما يَتَعَلَّقُ بالتّربيةِ الدّينيّةِ لِتُشَخِّصَ أثَرَ والدتِهِ فيه، قال:

«وهنا أسْعى لحلِّ مَشألتي في نفسي، فأسْأَلُ كيفَ تَوَلَّدَتْ فكرةُ اللّهِ في نَفْسي؟ وكيفَ وصلتُ للآعْتقادِ فيهِ تعالى حتّى أرْتَمِيَ بينَ ذِراعيْهِ وأشْعُرَ بنعمتِهِ كلّما أحْبَبْتُه وآعْتَمَدْتُ عليه وشَكَرْتُه وأطَعْتُه؟

فأرى أنَّ هذه الإحساساتِ، إحساساتِ المحبّةِ والشُّكرِ والثّقةِ والطّاعةِ، لا بُدَّ من وجودِها في داخلي قبلَ أنْ أشْعُرَ بها نحوَ اللّهِ تعالى. إذْ يَجِبُ أنْ يكونَ لديَّ هذهِ المحبّةُ والشُّكرُ والثّقةُ والطّاعةُ نحوَ الناسِ قبلَ شُعُوري بالمحبّةِ والشّكرِ والثّقةِ والطّاعةِ نحوَ اللّهِ تعالى. لأنّ مَنْ لا يُحِبُّ أخاهُ الّذي يراهُ فكيفَ يُمْكِنُ أنْ يُحِبَّ اللّه تَعالى الّذي لم يَرَه؟

حينَئِذٍ أسْأَلُ نفسي كيفَ وَصَلْتُ إلى مَحَبّةِ النّاسِ وشُكرِهم وطاعتِهم والثّقةِ فيهم؟ وكيفَ نَمَتْ هذه الإحساساتُ في طبيعتي حيثُ تَسْكنُ المحبّةُ الإنسانيّةُ والشُّكرُ الإنسانيُّ والثّقةُ الإنسانيّةُ والطّاعةُ الإنسانيّة؟ فَأجِدُ أنّ الأصْلَ الوحيدَ لكلِّ هذهِ العواطفِ تَأتّى مِنَ العَلاقاتِ الكامِنَةِ بينَ المولودِ ووالدَتِه. فالوالِدَةُ، بما أُوْدِعَ فيها منَ الغريزةِ الفِطْريّة، مدفوعةٌ إلى العنايةِ بمؤلودِها فَيَبْتَهِجُ خاطِرُه، ومنْ ذلك تَتَوَلَّدُ في فُؤادِهِ عاطفةُ المحبّةِ والثّقةِ والشُّكرِ. يَعْرِفُ الطِّفلُ وَقْعَ قَدَمَيْ والدتِه ويَبْتَسِمُ كلّما شاهدَ خيالَها، ويُحِبُّ كُلَّ مَنْ على شاكِلَتِها، ويَعْتَقِدُ أنّ كلَّ مَخْلوقٍ مثلِها هو مخلوقٌ طيِّبٌ، فكَما يَبْتَسِمُ في وَجْهِ والدتِه

---

(٧) إسم هذا المؤلّف: *How Gertrude Teaches her Children* أي: كيفَ تُعَلِّم جرترود أولادَها.

يَبْتَسِمُ في وجهِ كُلِّ إنسانٍ. يُحِبُّ كلَّ مَنْ تُحِبُّهُ ويعانِقُ كُلَّ مَنْ تُعانِقُهم، ومِنْ ذلك تَتَوَلَّدُ فيهِ عاطفةُ الإنسانيّةِ والإخاء.

فالمحبّةُ بنتُ الحاجةِ وعنْها نَشَأَتْ، والشُّكرُ مولودُ التَّغْذِيةِ ولولاها لَما أزْهَرَ في فؤادِ الطِّفلِ، والثِّقةُ بنتُ العِنايةِ، والطّاعةُ وَليدَةُ القَلَقِ، فنرى الطِّفلَ يَصْرُخُ ويَقْلَقُ قبلَ تَعَلُّمِهِ الصَّبْرَ والطّاعةَ. ومَعَ أنّ القلقَ والصّبرَ مُتناقِضانِ فإنّ أوّلَهما يُؤدّي إلى الثّاني. ومنْ هذا يَنْتَقِلُ الطِّفلُ من درجةِ الطّاعةِ القَهْريّةِ إلى الطّاعةِ الاخْتِياريّةِ الّتي تَنْمو مَعَ الزّمنِ بزيادَةِ الإدْراكِ ونُمُوِّ الاخْتِيار.

مِن آرْتِباطِ الطّاعةِ والمحبّةِ والشّكرِ والثّقةِ وآتِّحادِها في نفسِ الطّفل يَتَوَلَّدُ الضّميرُ، وبهِ يُشْرِقُ على عَقْلِ الطِّفلِ لأوّلِ مَرّةٍ في حياته. ثُمّ يَرْتَقي إدراكُهُ فَيعْلَمُ بأنّ كلَّ ما في الوُجودِ لم يُخْلَقْ له وَحْدَه، ثُمّ[8] يَتَدَرَّجُ في سُلَّم التّرَقّي حتّى يَصِلَ إلى أعْلى درجاتِ الشُّعورِ الإنسانيِّ فَيُدْرِكَ أنّه، هو نفسَهُ، لم يُخْلَقْ في هذا الوُجودِ لذاتِه، ومنْ هُنا يَبْدَأُ بمعْرفةِ الواجِبِ والحقّ.

هذهِ أُمّهاتُ الفضائلِ الأدبيّة، وجميعُها مُنْبَثِقَةٌ عن العَلاقاتِ الكائنةِ بينَ الوالدةِ ومَوْلودِها. ومتى نَما وَقوِيَ وأنِسَ من نَفْسِه القُدْرَةَ على القِيام بحاجاتِه، دبَّتْ في صدرِه روحُ الاسْتقلالِ وشَعَرَ بأنّ له شخصيّةً مُستقلّةً عن والدتِه، وبزوالِ حاجاتِه الأولى نحوَ والدتِهِ تَضْعُفُ من نفسِهِ تلكَ العواطِفُ والفضائِلُ الّتي غَرَسَتْها هذه الحاجاتُ. حينَئِذٍ تُحَدِّثُه نفسُه الأمّارةُ بالسّوءِ، فيقولُ إنّني لستُ في حاجةٍ بعدُ إلى والدتي. وهذهِ الفِكرةُ لا بُدَّ أنْ تَضْطَرِعَ في نفسِه بمُجَرّدِ شُعورِه بالاسْتِقلالِ، وواجِبُ الأُمِّ هنا عظيمٌ جِدّاً وإلّا تهدَّمَ عليهِ بِناءُ

---

(٨) قال بَسْتالوزي في موضوعٍ آخَرَ من مُؤَلَّفِه: «وواجِبُ الأُمّ في هذهِ الأدوارِ عظيمٌ جدّاً وتوفيقُها في مُهِمّتِها التربويّةِ يَرْجِعُ إلى درجةِ آسْتِعدادِها هي وتَهْذيبِها». والسّيّدةُ فاطمةُ آبنةُ الرّسولِ الأعظمِ كانتْ الأوْفَرَ آسْتِعداداً والأسْمى تَهْذيباً.

المبادِىءِ الأدبيّةِ الّتي آنسَ بها وهو فَطيمٌ، ولا وسيلةَ لإنقاذِه من هذا الموقِفِ الحَرِجِ إلّا بتوجيهِ عواطِفِه وعقلِهِ إلى قُوَّةٍ أعظمَ وقدرةٍ أتمَّ وأوْفى من قُوّتِها وقُدْرَتِها، مُرْشِدَةٍ له بأنّه، وإنْ زال آحْتِياجُه إليها، إلّا أنَّ خالقَه وخالقَها ومُوْجِدَ هذا الكَوْنِ والوُجودِ ومُبْدِعَ جميعِ الكائناتِ، هو الّذي يجبُ الاعْتِمادُ عليه والرُّجوعُ إليه، وهو الّذي يَمُدُّهُ بالمُساعدةِ الّتي تَعْجِزُ هي عنْ تَقديمِها له كُلّما آلْتَمَسَها منه تَعالى، وهوَ مَصْدَرُ كُلِّ راحةٍ كما أنّه الّذي يُمَهِّدُ له سُبُلَ السّعادةِ الّتي ليسَ للوالدةِ إليها سبيلٌ.

بهذه الواسطةِ تَمْنَعُ الوالِدةُ الحكيمةُ وَلَدَها منَ السُّقوطِ في هذه الرّذيلةِ، وتَغْرِسُ في فُؤادِهِ شُعوراً حيّاً ومقاصِدَ عاليَةً، وإيماناً ثابتاً في الخالقِ يَرْتَفِعُ بنفسِ المَوْلودِ عنْ مُستوى هذه المادّيّاتِ المحيطةِ بهِ، فَيَبْتَهِجُ كُلَّما سَمِعَ من فَمِ والدتِه آسْمَ ذلك الخالقِ القويِّ الرّحيم، ويَشْعُرُ فُؤادُهُ نحوَ اللّهِ بذلكَ الحُبِّ والشُّكْرِ والثّقةِ الّتي كان يَشْعُرُ بها نحوَ والدتِهِ فَيَتَطَلَّعُ إليه تعالى كوالِدٍ رَحيم.

مَتى غُرِسَتْ في فُؤادِ الطِّفلِ هذه الفَضائِلُ نَحْوَهُ تَعالى، خَطا نَحْوَ الفضيلةِ والتّقوى خُطْوَةً واسِعةً، لأنَّ الشّابَّ الّذي يَتَطَلّعُ إلى اللّهِ وهو في عُنْفُوانِ شَبابِهِ، كما كان يَتَطَلَّعُ إلى والدتِهِ في سِني طُفوليَّتِهِ، يقومُ بعَمَلِ الواجبِ والصّوابِ حُبّاً في اللّهِ كما كانَ يَعْمَلُهُما حُبّاً في والدتِه.

على هذهِ المُلاحظةِ الجديرَةِ بالاعْتبارِ، يَجِبُ أنْ تُؤَسَّسَ التّربيةُ الأخلاقيّةُ، فإنّنا إذا أدْرَكْنا أنَّ عواطفَ المحبّةِ والشُّكرِ والثِّقةِ والطّاعةِ هي ثَمَرَةُ آئتِلافٍ غَريزيٍّ بينَ الوالدةِ والمَوْلودِ، أمْكَنَنا أنْ نُدْرِكَ أنّ نُمُوَّ هذهِ العواطفِ والفَضائِلِ يَتَوَقَّفُ على مِقدارِ تَشَبُّعِ نفوسِنا والعملِ بمبادىءِ الأخلاقِ؛ يَجِبُ على الوالدةِ أنْ تَتَأَكَّدَ مِنْ أنّه لا بُدَّ من يوم في حياةِ كُلِّ مولودٍ في هذا الوُجودِ، تَضْعُفُ في نَفْسِه تِلْكَ الأسبابُ، ويَشْعُرُ فيه بآسْتِغنائِه عن والدتِهِ، وبدُخولِ هذا الشّعورِ إلى نَفْسِه، تَضْعُفُ هذه العواطفُ فيه نحوَها، وبهذا يَتَسَرَّبُ إليه

الضَّعْفُ الأخلاقيُّ الّذي يَجْعَلُه عُرْضَةً لأخطارٍ أدبيّةٍ مُخيفةٍ. فالطّفلُ، كما لاحظْنا فيما سلَفَ، يُحِبُّ والدتَه ويَشْكُرُها ويَعْتَمِدُ عليْها ما دامَ هو في حاجةٍ إليها. كذلك هو يُحِبُّ الخالقَ تعالى ويَشْكُرُه ويَعْتَمِدُ عليهِ ما دامَ يَشْعُرُ بآحْتِياجٍ إليه. وبزوالِ هذه الأسبابِ تزولُ نتائجُها، فَتَضْعُفُ العواطِفُ الطّيّبةُ في فُؤادِ الطّفلِ نَحْوَ والدتِه حالَما يَشْعُرُ بآسْتِقْلاله وعَدَمِ حاجَتِه إليها».

من هذا نَتَبيَّنُ أنّ الطّفلَ يَتَعَرّضُ إلى دورِ آنْتقالٍ خطيرٍ، والأُمُّ وحدَها هي الّتي تَسْتَطيعُ إنْقاذَه والاستيلاءَ على مشاعِرِه لتَوْجِيهِها تَوْجِيهاً آخَرَ يكونُ أكْثَرَ ثباتاً، وهذا التَّوْجيهُ الّذي هو من وظائفِ الأمّ الأوّليّةِ يَتَوَقّفُ ويَتَفاوَتُ على ما آسْتَوى في نفسِها من أدبيّاتٍ ساميَةٍ وأخلاقٍ رَفيعة.

والّذي آنْتهى إلينا من مجموعةِ أخبارِ الحسينِ (ع)، أنّ أُمَّه عُنِيَتْ بِبَثِّ المُثُلِ الإسلاميّةِ الاعْتِقاديّةِ لِتُشيعَ في نَفْسِه فِكرةَ الفضيلةِ على أتمِّ معانيها وأصَحِّ أوْضاعِها، ولا بِدْعَ فإنّ النّبيَّ(ص) أشرفَ على تَوْجيهِه أيضاً في هذا الدّوْرِ الّذي يَشْعُرُ الطّفلُ فيه بالاسْتقلال.

فالسّيّدةُ فاطمةُ أنْمَتْ في نَفْسِهِ فِكرةَ الخيرِ والحُبِّ المطلَقِ والواجبِ، وأمَدَّتْ في جوانِحِه وخوالجِهِ أفكارَ الفَضائلِ العُليا، بأنْ وَجّهَتِ المبادِىءَ الأدبيّةَ في طبيعتِهِ الوليدةِ، منْ أنْ تَكونَ هي نقطةَ دائِرَتِها، إلى اللّهِ الّذي هو فكرةٌ يَشْتَرِك فيها الجميع.

وبذلكَ يكونُ الطّفلُ قَدْ رَسَمَ بنَفْسِه دائِرةً مَحْدُودةً قصيرةً حينَ أدار هذه المبادِىءَ الأدبيّةَ على شخْصِ والدتِه، وقَصَرَها عليها وما تجاوَزَ بها إلى سِواها من الكَوائِنِ. ورَسَمَتْ له والدتُهُ دائِرةً غيرَ مُتَناهِيَةٍ حينَ جَعَلَتْ فِكرةَ اللّهِ نُقْطَةَ الارْتِكازِ، ثمّ أدارتِ المبادِىءَ الأدبيّةَ والفضائلَ عليها، فآتّسَعَتْ نفسُه لِتَشْمَلَ وتَسْتَغْرِقَ العالَمَ بعواطِفِها المهذَّبَةِ، وتأْخُذَه بالمثَلِ الأعلى للخيْرِ والجمال.



«سلام عليه يوم ولد»

جاءَ في أخبارِ الحُسينِ أنّه كانَ صورةً آختَبَكَتْ ظِلالُها من أشكالِ[1] جَدِّه العظيم، فأفاضَ النّبيُّ عليه شُعاعةً غامِرةً من حُبِّه وأشياءِ نفسِه، لِيُتِمَّ له أيضاً من وراءِ الصّورةِ مَعْناها، فتكونَ حقيقتُه من بعدُ كما كانتْ من قَبْلُ، إنسانيّةً آرْتَقَتْ إلى نُبُوَّةِ «أنا مِنْ حُسَيْنْ»، ونُبُوَّةً هَبَطَتْ إلى إنسانيّةِ «حُسَيْنٌ مني».

فسلامٌ عليه يوم وُلِد...

الطّفولةُ إنسانيّةٌ لـم تَمَسَّها ضَراوةُ الغرائزِ وشَهَواتُ العقلِ، كالمَطْرةِ قبلَ أنْ تَمَسَّها الأرضُ بتُرْبتِها فَتُدْخِلَ عليها ألْواناً ليستْ من مَعْناها ولا من طَبيعتِها.

ثُمّ تَتَفاضَلُ الطّفولةُ بالبيئةِ الّتي تَمرُّ منها إلى الحياةِ، كتلكَ المطْرةِ إذا حَلَّتْ في

---

(١) هذه الشّكليّةُ خاضعةٌ لقانون الـ Atavisme الّذي تَرْجَمْناهُ بقانون «التّجدّي» من تَجَدَّدَ بمعنَى تَشَكَّلَ بشَكْلِ الجَدِّ، وقد جاءَ في الأُصول الاشْتِقاقيّةِ الّتي أقْرَرْناها في كتابنا: **مقدمة لدرس لغة العرب**، أنّ المُضَعَّفَ الثّلاثيَّ إذا صيغَ على وَزْنِ تَفَعَّلَ جازَ قَلْبُ لامِهِ في التّكرارِ حَرْفَ لينٍ، مثلَ تَظَنَّنَ قال العربُ تَظَنّى وتَمَطَّطَ قالوا فيها تَمَطّى. ونحنُ أجريْناها قاعِدةً في الاشتقاق مع آختِلافِ المعنى دفعاً لِلَّبْس. وعليهِ فَتَجَدَّدَ بهذا المعنى، خُروجاً عن اللَّبس بمُفردة تَجَدَّدَ بمعنى التّجديدِ نَقْلِبُ اللّامَ فيه حَرْفَ لينٍ ونَخُصُّه بمعنَى الّذي آتَّخَذَ صورةَ الجَدِّ، وبذلكَ تكونُ ترجمةً حقيقيّةً لكَلِمَة Atavisme، بمعنى الرجوع إلى الجَدّ.

قارورةٍ أو حَلَّتْ في تُرْبَة.

والحسينُ الطّفلُ حَلَّ في بيئةِ النّبوةِ الّتي هي الإنسانيّةُ العُلْيا في المظْهرِ البشريِّ، فكان بذلك أسْمى[٢] رَجُلٍ لأنّه أسْمى طفلٍ في أسمى بيئة.

فسلامٌ عليه يومَ وُلِد...

حينَما فَصَلَ، أيْ خَرَجَ، الحُسينُ (ع) من قُوَّةٍ في النَّواةِ، إلى كائِنٍ آسْتَكَنَّتْ فيه القوّةُ على نحوٍ آخرَ، أُذِنَ لخَصائِصِ الوِراثةِ أنْ تَخْرُجَ من[٣] نُقْطةِ الدّائرةِ إلى مُحيطِها.

فسلامٌ عليه يومَ وُلِد...

عُلِّقَ النَّبيُّ (ص) حُسيْناً، لأنه رأى ظِلَّهُ ورأى حقيقتَه في الطّفلِ الوليدِ، فَحُبُّ النّبيِّ له لم يَكُنْ بمَحْضِ العاطفةِ فقطْ، بل بشُعُورٍ آخَرَ أيضاً هو الإبْقاءُ على الذّات.

فسلامٌ عليه يومَ وُلِد...

«اللّهمَّ أحِبَّهُ فإني أُحِبُّه» كلمةٌ كأنَّها الوِسامُ منَ النّبيّ (ص) لمولُودِه الصّغيرِ، والوِسامُ في لُغةِ المراتبِ الاجْتماعيّةِ، مَنْبَهَةٌ لحامِلِهِ على أنّه قامَ بعملٍ عظيمٍ. وهذا وِسامٌ يُنَبِّهُ على عَمَلٍ خالدٍ سوفَ يَقَعُ من الطّفلِ الجديدِ، ولم يُمنَحْهُ قبلَ الاسْتحقاقِ، لأنّ عملَه الخالدَ سيكونُ تَضْحِيَةً رهيبةً تضعُ حدّاً للحياة.

فسلامٌ عليهِ يومَ وُلِد...

---

(٢) يقولُ المثلُ الإنكليزيُّ: «الطفلُ أبو الرجل» ومعناهُ أنّ ما آستقرّ في الطّفلِ من كمالٍ أو نقصٍ، هو الّذي يبعثُ الرّجلَ ذا الكمالِ أو النّقصِ وليسَ مَنْ يَرْتابُ في أنّ بيئةَ النّبيّ (ص) أرْفَعُ بيئة، وأنّ الّذي آسْتقرّ في الحُسينِ الطِّفلِ هو أشياؤها، فلم يبقَ رَيْبٌ في أنّ الحُسينَ لا يُمْكِنُ إلّا أن يكونَ أسمى رجلٍ، فإنّ طُفوليّتَهُ كانت أبا رُجوليّتِه.

(٣) نَعْني بهذا أنّ خَصائِصَ الوِراثةِ بَعدَ أنْ كانت مجتمعةً في النّبيّ (ص) الّذي هو نُقطةُ الدّائرةِ آنتقَلَتْ بالحُسينِ وأخيه اللّذين هما الحافِظانِ للنّسلِ النّبويِّ من الانقطاعِ، إلى محيطٍ أوسَعَ، شكّلَ دائرةً كُبرى.

النُّبوّةُ طاقَةٌ تَغْلِبُ المادّةَ وتَتَمدّدُ في القلْبِ والعقْلِ والضّميرِ، والحِكمةُ طاقَةٌ تَغْلِبُها المادّةُ إلّا أنّها تُسَيْطِرُ على القلبِ والعقلِ والضّميرِ.

والفَرْقُ أنَّ هذه، أيِ الحِكْمَةَ، تبدأُ سَيْرَها من المادّةِ إلى ما وراءَ، وتلكَ، أي النُّبُوَّةَ، تبدأُ السَّيْرَ من الطّاقةِ إلى ما وراءَ، وبَينهَما أنّ الأُولى لا تَخْرُجُ عن المادّةِ إلّا بمقدارٍ فهي فيها أبداً، كما أنّ الثّانيةَ لا تتَّصِلُ بالمادّةِ إلّا بمقدارٍ فهي فوقَها أبداً، وجَلْوَةُ النُّبُوَّةِ الصّغيرةُ حكمةٌ كبيرة.

فسلامٌ عليه يومَ وُلِد...

يقولُ السّيد الطباطَبائيّ:

غَرْسٌ سَقاهُ رَسولُ اللّهِ مِنْ يَدِهِ

وطابَ مِنْ بَعدِ طيبِ الأصلِ فارِعُهُ

النّبوّةُ ليستْ شيئاً من عملِ الدُّنيا، إلّا فيما يَتَّصِلُ بصلاحِها وتهذيبِها، فميراثُها لا يَدْخُلُ في زُخرُفِ الحياةِ الّذي هو سِرُّ التّرابِ، وإنّما يَدْخُلُ فيما يَنْتَظِمُ التَّقْوى والفضيلةَ مِمّا هو سرُّ القلبِ ومَعْنى الوِجدان.

وكانَ سِرُّ قلبِ النّبيِّ (ص) هو إرثَ الحسينِ منه، فطابَ من بعدِ طيبِ الأصْلِ.

فسلامٌ عليه يومَ وُلِد...

لأوّلِ مَرّةٍ يَخْشَعُ الكَمالُ الإنسانيُّ على مَنْظَرَةِ الجَدِّ والسِّبْطِ في ساعةِ قُبلةٍ أو عِناقٍ يُدَغْدِغُ أحلامَ الرّوحِ، ويَمَسُّها بتيّارٍ جديدٍ يَجْعَلُها وَضِيَّةً في تَسامٍ أبَديٍّ. خَشَعَ الكمالُ الإنسانيُّ لأوّلِ مرّةٍ وباركَ ما يَرى.

فسلامٌ عليه يَومَ وُلِد...

نَظَرَ النّبيُّ إلى الحُسينِ طويلاً ليرى أينَ هو مِنْ طبيعتِه، ونَظَرَ الحسينُ إلى النّبيِّ كذلك

لِيَتَمَلّأَ منه ويُفَجِّرَ ينابيعَه، ثُمّ آنْصَرَفا بمَعْنىً واحدٍ، هذا صوتُ الماضي وهذا صوتُ المستقبَلِ. ولكنَّ الجَدَّ سارَ وهو يَلْتَفِتُ إلى سِبْطِهِ الّذي أسْلَمَه إلى المستقبلِ في حنانٍ وحَذَرٍ.

هذا المستقبلُ الّذي لم يَثْبُتْ في طَبْعِهِ من غُصْنِ[٤] الزّيتونِ إلّا أنّه يُثْمِرُ حَبّاً يُلهي المَعِدَةَ، فلم يأْمَنْه على طفلِهِ الَّذي أرْسَلَه بِقَبَسِ الهَيْكَلِ، وزَيْتُ زَيْتُونِه في مِصباحِه.

فسلامٌ عليه يومَ وُلِد...

إرْتَحَلَ الحسينُ (ع) ظَهْرَ جَدِّه العظيمِ وهو ساجدٌ يُصَلّي، وجاء في الحديثِ أنّ أقربَ ما يكونُ المرءُ من ربِّه وهو ساجدٌ.

ومَعْنى هذا أنّ النُّبوّةَ السّاجِدَةَ كانت مِعْراجاً روحيّاً لهذا الطّفلِ الّذي آسْتَوْدَعَ فيه النّبيُّ أسْرارَهُ العُظمى وإنسانيّتَه العُلْيا.

فسلامٌ عليه يومَ وُلِد...

---

(٤) في غُصنِ الزّيتونِ معنىً رمزيٌّ، فإذا أسَفَّتِ الإنسانيّةُ وغَدَتْ تَقيسُ قِيَمَ الأشياءِ بمقاييسِ المعِدَةِ، لم يَعُدْ لغُصْنِ الزّيتونِ معنىً سِوى أنّه يُثْمِرُ حَبّاً يَدْخُلُ في أشياءِ المعِدة وإمْتاعِها.

الحسين (ع)
في عهد الخلفاء الرّاشدين (ض)



في عهد أبي بكر

الّذي في مَعْرفتنا من أخبارِ الحسينِ (ع) في عَهْدِ أبي بكرٍ (ض) قليلٌ جدّاً، والشّيءُ المُحقّقُ أنّه كانَ في التّاسعةِ من عُمْرِه، وأنّه رُزِىءَ بأُمِّهِ وهو رُزْءٌ أحَسَّ بعظيمِ وَقْعِه وكانَ له، بلا ريْبٍ، رَجْعٌ عميقٌ في نفسِه الغَضّةِ اللّدْنَةِ، وأنّه شَهِدَ أباه إذْ أقامَ أمَداً ليسَ بالقَصيرِ على خِلافِ أبي بكرٍ، وأنّه آنْطوى على شُعورِ طِفْلٍ مَغيظٍ مُحْنَقٍ حين أُخِذَ أبوه بسياسةِ العُنْفِ والشِّدّةِ على ما أجْمَعَتْ عليه الرّواياتُ، فقدْ كانَ بيتُه، في لُغَةِ هذا العَصْرِ، مُراقَباً[1]، فهذا الضَّرْبُ منَ السّياسةِ كانَ له أثَرُه في مَوْطِنِ شُعورِ الحسينِ. لذلكَ نَتَعَلَّقُ في هذهِ المرحلةِ من حياتِهِ بدراسةٍ تربويّةٍ نفسيّة.

على الرّغْم من الفَلْسفاتِ المختلفةِ في الأسلوبِ إلى حَدِّ التّبائنِ، الّتي تَدْرُسُ أسرارَ النّفسِ والحياةِ، وهيَ نظريّةُ الحَيَويّين[2] ونظريّةُ المُتَعَصّبينَ

---

(١) ذَكَرَ الطّبري في تاريخه، ج ٤، ص ٤٢، أنّ أبا بكرٍ قال: «وَدِدْتُ أنّي لم أكْشِفْ بَيْتَ فاطمةَ ولو أنّهم غَلَقوهُ على الحرب».

(٢) النّظريّة الحَيَويّة (Vitalismc) تَعْتَبِرُ الحياةَ سِلْسِلةً منَ العَوارضِ، والمادّةَ سلسلةً أُخرى. ويقولُ أنْصارُها بتضامنِ السّلسلتَيْنِ وتَبايُنِ مَنْشَأيْهما، وهذهِ النّظريّةُ تَفَرّعَتْ مِنَ المذاهبِ الرّوحيّةِ وآشْتَهَرَ بها شْتاهل ولوردا. إنّ مَبْدَأَ الحياةِ على آراءِ عُلماءِ

الفيزيولوجيّين[٣]، ونظريّةُ الحَيَويّينَ البيولوجيّة[٤]، ونظريّةُ الرّوحيّةِ الحديثةِ[٥]، يَتّفِقُ العلماءُ على الاعْتِرافِ بأثَرِ البيئةِ في البِناءِ الرّوحيِّ للكائِن، وبرابِطةِ الجَبْرِ الكُلّيِّ بينَ لونِ التّفكيرِ والبيئة.

والبيئةُ ذاتُ تأثيرٍ ماديٍّ على النّفوسِ، وهذا التّأثيرُ يُؤدّي إلى شَكْلَيْنِ من الخُضوعِ، يَنْحَصِرُ الأوّلُ منهُما في الاسْتسلامِ شيئاً فشيئاً لعاداتٍ وأحكامٍ آسْتِسلاماً غيرَ مُدْرَكٍ ومُتنوّعَ الدّرجاتِ، فَتَرْسُخُ هذه مع الزّمنِ خِلْسةً وتَبْقى في مأْمنٍ منْ رُوحِ النّقدِ؛ ويُصَوِّرُ الاستسلامُ أحياناً للإنسانِ الخَطَأَ صواباً والظّنَّ حقيقةً ثابتةً والباطلَ حقّاً، فقدْ يُضعِفُ هذا التأثيرُ روحَ العَدْلِ عندَ القاضي، إنْ قيّدَهُ المُشترِعُ بتطبيقِ قانونٍ عَرَفَ أنّه مُخالفٌ للعدْلِ، وتُهيجُ البيئةُ الخمّارَ فَيُدْمِنُ على الخَمْرِ، كما تُحرِّضُ أنواعُ البيئاتِ أفرادَها على الأخذِ بأنْواعٍ مُعَيَّنَةٍ من الشُّعورِ والتّفكيرِ والحَرَكَةِ. وأمّا الشّكلُ الثّاني، وهو مُكْمِلٌ للأوّلِ، فَيَنْحَصِرُ في أنّ الخاضعَ لتأثيرٍ ما، تَرْفُضُ نَفْسُه كُلَّ تأثيرٍ من نوعٍ آخَرَ، إلّا إذا كانَ للتّأثيرِ الجديدِ تيّارٌ شديدٌ جارِف.

وبيئةُ الحسيْنِ أخَذْنا عنها صورةً في درْسِ الطّفولةِ، والّذي خَرَجْنا منه هناكَ أنّ بيئتَه

مدرسةِ مونبيليه يُخالفُ مَبْدأَ الرّوحِ ومبدأَ الجسمِ، ولهذا تَنوّعَتِ العوارضُ التي تَظْهَرُ في الإنسانِ إلى أنواعٍ ثلاثةٍ وهي العوارِضُ الطّبيعيّةُ الكيماويّةُ، وهذهِ تَنشأُ من قُوّاتِ الجسمِ المادّيّةِ؛ وعوارضُ المُفكّرةِ، وهذه تَنْشَأُ من الرّوحِ؛ وعوارضُ الحياةِ، وهذه تَنْشأُ من القُوّةِ الحيويّة.

(٣) نظريّةُ التّعَضّي الفيزيولوجيّ (Organicisme) وأنصارُها يَعْتَبرونَ أنّ مبدأَ الحياةِ ومبدأَ المادّةِ شيءٌ واحدٌ، فهم يَرْفُضونَ النّظريّةَ الميكانيكيّةَ، إذ لا يَعْتَبِرون الحياةَ نتيجةً نهائيّةً لحركاتٍ منشؤها ما لِلْمادّةِ مِنَ الصّفاتِ العامّةِ، بل يُقَرِّرونَ بأنّ الحياةَ ناشِئَةٌ عنْ صِفاتٍ خاصّةٍ سَمّوها الصّفاتِ الحيويّةَ، ويَتّصِفُ بها نوعٌ معيّنٌ من المادّة.

(٤) النظريّة الحيويّة البيولوجيّة (Neovitalisme) وأنصارُها يَعْتَبرونَ مبدأَ الحياةِ مُخْتلِفاً عن مبدأِ المادّة.

(٥) النظريّة الرّوحيّة الحديثة (Animisme) وأنصارُها يُقَرِّرونَ وُجودَ روحٍ وخُضوعَ المادّةِ لها، ويقولونَ بوُجودِ قانونٍ مُطْلَقٍ نافِذِ الحُكمِ على العالَمِ المادّيّ، وما الحالاتُ العقليّةُ إلّا حالاتٌ تَطْرأُ على الرّوحِ. وعندَهُمُ الرّوحُ بمثابةِ قوّةٍ عاليةٍ مُهَيْمِنةٍ تُوجِدُ حركةَ القوّاتِ المتعدِّدةِ وتَدْفَعُها نحوَ غايةٍ واحدةٍ، وبهذا يُفَسِّرونَ ما يوجَدُ بينَ الحياةِ العقليّةِ والحياةِ العُضْويّةِ مِنَ التّوافُق.

كانتْ يَنْبوعاً جَرَى بأرْفعِ عقيدةٍ مِثاليّةٍ، هذا اليَنبوعُ الّذي انْقلبَ سريعاً إلى مُحيطٍ خِضَمٍّ جَرَفَ في طَريقه كُلَّ مُخالِفةٍ لكلِّ أُمّة.

فالحسينُ من هذه الوُجْهَةِ غُذِيَ بلَبانِ العقيدةِ ونَمَتْ أعصابُه على نَميرها، وكان ميراثُه العقليُّ مُنْبثِقاً منها. فلم يكنْ قَبَليّاً لأنّ القَبَليّةَ قد هَوى بُنْيانُها، ولم يَكُنْ ذا عصبيّةٍ في غيرِ عصبيّةِ الّدينِ، وعَصَبيّةُ الدّينِ عَصَبيّةُ التّمَسّكِ لا التّحَدّي: «لَكُمْ دينُكم وليَ دينِ»، وكان مُتَشَبِّعاً بمِبادِىءِ المَثَلِ الأعلى بمُقتَضى النّشْأةِ. وهذه نتيجةٌ طبيعيّةٌ للبيئةِ ذاتِ الطّابَعِ الخاصّ، ولا نَعْلَمُ تأثيراً جديداً كان له ذلك التّيّارُ الجارِفُ حتّى يُقوِّضَ ما بَنَتِ البيئةُ الأُولى مِن هيكلٍ قُدْسيٍّ في نفسِه. والّذي يَقِفُ على ما جاءَ في كِتابِ **ذخائرِ العُقْبى في مَناقِبِ ذَوِي القُربى**[٦]، يَقِفُ على لونِ التّربيةِ الرّوحيّةِ الزّاهدةِ الّتي أخَذَ بها الحسينُ (ع) وهي مُتَمَثِّلةٌ في كلمةٍ واحدةٍ من خُطبةِ أميرِ المؤمنينَ عليٍّ (ع) وهي: «لوْلا ما أخَذَ اللّهُ على العُلماءِ أنْ لا يُقارُّوا على كِظّةِ ظالمٍ ولا سَغَبِ مظلومٍ، لألْقَيْتُ حَبْلَها على غارِبِها ولَسَقَيْتُ آخِرَها بكأسِ أوّلِها ولألْفَيْتُمْ دُنياكُم هذِه أزْهَدَ عنْدي من عَفْطَةِ عَنْزٍ».

ومِنَ الخيْرِ أنْ نَذْكُرَ طَرَفاً من وصيّتِهِ إلى الحَسَنِ (ع) وهي تُعَبِّرُ أحسنَ تعبيرٍ عن المِسْحَةِ التّرْبَويّةِ الّتي مَسَحَ بها أبْناءَه قال:

«أوصيكَ بتقوى اللّهِ ولُزومِ أمْرِه وعمارةِ قلبِك بذِكرِه والاعْتصامِ بحبلِه، وأيُّ سَبَبٍ أوْثَقُ من سببٍ بينَكَ وبينَ اللّهِ إنْ أنتَ أخَذْتَ به.

أحْيِ قلبَك بالمَوْعِظَة وأمِتْهُ بالزّهادةِ وقوِّهِ باليقينِ والرّضا، وعليكَ بأخبارِ الماضِينَ فإنّك تَجِدُهم قَدِ انْتَقلوا عنِ الأحِبّةِ. فأصْلِحْ مَثْواكَ ولا تَبِعْ آخِرَتَكَ بدُنْياكَ، وأمْسِكْ عن طريقٍ إذا خِفْتَ ضَلالَتَه، فإنّ الكفَّ عندَ حَيْرَةِ الضُّلّالِ خيرٌ من رُكوبِ الأهوالِ. وَأْمُرْ بالمعروفِ تَكُنْ

---

(٦) كتابٌ جليلٌ في موضوعه للمُحِبّ الطّبري، طبعة القدسي، القاهرة سنة ١٩٣٨.

بالمعروفِ تَكُنْ من أهلِهِ، وأنْكِرِ المُنْكَرَ بيَدِكَ ولسانِكَ، وبايِنْ مِنْ فِعْلِكَ بِجُهْدِك، وجاهِدْ في اللّهِ حقَّ جِهادِهِ، ولا تأْخُذْكَ في اللّهِ لَوْمَةُ لائِمٍ، وخُضِ الغَمَراتِ لِلْحَقِّ حيثُ كانَ، وتَفَقَّهْ في الدِّينِ، وعوِّدْ نفسَكَ التّصَبُّرَ على المَكروهِ، ونِعْمَ الخُلُقُ التّصَبُّرُ، وألْجِئْ نَفْسَكَ في الأمورِ كُلِّها إلى إلهِكَ فإنّكَ تُلْجِئُها إلى كَهْفٍ حَريزٍ.

واعْلَمْ يا بُنيَّ أنَّ أحَبَّ ما أنتَ آخِذٌ به إليَّ، الأخذُ بما مَضَى عليهِ الأوّلونَ من آبائِكَ والصّالِحونَ من أهلِ بيتِكَ».

هذهِ وَصِيّةٌ تُعَرِّفُنا شيئاً كثيراً مِنَ الألوانِ الّتي كانَ يَمْزُجُها الوالدُ الحكيمُ ويَصْبُغُ أبناءَه بها. وهيَ وصيّةٌ ذاتُ وَحْدَةٍ لا تَعْدو المِثاليّةَ، وظاهِرةٌ لا تَخْفى وهي الانْتِفاءُ من زَخارفِ الدُّنيا الّتي مَرَدُّها إلى التّرابِ، ثمّ لا يَبْقى منها إلّا سَرابٌ حالِمٌ، وأحْلامٌ سرابِيّةٌ. وإنّ مِنَ الثّابتِ عِلْمِيّاً أنّ لكل شخصٍ فلسفةً خاصّةً به منشأُها المِزاجُ والبيئةُ، فلسفةٌ تُحَدِّدُ في نفسِه إدراكَ العالَمِ واللّهِ والرّوحِ والخيرِ والشّرِّ والحقِّ والواجِبِ. ومن شأنِ التّركيبِ الإنسانيِّ، أنْ يُحوِّلَ العارِضَ العُضْويَّ إلى عارضٍ نَفْسِيٍّ يَهْتَزُّ به المُخُّ اهْتزازاتٍ خاصّةً. وقدْ أوضحَ هذا أصحابُ النّظريةِ الآليّة (الميكانيكيّة)[7].

فالبيئَةُ الّتي مالتْ به وتَحَكَّمَتْ بأحاسيسِه ومشاعرِه كانتْ نَقِيّةً بالغةً في النُّقاوَةِ، والآنَ نَعودُ إلى فَهْمِ مِقدارِ العِنايةِ الّتي بَذَلَها والِدُه العظيمُ بتَخْليقِهِ والحَيْلولةِ بينَه وبينَ جُموحِ نفسِه بقَساوةٍ، إذْ حَوَّرَ المبادِئَ الأدبيّةَ الأُولى الّتي تكوَّنتْ عندَه على الشّكلِ الّذي ذَكَرَه بستالوزي؛ ومِنَ الضّروريِّ أن نَذْكُرَ تَمامَ الفَصلِ الّذي أثْبتَه في كِتابِه **كيف**

---

(٧) أصحابُ هذه النّظريّةِ لمّا وَجَدُوا تَعادُلاً بينَ العملِ الميكانيكيِّ والقوّاتِ الأخرى، أي وجدوا نِسَباً معيّنةً بينَها، مَدُّوا درسَ الميكانيكِ على عوارضِ القوّةِ وقرّروا أنّ الرّابطةَ بينَ المخِّ والنّفسِ ليستْ رابطةَ التّعادُل (رابطةَ الضرورة) فقطْ، بل إنّ المخَّ هو الأساسُ المادّيّ، والنّفْسَ هي مظهرٌ من مظاهرِ المادّة.

تعلم جرترود أولادها، قال:

«فالطِّفلُ، كما لاحظْنا فيما سَلَفَ، يُحِبُّ والدتَه ويشْكُرُها ويَعْتَمِدُ عليها ما دامَ هو في حاجةٍ إليها، كذلكَ هو يُحِبُّ الخالقَ تعالى ويَشْكُرُه ما دامَ يَشْعُرُ بآحْتِياجٍ إليه، وبزوالِ هذه الأسبابِ تزولُ نتائِجُها فَتَضْعُفُ هذه العواطِفُ في فُؤادِ الطِّفلِ نحوَ والدتِه حالَما يَشْعُرُ بآسْتِقلالِه.

وفي هذا الدَّوْرِ من الحياةِ يَظْهَرُ العالَمُ للنّاشِيءِ في مظهرٍ جديدٍ لم يُدْرِكْه وهو طفلٌ، فَيَنْظُرُ إليهِ بعينٍ جديدةٍ ويَنْخَدِعُ قلبُه بمناظِرِه ومَسرّاتِه فيُناديه العالَمُ ولسانُ حالِهِ يقولُ: أَقْبِلْ عَليَّ الآنَ يا بُنَيَّ فأنتَ لي. فلا يَسَعُ الإنسانَ في ذلك الدّورِ، حينَ تَضْعُفُ في نفسِهِ عاطفةُ الطّفولةِ وتَدِبُّ في صَدْرِه قُوَّةُ الشّبابِ وشَهَواتُه، إلّا إجابَةُ ذلكَ النّداءِ والإقبالُ على العالَمِ، فَتَتَبَدَّلُ فضائِلُ النّفسِ وتموتُ، إنْ لم يَتَدارَكِ الوالِدُ الأمْرَ ويَنْتَشِلْهُ في هذا الموقفِ الحَرِجِ مِنَ السّقوطِ، وذلك لا يَتِمُّ إلّا بِتَوْجيهِ عواطفِ الطّفلِ الّتي يَشْعُرُ بها إلى الخالِقِ تعالى ورَبْطِ حَلَقَةِ الاتّصالِ بينَه وبينَ اللّه.

أيُّها الوالِدانِ؛ يَسْعَى العالَمُ بكُلِّ طُرُقِ الغِوايةِ ليَنْتَزِعَ الطّفلَ، فإنْ لم يُوجَدْ في هذا الوقْتِ مَنْ يستطيعُ تغليبَ عواطفِهِ الشّريفةِ على شَهَواتِه فقدْ ضاعَ لا محالةَ. نَعَمْ، إنّ العالَمَ يَعْمَلُ على أنْ يَخْتَطِفَ الطِّفلَ فَيُصْبِحَ زُخْرُفُ العالَمِ ومسرّاتُهُ هي والدتَه الجديدةَ، وشهواتُ الجَسَدِ والاسْتِسلامُ لهوى النّفسِ معبودَه وسيّدَته.

أيُّها الناسُ، يَجِبُ عليكم في هذا الدَّورِ، وهو دَوْرُ آنْتقالِ الطّفلِ من عهْدِ الصَّبْوَةِ إلى الشّبابِ حينَ تزولُ من نفسِهِ عاطفةُ الطُّفولةِ وتَزْهو نَفْسُه وترقُصُ طَرَباً بهذا العالَمِ ومسرّاتِه، ويشعُرُ بآسْتقلالِهِ وآسْتِغنائِه. في هذا الدّورِ حينَ تَضْعُفُ في فُؤادِه تلكَ العواطِفُ الشّريفةُ ويَتَسَرَّبُ إلى نفسِهِ حبُّ العالَمِ وتَلْعَبُ بِقَلْبِه مظاهِرُه، وتَمْتَلِكُ لُبَّهُ مفاسِدُه، يَنْسى كُلَّ المبادِئ.

نعم، أيُّها النّاسُ، في مُفْتَرَقِ هذينِ الطّريقينِ، يَجِبُ عليْكُم أنْ تَبذُلوا الجُهدَ لتحويلِ عَواطِفِ النّاشِىءِ حتّى تَبْقى الحياةُ الإنسانيّةُ الأدبيّةُ ماثِلةً بينَه وبينَ نفسِه، وبزَوالِها تزولُ روحُ اللّهِ من قلْبِه. فالعالَمُ الّذي يَتَطَلّعُ إليه الشّابُّ اليَوْمَ بعَيْنَيْ شَبابِه هو غيرُ ذلكَ العالَمِ الّذي أوْجَدَهُ الخالِقُ في فِطْرَتِه الأولى، بل هو عالَمٌ أفْسَدَتْه يدُ الإنسانِ وصيَّرتْه مَفْسَدةً لمشاعِرِه الخارجيّةِ وعواطِفِه الدّاخليّةِ، هو عالَمٌ مَمْلوءٌ بشِباكِ الشّرِّ لاقْتِناصِ نفْسِ الشّابِّ. فالشّابُّ، مَعَ ما فُطِرَ عليهِ تَرْكيبُه البدَنِيُّ، ولِرَجاحةِ كَفَّةِ البَدَنِ في هذا الدّورِ من العُمرِ على كُلِّ قُوّةٍ أُخرى فيه، نراهُ سريعَ الانْقيادِ لشَهَواتِ الجسدِ تُؤَثِّرُ عليه وتَتَغَلّبُ على نفسِه المؤثِّراتُ المادّيّةُ على آخْتِلافِ أنواعِها وأشكالِها، فتَراهُ يَصْبو إلى مَلَذّاتِ هذه الحياةِ يَزْهو بِزَهْوِها ويَنْخَدِعُ بِسَرابِها.

لذلكَ يكونُ من الخَطَلِ في الرّأيِ، والنَّقْصِ الفاحِشِ في نِظامِ التّربيةِ أنْ يُهْمَلَ شَأْنُ تربيةِ الأخلاقِ في هذا الدّورِ، ولا يُبْذَلَ الجُهْدُ في تَقْويةِ عُنْصرِه الرّوحِيِّ الّذي لا مَعْدَى عنهُ لِلتَّغلُّبِ على قوّةِ بدنهِ وشَهَواتِ جسدِه إلّا بتدْريبِها وتهْذيبِها، وإلّا فالشّابُّ، لا محالةَ، مُنْحَدِرٌ في تَيّارِ هذا العالَمِ، تَلْعَبُ به أمواجُ مَطامِعِهِ ومفاسِدِه، وتَجْرُفُه آثامُه، وبذلك يَقْضي على نفسِه وأخلاقِه قضاءً مُبرَماً. بهذا الإهمالِ تَضيعُ من نَفْسِ الإنسانِ مَلَكَةُ التّعقُّلِ والتّنَبُّهِ الأخلاقيِّ الّتي تَحْفَظُهُ منَ السّقوطِ، وتوصِدُ في وَجْهِهِ أبوابَ الفَضائِلِ ومكارِمِ الأخلاقِ، وتسيرُ به شَهَواتُ الجسدِ في طريقٍ بعيدٍ يَقْطَعُ كُلَّ آتّصالٍ ويَفْصُمُ كُلَّ رابِطَةٍ بينَ العقلِ والضّميرِ، وبآنْفِصامِ عُرْوَةِ هذِه الرّابطةِ تَنْقَطِعُ كُلُّ عَلاقةٍ بينَ الإنسانِ وخالِقِهِ، وفي قَطْعِ هذه العَلاقةِ الشّريفةِ، الضَّرْبةُ القاضِيَةُ على نفسِه الّتي هي المُمَيِّزُ الوحيدُ للإنسانِ عنِ الحيوانِ، بهذا يُصْبِحُ الإنسانُ حَيواناً عالِماً مُفَكِّراً.

يَجِبُ أنْ نَضَعَ للتّربيةِ نِظاماً يَكْفُلُ نُمُوَّ العقلِ والعواطفِ نُمُوّاً مُتساوِياً يُؤَدّي إلى المُوازَنَةِ في القُوى والمُحافظةِ على العُنْصُرِ الأخْلاقِيِّ ويَمْنَعُهُ من السّقوطِ الأدبيِّ ومحبّةِ الذّاتِ الّتي تَنْشَأُ عادةً من تَغَلُّبِ قُوّةِ الجسمِ على قُوّةِ العواطِفِ والضّميرِ.

وهنا نَسْأَلُ: كيفَ الوُصولُ إلى تَغْليبِ المبادِىءِ على الشَّهَوات وحُبِّ الإحسانِ على الأَغْراضِ والمُيولِ؟ فنقولُ: الجوابُ في التّركيبِ الطّبيعيِّ للإنسانِ، وطريقُ الوُصولِ إلى هذا الهَدَفِ أنْ نَسيرَ مَعَ مِنهاجِ ذلك التّركيبِ الطّبيعيّ، فَنَجْعَلَ أساسَ التّربية إخْضاعَ العُنْصُرِ الجسديِّ الفاني إلى العُنْصُرِ الرّوحِيِّ الخالِدِ، وكلّما نَما البَدَنُ وآشْتَدَّ أخَذْنا زِمامَهُ وسِرْنا به تحتَ إرشادِ مبدأٍ سامٍ يَجْري وَفْقَه ويعملُ على مِنهاجه، ويرجِعُ هذا المبدأُ السّامي إلى قاعدَتَيْن:

الأولى: تقديمُ تربيةِ العواطفِ وتهذيبِ القلبِ على إنْماءِ العَقْلِ وتقويةِ الفِكر.

الثانية: التّأمُّلُ في القانونِ الطبيعيّ الّذي يَخْضَعُ له الإنسانُ في نُمُوِّه، فَتَسيرُ التّربيةُ بمَوْجِبِه ولا تَقِفُ في وجهِ ذلكَ القانونِ الطّبيعيِّ الّذي رأى الخالِقُ أنَّه أحْسَنُ أُسْلوبٍ يَسيرُ عليه الإنسانُ في نُمُوِّهِ. ألا تَرَى أنّ الطّفلَ يبدأُ نموَّه بتَمْرينِ حواسِّه الخَمْسِ، وأنّه يَقْضي زمناً طويلاً في هذا النُّمُوِّ قبلَ أنْ تُساعِدَهُ الطّبيعةُ على تَنَبُّهِهِ العقْلي وتُمَهِّدَ له سَبيلَ النُّمُوِّ الفِكريِّ. لذلكَ تَراهُ يَقْضي جُزءاً كبيراً من عُمره خاضِعاً لعواطِفِه وأحاسيسه قبلَ تحكيمِ نَفْسِه».

هذا فَصْلٌ في قِصّةِ التّربيةِ الدّينيّةِ كما يراها العلاّمةُ بستالوزي وفيهِ نِقاطٌ ذاتُ أهمّيّةٍ وقيمةٍ. وقد أنْبَهَنا إلى دوْرِ الانْتقال أو التّحوُّلِ الّذي يَدُكُّ ماضِيَ النّاشِىءِ الصّاعدِ في الأخلاقِ، ليَبْنِيَهُ بِناءً آخرَ مُشْتَقّاً من ألْوانِ الحياةِ المُترفَةِ ونَأْمَتِها المُغْرِيَة.

والمُرَبِّي المذكورُ يَحْصِرُ آهْتِمامَه التّربويَّ بتنْميةِ العواطفِ عن طريقِ الدّينِ، ويراها أقْوَمَ طريقٍ يُعطينا النَّشْءَ المُنْتَخَبَ. والآن نَسْتقبِلُ الحسينَ (ع) في هذا الدّورِ، دَوْرِ الانتقالِ، فَنَجِدُه مَغْلوباً بتربيةٍ دينيّةٍ نادِرَةٍ من حيثُ ما آجْتَمَع فيها من يَنابيعَ مِثاليّةٍ أوّلَ ما تَفَجَّرَتْ، فآرْتَوَى ولَمّا يُجاوِزِ اليَنْبوعُ مُنْبَثَقَهُ، فلمْ يَتَغَيَّرْ بشيءٍ مَرَّ عليه في مَجْراهُ لأنّه لم يَبْعُدْ عن مَنْبَعِه بَعْد.

فالعهدُ الرّسوليُّ السّابقُ كانَ يَلْتَمِعُ من فَوْقِ بُرجِ الحياةِ ويُرسلُ أشِعَّتَه أبعدَ ما تَصِلُ،

والحسينُ تَغْمُرُه كلُّ شُعاعَةٍ وكلُّ بارِقةٍ.

وسَنَأْتي، في فصلِ تاريخ مقارن، من هذا الكتابِ، على تِبْيانِ الفَرْقِ التّربويِّ بينَ الحسينِ (ع) ويَزيدَ، الّذي كانَ ذا تفكيرٍ قَبَليٍّ لأنّه نَشَأَ في مُحيطِ القَبَليّةِ في بني كَلْبٍ حتّى دَوْرِ الشّبابِ، وكان ذا عصبيّةٍ لأنّه غُذِيَ بروحِ النَّزْعَةِ الأُمَويّةِ، وكانتْ مِسْحَةُ تَرْبيَتِهِ مَسيحيّةً بعدَما تَرَجَّحَ لنا أنّ أُسْتاذَهُ من نَساطرةِ الشّامِ، وكانَ مُسْتَهْتِراً لأنّه لم يُؤْخَذْ في دَوْرِ التّحوُّلِ والانْتقالِ بشيءٍ من التّربيةِ الدّينيةِ الّتي دلَّ عليها بستالوزي.

وكانَ ميراثُه العقليُّ فقيراً من الرّوحِ المِثاليِّ الّذي تَرَكَّزَ في الجماهيرِ. وهذه نتائِجُ طبيعيّةٌ جدّاً لا مَجالَ لمُناقشتِها إلّا إذا حاوَلْنا قَلْبَ الحقائِق وتَحَرَّزْنا من المَنْطِقِ الواقِعيّ.

وهنا لا نُغْفِلُ ما تَرَكَتِ الأرْزاءُ المجتمعةُ الّتي تَناوَلَتْ نفسَه في أكْثَرِ ما تكونُ غَضارةً ولَدانَةً، فهو قَدْ شعرَ بفراغٍ مريرٍ حينَ أُصيبَ بجدِّهِ العظيمِ، وزادَ هذا الفَراغُ آتّساعاً ودُكْنةً حينَ تناوَلَتْهُ الأقدارُ بأُمِّهِ الرَّؤومِ، وآنْحَنَتْ نفسُه على حفيظةٍ ـ إذا ساغَ لنا أن نَدْعُوَها كذلكَ ـ حينَ وُضِعَ بيتُ أبيه تحتَ المُراقَبَةِ الشّديدةِ وآنْتُهِكَتْ حُرْمَتُهُ بدونِ لَباقةٍ، حتّى لقدْ بَقِيَ أبو بكرٍ مُتَأثِّراً ونادِماً نَدَماً عصبيّاً على ما فَرَطَ منه، فقدْ فُتِّشَ بيتُ عليٍّ (ع) تفتيشاً دقيقاً حَذَراً منْ أنْ يكونَ قدْ أعَدَّ العُدّةَ لإحْداثِ آنْقلابٍ يُطيحُ بالحُكومةِ القائِمة. والسّيّدةُ فاطمةُ قَبَضَتْ يدَها عن أبي بكرٍ فلمْ تُبايعْ وتَأَثَّرَ الهاشِميُّون حركَتَها فلمْ يُبايِعوا.

فهذِهِ الأحداثُ الهامّةُ لم تَمُرَّ على الحسينِ مرّاً ساذَجاً بدونِ أن تَتْرُكَ آثاراً لها خَطَرٌ. والمحقَّقُ بمُقْتَضى عملِ الفَعاليّةِ الصّامِتَةِ، أنّها مَسَّتْ مشاعِرَه بأثَرٍ غامِضٍ، أثَرٍ يَجْعَلُه يَنْقِمُ ويَتَشَجَّعُ على الانتِقادِ. وسَنورِدُ قِصّةً بادِرَةٍ وَقَعَتْ منَ الحسينِ في عهدِ عمرَ توضِحُ لنا صِدْقَ ما نَقولُ. فَنَفْسُه كانتْ مُفعَمَةً بشيءٍ خَفِيٍّ مجهولٍ إلّا أنّه يميلُ بهِ دائِماً إلى الانتِصافِ خُصوصاً وشعورُه مرهفٌ دقيقُ الإحساسِ.

في عهد عمر

طموح: رُوِيَ[1] أنّ الحسينَ بنَ عليٍّ قالَ: أتَيْتُ عُمرَ وهو يَخْطُبُ على المِنْبَرِ فصَعِدْتُ إليه، فقلتُ: إنْزِلْ عن مِنْبَرِ أبي وآذْهَبْ إلى مِنْبَرِ أبيك، فقالَ عمرُ: لم يكنْ لأبي مِنْبَرٌ. وأخَذَني فأجلسَني معه أُقلِّبُ حَصىً بيدي، فلمّا نَزَل آنْطَلَق بي إلى مَنْزِله، فقالَ لي: مَنْ عَلَّمَك؟ قلتُ واللّهِ ما عَلّمني أحَدٌ، قال بأبي لو جَعَلْتَ تَغْشانا فأتَيْتُه يوماً وهو خالٍ بمعاوية، وآبنُ عمرَ بالبابِ فَرَجَعَ آبنُ عمرَ فرجَعْتُ معه، فَلَقِيَني بعدُ فقالَ لي: لم أرَك، فقلت: يا أميرَ المؤمنينَ إنّي جئتُ وأنتَ خالٍ بمعاويةَ فرَجَعْتُ مَعَ آبنِ عمرَ، فقالَ: أنتَ أحَقُّ مِن آبنِ عمرَ فإنّما أنْبَتَ ما تَرى في رُؤوسِنا اللّهُ ثُمَّ أنْتُم.

الطّموحُ صفةٌ للنّفسِ الكبيرةِ تَبْدو من وراءِ المظاهِرِ الهادِئةِ أمَلاً قويّاً يَسْتَخِفُّنا في دَهْشةٍ وإعجاب.

ونَظَرُ النّفسِ الطّامحةِ يَبْدَأُ منَ النُّقْطَةِ الّتي عَجَزَ النّاسُ عمّا وراءَها، فالأُفُقُ الّذي يُشْرِقُ منهُ أصحابُ الطُّموحِ، هو الأُفقُ الّذي يَسْتَشْرِفُ إليه نَظَرُ الآخرينَ. وكأنّما هم يَدْرُجونَ في

(١) راجع: الإصابة لآبنِ حَجرٍ العَسْقلاني، ج ٢، ص ١٥. قالَ آبنُ حَجر سَنَدُهُ صحيحٌ.

الجَوِّ الّذي يُحلِّقُ فيهِ سائرُ النّاس، وأمّا جَوُّهم فهو للآخرينَ مَثابَةُ الأماني الأحْلام.

وطُموحُ الطّفولةِ عُنْوانٌ على النُّضجِ النّفسيِّ قبلَ بُلوغِ الإهابِ، وطِفلُنا الطُّموحُ يَرَى مَسْجِداً طالما كانَ يجوسُ خلالَه بينَ يَدَيْ جَدِّه بإدْلالٍ، وهذا مِنْبَرٌ طالَما كانَ يَرْقاهُ والنَّبيُّ (ص) يُرْسِلُ صوتَه الهادِيَ حتّى أَلِفَه فَحَنَّ إليه، وآخْتَلَطَ الحنينُ بكبرياءِ العظيمِ وطُموحِهِ، وآنْحسَرَ بينَه وبينَ نفسِه كُلُّ ما هو واقِعٌ، فلمْ يرَ المِنْبَرَ إلّا شُرْفَته الّتي يُطِلُّ منْها، وهي له منْ دونِ النّاس.

ذَهَبَتْ نفسُه مذاهِبَها في الجَدِّ، ومذاهبَها في الطُّموحِ، تَمُدُّها من ورائِهما الطُّفولةُ المُتَطَلِّعَةُ، فرأى أنّ المِنبرَ نُصِبَ للنّبيِّ أوَّلَ ما نُجِرَ، وأنّ المسجدَ بَيْتُ دَعْوتِه، وهوَ يُحِسُّ بالنّبيِّ حيّاً بينَ جوانِحِه، فآعْتَلى المِنبرَ في غيرِ عَبَثِ الطّفولةِ، بلْ في جِدِّ النّظَرِ وخيالِ الطُّموح.

ونَظَرَ منْ ظاهرِ النَّفسِ إلى باطِنِها فلمْ يَجِدْ إلّا أشْباحَ الجُدودِ على شريطِ الوِراثةِ المُمْتَدِّ، ورأى المِنبرَ والمسجِدَ، ورأى النّبيَّ (ص) في مَقْعَدِهِ مِنهما لم يَتَغَيّرْ عليه شيءٌ. فآنْقَلبَ إلى الحِسِّ والواقِعِ فأنْكَرَ ما يَرى، وسَما بِهِ الطُّموحُ فقال في جِدِّ القولِ لعمرَ (ض): إنْزِلْ عنْ مِنْبرِ أبي وآذْهَبْ إلى منبرِ أبيك. وكأنّما مُسَّ عُمَرُ بتيّارِ تأمُّلِهِ، فَشَمَلَهُ نَوْعٌ من إنكارِ الذّاتِ، فقال له: لم يَكُنْ لأبي مِنْبر.

تراجَعَتْ نَفْسٌ أمامَ نَفْسٍ وقالتِ الحقيقةُ مقالَها على لِسانِ عمرَ الحكيمِ، ودَخَلا في صُموتٍ بَقِيَتِ الحقيقةُ تَتَجاوَبُ فيه بصَدىً عميقٍ على هَمَساتِ الحَصَى المُتَخافِتَةِ الّتي كانَ يُقَلِّبُها الحُسَيْنُ بيدَيْه. وكان مَنْظَراً لهُ مَغْزاه.

الطّفلُ الذي يُقلِّبُ الحصى بيديْه لأنّه مَحْدودٌ بالطّفولة، هو الّذي تَطْمَحُ نفسُه بِسِرِّ القلبِ الكبيرِ لكيْ يتَسَنَّمَ الذِّرْوَةَ الّتي تَنْتَهي عندَها أحلامُ النّاس. منظرٌ رائِعٌ هذا الّذي يَقَعُ بينَ عَبَثِ الطّفولةِ، وبينَ جِدِّ القَلْبِ.

منظرٌ كان رَمْزاً لـمَعْنىً نَبَوِيٍّ أعْمَقَ، وهو أنّ أسْمى ما تـجيشُ به أمانيُّ النّاسِ في أحْلامِ الشَّهَواتِ، لا يُقابَلُ في مَنْطِقِ الحقيقةِ العُظمى، إلّا بضَحِكاتِ الحَصى النّاعمةِ حينَما تُقَلِّبُها يدٌ عابِثَة.

مَرَّتْ بعمرَ (ض) خواطرُ مختلفَةٌ في فتْرةِ الصُّموتِ القصيرةِ الّتي جَرَتْ بينَهما، ولكنّهُ بَقِيَ شاخِصاً تحتَ وَحْيٍ نَفْسيٍّ غريبٍ، مَبْعَثُه الإعجابُ والتّساؤُل.

كلمةٌ صارمةٌ لم يَكُنْ مبعثُها أبداً سَذاجَةَ الطُّفولةِ، أو حديثَ البَبَّغاءِ «عَقْلُهُ في أُذُنَيْه» كما يقول شوقي، بلْ جِدُّ الشَّخْصِيّةِ الكبيرةِ فَذَهَبَ يُسائِلُهُ: مَنْ علَّمَك؟ ولـمّا تأكَّدَ أنّها بادِرةٌ مِنْ وَحْيِ الشّخصيّةِ الكامِنةِ، آنْصَرَفَ إليه لأنّه وَجَدَ فيه الرّجلَ الكبيرَ الّذي يُحاوِلُ أنْ يَكُونَه وأن يَطْفِرَ إلى خارجِهِ فقالَ له: بأبي لوْ جَعَلْتَ تَغْشانا، يريدُ بذلكَ أن يأْخُذَه بسُنَّةِ الحُكْمِ ويُنَمّي عليهِ شخصيّتَه المُلْتَمِعَةَ من وراءِ الزّمنِ حتّى لكأنَّها غيرُ محدودةٍ به. ولقدْ نَطَقَتِ الحقيقةُ مرّةً أُخرى على لِسان عُمَرَ الشهيدِ: إنّما أنْبَتَ ما في رُؤُوسِنا اللّهُ ثمّ أنتم.

وفي القِصّةِ آسْتِصْغارٌ وطُموحٌ وشخصيّةٌ، ثلاثةُ مَعانٍ إذا آنْتَظَمَتْ كانتْ إكليلَ غارٍ.

مجدُ العربِ نَواةٌ غَرسَها في الهاماتِ اللّهُ ثُمّ أنتم...

وقدْ نَبَتَتْ في جِراحِ الكِبْرياءِ، حينَ أجْرى إليها النَّميرَ الصّافيَ اللّهُ ثمّ أنتم...

وآلْتَفَّتْ على الرُّؤوسِ كما تَلْتَفُّ الغَيْضَةُ بالأزاهيرِ والنُّوّارِ، بما رَوَّحها اللّهُ به من نَسَماتٍ ثُمّ أنتم... وآزْدَهَرَتْ غُصونُ المجدِ بالفضائلِ المنظومَةِ والمكارِمِ المنثورَةِ، بما نَفَخَ اللّهُ بها من روحٍ ثمّ أنتم...

ومجدُ العربِ والإسلامِ يعودُ كما بَدَأ، فإنّما مبعثُه على التّاريخِ اللّهُ ثمّ أنتم...

شعور: تَسامَعَ[٢] النّاسُ وجَرَتْ بينَهم هَمَساتٌ مُنْطَلِقةٌ تُشِيعُ فيهم سروراً من سُرورِ الجسدِ

(٢) ذَكَرَ آبنُ عساكِرَ في التّاريخ الكبير، ج ٤، ص ٣٢١، أنّه قَدِمَ على عُمَرَ حُلَلٌ من اليمن فكَسا النّاسَ فراحوا في الحُلَل، وهو

والزّينةِ، بأنَّ حُلَلاً من وَشْيِ اليَمَنِ وَرَدَتْ إلى أميرِ المؤمنينَ، وقد جَلَسَ لها في مسجِدِ النّبيّ (ص) بين المِنْبرِ والقَبْرِ.

وكانَ هذا إعلاناً بأنّ التّاريخَ الّذي يَنْشُرُ العربُ منه ويَطْوُونَ قدْ لَبِس حُلّةً جديدةً... حُلّةً هي رَمْزُ المجدِ وغَلَبَةُ الحَقِّ في الكِفاحِ، وهي رَمْزُ الصّراعِ المنصورِ بين العالَمِ القديمِ المُتداعي والعالَمِ الجديدِ الّذي يَشِيدُهُ العربُ، والعربُ وحدَهم...

هذا العالَمُ الذي كانتِ الكلمةُ العُليا فيه للأخلاقِ والفضائلِ والحُرّيّاتِ المهذّبةِ، والعالَمُ الّذي آنْتَشَل القلبَ والضّميرَ قبلَ أنْ يَخْتَنِقا وتُطَلَّ معاني السُّمُوِّ فيهما...

فدولةُ الإسلامِ بحقٍّ تُدْعى دولةَ العقلِ والضّميرِ والأخلاقِ والقوّة...

وهذه الحُلّةُ كانت أثراً مِن آنْتِصارِ الدّولةِ، فهي رَمْزٌ لانْتصارِ هذه القُوى جميعاً...

وشاءَ الخليفةُ أنْ يكونَ تَوْزيعُ الحُلَلِ في المسجدِ، ليُضيفَ إليها وشْياً جديداً فيهِ مَعْنى المسجدِ وفيهِ أسرارُه. وشاءَ أنْ يكونَ جُلوسُه بينَ القبْرِ والمِنبرِ - جاءَ في الحديث أنّها رَوْضَةٌ من رِياضِ الجَنّةِ - ليقولَ للمُسلمينَ بأنّ الجنّةَ بدأتْ تَحُلُّ في دُنياهم.

عجَّ المسجِدُ بما آزْدحَمَ فيه من طَبَقاتِ النّاس، فَرِحاً بالفكرةِ المُنْتَصِرةِ الّتي تَرْمُزُ إليها الحُلّةُ الجديدةُ، وإظهاراً للذّاتِيّةِ في الأُمّةِ النّاهِضَةِ، الأُمّةِ المُعَلِّمَةِ الّتي تسوقُ العالَمَ إلى الفِكرِ الجديدِ والحرّيّةِ التّقيّة.

وكان هذا يومَ آحتِفالِها بالبُطولةِ السّاحرةِ من القُوى المُجتمعةِ، ولم يكنْ لهذهِ الأُمّةِ

بينَ القَبْرِ والمِنْبَرِ جالِسٌ والنّاسُ يأتون فيُسَلِّمونَ عليه ويَدْعون. فَخَرَجَ الحسنُ والحسينُ من بيتِ أمّهما فاطمةَ في جَوْفِ المسجدِ ليسَ عليهما من تلكَ الحُلل شيءٌ، وعمرُ قاطِبٌ ما بينَ عينيهِ، ثم قال: «واللّهِ ما هَناني ما كَسَوْتُكُم. قالوا: لِمَ يا أميرَ المؤمنينَ؟ فقال: مِنْ أجلِ هذينِ الغُلامينِ يَتَخَطّيانِ النّاسَ ليسَ عليهِما ممّا كَسَوْتُ النّاسَ شيءٌ، ثُمّ كتبَ لصاحبِ اليمنِ أنِ آبْعَثْ إليَّ بحُلّتَيْنِ لحَسَنٍ وحسينٍ وعجِّلْ، فَبَعَثَ بحُلّتين فَكَساهُما وقال: الآنَ طابتْ نَفْسي». وفي روايةٍ أنّ الحُللَ لم يَكُنْ فيها ما يَصْلُح لهما.

إلّا أنْ تُحَيّا مُجْتَمِعةً لأنّ كلَّ أفرادِها كَكُلِّ أفذاذِها في المعنى الّذي يكونُ للبَطَلِ.

في غِمارِ الجُموعِ مَرَّ غُلامانِ كأنَّهُما قَطْرتا النَّدَى في عينِ الفَجْرِ، وكانا يَخْطُرانِ في غَيْرِ حُلَّةٍ سِوى حُلَّةِ المعنى الضّافي، فعرا عمرَ (ض) شُعورٌ مُبْهَمٌ عنيفٌ وأَطْرَق إطراقةَ مَنْ فَعَلَ شيئاً. فقد تركَ[٣] النّبيُّ (ص) فيهما تَذْكارَه بينَ المسلمينَ، كما تَرَكَ بالقرآنِ تعاليمَه، والمسلمونَ لنْ يَنْسَوْا بانيَ نَهْضَتِهم ومُؤَسِّسَ العالَمِ الجديدِ، ولكنَّهما كانا كإعْلانٍ منَ النّبي (ص) بأنّه هنا يَسْمَعُ ويَرى، فلمْ يَدْخُلْ في أُخْدودِ التّاريخِ بلِ انْفَصَلَ من إهابِ المادّةِ والنّواميسِ، ليُدْخِلَ الماضيَ والحاضرَ والمستقبَلَ في تاريخِه.

هُما صغيرانِ ليْس في الحُلَلِ ما يَسْتَوي على جِسْمَيْهِما، غيرَ أنّ عُمَرَ المُرْهَفَ الحِسِّ شَعَرَ بشيءٍ جَعَلَهُ يَصُرُّ ما بينَ عينيْهِ طويلاً، ثُمّ يقول «واللّهِ ما هنانِي ما كَسَوْتُكم من أجلِ هذينِ الغُلامينِ يَتَخَطَّيانِ النّاسَ ليسَ عليهما مِمّا كَسَوْتُ الناسَ شيءٌ». فَكَتَبَ لصاحِبِ اليَمَنِ أنِ ابْعَثْ إليَّ بحُلَّتَيْنِ لحسنٍ وحسينٍ وعجِّلْ، فَكَساهُما، وقال: الآنَ طابَتْ نفسي. فَعُمَرُ يَعْدِلُ بهما سائِرَ المسلمينَ، لأنّ فيهما عينَ اليَنْبوعِ الّذي غَمرَ العالَمَ القديمَ، وأعطى اليَبَسَ سِرَّ الحياةِ فعادَ أخضرَ فَيْناناً.

وشعورُ عمرَ بأنّهما تَذْكارا النبيِّ (ص) إلى المستقبلِ حَمَلَه على أنْ يجعلَ لهما عطاءَ[٤] أهلِ بدْرٍ وكان خمسةَ آلافٍ، وأنْ يُقَدِّمَهُما[٥] على ولدِه.

---

(٣) جاءَ في الحديث أنّ النّبيّ (ص) تَرَكَ في الأمّةِ الثَّقَلَيْنِ: القرآنَ وعِتْرَةَ أهْلِ البيتِ.

(٤) ذَكَرَ ابنُ عساكرَ في: **التاريخ الكبير**، ج ٤، ص ٣٢١، أنّ عمرَ جَعلَ عطاءَ الحسنِ والحسينِ مِثْلَ عطاءِ أبيهما فألْحَقَهُما بفريضةِ أهْلِ بدرٍ، فَفَرَضَ لِكُلّ واحدٍ منهما خمسةَ آلافٍ. وروى البخاريُّ في كتاب المغازي في صحيحهِ أنّ عطاءَ البدريّينَ خمسةُ آلافٍ. وقالَ عُمر لأُفضِّلَنَّهم على مَنْ بَعْدَهم.

(٥) رَوَى سبطُ ابنِ الجوزي في كتابه: **تذكرة خواص الأمّة في معرفة الأئمّةِ**، عن ابنِ عبّاس قال: «كان عمرُ بنُ الخطّابِ يُحِبُّ الحسَنَ والحسينَ ويقدِّمُهما على وَلَدِهِ، ولقدْ قَسَمَ يوماً فأعْطاهُما عشرينَ ألفَ درهمٍ، وأعْطى وَلَدَه عبد اللّه ألفَ درهمٍ فَعاتَبَهُ ولدُه وقال: قَدْ عَلِمْتَ سَبْقي في الإسلامِ وهجْرتي وأنت تُفَضِّل عَلَيَّ هذينِ الغُلامَيْنِ، فقالَ ويحَكَ يا عبدَ اللّه إيْتِني بِجَدٍّ مثلِ جَدِّهما وأنا أُعْطيكَ عطاءَهُما».



في عهد عثمان

نَسْتَقبِلُ الحسينَ في خِلافةِ عُثمانَ شابّاً في مَيْعةِ الشّبابِ وعُنْفُوانِه، فقدْ كانَ عمرُه عشرينَ سنةً تقريباً، وهذه سِنٌّ تَسْمَحُ لصاحِبِها بأنْ يخوضَ معتَرَكَ الحياةِ ويُعطيَ رأْيَه ويُعالِجَها من ناحِيَتِه.

وقد رأيْنا في الفُصولِ التّحْليليّةِ الّتي تناولْنا بها تَرْبيَتَه، أنّها كانت مُشْبَعَةً بروحِ الحقِّ ومليئَةً بقَضايا العَدالَةِ والواجِبِ. أضِفْ إلى هذا، الوِراثَةَ ومشاهِدَ الطّفولةِ والمَسْكِنَ، فقدْ حَدّثَنا آبنُ عساكِرَ أنّ بيتَ فاطمةَ كان في جَوْفِ المسجدِ، وهذا لهُ تأْثيرُه الكبيرُ في البِناءِ الرّوحيِّ وهيكَلِ النّفسِ المُحَجَّب.

فإنَّ الحسينَ كان في عُنْفُوانِ الشّبابِ وكانَ سَرِيّاً بالخَلَجاتِ الدّينيةِ إلى حَدٍّ كبيرٍ، وهو يَشْعُر بأرستقراطيّةِ المَعْنى الّذي يَمْشي في حناياهُ، ولم تَكُنْ أرستقراطيّتُه على الشّكلِ المعروفِ منْ هذا اللّفظِ، أي بمعناها الاجتماعيِّ، بل كانَتْ أرستقراطيّةً تَقِيَّةً تَتَعَصّبُ لمبادئِها وتثُورُ لها بوَقْدَةِ الشّعورِ وآلْتِهابِ العاطِفة.

ونحنُ لا نزالُ نَذْكُرُ طُموحَه الّذي رَأيْنا صورةً منهُ في أزمانِ طُفولته، ونذكُر أيضاً أنّه تأثّرَ إلى حدٍّ ما بإخْفاقِ أبيه في الانتخابِ مَرّتَيْنِ، والآن يُخْفِقُ أبوه للمرّةِ الثّالثةِ بمُداوَرَةِ

كانت مَكْشوفةً وظاهِرةً حتّى أثارتْ حَفيظةَ الكثيرينَ. ويَظْهَرُ أنّ المعركَةَ الانْتخابيّةَ كانتْ عنيفةً إلى حدٍّ كبيرٍ ولم يُثْبِتْها التّاريخُ كاملةً، وإنِ آحْتَفَظَ لنا ببعضِ وثائِقَ ونُتَفٍ منَ الأخبارِ، تُرينا مَدَى العُنفِ الّذي سَيْطَرَ على الحركةِ، ولكنّها بَتْراءُ مُقْتَضَبَةٌ على أيِّ حالٍ. والأَهَمِّيَّةُ ليستْ في أنْ يُخْفِقَ المُنْتَخَبُ ولكنْ في أن يُداوِرَ مُداوَرَةً تَنْتَهي به إلى ذلك، فإنّ الإخْفاقَ على هذا الشّكلِ يَطْوي الكثيرينَ على مَوْجِداتٍ مختلفةٍ حتّى عندَ البعيدينَ عنْه.

وهذا ما وَقَعَ لعليٍّ (ع) فقد كان إخفاقُهُ نتيجةَ حركةٍ من هذا القبيلِ جَعَلَتْ ذَوي الضّمائرِ يَعْنُفونَ في الانْتقادِ ويُجاهِرُونَ بالإنْكارِ. فحَمَلَ على التّلاعُبِ الانْتِخابيِّ المِقْدادُ بنُ الأَسْودِ وعمّارُ بنُ ياسرٍ وكثيرونَ حملةً شديدةً، حتّى كادتْ تَحيقُ بالجُموعِ كارِثةٌ آنْتِخابيّةٌ مُؤْلمةٌ.

وأعتقدُ بأنّ الّذي سبَّبَ كلَّ هذا، حَصْرُ عمرَ الانتخابَ في هؤلاءِ السّتّةِ وترشيحُهم؛ فإنّ تَسْمِيَةَ هؤلاءِ إلى جانبِ عليٍّ (ع) جَعَلَهُم يَتَمَتَّعونَ ببعْضِ الثّقةِ الشّعبيةِ، ويَثِقون بأنفُسهم إلى حدٍّ كبيرٍ. وإلّا فلو تَرَكَ الانتخابَ حُرّاً لما وَجَد هؤلاءِ، عدا عليٍّ، في أنفسِهِم الشّجاعةَ الكافِيَةَ الّتي تَحْمِلُهم على خَوْضِ غِمارِ الانتِخابِ ضِدَّ مُرَشَّحٍ مُمتازٍ، كما لا يَجِدونَ التشجيعَ الكافيَ منَ الشّعبِ، خُصوصاً وأنّ الزّبيرَ قد بايَعَ بالأمسِ القريبِ في عهدِ أبي بكرٍ، المرشَّحَ الّذي يَنْزِلُ ضِدَّه اليومَ.

ومَنْطِقِيٌّ جدّاً أنّ مِثْلَ هذا لا يَجِدُ الجُرْأةَ الّتي تَحْمِلُه على أنْ يُرَشِّحَ نفسَه ضِدَّ عليٍّ، وإذا وَجَدَها فلا يَجِدُ التَّحْبيذَ الشّعبيَّ، إذاً فقد كان تَرْشيحُ عُمَرَ لهم بمثابةِ التَّزْكِيَةِ على نَحْوٍ ما.

وهذا قَدْ أوْجَدَ، عدا الحزبيّةِ الّتي تكلّمنا عنْها في بحثِ الثّورة، دوافِعَ الاعْتِراكِ والاضْطِراعِ. فالحسينُ كان مُنْطَوِياً على مَوْجِدَةٍ وحَنَقٍ شديدَيْنِ من الفِئَةِ الأُمويَّةِ الّتي تَسْعى إلى غِشِّ الجمهورِ، وهيَ تُديرُ القُوى إلى ما يَخْدُمُ أهواءَها.

وقدْ ألقَتْ هذهِ الظّاهِرَةُ الّتي وَلّدَها الانتخابُ بُذورَ الشّنآنِ في قَلْبِ الحسينِ الشّابِّ، وبذورَ الرِّيْبةِ في أنّهم مُخلِصونَ على وَجْهٍ عامٍّ، فهو، بدافِعِ ضميرِهِ وبدافِعِ إحقاقِ الحَقِّ، آنْطَوَى على مَوْجِدَةٍ وظُلامَةٍ وآستفزازٍ كبيرٍ ظهرتْ نتائِجُها بَعْدَ أنْ دارَتِ الحوادِثُ دَوْرَةً غيرَ قصيرة.

المجاهد الشابّ: الازْوِرارُ والإعراضُ لم يَحمِلا الحسينَ على مُقاطعةِ إجراءاتِ الحكومةِ القائِمةِ بل نراهُ يَمْضي بحماسٍ إلى التَّضْحِيَةِ في سبيلِ مجْدِ الدّولةِ مُطّرِحاً كلَّ خصومةٍ نفسيّةٍ أو شخصيّةٍ، لأنَّ هناكَ مبدأً يُقدِّسُهُ ويَعْمَلُ في سبيلِهِ، وقد صارَ أهلاً للعَمَلِ وَوَجَدَ فُرصَةً للخِدْمَةِ. فمَضَى مُلَبّياً نِداءَ الحكومةِ غيرَ مُتَوانٍ عنْ عملِ الواجبِ، فإنّه وإنْ كانَ يُكْبِرُ خُصومَتَه فهو أكثرُ إكباراً للمبادِىءِ العامّةِ، وهذا نُضجٌ لا شَكَّ فيه.

ونحنُ لا يُخالِجُنا شكٌّ في أنّ الحزبيّةَ إذْ ذاكَ كانتْ قَدْ شَمَلَتِ المجتمعَ العربيَّ الإسْلاميَّ، وكانَ الحُسينُ مُنْتَسِباً إلى حِزبِ أبيهِ المحافِظِ، كما أرَيناكَ في فَصْلِ الحزبيّةِ. ورُغْمَ هذا لم يَتأخّرْ عنِ التَّضْحِيةِ المَندوبِ إليها في سبيلِ المجْدِ القوميِّ والدينيِّ، بعيداً عن الحُدود.

وهذا عُنوانٌ عن الاسْتعدادِ النّفسيِّ لِتناسِي الحفائِظِ في سَبيلِ الخِدمة العامّةِ الّتي هي فَوْقَ سائِرِ الاعْتباراتِ، وأقْدَسُ من كلِّ شيءٍ آخَرَ. وكذلك تكونُ العقليّةُ النّاضِجَةُ والعقيدةُ المُخْتَمِرَةُ الّتي تَضَعُ آخْتِلافاتِها وجزيئيّاتِها وعَنْعَناتِها دونَ[1] الهدَفِ الأسْمى بمراحلَ كبيرةٍ.

---

(١) أذْكُرُ أنّي قَرَأْتُ في كتاب: **عَشْر سنين في لندن**، لحافظ عفيفي باشا، وكانَ إذ ذاكَ سفيرَ مصرَ في إنجلترا، أنَّ الرّجلَ ضَمّهُ مَجْلِسٌ جَمَعَ أفراداً من كُلِّ الأحزابِ في إنجلترا فَتناقَشُوا في أفضَلِ الخُطَطِ الّتي يَخشنُ آنتِهاجُها. فكلٌّ مالَ إلى تأييدِ خُطّةِ حِزْبِه، وكان نِقاشاً عنيفاً، كادُوا يَخْرُجونَ مِنه إلى التّدافُعِ بالمناكِب، وفي هذهِ الغَمْرَةِ قام أحَدُهم وقال: «بآسْمِ التّاجِ والمجدِ البريطاني آهْدَؤوا وليَعُدْ كُلٌّ منكم إلى مقعدِهِ فآسْتَصاغَ الحُضورُ إلى صوته وكأنْ لم يكنْ منْ شيءٍ». هذهِ حادثةٌ تُظْهِر لنا فَهْمَ ذَوي النُّضوجِ للجزئيّةِ، وأنّها شيءٌ دونَ الهدفِ الأسمى.

وهذا دَرْسٌ يَجِبُ أنْ نَسْتَفيدَه من الإمامِ الشّابِّ في مراحلِ جِهادنا اليومَ، بسبيلِ آسْتِعادةِ مجدِنا المفقودِ، فهو يُعطي الشّبابَ دَرْساً نبيلاً وأُمْثولةً رائِعةً في فَهْمِ الحزبيّةِ، وأين يَجِبُ أنْ توضَعَ، وفي أيِّ المناسَباتِ يُحْمَدُ العملُ بِوَحْيِها. وسنرى بعد حينٍ في عهدِ معاويةَ كيفَ يُلَبّي أيضاً في الحملةِ على القسطنطينيّةِ، رُغْمَ الظُّلامَةِ الّتي آنْقَلَبَتْ حَزازةً نَفْسِيَّةً عندَه بما أجْرَتِ الحوادِثُ منْ دماءٍ عزيزةٍ عليه.

ذَكَرَ آبْنُ خلدونٍ[٢] أنّه في سَنَةِ سِتٍّ وعشرينَ، عَزَلَ عثمانُ أميرُ المؤمنينَ، عمْرَو بنَ العاصِ عنْ مِصْرَ، وآسْتَعْمَل مكانَه عبدَاللّه بنَ أبي سَرْحٍ أخاه من الرّضاعَةِ، وكانَ عثمانُ في سَنَةِ خَمْسٍ وعشرينَ أمَرَ عبدَاللّه بِغَزْوِ أفريقيةَ، وأمَّر عُقْبَةَ بنَ نافِعٍ على جُنْدٍ، وعبدَاللّه بنَ نافِعٍ على جُنْدٍ آخَرَ، فَخَرجوا إلى إفريقيةَ في عَشرَةِ آلافٍ وصالَحهم أهْلُها على مالٍ يُؤَدّونَه ولم يَقْدِروا على التّوَغُّلِ فيها لِكثْرَة أهْلها. ثمّ إنّ عبدَاللّهِ بنَ أبي سَرْحٍ آسْتَأْذَنَ عثمانَ في ذلكَ وآسْتَمَدَّه، فآسْتَشار عثمانُ الصّحابةَ فأشاروا بِهِ. فَجَهَّزَ العساكرَ منَ المدينةِ وفيهم جماعةٌ من الصّحابةِ منْهُمُ الحسنُ والحسينُ وآبنُ الزّبيرِ وآبنُ عبّاسٍ وآبنُ عُمَرَ وآبنُ عمروِ بنِ العاصِ وآبنُ جعفرٍ وساروا معَ عبدِاللّه بنِ أبي سرحٍ سنةَ ستّ وعشرينَ، ولَقِيَهُم عقبةُ بنُ نافعٍ فيمَن مَعَهُ من المسلمينَ ببرْقةَ، ثمّ ساروا إلى طرابلسَ فَنالوا الرّومَ عندَها، ثمّ ساروا إلى إفريقيةَ وبثّوا السّرايا في كُلّ ناحِيَةٍ، فَفُتِحَ عليْهم ورَجَعَ الجيشُ بعدَ مَقامِه سَنَةً وثلاثةَ أشهرٍ.

وذكرَ آبنُ جريرٍ الطّبَريّ[٣] أنّه في سَنَةِ ثلاثينَ آسْتَعْمَلَ عثمانُ سَعْدَ بنَ العاصِ على الكوفةِ، وفي السّنةِ نفسِها غزا سعيدُ بنُ العاصِ طَبَرِسْتانَ من الكوفةِ ولم يغزُها أحدٌ قَبْلَهُ.

---

(٢) راجع: **تاريخ ابن خلدون**، ج ٢، ص ص ١٢٨ - ١٢٩. وذكر دُخولَ الحسينِ وأخيهِ الحسنِ المغربَ فيمَنْ دَخَلَهُ مِنَ الصّحابَةِ أحمدُ بنُ خالدٍ النّاصريّ السّلاويّ في كتابه: **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى**، ج ١، ص ٣٩.

(٣) راجع: **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص ص ٥٧ - ٥٨. **وتاريخ ابن خلدون**، ج ٣، ص ص ١٣٥ - ١٣٦.

وكانَ الأصْبَهْذُ ـ وصوابُه الأصبهيدُ على ما ذَكَرَه الرّاغِبُ الأصْبهانيّ[٤] ـ صالَحَ سُوَيْدَ بنَ مُقْرِنٍ عنْها، أيّامَ عمرَ، على مالٍ. فغزاها سعيدٌ ومَعه ناسٌ من أصحابِ رسولِ اللّه منهُم الحسنُ والحسينُ وعبدُاللّه بنُ العبّاسِ وحُذيفةُ بنُ اليَمانِ، فسألوا الأمانَ فأعطاهُم على أنْ لا يَقْتُلَ منهم رجلاً واحداً، فَفَتَحوا الحِصْن. فَقَتَلَهم جميعاً إلّا رَجُلاً واحِداً وحَوَى ما كان في الحِصْن.

عَرَفْنا فيما سَبَقَ ما آحْتَكَم بنفسِ الحسينِ (ع) من تَرْبياتٍ عاليةٍ، وما قامَ عليهِ قلبُهُ من مَبادِىءَ فُضْلى لا يَتغاضَى أبَداً إذا آنْتُهِكَتْ، وهو مُتَقَيِّدٌ بحُدودِ المُثُلِ القُرآنيّةِ والسّياسةِ النّبويّةِ لا يَحيدُ عنها ثُمّ لا يَحيدُ.

فلا عَجَبَ إذا رأيناهُ يَسْتَنْكِرُ آسْتِنكاراً صارِخاً، آسْتِنكاراً ديمقراطيّاً نَبيلاً على أميرِ الجُندِ، وهو بينَهم جُنْدِيٌّ، حينَ أعطى عَهْداً ونَكَثَ به، وغَدَرَ بمُسْتَأْمَنينَ، والمسلمونَ، كما جاءَ في الحديثِ، عندَ شُروطِهم.

وآنْتَقَلَتْ حركةُ هذا الانْتقادِ إلى المدينةِ، فأثار الضّمائرَ وأسْعَرَها، وزَأرَتِ العَدالةُ على لِسانِ عليٍّ (ع) زئيراً رَهيباً، زئيراً يَقُضُّ المضاجِعَ ويُقْلِقُ المُسْتَنيمينَ إلى هذه السّياسةِ الّتي نَعَتَها بسياسةِ الجَبَروتِ، ونَعَتَ سعيداً هذا بالجَبّارِ، والإسلامُ دينُ الرّحمةِ فليسَ فيهِ جَبَروتٌ على المُسْتَضْعَفينَ، والمُسلمونَ رُحَماءُ، فليسَ فيهم الجبّارُ على الضُعفاءِ. وهذه الظّاهرةُ المُدْهِشَةُ الّتي صَبَغَتْ فُتوحَ العربِ الأُولى، هي الخَلّةُ الحميدةُ للفَتْحِ الإسْلاميِّ وحدَه.

بادِرَةٌ من أميرٍ أُمَويٍّ، تَدُلُّنا على لَوْنِ سياسةِ الأُمويّينَ وآتّجاهِهم الحُكْميِّ، وتَضَعُ أيديَنا على موضِعِ الخَتْلِ والعَبَثِ الطّبيعيَّيْنِ، وعَدَمِ الاعتدادِ بأيِّ شيءٍ في سبيلِ المطامِعِ الشّخصيّةِ. هذا الأميرُ يَطْمَعُ بما في الحِصْنِ ويَعْجِزُ عن فَتْحِه عُنْوَةً فآسْتَدْرَجَ أهْليهِ إلى

---

(٤) ذكر الراغِب الأصبهانيّ في مُحاضرات الأدباء، ج ١، ص ٧٦ أن الأصبهيد هو صاحبُ الجَيْل، وهو الصّواب.

الأمانِ ولكنّه آنْقَضَّ عليهم لِيظْفَرَ بغنائِم الحِصْنِ كاملةً. وسياسةٌ كهذه تُحْفِظُ المتَشَبِّعينَ بقضايا الحقِّ والواجبِ والعدالةِ. وإنّما تُوْجَدُ الدّيمقراطيّةُ الصّحيحةُ، حيثُ تُوجَدُ الرّقابةُ الشّعْبيّةُ المخلِصَةُ الّتي تُشْعِرُ الهيئاتِ الحاكمةَ بوجودِ الشَّعْبِ وحياةِ الدُّستورِ.

وفي هذا دَرْسٌ نبيلٌ حينَ يَرْتَسِمُ أمامَ نواظِرِنا الحسينُ الجُنديُّ أوِ النَّفَرُ، يُصارِحُ أميرَ الجيشِ بأنَّ هذا غَدْرٌ ونَكْثٌ لا يجوزانِ في مَنْطِقِ القانونِ. والفَتْحُ الإسلاميُّ الذي يَعْمَلُ على نَشْرِ فكرةٍ ويدْعو إلى تهذيبِ الإنسانيّةِ والاجْتِماعِ، لا يَتَّفِقُ مَعَ أهدافِهِ الرَّئيسيّةِ الصّميمةِ.

وبعثُ الأُمّةِ لا يَتِمُّ إلّا بآلْتِقاءِ الطّبيعةِ المؤمنةِ بالطّبيعةِ المجاهدةِ، فمضى الحسينُ إلى الجِهادِ لِيُفْسِحَ لِكِلْتا الطّبيعتَيْنِ في نَفْسِه...

قيامُ المرءِ بالعقيدةِ وحدَها، قيامٌ بنِصْفِ الحياةِ، فمَضى الحسينُ إلى الجهادِ كيْ يُعْلِنَ عنْ نفسِه بأنّه حيٌّ كاملٌ.

قِفْ دونَ رَأْيِكَ في الحياةِ مُجاهِداً إنَّ الحياةَ عَقيدةٌ وجِهادُ

العَقيدةُ بدونِ جهادٍ، كالجِهادِ[٥] بدونِ عقيدةٍ، لا يَزيدُ هذا عنْ أنْ يكونَ وَحْشِيّةً وتَرْويعاً وقَطْعَ طريقٍ، كما لا يَزيدُ ذاكَ عنْ أنْ يكونَ ضميراً في نفْسِ الميّتِ، وكلٌّ منْهما يُعَبِّرُ عن معنىً لمْ يَتِمَّ، ويَرْسُمُ شكْلاً مَمْسوخاً. فمضى الحسينُ إلى الجِهادِ في إفريقية ناظِراً إلى الغَرْبِ الأقْصى، كما مضَى إلى الجهادِ في طَبَرِسْتان ناظِراً إلى الشّرقِ الأقْصى، ليقولَ بأنّ حُدودَ العقيدةِ أنْ لا تَكونَ في حُدود...

خَرَجَ الحسينُ (ع) بروحِ المسجدِ إلى الكِفاحِ لِيَمْزُجَ بها روحَ العالَمِ، ويتولّدَ من بينِ هذا اللِّقاحِ هيكلُ الفَضائلِ الحيُّ الّذي يقومُ على مِثْلِ حُدودِ المسجدِ وقَواعِدِه...

---

(٥) لَفْظُ الجهاد لا يُطْلَقُ إلّا إذا صاحَبَتْهُ العقيدةُ وإطلاقُهُ هنا من باب المشاكلة اللّفظية.

مخاض ولادة الثورة

كنتَ لا تَسمَعُ إلّا نَأْمَةً طويلةً تُنْذِرُ بخطَرٍ رَهيبٍ، وكانَ الناسُ يَتَحَلَّقونَ هُنا وهناكَ في شُرُودٍ وتَوَثُّبٍ، كأنّما هم يَنْتَظِرونَ كارِثَةً داميَةً سَتَقَعُ بعدَ حينٍ قريبٍ. ووَفَدَتْ جموعُ الغُرباءِ منْ شَتّى الأقْطارِ، وعلى وُجوهِهِم سُطورُ الثّورةِ الحمراءِ التي تُلاعِبُ نُفوسَهم حتّى لكأنّها مقروءَةٌ بوُضوحٍ، وتَجَمْهَرَ هؤلاءِ في طُرُقاتِ المدينةِ يُنادونَ بالإصلاحِ أوِ الانْقِلابُ، وبعَدْوَى الشُّعورِ آنْقَلَبَتِ المدينةُ كأنّها مَجازٌ تَدَفَّقَتْ فيه السُّيولُ الجارِفةُ، وآنْعَقَدَتْ أصواتُ الجُموعِ في صَرَخاتٍ لَيْسَ لها مقاطعُ مَفْهومَةٌ، فقدْ غَدَتْ زَمْجَرَةً صارِخةً داوِيةً وعَرَتِ النّاسَ رَغْبَةُ الجُمهورِ الثّائِرِ فَوَقَعُوا تَحْتَ سُباتٍ مَشْدوهٍ منَ الشُّعورِ المُبهَم.

دَخَلَ النّزاعُ بينَ الشَّعْبِ والهيئةِ الحاكمةِ في دورٍ عنيفٍ لم تَعُدْ تَنْفَعُ فيه وَساطَةُ الحِزْبِ المحافِظِ، لأنّ المِرْجَلَ قد حَمِيَ، ولم يَبْدُرْ من جانِبِ الهيئَةِ الحاكمةِ بادِرَةٌ تُخَفِّفُ غُلَواءَ الجمهورِ، وتساعِدُ الحزبَ المحافظَ على النّجاحِ. فإنّ الجمهورَ الثّائرَ لم يَعُدْ يَثِقُ إلّا بنفسِه، والثّورةُ تَبْعَثُ الثّورةَ، كما أنّ الأسَى يَبْعَثُ الأسى، فآشْتَعَلَتْ حتّى أصْبَحَ من المُتَعَذِّرِ إطْفاؤها، فَتَنَحّى عليٌّ (ع) وحِزْبُه منْ طريقِ الجمهورِ المُدَمِّرِ، وهذا طبيعيٌّ. فإنّ الظَّرفَ من وُجْهَةِ النّظرِ النّفسيِّ دقيقٌ جدّاً، فكُلُّ مُصادَمَةٍ لرَأْيِ الجمهورِ يَعُدُّها خيانَةً لأنّه واقعٌ تحتَ تأثيرِ شعورٍ عنيفٍ، كما يَقولُ بنامين كيد، يُسَيْطِرُ على كُلِّ مناطقِ التَّفْكيرِ ويَصْبُغُها بلوْنِهِ الدّاكنِ، ومنْ ثَمّ لا يعودُ للتّعَقُّلِ الهادىءِ أثَرٌ ما في حركاتِ التّوجيه.

أخْلى الحزبُ المحافِظُ الطّريقَ لأمْرين[٦]:

---

(٦) ويُوجَدُ هناك أمْرٌ آخرُ ذَكَرَه المؤرِّخونَ، وهو أنّ مروانَ كانَ يُوغِرُ دائماً صدرَ عثمانَ على عليٍّ حتّى أجْمَعَ لا يقومُ دونَه، وقالَ قَوْلَتَه المشهورة: «ما رَضيَ مروانُ منكَ إلّا بتَحَرُّفِكَ عن دينِكَ وعن عقلِكَ مثلَ جملِ الظّعينةِ يُقادُ حيثُ يُسارُ به، واللّهِ ما مَروانُ بِذي رأْيٍ في دينِهِ ولا في نفسِهِ، وآيْمُ اللّهِ إني لأراهُ سَيُورِدُكَ ثم لا يُصْدِرُكَ، وما أنا بعائِدٍ بعدَ مقامي هذا لمُعاتَبَتِك، أذْهَبْتَ شَرَفَكَ وغُلِبْتَ على أمرِكَ». ولقد تأثَّرت آمْرَأةُ عثمانَ نائِلةُ آبْنَةُ الفَرافِصَة (بفتح الفاء لاَسم أبيها خاصّة وبالضمّ لغيره، حياة الحيوان، للدميري، ج ٢،

أوّلُهما: أنّ من العَبَثِ الوُقوفَ بعدُ في وجهِ الثّائرينَ، بلْ رُبّما أدّى إلى عكسِ النّتيجةِ وآستَفْحَلتِ الثّورةُ آستِفحالاً قاسِياً بحيثُ تَنقَلِبُ ثورةً للثّورةِ دونَ قَصْدٍ آخَرَ، فَتَعُمُّ الفوضى الطّائشةُ والفِتنةُ المريرة.

ثانيهما: أنْ تَرى الهَيْئَةُ الحاكِمَةُ بنفسِها عُنْفَ الجمهورِ الثّائرِ فَتُغَيِّرَ خُطَّتَها وتُجيبَ المطالِبَ في الحينِ الّذي تكونُ الثَوْرَةُ لا تزالُ مدفوعةً بقصْدٍ مُعَيّنٍ مفْهومٍ، وأيُّ تأخُّرٍ في النُّزولِ على رأْيِ الثّائرينَ يَجْعَلُهم يَنْدَفِعونَ بغُلَواءِ الشّعورِ، ويَنْبَهِمُ القَصْدُ من الثّورةِ، وهنا الخطرُ، إذْ تَخْرُجُ الثّورةُ من نُقْطةِ الدّائرةِ إلى محيطِها وتَـتَدَفّقُ مُتَخَطِّيَةً الحواجزَ والجُسورَ كالفَيَضانِ حينَ تَنوءُ الحواجزُ عن ضَغْطِه وضَبْطِه فلا يَطّرِدُ في الأَقْنيةِ والمجازاتِ... بل يَطْمُو كما صَوَّرَ أبو الطّيِّبِ: «طَما الوادي فطَمَّ على القَرِيِّ»، أي عَلا السيلُ فلم يُغادِرْ.

كانتِ الحَواجِزُ بِيَدِ الهيئةِ الحاكمةِ، فلم تَـنْشَطْ وتَخِفَّ إلى رَفْعِها ولو قليلاً بحيثُ تُنفِّسُ عنِ الجمهورِ، بل عَمَدَتْ إلى إحكامِ الحواجزِ حتّى تَمَّ الطُّغْيانُ. وقَدِ آقْتَنَعَتِ الهيئةُ الحاكمةُ أخيراً، حينَ رأتْ جِدَّ الجُمهورِ الثّائرِ، فكَتَبَ عثمانُ إلى عليٍّ كتابَه المشهورَ:

بلغَ السّيلُ الزُّبى، وجاوزَ الحِزامُ الطُّبْيَيْنِ.

فإنْ كُنتُ مَأْكولاً فكُنْ أنْتَ آكِلي ... وإلّا فَأدْرِكْني ولَمّا أُمَزَّقِ

لا يُحَدِّثُنا التّاريخُ عن الأثرِ الّذي كانَ للكِتابِ في عليٍّ (ع)، ولكنّني مُقْتَنِعٌ بأنّه طَرِبَ جدّاً لهذه النّتيجةِ الّتي أقْنَعَتِ الحاكمَ الأعْلى بَعْدَ لأْيٍ بوجوبِ الإصلاحِ وتعديلِ

ص ٢٤٨) بنُصْحِ عليٍّ (ع) حتى قالت لزوجِها: «إتّقِ اللّهَ وآتّبِعْ سُنّةَ صاحبَيْكَ من قبْلِك، فإنّكَ متى أطعْتَ مروان قَتَلَك، ومروانُ ليسَ له عندَ النّاسِ قَدْرٌ ولا هَيْبَةٌ ولا محبّةٌ وإنّما ترَكَك النّاسُ لمكانِ مروانَ منكَ فأرْسِلْ إلى عليٍّ فآستصلحْه فإنّ له قرابةً منك وهو لا يُعصَى».

السّياسةِ. فقد آذَنَهُ عثمانُ بوضعِ كُلِّ المُقَدّراتِ في يديْهِ وتوجيهِ السّياسةِ العامّةِ على الشّكلِ الّذي يراهُ، فَعَمَدَ إلى العملِ السّريعِ قبلَ الاسْتِفحالِ، فَبعَثَ بحسنٍ وحسينٍ ليُحافِظا ويَحولا دونَ آمْتِدادِ الثّورةِ من قريبٍ. ولكنّ تصريحَ عائشةَ، في هذهِ المرحلةِ الدّقيقةِ المُسْتَعِرةِ، حيثُ بَلَغَ الجمهورُ قِمّةَ الشُّعورِ الحماسيِّ إلى مروانَ بالكلمةِ[7] الحمراءِ: «وَدِدْتُ لو أنّه مُقَطَّعٌ في غَرارةٍ من غَرائري، وأنّي أُطيقُ حَمْلَه فأطْرَحُه في البحرِ»، دَفَعَتْ بالثّورةِ عنْ نُقطةِ آرْتِكازِها وأجّجَتْها، وكانتْ أسْرَعَ من حركةِ عليٍّ (ع) الّذي نَظّمَ الأمورَ لِفَلِّ الثّورةِ بتَرْضِياتِ الجمهورِ، ووَقَعَتِ الكارثةُ قبلَ وُصولِ عليٍّ الّذي كان بعيداً عنِ المدينةِ. ودِفاعُ الحسينِ (ع) وغيره لم يُغْنِ إلّا غَناءً قليلاً.

وسَيْطرَ الثّائرونَ على الموقفِ سَيْطَرةً مُطلقةً حتّى حالوا دونَ دَفْنِ عثمانَ الشّهيدِ، وتمّ آنْتِخابُ الخليفةِ على أيْديهِم. غيرَ أنّ عليّاً أرادَ أن يَضعَ حدّاً لتَسَلُّطِ الثّوارِ فآتّخذَ خُططاً دقيقةً مَبْنيّةً على نظرٍ عميقٍ - كما قَدَّمْنا في بَحْثِ الثّورةِ - قبلَ أنْ تدورَ الثّورةُ على نفسِها، وتَدْخُلَ في آلْتِفافاتٍ جديدةٍ وتَخْلُقَ أزَماتٍ وتيّاراتٍ مُزْعِجَةً. فَعَزَلَ وولّى ومضى في سياسةٍ منْ شأْنِها رَدُّ الأمْنِ إلى نِصابِهِ ووضْعُ حَدٍّ للانتِهازيّةِ والأطْماعِ الّتي بَدَأَ يُفَكِّرُ بها الجُمهورُ المندفِعُ، فَجَهَّزَ البُعوثَ للقَضاءِ على المتمرّدينَ المُتَنَمّرينَ، وكانتْ سياسةً رشيدةً حازِمةً تَدُلُّ على بُعْدِ النّظرِ، حينَ بَناها على الحركةِ السّريعةِ وأخْذِ الأمورِ من أقربِ طريقٍ، لولا ما آجْتَمَعَ في المحيطِ العربيِّ من عواملِ القَبَليّةِ والقَلَقِ الدّينيِّ وآصْطباغِ النّفوسِ البَدِيَّةِ بالطَّماعِيّةِ.

تَأْخُذُنا الدَّهشةُ كلّما فَكَّرْنا بموْقِفِ عليٍّ (ع) من عثمانَ (ض)، فقدْ كان له رائِداً

---

(٧) بعدَ أنْ هدَّأَ عليٌّ ثائِرَةَ النّاسِ إذْ أعْطاهُم عَنْ عثمانَ مُهْلَةَ ثلاثةِ أيّامٍ، وآنْتَهَتْ وآجْتَمَعَ النّاسُ على بابِهِ مثلَ الجبالِ، قال عثمانُ لمروانَ آخْرُجْ فَكَلِّمْهم فإنّي أسْتَحِي أنْ أُكَلِّمَهم. فَخَرَجَ مروانُ إليهم، والنّاسُ يَرْكَبُ بعضُهم بعضاً، فقال: ما شأْنُكم قَدِ آجْتَمَعْتُمْ كأنّما قد جِئْتُم لِنَهْبٍ؟ شاهَتِ الوُجوهُ، كُلُّ إنسانٍ آخِذٌ بأُذُنِ صاحِبِهِ. جِئْتُم تُريدُونَ أنْ تَنْزِعوا مُلْكَنا من أيدينا، آخْرُجوا عنّا... إلى آخرِ هذه الخُطبةِ المملوءةِ حُمْقاً ورُعونةً، وقد كانت شَرارةً شديدةَ الأثرِ في إلْهابِ نارِ الثّورة.

مُتطَوِّعاً بإخلاصٍ، يَغارُ عليه ويُخَطِّطُ له الخُطَطَ القويمةَ مُتناسِياً كُلَّ حفيظةٍ وكلَّ مَوْجِدَةٍ، ومتناسياً أنّ الأُمويّينَ داوَروهُ مُداوَرَةً لإسْقاطِهِ وآنْتِخابِ عثمانَ. ولا بَأسَ من أنْ نَذْكُر طَرفاً من أساليبِهِ في الإشارةِ عليه لِنرى بجلاءٍ مَدى العاطِفةِ الشّريفةِ الّتي كانَتْ تغمُرُ فُؤادَه الكبيرَ وقلبَه التّقيَّ الطاهرَ الّذي لا يَفيضُ إلّا بالإخلاص للنّاسِ جميعاً. هذهِ الصِّفةُ الّتي آنْتقَلتْ إلى فتاهُ الحسينِ (ع) وظَهَرَتْ منْه في كلِّ مناسَبَةٍ ما دامَ الخليفةُ غيرَ مُتجاوِزٍ تجاوزاً مكْشوفاً، فقدْ قَرَّرَ الخُضوعَ لمعاويةَ أيضاً، لأنّه لم يَكُنْ مُسْتَهْتِراً مُبالِغاً في الاسْتِهتارِ. وهذا يُظْهِرُ لنا ـ وهو الّذي خَبِرَ يزيدَ عنْ قُرْبٍ يومَ كان أميراً على الجيشِ في الحَمْلَةِ على القُسْطَنْطينيّةِ ـ لماذا خرجَ على يزيد؟

يَذْكُرُ التّاريخُ مُثُلاً كثيرةً منْ أساليبِ عليٍّ في نُصْحِ عثمانَ، ونَنْتَزِعُ منها هذِه الأُمْثولَةَ الرّائعةَ. دَخَلَ عليه يوماً وقالَ له:

«النّاسُ ورائي وقدّ كلّموني فيك، واللّهِ ما أدْري ما أقولُ لك، وما أعْرِفُ شيئاً تجْهَلُه ولا أدُلُّكَ على أمْرٍ لا تَعْرِفُه. إنّك لَتَعْلمُ ما نَعْلَمُ، ما سَبَقْناكَ إلى شيءٍ فَنُخْبِرَكَ عنه، ولا خَلَوْنا بأمرٍ دونَك فَنُبَلِّغُكَه. وقدْ رأيتَ وسمعتَ وصَحِبْتَ رسولَ اللّهَ (ص) ونِلْتَ صِهْرَه، وما آبْنُ أبي قحافةَ بأوْلى بعملِ الحقِّ منك، ولا آبْنُ الخطّابِ بأوْلى بشيءٍ مِنَ الخيرِ منْك. فاللّهَ اللّهَ في نفسِك، فإنّك واللّهِ ما تُبصَّرُ مِنْ عَمىً وتُعَلَّمُ مِنْ جهلٍ، وإنّ الطّريقَ لواضحٌ بيِّنٌ».

فإذا آعْتَذَرَ عُثمانُ بأنّه يَقْتَفي أثَرَ عمرَ، أجابَه على إجابتِه ذاتِ التَعِلَّةِ غيرِ المُوَفَّقَةِ إذْ يَقولُ: «سأُخبرُك أنّ عمرَ بنَ الخطّابِ كانَ كُلُّ مَنْ وَلِيَ فإنّما يطأُ على صِماخِهِ، إنْ بَلَغَه عنهُ حَرْفٌ جَلَبَه ثُمّ بَلَغَ به أقْصى الغايةِ، وأنْتَ لا تفعلُ، ضَعُفْتَ ورَفُقْتَ على أقربائِك».

فإذا ذَكَرَ له عثمانُ أنّ معاويةَ كان مِمَّنْ وَلّاه عمرُ مُدّةَ خلافتِهِ كلِّها، وأنّه آقتدى كذلك بعمرَ في تَوْلِيتِه، أبانَ له عليٌّ (ع) الفَرْقَ بينَ العَمَلَيْنِ، فقال: «أنْشُدُكَ اللّهَ، هلْ تَعْلَمُ أنّ معاويةَ كانَ أخْوَفَ مِنْ عمرَ، مِنْ يَرْفَأ غُلامِ عُمرَ؟ قال نَعَم.

قال عليّ: فإنّ معاويةَ يَقْتَطِعُ الأمورَ دونَك وأنتَ تَعْلَمُها، فيقولُ للنّاسِ هذا أمرُ عثمانَ فَيَبْلُغُكَ ولا تُغَيِّرُ على معاوية».

هذه أُمْثولةٌ من أمثولاتٍ كثيرةٍ كلُّها تُرينا موضِعَ النُّبْلِ والإخلاصِ وإنكارِ الذّاتِ من نفسِه الوَضِيَّةِ بشُعاعِ الضّمير.

كانَ للحزبيّةِ الّتي شَهِدَ الحسينُ (ع) من حركاتِها الكثيرَ، ومن الثّورةِ الّتي خاضَها دِفاعاً عنِ الخليفةِ ما أجَّجَ نَزْعةَ الإصلاحِ في نفسِه قَبْلَ أنْ يُنْتَقَضَ ما بناهُ النّبيُّ (ص) بآنْتِقاضِ النّظامِ الاجتماعيّ. وكان يَرَى في أبيهِ المُصْلِحَ المُنْتَظَرَ، كما يرى ذلك كلُّ الّذين تَغْمُرُ نفوسَهم أفكارُ الإصلاحِ، ويَرى في الحزبِ الأُمويِّ أنّه مَصْدَرُ البَلْبَلَةِ والدَّسِّ بسبيلِ أطماعِهِ، فَجَزَمَ الاعْتِقادَ في نفسِه بأنْ لا آسْتِقرارَ ما دامَ للأُمويّينَ سُلْطَةٌ[8] أو شِبْهُ سُلطةٍ، وأَجْمَعَ على أنْ يَخْدُمَ هذه الفكرةَ في ظِلِّ حكومةِ أبيهِ، وفي كلِّ حينٍ.

وهو، وإن يَكُنْ خَضَعَ على مضضٍ لمعاويةَ، فقدْ كان يَنْتَظِرُ آنْفِراجَ الأزمَةِ الاجتماعيةِ بوَفاتِه، وردَّ حَقِّ الجمهورِ المُغْتَصَبِ، ولكنْ لمّا رأى أنّ الحِزْبَ الأُمويَّ دَخَلَ في مُداوَرَةٍ جديدةٍ لِنَقْلِ مُقَدَّراتِ الحُكم إلى آبْنِه، وفي هذا زيادةٌ على الاغتصابِ للحَقِّ العامِّ، وعَبَثٌ بالأدبيّةِ المثاليّةِ للإسلامِ، فكانَ طبيعيّاً أنْ لا يُقِرَّ هذا الوضعَ مهما كَلَّفَ الأمْرُ. وبالأخصِّ إذا نَظَرْنا إليه من الوُجْهَةِ القانونيّةِ البرلمانيّةِ الّتي تَقْضي بأنّ هذا في جَوْهَرِه تَلاعُبٌ بالدُّستورِ الانتخابيِّ المتواضَعِ عليه منذُ عهد الخليفةِ[9] الأوّلِ، والدُّستورِ الدّينيِّ المُوْحَى به.

وإذا كانَ الإنكليزُ يَنْظُرونَ إلى ضحايا الدُّستورِ الّذي قَرَّرَ حُقوقَ الشّعبِ، وحاوَلَ

---

(٨) قد أرَيْناكَ في كتاب: **سموّ المعنى في سموّ الذات** أنّ مِثلَ هذا الرّأيِ كان عندَ عامّةِ أهلِ المدينةِ وكثيرينَ كعبدِ اللّه بنِ الزّبيرِ، فَقَدْ طَرَدَ الأمويِّينَ من الحجازِ أجْمَعَ، ونَفاهُمْ خارجَ الحدودِ لأنّ لهم مداخِلَ بين الحَشا والصّفاقِ. راجع: **الأغاني**، ج ١، ص ٦، ترجمة أبي قطيفة.

(٩) إتّخَذَ النّاسُ طريقةَ العمل الانتخابيِّ مُنْذُ الخليفةِ الأوّلِ قانوناً، ويَظْهَرُ هذا من رَدّ عبدِ اللّه بن الزّبير على معاويةَ إذْ أعْلَنَ رَأْيَه في

الملوكُ التّلاعُبَ به، نَظَرَ القَداسةِ، واَعْتبروهُم مُجاهِدينَ سَجَروا أنفسَهُم بسبيلِ الحريّةِ العامّةِ، فإنَّ أوّل ضَحيّةٍ مِنْ ضَحايا الدّستورِ وحُرّيّةِ الشّعبِ في الإسلامِ لَمْ يكنْ غيرَ الحسينِ (ع) فنحنُ أجْدَرُ بأنْ نَنظُرَ إليه هذا النَّظَرَ. إن كرومول بَقِيَ مُحْتَرَماً من الإنجليز - رُغْم أنّه اَنْقَلَبَ ديكتاتوراً - لأنه قادَ ثورةَ الحرّيّةِ وظَفِرَ بخُصومِ الجُمهورِ الطُّغاة.

بهذا النّظرِ يَجِبُ أنْ نَدْرُسَ الحسينَ ونَفْهَمَ حقيقةَ حركتِه الّتي أذْكاها ضدَّ يزيدَ الطّاغِيَة.

يزيدَ وطَرَحَ الثّقةَ في اَجْتِماع الحَجّ الّذي هو الندوةُ النيابيّةُ والمَنابَةُ (البَرْلَمانُ الأعظم) في الإسلامِ، وقال له: ليسَ لكَ أن تَفْعَلَ إلّا كما فَعَلَ النّبيُّ (ص) إذ جَعَلَ الانتخابَ عامّاً، أو كما فَعَلَ أبو بكرٍ اَنتَخَبَ رجلاً من عُرْضِ النّاسِ أو كما فعلَ عمرُ جَعَلَها في ستّة. راجع: ذيل الأمالي، لأبي عليّ القالي.

في عهد عليّ

لمحة: أوْفَى الحسينُ في عَهْدِ أبيهِ على الثّلاثينَ من عُمرِه، وآسْتَوى رَجُلاً ناضِجاً ملءُ بُرْدَيْهِ آسْتِبْسالٌ وعزيمةٌ وتَعَلُّقٌ بالإصلاحِ، ومَضاءٌ في حركةِ التّطْهيرِ الّتي يَتَطَلَّبُها الوَضْعُ الجديدُ، الّذي رَسَم خُطَّتَهُ عليٌّ (ع).

والأبُ العظيمُ أشْرَفَ على الثّورةِ وهي تَمورُ وتَؤُجُّ وتَنْدَلِعُ بنيرانِها المَسْجورَةِ، حتّى إذا أحْكَمَ خُطَّتَها، وجَمَعَ إليه الخُيوطَ لِيُحَرِّكَها بِحَسَبِ الأدوارِ تَقَطَّعَتْ في يدَيْه.

عندَها أدْرَكَ أنّه لمْ يَتِمَّ مِنَ الثّورةِ إلّا فَصْلُها الأوّلُ، وأنّ التَّغَلُّبَ على الأحزابِ الّتي كَشَفَتِ الثّورةُ عن شِرّتِها، والّتي سَتَعْمَدُ إلى الصّراعِ الطّويلِ، لَنْ يَتِمَّ إلّا بضَرَباتٍ سريعةٍ قاسِيَةٍ، ورَأى أنّه لن يَنجَحَ إلّا بإعْجالِهم قبلَ أن يتأشَّبُوا فَيَسْتَعْصِيَ القَضاءُ عليهم، وَوَقْعَةُ الجَمَلِ عيَّنَتْ لِمَنْ سيكونُ الفَوْزُ، ولذلكَ آسْتَسْلَمَ الأُمويّونَ بعدَها واحداً بعدَ واحدٍ، وأُسْقِطَ في أيديهم، وأشْرَفَتِ الثّورةُ على النّهايةِ الّتي يُسْدَلُ مِنْ بَعْدِها السّتارُ.

بَيْدَ أنّ جيشَ عليٍّ[1] (ع) الّذي كان قَبَلِيّاً في مِزاجِه العقليّ والّذي أفْسَدَتْه الحِزبيّة

(١) يُقرِّرُ هذا أنّ عبدَاللّهِ بنَ الزبيرِ آستقامَتْ له الأقطارُ وحاصَرَ الشّامَ ثُمّ تَقَلّلَ لأنّ مادّةَ الجيشِ كانت قَبَليّةً بخلافِ جُنْدِ الشّامِ

والثّورةُ، وخالَفَتْ بينَ خُطُواتِه الخَيْرَةُ الدّينيّةُ الوافدةُ، تَحَطَّمَ على الصّخرةِ النّفسيّةِ الّتي لم تَعْمَلْ فيها المبادِىءُ الأدبيّةُ الإسلاميةُ إلاّ عَمَلاً قليلاً.

حَمَلَتْ عائِشَةُ رايةَ الثّورةِ من جديدٍ، كما حَمَلَتْ رايةَ الاسْتِفزازِ على عُثمان. والتّاريخُ لا يُحَدِّثُنا لماذا خَرَجَتْ على عليٍّ (ع) ولم ترَ بَعْدُ مِنْ سياستِه شيئاً ما. ودَعْوى أنّها خَرَجَتْ طَلَباً بدَمِ عُثمانَ تَوْهيمٌ، لأنّها لم تَكُنْ جاهِلةً بالشّريعة الّتي تَقْضي بشَيْئَيْنِ: أوّلهما: تَرْكُ الأمرِ إلى الحاكمِ المركزيِّ فإنْ لم يَكُنْ فلِوَليِّ القتيلِ، ولَيْسَتْ من أوْليائِه. ثانيهما: أخْذُ المباشِرِ دونَ المسَبِّبِ.

إذاً فلمْ تَخْرُجْ عائشةُ طلباً بدمِ عثمان بلْ لِشيءٍ آخَرَ، وهو ما لَمْ يَذْكُرْهُ التّاريخُ بصَراحةٍ. والّذي يَسْتَقيمُ عِنْدي في هذا الأمْرِ أنّ الحزبيّةَ بَلَغَ من نُفوذِها مَبْلَغاً عظيماً حتّى عَدَتْ إلى زَوْجاتِ النّبيِّ (ص) فكانَتْ أمُّ سَلَمةَ (ض) من حِزْبِ المحافظينَ أيْ حزبِ عليٍّ، وعائشةُ (ض) من حِزْبِ طلحةَ والزُّبيرِ - كما ذكرْتُ في مُقَدِّمَةِ **سُموّ المعنى في سُموّ الذات** - وكانتا مُتَنافِسَتَيْنِ في عَهْدِ النّبيِّ (ص)، فقدْ كانتْ أمُّ سَلَمَةَ زَعيمةَ طائفةٍ مِنْ نِسائِه وعائشةُ زعيمةَ طائِفةٍ أُخرى، ولا رَيْبَ في أنّ هذه الحزبيّةَ وَلّدَتْ في نَفْسَيْهما حَزازةً تاريخيّةً تَقْريباً اتّصَلَتْ بِمَسْلَكِهما العامِّ، فَفَوْزُ عَليٍّ يُحْفِظُ عائشةَ لأنّه فوزٌ لأمِّ سَلَمَةَ، أضِفْ إلى هذا مَوْجِدَتَها الخفيّةَ على عليٍّ (ع).

تَناهى إلى سَمْعِها نَعْيُ عثمانَ وفوزُ عليٍّ، وهي في طريقِها مِنْ مكّةَ إلى المدينةِ - التّاريخُ يَذْكُرُ هنا رِوايَةً ساذَجَةً بَتْراءَ فيقولُ إنّها رَجَعَتْ إلى مكّةَ من فَوْرِها ولا نَعْلَمُ سبباً لرُجوعِها - وصِحّةُ الخبرِ عنْدي أنّها، وهي في الطّريقِ، لَقِيَتْ طلحةَ والزُّبيرَ، وهذانِ حَمَلاها على الرُّجوعِ وسَهّلا عليها الخَوْضَ في مَعْمَعَةِ مَعْرَكَةٍ طاحِنةٍ، حتّى إذا هَبَطُوا مكّةَ وجَدوا

النّظاميّ بخُضوعِهِ للحُكمِ الرّومانيّ، راجع كتاب: سموّ المعنى من سموّ الذات.

فُلُولَ الأُمويّينَ، فَفَكّرَ طلحةُ والزّبيرُ بٱسْتِغلالِهم فَرَتّبوا الأمورَ هكذا:

يَعْصي بالشّامِ معاويةُ، وهم يَعْصونَ بالعِراقِ حتّى إذا ٱستَقَرّوا حاصَروا الحِجازَ وٱنْتَزَعُوا السُّلطةَ من عليٍّ (ع). فهِمَ عليٌّ كلَّ ذلك فَنَشِطَ يُسَدِّدُ الضَّرَباتِ السّريعةَ، وهو واثِقٌ مَنْ نفسِهِ كلَّ الوُثوقِ، فلم يَسْتَمِعْ للنّاصحينَ ذوي النّظرِ السَّطْحيِّ، لأنّ كلَّ تأْخيرٍ يُفْضي إلى خُسرانِ القضيّةِ المعلّقة.

ومن ضيقِ النَّظَرِ[٢] التاريخيِّ ذَهابُ طائِفَةٍ من المُؤَرّخينَ إلى أنّ وَقْعَةَ الجملِ كانَتْ وَقْعَةً عَرَضِيّةً على هامِشِ الصّراعِ، لأنّنا حينَما نُدَقِّقُ في أسباب التّأشُّبِ على حكومةِ عليٍّ، نجدُ أنّ الشّامَ والبصرةَ كانتا على تفاهمٍ تامٍّ. ويَشْهَدُ لهذا ما ذَكَرَهُ ٱبنُ الأثيرِ في **الكامل**[٣] من «أنّ الخارجينَ فكّروا بالذّهابِ إلى الشّامِ فقيلَ لهم: قد كفاكُم معاويةُ الشّامَ، فٱسْتقامَ الرّأيُ على قَصْدِ البصرةِ». وإنّما بَدَأَ عليٌّ (ع) بالبَصْرَةِ لأنّ خَصْمَيْهِ، طلحةَ والزُّبيرَ، ومِنْ ورائِهما عائشةُ أكْثَرُ وأكْبَرُ تأْثيراً في الجُمهورِ العربيِّ مِنْ معاويةَ الّذي يَسْهُلُ القضاءُ عليهِ بالنَّظرِ إلى أنّه لا يَتَمَتّعُ بشيءٍ من الثّقةِ بالأسْبَقِيّةِ إلى الإسلام والقُدْوَةِ. فإذا أمْهَلَها وقصدَ الشّامَ ٱسْتَشْرى أمرُهما وحَبِطَتِ القَضيّةُ من أوّلِها، وبالقضاءِ عليْها يَخْلُصُ من أشْرسِ خُصومِه. وأعْتقِدُ بأنّ مُعاويةَ لم يَلْجأْ إلى خَوْضِ العِراكِ إلّا ليظفرَ من عليٍّ بالمطْمَعِ الّذي يُلاعِبُ نفسَه، ولكنّ عليّاً لا يَرْغَبُ أبداً بأنْ يُبْقيَ نَكْأَةً في جِسمِ الدولةِ، فأبى إلّا القَضاءَ عليه، وهو نَظَرٌ مُوَفَّقٌ جدّاً، وعلى ضَوْءِ علمِ السّياسةِ هي الخُطّةُ الواجِبةُ، بَيْدَ أنّ عليّاً أُتيَ من قِبَلِ الجيْشِ من حيثُ لا يَحْتَسِبُ، فإنّ جيشَه هو الجيشُ الّذي كانتْ تَسْتَخْدِمُه الدّولةُ في

(٢) يَذْهَبُ الأستاذُ العبّاديّ، المؤرّخُ المصريُّ، إلى أنّ وَقْعَةَ الجملِ مِنَ الحوادِثِ العَرَضِيّة. وهذا عِنْدي أخْذٌ بظاهرِ الرّوايات التاريخيّة السّاذَجَة.

(٣) راجع: **الكامل**، ج ٣؛ وشرح **النهج** لآبن أبي الحديد، ج ١، ص ٨١؛ و**العقد الفريد** لآبن عبد ربه، ج ٢؛ وآبن الصبّاغ في **الفصول المهمة**.

الفُتوحِ، فهو مَنْهوكٌ وزادتِ الثّورةُ في إنْهاكِه، فمالَ بعليٍّ كَرْهاً إلى التّحكيم، بِخلافِ جيشِ الشّامِ فكانَ قليلَ الجُهودِ في الفتْحِ الإسلاميّ، فهو مُتماسِكٌ ولم تَمَسَّهُ الثّوْرةُ فَتَنْهكْهُ، وهذا يَظْهَرُ من تقاعُدِ الجيشِ كلّما طَلَبَهُ عليٌّ (ع) حتّى قالَ مقالَهُ الحكيمَ «ما غُزِيَ قَوْمٌ في عُقْرِ دارِهِم إلّا ذُلُّوا».

في فُصولِ الثّورةِ تكشَّفَتْ نَفسِيّاتُ الأشخاصِ، ومدى آحْتِكامِها بِمَنْطِقِ الضّميرِ والدِّينِ والأخلاقِ، فعائشةُ زوجُ النّبيِّ القَوّامَةُ الصوّامَةُ تَخْرُجُ وتَسْفِكُ الدِّماءَ، وطلحةُ والزّبيرُ اللّذانِ صَحِبا النّبيَّ (ص) أمداً طويلاً يَنْقُضانِ البَيْعَةَ، وأبو موسى الأشعريُّ يَخْذُلُ أميرَهُ في مَقْعَدِ القضاءِ والتّحكيمِ، ومعاويةُ يَعْبَثُ بالقُرآنِ، كتابِ اللّهِ الأقْدَسِ. فَيَرْفَعُه على الأسِنَّةِ خِدْعةً حَطيطةً، والجُموعُ تَـتَفرّقُ من حَوْلِ إمامِهِم حينَما لم يُخَوِّلْهُم منَ الأموالِ إلّا ما خوّلَهُم إيّاهُ الدُّستورُ الّذي ثاروا من أجْلِه.

وَلَّدَتْ هذهِ المشاهِدُ في نَفْسِ عليٍّ (ع) أسىً مريراً ظَهَرَ جليّاً في خُطَبِ **نَهْجِ البلاغة** ـ هذه الظّاهرةُ لا تَدَعُ شَكّاً في صِحّةِ نِسْبَةِ النّهْجَ، الّذي يُعَبِّرُ أحْسَنَ تَعْبيرٍ عمّا يَنبغي أنْ يَعْتَلِجَ ويَصْدُر مِنْ فؤادِ عليٍّ وَسَطَ هذه الزّوبعةِ العاصِفةِ ـ وحَزَّتْ على نفسِهِ هذه القَرَطاتُ المُؤْلِمَةُ، ولَذَعَتْهُ كثيراً فآنصَرَفَ إلى تثقيفِ الجمهورِ وإلى أنْ يُبَصِّرَهُمْ بروحِ الإسلام من جديدٍ وتقديمِ المَثَلِ الأعلى للمُسلمِ الصّحيحِ في شَخْصِه، وما فَتِىءَ يَضْرِبُ على هذه النّغَمَةِ حتّى خرَّ صريعاً وهو يُنادي النّاسَ إلى الصّلاةِ إلى الفلاحِ في غَلَسِ اللّيلِ.

*

وكانَ هذا إيذاناً بأنّ فجرَ الإسلامِ المِثاليِّ قدْ ذَهَبَ مع الأمْسِ، وفَجْرَ الغَدِ سوفَ يكونُ مُلَطَّخاً أبداً بالدِّماءِ والأباطيلِ الحمراءِ...

أطَلَّتِ الشّمسُ على الدّمِ القاني وهي في خِدْرِ أُمِّها ـ كما يقول بشّارٌ ـ فَجَذَبَتِ

الغَمامَ إليها، كأنّها تُشيحُ بوجْهِها أنْ تَرى مَنْظَرَ الهوْلِ الممدودِ في إنسانِ المبادىءِ الفُضْلى...

أبَتِ الأقْدارُ إلّا أن تَمْنَحه وِسامَ الشّرفِ في ظِلِّ كلمةِ اللّهِ الّتي جاهَدَ لها وخَرَّ صَريعاً دونَها، وهيَ ملءُ قلبِهِ وفمِه.

جاءَ في الشّريعةِ أنّ السَّحَرَ وَقْتُ تَجَلّي اللّهِ، فَيَنْفَحُ الرّحَماتِ ويَهَبُ البِرَّ والخيرَ والمحبّةَ، وكان باطلُ الإنسانِ يَقْظاناً أيضاً في شَكْلِ أفْعَى تَنْفُثُ مَعْناها، وفي عينِ اللّهِ آلْتَوَتْ على عُنُقِ الدّاعي «حيَّ على الصّلاةِ، حيَّ على الفَلاح»، ثمّ آسْتَدارَت على يَدِهِ كي تُطفىءَ مِصباحَ ديوجين[4] كأنّها تَرْهَبُ أنْ يَفْضَحَها، فرأى اللّهُ وأبْصَر...

نَطَقَ الحقُّ بصوتِ اللّيل؛ هاتُوا أبنائي وخُذوا أبناءَكُم فإنّ الباطِلَ إلى التّرابِ يصيرُ، والحقُّ يُجَنِّحُ صُعُداً نَحْوَ السّماء...

إزْدَوَجَ صوتُ عليٍّ (ع) حينَما تَخَدَّدَتْ هامَتُه بيدِ فاجِرَةٍ، معَ صوتِ المؤذِّن «اللّه أكْبَرُ، اللّه أكْبَرُ»، وكانَ لهما قَرارٌ واحِدٌ ثُمَّ صَمَتَ الفجْرُ كأنه يَتَسَمَّع...

صدقَ ماكس نورداو حينَما قَرَّرَ بقاءَ الأحْيَلِ دونَ بقاءِ الأصْلَحِ، فإنّ الأصْلَحَ لا يدومُ طويلاً في دُنيا الأباطيلِ...

مرّ إنسانٌ بإنسانٍ وقال له شيئاً، فبَكى أحدُهما وضحِكَ الآخرُ، ثم مَضَيا معاً يَضْرِبانِ في كُلّ مكانٍ، كأنّ كُلّاً منهُما يُتَمِّمُ على الآخرِ مَعناه. هذه صورةٌ من حياةِ الأرضِ فهنيئاً لكِ بالسّماءِ مَهْدِ المثاليّةِ أيّتُها المثُلُ...

متارك نفسيّة: مثلَما تَرَكَتْ هذهِ المشاهِدُ في نفسِ عليٍّ (ع) تَرَكَتْ في نفْسِ الحسينِ. فقدْ رأى مِنْ أطماعِ النّاسِ وأهْوائِهم وأنانيّتِهم الّتي بَلَغَتْ غايتَها شيئاً كثيراً، حتّى لراعَهُ ما

---

(٤) لمصباحِ ديوجينَ مَعْنىً رَمْزِيٌّ هو الدَّلالَةُ على الحقِّ والفضيلةِ والإنسانيّةِ الصّالحة، وهذا هو المقصودُ هنا.

يرى ويَشْهَدُ. لم يكنْ يَظُنُّ في مَنْ حَوْلَه إلّا الخيرَ، ولكنّ الناسَ فَجَؤُوهُ بسرائِرِهم ومَطْوِيّاتِ نُفوسِهم، فلم يَرَ فيها إلّا سَواداً ودُكْنَةً قاتمةً:

إن شِـئْـتَ أنْ يَـسْـوَدَّ ظـنُّـكَ كُـلُّـه

فـأجْـعَـلْـهُ فـي هـذا الـسَّـوادِ الأعـظـمِ

أدْرَكَه الأسَى من مصيرِ النّاس، وأدركَه الأسى حينَما أحسَّ بالضّوءِ الّذي أرْسَلَه النّبيُّ (ص) من مِصْباحِهِ الوَهّاجِ يَتَخافَتُ في وَمَضاتٍ. وشعورُ الأسى في نفْسِ العَظيمِ لا يَسْتَحيلُ يأساً بل عاملُ بَعْثٍ جديدٍ، فَنَشِطَ إلى الجِهادِ والجِهادِ العنيفِ حتّى كانَ قائدَ المَيْسَرةِ في وَقْعةِ الجَمَل.

وكانَ كأبيهِ يَعْتَقِدُ بأنّ المجتمَعَ لن يَصْلُحَ إلّا إذا لُقِّحَ بُعُصارةٍ جديدةٍ، وبُتِرَتْ منه الزّوائدُ وأُبعِدَت عنه الطّفَيليّاتُ، وكانتْ هذه عقيدَةَ كُلِّ أنصارِه أيضاً، وبذا آرْتَجَزَ[٥] عمّارُ بنُ ياسِرٍ:

نَـحـنُ قَـتَـلْـنـاكُـمْ عـلـى تَـأْويـلِـهِ

كـمـا قَـتَـلْـنـاكم عـلـى تَـنْـزيـلِـهِ

ضَـرْبـاً يُـزيـلُ الـهـامَ عـن مَـقـيـلِـهِ

ويُـذْهِـلُ الـخـلـيـلَ عـن خَـلـيـلِـهِ

فَحَرَكَةُ عليٍّ (ع) كانتْ في جوهرِها حَرَكَةَ بناءٍ، وليستْ بحركةِ تَخْريبٍ، كما يشاءُ طائِفَةٌ من المؤرِّخينَ نعتَها، ونحنُ حينَما نُحَلِّلُها نُحاكِمُ المؤرّخينَ إلى المبادِىءِ، فإنّ حركةَ عليٍّ كان لها بَرنامَجُها الواضِحُ، بينَما لا نعلمُ لحركةِ معاويةَ بَرْنامجاً ما، سوى ما كان يُلَوِّحُ

---

(٥) راجع: تاريخ آبن الوزدي، ج ١، ص ١٥٩.

به من الثّأرِ، هذه النّزْعةِ الجاهِلِيَّةِ الخالِصَةِ الّتي بَرِيءَ منها الإسلامُ في خُطبَةِ الوَداعِ التّشريعيّةِ. وإنْ كان يَتَدارَكُني العَجَبُ منْ شيءٍ، فمِنْ أولئِك المؤرّخينَ الّذينَ يأخُذونَ الحسينَ (ع) بحركتِهِ ضِدَّ يزيدَ، فقد نَعَتوها بأنّها مُهدِّمةٌ مُفرِّقَةٌ ولم تكنْ مادّتُها سِوى أهلِ بيتِه، ولَشَدَّ ما يَسْهُلُ الإحاطةُ بهم فَتَتَفَلَّلُ. ويَغْفَلون عنِ التّعليقِ على حركةِ معاويةَ ضدَّ إمامِ الحَقِّ عليٍّ (ع)، وكانتْ مادّتُها جيشاً كثيفاً، عدا عنْ أنّه لا يَخْتَلِفُ آثْنانِ في أنّ عليّاً كان وليَّ الأمْرِ ورَجُلَ الجدارَةِ والاسْتِحقاق. وفي الحقِّ أنّه ـ إنْ كانَ في الحركاتِ الخطيرةِ الّتي صادَفَها التّاريخُ الإسلاميُّ في دورِه الأوّلِ من ضُرّ ـ فحركةُ معاويةَ كانت جُمّاعَه ومصدرَ كلِّ تهديمٍ وآنْحلالٍ وتَفَلُّلٍ أصابَ تاريخَ الدّولةِ الفَتِيّة.

فالحسينُ من بعدِ هذهِ المشاهدِ كلِّها، ومصرعِ أبيهِ، آسْتَبَدَّ به شُعورٌ آنْبعاثيٌّ يَدْخُلُ في عناصرِه الإصلاحُ والحفيظَةُ والانْتِقامُ، إلى ما آسْتَقامَ في تربيتِه من مُحافَظَةٍ وغَيْرَةٍ على مبادىءِ القرآنِ وأدَبيّاتِ الإسلامِ، أضِفْ إلى هذا وَصايا أبيهِ وخصوصاً وصيّتَه إليه الّتي جاء فيها[٦]:

«يا بُنَيَّ أُوصِيكَ بتَقْوى اللّهِ عزَّ وجَلَّ في الغيْبِ والشّهادةِ وكلمةِ الحقّ في الرِّضا والغَضَبِ، والقَصْدِ في الغِنى والفَقْرِ، والعدْلِ في الصّديقِ والعدوِّ، والعملِ في النّشاطِ والكسلِ، والرِّضا عنِ اللّه تعالى في الشّدّةِ والرّخاء.

يا بُنَيّ، ما شرٌّ بعدَه الجَنَّةُ بشرٍّ، ولا خيرٌ بعدَه النّارُ بخيرٍ، وكلُّ نعيمٍ، دونَه الجنّةُ محقورٌ، وكلُّ بَلاءٍ دونَ النارِ عافِيَةٌ.

إعْلم يا بنيّ أنَّ مَنْ أبْصَرَ عَيْبَ نفسِه شُغِلَ عن غيرِه، ومَنْ رَضِيَ بقَسْمِ اللّهِ تعالى لم يَحْزَنْ على ما فاتَه، ومَنْ سَلَّ سيفَ البغْيِ قُتِلَ به، ومنْ حَفَرَ بئْراً لأخيهِ وَقَعَ فيها، ومن هَتَكَ حِجابَ غيرِه آنْكَشَفَتْ عَوْراتُ بيتِه، ومنْ نَسِيَ خَطيئَته آسْتَعْظَمَ خطيئةَ غيْرِه، ومن كابَدَ

(٦) راجِعْها في كتابِ: **الإعجاز والإيجاز** لأبي منصور الثعالبي، ص ٣٣، وفي كتاب: **ينابيع المودّة**، ص ٥١٩.

الأُمورَ عُطِبَ، ومَنِ آقْتَحَمَ البحْرَ غَرِقَ، ومن أُعْجِبَ برأْيِه ضَلَّ، ومَنِ آسْتَغْنى بعقلِه زَلَّ، ومن تَكَبَّر على النّاسِ ذَلَّ، ومَنْ سَفِهَ عليهم شُتِمَ. ومَنْ دَخَلَ مَداخِلَ السّوءِ آتُّهِمَ، ومَنْ خالطَ الأنذالَ حُقِّر، ومَنْ جالَس العُلماءَ وُقِّرَ، ومَنْ مَزَحَ آسْتُخِفَّ به، ومَنِ آعْتَزَلَ سَلِمَ، ومَنْ تَرَكَ الشَّهَواتِ كان حُرّاً، ومَنْ تَرَكَ الحسدَ كانَ له المحبّةُ مِنَ النّاس.

يا بُنَيّ عِزُّ المؤمِنِ غِناهُ عن النّاسِ، والقَناعةُ مالٌ لا يَنْفَدُ ومَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ الموتِ رَضِيَ مِنَ الدُّنيا باليَسيرِ، ومَنْ عَلِمَ أنّ كلامَه من عملِه قلَّ كلامُه... يا بُنَيّ الطُّمأنينةُ قبلَ الخِبْرةِ ضِدُّ الحَزْمِ. إعْجابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ دليلٌ على ضَعْفِ عقْلِهِ. يا بُنَيّ كمْ مِنْ نَظْرَةٍ جَلَبَتْ حسْرَةً، وكمْ مِنْ كلمةٍ جَلَبَتْ نعمةً، لا شَرَفَ أعْلى مِنَ الإسلامِ، ولا كَرَم أعلى من التّقوى، ولا مَعْقِلَ أحْرَز من الوَرَعِ، ولا شَفيعَ أَنْجَعُ من التّوبَةِ. ولا مالَ أَذْهَبُ للفاقَةِ من الرِّضا بالقُوتِ، ومَنِ آقْتَصَرَ على بُلْغَةِ الكَفاف تَعَجَّلَ الرّاحةَ وتَبَوَّأ حِفْظَ الدَّعَةِ. الحِرْصُ مِفْتاحُ التّعَبِ ومَطِيّةُ النَّصَبِ، وداعٍ إلى التَّقَحُّمِ في الذُّنوبِ، والشَّرُّ جامعٌ لمساوِىءِ العُيوبِ.

وكفى أدباً لنفسِكَ ما كَرِهْتَه مِنْ غيرِك. ومَنْ تَوَرَّطَ في الأُمورِ من غَيْرِ نظرٍ في الصّواب فقد تَعَرَّضَ لمُفاجآت النّوائِب. التّدبيرُ قبلَ العملِ يُؤْمِنُكَ النّدمَ. مَنِ آسْتَقْبَلَ وُجوهَ العملِ والآراءِ عَرَفَ مواقِعَ الخَطَأ. الصّبْرُ جُنّةٌ من الفاقَةِ. في خلافِ النَّفْسِ رُشْدُها...

يا بُنَيّ ربُّك للباغينَ من أحْكَمِ الحاكمينَ وعالِمٌ بضميرِ[7] المُضْمِرينَ، بِئْسَ الزّادُ للمَعادِ العُدْوانُ على العِبادِ، في كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ، وفي كُلِّ أكلَةٍ غَصَصٌ، لا تُنالُ نِعمةٌ إلّا بفراقِ أُخْرى، ما أقْرَبَ الرّاحةَ مِنَ التّعبِ والبُؤْسَ منَ النّعيم، والموتَ منَ الحياةِ، فطُوبى لِمَنْ أَخْلَصَ للّهِ تَعالى عِلْمَه وعَمَلَه وحُبَّه وبُغْضَهُ... الْوَيْلُ الويلُ لِمَنْ بُلِيَ بِحِرمانٍ وخذْلانٍ

(٧) بعضُ النّاقِدينَ الأدبيّينَ يَشُكّونَ بهذهِ الوصيّةِ لوُقوعِ مثلِ هذا اللّفظِ فيها، فإنّ الضّميرَ بمعنَى القُوّةِ النفسيّةِ الخاصّةِ، ومَوْطِنِ الوجدانِ لا يُعْرَفُ بهذا المعنَى زَمَنَ عليٍّ. ونحنُ نقولُ إنَّ خطَأهم ناشىءٌ مِن فَهمِ الضّميرِ بهذا المعنى، وإلّا فهو هنا بمعنَى المُضْمَرِ، ولا شَكَّ بأنّه كان معروفاً بهذا المعنى، إذْ ذاك.

وعِصيان. لا تَتِمُّ مروءَةُ الرّجلِ حتّى لا يُبالِيَ أيَّ ثَوْبَيْهِ لَبِسَ، ولا أيَّ طعامَيْه أكَلَ».

هذه وَصِيَّةٌ أجْدَرُ ما تكونُ بالوَصْفِ الّذي أعطاهُ إيّاها أبو منصورٍ الثّعالبيّ: إعجازٌ في إيجاز. وهي تَجْمَعُ شيئاً كثيراً من فلسفةِ الأخْلاقِ والحُبِّ والبُغْضِ، وفلسفةِ الألمِ واللّذّةِ الّتي هي مدارُ المَذْهَبِ الأخلاقيّ الحديثِ. وأنا كُلّما تَأمّلْتُ قولَه «ما أقْرَبَ الرّاحةَ مِنَ التّعبِ والبُؤْسَ من النّعيمِ» تَمَثّلْتُ أثَرَ شبنهاور وفَلْسَفَتَه الّتي كَشَفَ عنها في مُؤَلّفه العظيمِ **العالم كإرادة وتصوّر**.

وقد جَعَلَ فلسفَته قائِمةً على أساسِ تصوُّرِ الإرادةِ والقوّةِ وعلى مفهومَيْهما، وهو يقولُ بأنّه لا يُمْكِن تَصَوُّرُ العالَمِ إلّا في أحدِ الأفكارِ، فالإرادةُ قِوامُ عالَمِ الحوادثِ. وهذه الإرادةُ تبدو بمَظهَرِ الميْلِ إلى الحياةِ إلّا أنّ هذا الجُهْدَ مَصْحوبٌ بالألَمِ. ومِنْ أقواله «إنّ خيرَ ما يُعالَجُ به الألمُ هو العَفافُ والزُّهْدُ». وقد دَوَّنَ عِلْمَ أخلاقٍ قائماً على الرّأفةِ والشَّفَقَةِ، وعلى أساسِ مُماثَلَةِ الموجوداتِ بعضِها بعضاً. وهو[8] كأنّه يَنْقُلُ إلى الأجنبيّةِ فلسفةَ عليٍّ (ع) الأخلاقيّةَ، أو كأنّ عليّاً يُتَرْجِم إلى العربيّةِ فلسفتَه.

وبذلك وُجّهَ الحُسَيْنُ وُجْهَةً سَبَقَتْ محيطَه وعصرَه بكثيرٍ، وأقامت فيه أُمْثولتَه الإصلاحيّةَ مِنْ شَتّى نواحيها.

---

(٨) عَقَدْنا فَصْلاً هامّاً في المقارَنَةِ بين الفلسفتيْنِ في كتابنا الكبير عن عليٍّ (ع) الّذي سَنُخْرِجُه عمّا قريب.



فترة بين شكلين من أشكال الحكم

فَشَتْ في روحِ الجماعاتِ فاشِيَةُ الانْحلالِ والتّداعي النّفسيِّ، وبَدَأ الحماسُ يَدْخُلُ في دَوْرِ رُكودٍ طبيعيٍّ، لأنّه لم يُؤَدِّ إلى نَتيجةٍ حاسِمَةٍ. وإنّما كان يُفَلِّلُ الأعصابَ ويُحْدِثُ فيها زَوْبَعَةً من الاسْتِياءِ واليأْسِ القاتِلِ.

والجماعاتُ، لأنّها تَتَحَرَّكُ بأثَرِ الشُّعورِ، فهي سريعةُ الحركةِ سريعةُ السُّكونِ، إلّا أنّها تَسْكنُ على قَلَقٍ فلا تَلْبَثُ أنْ تَثورَ. فلم يكنْ عهدُ معاوية في الحقيقةِ الاجتماعيّةِ إلّا فَتْرَةَ شُكونٍ مُؤَقّتَةٍ. وكان الحُكْمُ قَصيرَ النّظَرِ جِدّاً في فَهْمِ روحِ الجماعاتِ، حينَما لم يَعْمَدْ إلى مُداواةِ بقايا الزّوبعةِ الكامِنةِ في كُلِّ نفسٍ، بلْ على العَكْسِ، عَمَدَ إلى آسْتِثارتِها بشَتّى الوسائلِ، وكانت خُطَطُهُ وسياستُه آسْتِفزازيّةً مَحْضَةً، فقدْ نَفَى خُصومَه بآزْدِراءٍ، وآهْتاجَهُمْ بعُنْفٍ حينما سَنَّ بِدْعَةَ سبِّ عليٍّ (ع) وأنْصارِهِ على المنابرِ. وفي النّاسِ أنصارٌ له كثيرونَ، فلم يُطْفِىءِ الحفيظةَ بل زادَ في أُوارِها وأذكى آشْتِعالَها، وبذلكَ كَتَبَ على دَوْلَتِه ومُلْكِيّةِ بيتِه الفَناءَ العاجلَ. وقدْ ظَهَرَتْ هذه النّتائجُ سريعاً في الثّورةِ على يزيدَ آبْنِهِ في أُخْرَياتِ أيّامِه، فلم يَجِدْ حَفيدُهُ، مُعاوِيَةُ الثّاني، خَلاً سوى الحلِّ الّذي سنَّهُ الحسَنُ (ع).

فمعاويةُ لم يكنْ سِياسيّاً ـ كما نَفْهَمُ اليومَ ـ بلْ مُداوِراً، والّذي يتأمّلُ أسبابَ نجاحِه،

يَجِدُها تَرْجِعُ مِنْ أقْرَبِ سبيلٍ إلى الوقتِ الّذي دَخَلَتْ عناصِرُه في الظّرفِ السياسيِّ القائِمِ فَرَجَحَتْ بأحدِ الجانبيْن، فَنجاحُه جاءَ عَفْواً.

وأنّا كلّما تَأمّلْتُ حركاتِه لمْ أجِدْ فيه إلّا سياسيّاً عاديّاً جدّاً، كان أكبرَ ما في سياستِه أنّه نَجَحَ فقطْ، فهو من السّياسيّينَ اليوميّينَ ـ كما يُعَبِّرُ هِتْلِر ـ وفي رَأيي أنّ أكبرَ سِياسيّي الأمويّينَ هو عبدُ الملكِ بنُ مروانَ، وأعْتَقِدُ بأنّ معاويةَ لو تعرّضَ لِما تَعَرّضَ له عبدُ الملكِ لفَشِلَ فَشَلاً ذريعاً، فقدِ آجْتَمَعَ عليهِ الخوارِجُ وعبدُاللّهِ بنُ الزبيرِ وثورةُ عبدِ الرحمنِ بنِ محمّدِ بنِ الأشْعث.

ولي رَأْيٌ قد لا يُوافِقُني عليه الكثيرونَ، وهو أنّ معاويةَ كان يَرْمي، من وراءِ خُطَطِه الاسْتِفزازيّةِ، إلى القضاءِ على بقايا أنصارِ عليٍّ (ع) من الرِّجالاتِ المَرْهوبينَ، وإلى آسْتِئْصالِ شَأْفتِهم، وكانتْ خُطّةُ سَبِّ عليٍّ مَقْصودةً لهذا الغَرَضِ. فقدْ كان يُفَكِّرُ أنّه ـ أيِ السَّبَّ ـ سيُثيرُ أنصارَه وَهُمْ فُلولٌ، وبالأخَصِّ الهاشميّينَ كالحسنِ والحسينِ وعبدِ اللّهِ بنِ جعفرٍ ومَنْ إليهم، وبذلك يَتَسَنّى له القضاءُ عليهم بِحُجّةٍ مسموعةٍ تَعْذُرُه عندَ الشّعبِ؛ ويُؤَكِّدُ هذا عُنْفُه في أخْذِ حُجْرِ بنِ عَدِيٍّ[1] وسواهُ من الكثيرينَ لمّا أظهروا الاسْتِياءَ مِنَ السَّبِّ العَلَنِيِّ والنَّيْلِ الخالي من الذَّوْقِ الدّينيِّ والأدبيِّ.

---

(١) ذَكَرَ آبنُ جريرٍ في تاريخِهِ، ج ٦، أنّ معاويةَ لَمّا وَلّى المُغيرةَ بنَ شُعْبَةَ الكوفةَ في سنة ٤١ دعاهُ وأوْصاهُ بِشَتْمِ عليٍّ وذمِّهِ والعيْبِ على أصحابِهِ والإقصاءِ لهم، وبإطْراءِ شيعةِ عثمانَ والإدْناءِ لهم والاستماعِ منهم، فأقامَ المغيرةُ على الكوفةِ عامِلاً لمعاويةَ سبعَ سنينَ وأشْهراً لا يَدَعُ ذمَّ عليٍّ والوُقوعَ فيه والدُّعاءَ لعثمانَ بالرّحمةِ والتّزْكيَةِ لأصحابِهِ والمطالبينَ بدَمِه، فكانَ حُجْرُ بنُ عَدِيٍّ إذا سَمِعَ ذلكَ قال: بَلْ إيّاكم فذمَّ اللّهُ ولَعَنَ ثُمّ قامَ، فقال: إنّ اللّهَ عزَّ وجَلَّ يقول «كُونُوا قَوّامِينَ بِالقِسطِ شُهَداءَ لِلّه» وأنا أشْهَدُ أنّ مَنْ تَذُمُّونَ وتُعَيِّرُونَ لأحَقُّ بالفَضْلِ. ولَمّا هَلَكَ المغيرةُ سنة ٥١ جُمِعَتِ الكوفةُ والبَصْرةُ لزيادِ بنِ أبيهِ، فلّما لَعَنَ عَلِيّاً وأطال الخُطبةَ وأخَّرَ الصّلاةَ قال حُجْرُ بنُ عَدِيٍّ الصّلاةَ، فمضَى في خُطبته، ثم قال: الصّلاةَ، فمضى في خُطبتِه، فلّما خافَ حُجرٌ فوتَ الصّلاةِ ثارَ إليها وثارَ النّاسُ معه، فَكَتَبَ زيادٌ إلى معاويةَ فَكَتَبَ إليه هذا أنْ شُدَّهُ بالحديدِ، فلمّا دَخَلَ عليهِ قال له معاويةُ واللّهِ لا أُقيلُكَ، أخْرِجوه فآضْرِبُوا عُنُقَهُ فضُرِبَتْ عُنُقُه، وقالت هندُ آبْنَةُ زيدٍ الأنصاري تَرْثيه:

كانتْ خُطَّةً يُريدُ بها القَضاءَ على الهاشميّينَ بالذّاتِ، ويَخْتُمُ بذلكَ الصّراعَ التّاريخيَّ الطّويلَ حتّى لا تعودَ له ذُيولٌ. فمعاويةُ إذاً لم يُنْقِذْهُ إلّا إطالةُ الصّراعِ الّذي أوْهَنَ أعصابَ الجماعاتِ، وظهورُ الفُرْقةِ في جيشِ عليٍّ (ع) نتيجةً للقَلَقِ الدّينيّ والقَبَليّةِ، وعلى كلٍّ فمعاويةُ أثْبتَ عَدَم فهمِهِ أبداً لروحِ الجماعاتِ والجماهير.

ونعودُ الآنَ، بعدَ هذا الاسْتِطرادِ، إلى ما عرا الجماعةَ مِنْ كَلالةٍ وسَأمٍ ظاهرَيْنِ لَمَسَهُما الحسنُ على كُلِّ وَجْهٍ فلم يجدْ حَلّاً للمَوْقِفِ إلّا بأنْ يتنازَلَ، وهو نَفْسُه قَدْ سَئِمَ ومَلَّ أيضاً، فكانت أُولى تَصْريحاتِه، بَعْدَ أنْ نَزَلَ على رَأْيِ بَعْضِ الجمهورِ المتحمِّسِ، وسارَ نحوَ الشّامِ «أنّ الجماعةَ خيرٌ من الفُرْقةِ» فثار الحماسُ في رأسِ البعْضِ، وهو الجرّاحُ بنُ سِنانٍ، فطَعَنَه بِمِغْوَلٍ في فَخِذِه فَشَقَّه حتّى بَلَغَ العَظْم.

وتنازُلُ الحسنِ (ع) رُغْمَ آخْتِلافِ الرُّواةِ في كيفيّتِهِ، وآخْتلافِ النَّقَدَةِ من المؤرّخينَ في أسبابِه ومُحاكَمَتِهِ، يَدُلُّ على مَلَلِ الحسَنِ ولينِ أعْصابِهِ الّتي لا تَحْتَمِلُ الصّراعَ الطّويلَ. وزادَه مَلَلاً المفاجأةُ الّتي صَدَمَتْه فَبَدَّدَتْ عزيمتَه شَعاعاً، وهي هَرَبُ عُبَيْدِ اللّهِ بْنِ عبّاسٍ، وهو قائدُ جُنْدِه ومن لُحْمَتِه، فآسْوَدَّ ظَنُّه في النّاسِ على شكلٍ جَعَلَه يَيْأسُ. ومن ثَمَّ يَظْهَرُ الفَرْقُ بينَه وبينَ أبيهِ الّذي لم يَتَضَعْضَعْ مَعَ آسْتِسلامِ أخيهِ عقيلٍ، أو أخيه الحُسينِ الّذي ثارَ حينما فاجأه بعزيمتِه على التّسليمِ لمعاوية.

والتّاريخُ يُحَدِّثُنا بأنّ هذه المفاجأةَ كانتْ عنيفةَ الوقْعِ على الحسينِ، حتّى لم يَضْبُطْ

تَرَفَّعْ أيُّها القَمَرُ المنيرُ ... تَبَصَّرْ هَلْ تَرَى حَجَراً يسيرُ
يَسيرُ إلى معاويةَ بنِ حَرْبٍ ... لِيَقْتُلَهُ كما زَعَمَ الأميرُ
فإنْ يَهْلَكْ فكُلُّ زعيمِ قَوْمٍ ... مِنَ الدُّنيا إلى هَلَكٍ يَصيرُ

شُعورَه وآنْفِعالَ نفسِه؛ وكذلكَ يَكونُ العَزُومُ ذو المضاءِ. إنْفَجَر كما يَنفَجِر البُركانُ تُجاهَ الرأيِ الّذي عَقَدَ النيّةَ عليه أخوه الأكبرُ، ونَطَقَ بكلمتِه المُدَوِّيَةِ الّتي تَجْمَعُ الغَميزَةَ إلى مقالِ الحقّ «أُعيذُك باللّهِ أنْ تُكَذِّبَ عليّاً في قبْرِهِ، وتُصَدِّقَ مُعاويةَ». وفي روايةٍ «أَنْشدُك اللّهَ أنْ تُصَدِّقَ أُحْدوثَةَ معاويةَ وتُكَذِّبَ أُحْدوثَةَ أبيك» وهذه كلمةٌ تَجْمَعُ إلى الاستِنكارِ الصّارخِ، الاسْتِفزازَ العميقَ، وقد جَمَعَ فيها الحسينُ كُلَّ قُوّتهِ ودَهائه لِيَبْلُغَ مِنْ أخيه مَبْلَغاً يُثيرُه. وبالفعلِ آسْتَيْقَظَتْ نفسُه المالّةُ، إلّا أنّه غالَطَ شُعورَه وآنْصَرَفَ بحماسِه إلى تَعْنيفِ أخيهِ فقال: «واللّهِ ما أردتُ أمْراً إلّا خالَفْتَني إلى غَيْرِه، واللّهِ لقدْ هَمَمْتُ أنْ أقْذِفَكَ في بيتٍ فَأُطَيِّنهُ عليكَ حتّى أقْضيَ أمْري».

وأمامَ جَوابِ أخيه العنيفِ لم يَمْلِكْ أنْ يقولَ له أكثرَ مِمّا قالَ: «أنْتَ أكْبَرُ وَلَدِ عَليٍّ، وأنْتَ خليفَتي وأمْرُنا لأمْرِك تَبَعٌ، فآفْعَلْ ما بدا لكَ». كلمةٌ فيها تسليمُ المُكْرَهِ ولكنْ مع إلْقاءِ التَّبِعَةِ والبَراءَةِ من كُلِّ مسؤوليّةٍ. وكأنَّ الحسينَ يتَّجِهُ إلى أنّ الظّرفَ، وإنْ كانَ حَرِجاً، فلم يَفْلِتْ كلُّ شيءٍ من اليَدِ، وفي الاسْتِطاعَةِ تَدارُكُ ما فاتَ، وآسْتِثمارُ الضّعفِ حتّى يُصْبِحَ قُوّةً ماضِيَةً.

وكذلكَ تكونُ النّفسُ الكبيرةُ الّتي تَحْمِلُ صاحبَها على أنْ يكافِحَ ما بَقِيَتْ لَدَيْه مادّةٌ تُغري إرادتَهُ.

وإذا كـانـتِ الـنُّـفـوسُ كِـبـاراً

تَـعِـبَـتْ فـي مُـرادِهـا الأجـسـامُ

نحنُ لا نُنْكِرُ هنا بأنّ للحَسَنِ عُذْرَه في إعلانِ الهُدْنةِ وطَلَبِها، نَظَراً للانْحلالِ والإنْهاكِ الّذي أصابَ الجماهيرَ، كما صرَّحَ بهذا إلى عبدِاللّهِ بنِ جعفرٍ: «قدْ واللّهِ طالتِ الفِتْنَةُ وسُفِكَتْ فيها الدِّماءُ وقُطِعَتِ الأرحامُ وتَقَطَّعَتِ السُّبُلُ وعُطِّلَتِ الثُّغور».

ولكنَّهُ كانَ قديراً على أنْ يُعِدَّ الجماعاتِ المُنْحَلَّةَ عن طَريقِ الاسْتِثارةِ والإحْماسِ

وبَثٌّ روحِ العَزْمِ والإرادةِ، كما رأينا في القادَةِ الحديديّينَ أمثالِ نابليونَ الّذي تولّى شَعْباً أنْهَكَتْه الثّورةُ الطّويلةُ كما أنْهَكَتِ العربَ، وزادَ هو في إنهاكِه بالحروبِ المُتتاليةِ المستَمِرّةِ الّتي أخَذَ بها أوربا. ولكنّ القائِدَ غَمَرَتْه مَوْجةُ السَّأمِ الّتي غَمَرَتِ النّاس.



الحسين (ع)
في عهد الدولة الأمويّة



إنقلاب

نَستَقبِلُ في عهدِ الدّولةِ الأُمويّةِ تَجْديداً يَشْمَل كافّةَ الأوضاعِ ويَتَّصِلُ بجوهرِها، حتّى باتَ منْهُ المجتمعُ العربيُّ في شَكليّةٍ لا عَهْدَ له بها، ثُمّ لا تَتَّصِلُ بالعهدِ الغابرِ إلّا آتّصالاً خَفِيّاً فيه كثيرٌ من الغُموضِ. فَهيئةُ الحكمِ وطريقةُ الإجراءِ والإدارةِ وقاعدةُ العملِ العامِّ، لم تعدْ كما كانتْ.

ونحنُ قدّمْنا، في فَصْلِ القديمِ والجديدِ، أنّ الميلَ إلى التّجديدِ وآعْتِناقَ أشْيائِه ظَهَرَ في أوائِلِ عهدِ عثمانَ، أيْ في أوائِلِ حُكمِ الأُمَويّينَ، ضرورةَ الاحْتِكاكِ بِنُظُمِ الأُممِ المختلفةِ الّتي غَمَرَها الإسلامُ وصهرَها في بَوْتَقَتِه، ولكنّ هذه النُّظُمَ لم تَزَلْ فيها حَيَوِيّةٌ وصلاحِيّةٌ للبقاءِ، والأُمّةُ الجديدةُ ساذَجَةٌ بعضَ الشّيءِ، أو في حُكمِ السّاذَجةِ، لذلكَ أفْسَحَتْ لنفسِها مرّةً أُخرى بأنْ تعيشَ.

والأُمويّونَ، نَظَراً للاستعدادِ النّفسيِّ الّذي لم تَصْقُلْه العقيدةُ كثيراً، كانوا أكْثرَ جُنوحاً إلى تقليدِ هذهِ النُّظُمِ الّتي هي جَديدةٌ بالنّظرِ إلى العربِ، فلّما آنَسوا من أنْفُسِهم القُوّةَ وجَمَعُوا مُقَدّراتِ الحكمِ في أيديهم، وعطّلوا حُرّيّةَ الشّعْبِ وقَضَوْا على رَقابتِه، مالوا بكُلّيّتِهم إلى فرْضِ النُّظُمِ المقتبَسَةِ، وآتّصَلَ هذا التّجديدُ بالشّعبِ، فسَرْعانَ ما تَغيّرَ وتَخلّلَ

وطَلَبَ الحياةَ طَلْقَ الهَوَى كما يَقولون.

وساعدَ الشّعبَ على سُرعةِ تَحَلُّلِه أنَّ أكثرَ رِجالِ القديمِ ذَهَبُوا ضَحيَّةَ الصِّراعِ الثَّوريِّ العنيفِ، فالجُمهورُ الباقي يَتَألّفُ مِنَ الشّبابِ وحدَهم وخليطٍ من الأُمَمِ المُنْحَلَّةِ، فكانَ لديهِ الاسْتِعدادُ التّامُّ لحركةٍ آنْقِلابيّةٍ من هذا النّوع. إذاً فالأدبيّةُ الإسلاميةُ أُصيبَتْ بآنْحِرافٍ كبيرٍ، إنْ لم نَقُلْ بأنَّ الحياةَ العامّةَ خَرَجَتْ عن قاعِدتِها. وهذا ما يُعَلِّلُ تَفَشّي المُجونِ في مَهْبِطِ الوَحْيِ، وآنْتِشارَ الحياةِ اللاّهيةِ المفتونةِ هنا وهناكَ. ولعلَّ في درسِ حياةِ يزيدَ وصُنوفِ اللّهْوِ الّتي دَخَلَتْها، وهو في بيتِ المُلْكِ أو الخِلافةِ ـ كما يَشاؤونَ تَسْمِيَتَه ـ ما يُوقِفُنا على مَدى التّجْديدِ الجارِفِ والانْحِرافِ الّذي شَمَلَ الدّولةَ الأُمويّةَ، أو قامَ معَها أوّلَ ما قامَتْ، إلى أنْ تَوارَتْ في آسْتِخفاءٍ أبَدِيٍّ. وفي **رسالة القِيان** للجاحِظِ أقاصيصُ كثيرةٌ تُرينا ألْواناً من العهدِ الجديدِ الّذي هو آنْقِلابٌ وليْس تجديداً فَحَسْبُ، بالمعنى المفهومِ من هذا اللّفْظ.

أمامَ هذا التّجديدِ الّذي آنْحَرَفَ بالحياةِ عن سُنَّتِها الخاصّةِ الّتي وَضَعَ النّبيُّ (ص) طريقَتَها وثَبتَتْ في نُفوسِ أفْرادٍ كثيرةٍ وجماعاتٍ كذلك، وَقَفَ الحسينُ (ع) كمُنْتَقِدٍ ومُتَّهِمٍ. وكان يَرْفَعُ الصَّوْتَ بالانْتقادِ الصّريحِ في المناسباتِ الّتي تَعْرِضُ. فحينَما قُتِلَ حُجْرُ بْنُ عَدِيٍّ كَتَبَ الحسينُ إلى معاويةَ كتاباً سَيَظَلُّ على التّاريخِ سِجِلّاً لَعَبَثِ السُّلطةِ وآنْتِقادِ الشّعبِ الّذي يَأْبى إلّا أنْ تكونَ له الرّقابَةُ الممنوحَةُ من قِبَلِ اللّه.

ومِنَ الخيرِ إثْباتُ هذا الكِتابِ بنَصّهِ لأنّه يَدُلُّنا على أكثرِ الأشْكالِ الّتي آصْطَنَعَتْها السّياسةُ الأمويّةُ طريقةً لها. قال[1]:

«أمّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَني كتابُك تَذْكُرُ فيهِ أنّهُ آنْتَهَتْ إليكَ عنّي أُمورٌ أنْت لي عنْها

(١) راجع: **الإمامة والسياسة** لابنِ قتيبةَ ج ١، ص ٢٨٤، **وأخبار الرجالِ** لأبي عمرَ الكشي؛ **وآختيارَ الرجال** لأبي جعفر الطوسي، ج ٣٢.

راغبٌ، وأنا بغيرها عندَك جَديرٌ، وإنّ الحَسَناتِ لا يَهْدي لها ولا يُسَدِّدُ إليها إلّا اللّهُ تعالى.

أمّا ما ذَكَرْتَ أنّه رُقِيَ إليك عنّي، فإنّه إنّما رَقاه إليك الملاّقُونَ المَشّاؤونَ بالنّميمةِ المُفرِّقونَ بينَ الجَمْعِ، وكَذِبَ الغاوُونَ. ما أرَدْتُ لك حَرْباً ولا عليكَ خلافاً، وإنّي لأخشى اللّهَ في تَرْكِ ذلكَ منكَ، ومِنَ الإعْذارِ فيه إليك وإلى أوْليائِك القاسِطين: حِزْبِ الظَّلَمة.

ألَسْتَ القاتِلَ حُجْرَ بنَ عَدِيٍّ أخا كِنْدَةَ وأصحابَه المصلّينَ العابدينَ، الّذين كانوا يُنْكِرون الظُّلْمَ ويَسْتَفْظِعونَ البِدَعَ ويأمُرونَ بالمعروفِ ويَنْهَوْنَ عن المُنكَرِ، ولا يخافونَ في اللّهِ لَوْمَةَ لائِمٍ، ثُمّ قَتَلْتَهم ظُلماً وعُدواناً من بَعْدِ ما أعْطَيْتَهم الأيمانَ المُغَلَّظَةَ والمواثيقَ المؤكّدةَ جَراءَةً على اللّهِ وآسْتِخفافاً بعهْدِه؟

أوَلَسْتَ قاتِلَ عمرِو بنِ الحَمِقِ صاحبِ رسولِ اللّهِ (ص) العبدِ الصّالحِ الّذي أبْلَتْهُ العبادةُ فَنَحَلَ جسمُه وآصْفَرَّ لَونُه. فقَتَلْتَه بعدَما أمَّنْتَهُ وأعْطَيْتَه منَ العُهودِ ما لو فَهِمَتْه العُصْمُ لَنَزَلَتْ من رُؤوسِ الجبال؟

أوَلَسْتَ بمُدَّعي زيادِ بنِ سُمَيَّةَ المولودِ على فراشِ عبيدِ ثقيفٍ؟ فزَعَمْتَ أنّه آبْنُ أبيكَ، وقدْ قالَ رسولُ اللّه (ص) «الولدُ للفراشِ وللعاهرِ الحَجَرُ» فَتَرَكْتَ سُنّةَ رسولِ اللّهِ (ص) تَعَمُّداً وتَبِعْتَ هواكَ بغيرِ هُدىً منَ اللّهِ، ثمّ سَلَّطْتَهُ على أهلِ الإسلامِ يَقْتُلُهمْ ويَقْطَعُ أيْدِيَهُمْ وأرْجُلَهُمْ ويَسْمُلُ أعْيُنَهم ويُصَلِّبُهُم على جُذوعِ النَّخْلِ، كأنّك لسْتَ من هذهِ الأُمّةِ وليسوا مِنْك؟

أولستَ قاتِلَ الحَضْرَميِّ الّذي كَتَبَ فيه زِيادٌ إليك أنّه على دينِ عليٍّ كرَّمَ اللّهُ وَجْهَه، فَكَتَبْتَ إليه أنِ آقْتُلْ كلَّ مَنْ كان على دينِ عليٍّ فَقَتَلَهم ومَثَّلَ بهم بأمْرِك، ودينُ عليٍّ هو دينُ آبنِ عمّهِ (ص) الّذي أجْلَسَكَ مَجْلِسَكَ الّذي أنْتَ فيهِ، ولولا ذلك لكانَ شَرَفُك وشَرَفُ آبائِك تَجَشُّمَ الرِّحلتينِ، رِحْلَةِ الشّتاءِ والصّيف؟

وقُلْتَ فيما قُلْتَ، آنْظُرْ لنفسِكَ ولدِينِكَ ولأُمّةِ محمّدٍ، وآتَّقِ شقَّ عصا هذه الأُمّةِ وأنْ

تَرُدُّهم إلى فتنةٍ. وإنّي لا أعلمُ فتنةً أعْظَمَ على هذهِ الأُمّةِ من وِلايَتِك عليها، ولا أعْظَمَ نَظَراً لنفسي ولِديني ولأمّةِ محمدٍ (ص) أفْضَلَ مِنْ أنْ أُجاهِدَكَ، فإنْ فَعَلْتُ فإنّه قُرْبَةٌ إلى اللّهِ، وإنْ تَرَكْتُه فإنّي أسْتَغْفِرُ اللّه لِديني وأسْألُه توفيقَه لإرشادِ أمري.

وقُلْتَ فيما قُلتَ إنّي إنْ أنْكَرْتُك تُنْكِرْني، وإنْ أكِدْكَ تَكِدْني، فكِدْني ما بدا لَكَ فإنّي أرْجو أنْ لا يَضُرَّني كَيْدُك وأنْ لا يكونَ على أحدٍ أضَرَّ منْه على نَفْسِك، لأنّك قَدْ رَكِبْتَ جَهْلَك وتَحَرَّضْتَ على نَقْضِ عهدِك ولَعَمْري ما وفيتَ بشَرْطٍ، ولقدْ نَقَضْتَ عهدَك بقتْلِ هؤلاءِ النّفرِ الّذين قتلتَهم بعدَ الصُّلْحِ والأيْمانِ والعُهودِ والمواثيقِ، فَقَتَلْتَهم من غيرِ أنْ يكونوا قاتَلوا وقَتَلُوا. ولم تَفْعَلْ ذلك بهم إلّا لذِكرِهم فَضْلَنا وتعظيمِهم حقَّنا، مخافةَ أمْرٍ لعلّك لو لم تَقْتُلْهم مُتَّ قبلَ أنْ يَفْعلوا، أو ماتوا قبلَ أنْ يُدْرَكوا، فأبْشِرْ يا مُعاويةُ بالقِصاصِ وآسْتَيْقِنْ بالحِسابِ، وآعْلَمْ أنّ للّهِ تعالى كِتاباً لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحْصاها، وليسَ اللّهُ بناسٍ لأخْذِكَ بالظِّنَّةِ وقَتْلِكَ أوْلياءَه على التُّهَمِ، ونَفْيِكَ إيّاهم من دُورِهم إلى دارِ الغُربةِ، وأخْذِك للنّاسِ بِبيعَةِ آبْنِكَ الغلامِ الحدَثِ، يَشْرَبُ الشّرابَ ويَلْعَبُ بالكِلابِ، ما أراكَ إلّا قد خَسِرْتَ نَفْسَك وتَبَّرْتَ دينَك وغَشَشْتَ رعيّتَك، وسَمِعْتَ مقالةَ السّفيهِ الجاهلِ وأخفْتَ الوَرِعَ التّقيَّ والسّلام».

هذا الكتابُ سِجلٌّ للدِّماءِ الّتي سَفَكَها الأُمويّون، وهو صَرْخَةٌ في وجْهِ العَبَثِ والتّلاعُبِ والتّجاوزِ، كما أنّه بَيانٌ لحقوقِ الشّعْبِ الّتي لا يُمْكِنُ التّغاضي عنها مهْما كَلَّفَ الأمرُ، وأيْضاً يَكْشِفُ لنا عن جانِبٍ من الأسبابِ الّتي دَعَتْه للخُروجِ على يزيدَ فيما بَعْدُ.

على أنّه لم يَسْتَبِحِ الخُروجَ على معاويةَ وَفاءً بعهْدِه، رُغْمَ نَقْضِ معاويةَ للعَهْدِ، ولأنّه لم يَسْتَهْتِرِ آسْتِهتاراً مكْشوفاً لا يَتْرُكُ للنّفسِ عُذْراً.

وللّهِ كَمْ هيَ هذهِ الكَلِمَةُ رقيقةٌ شاعِرةٌ «كأنّكَ لَسْتَ من هذه الأُمّةِ وليسوا مِنْكَ»،

هذهِ الكَلِمةُ المُشْبَعَةُ بالشُّعورِ المَختِدِيِّ الشّريفِ، وقديماً قال الصّابي: «إنّ الرّجلَ مِنْ قومٍ ليستْ له أعصابٌ تَقْسو عليهم» وهو آتّهامٌ من الحُسينِ (ع) لمعاويةَ في وَطَنِيّـتِهِ وآنْتِمائِهِ، وآتَّخَذَ من الدّماءِ الغزيرةِ المسفوكَةِ عُنواناً على ذلك.

وليسَ بعدَ هذا السِّجِلِّ الّذي يُلصِقُهُ الحسينُ بمعاويةَ، ما يَحمِلُنا على الشّكِّ في النّتيجةِ الّتي قرّرْناها في مُقَدِّمة **سُموّ المعنى في سُموّ الذات**، وهي: «إنّ نِظامَ الحُكمِ في عهْدِ المُلوكِ الأُمويّينَ لم يكنْ إلّا ما نُسمّيهِ في لُغةِ العَصْرِ بنظامِ الأحكامِ العُرْفِيّةِ، هذا النّظامِ الّذي يَهْدِرُ الدّماءَ ويُلْغي التّعارفَ على المنطقِ القانونيِّ ويُهَدِّدُ كلَّ آمرِىءٍ في وُجودِه. وفي هذا العصرِ إذا كان يُتَّخَذُ في ظروفٍ آسْتِثنائيّةٍ ولحالاتٍ خاصّةٍ، يُرادُ بها الانقيادُ وإسْلاسُ الأمرِ بالإرهاب وآستباحَةِ البَطْشِ، فقدْ كانَ في العَهدِ الأُمويِّ هو النّظامَ السّائِدَ. وفي الحَقِّ أنّه لا يُمْكِنُنا أنْ نُسَمِّيَ هذا سُلطةً قضائيّةً أبداً، بل نُنْكِرُ بكُلِّ قُوّةٍ أنْ يكونَ في العصرِ الأُمويِّ سلطةٌ قضائيّةٌ بالمعنى الصّحيحِ، إلّا في فَتَراتٍ لا تَلْبَثُ حتّى يكونَ التّيّارُ من ورائِها طاغِياً. وأكبرُ الشّواهدِ على هذا أنّ الخليفةَ أو حكومتَه تأْتي ما تَهْوى بدونِ أنْ تَتَّخِذَ لمَآتيها شَكْليّاتٍ قانونيّةً على الأقلِّ، مِمّا يُشْعِرُ بآحْتِرامِ السّلطةِ للقانونِ. وإنَّ من المُهِمّ أنْ نَتَحَقَّقَ من عَدَمِ وُجودِ السُّلطةِ القضائيّةِ في ذلك العهدِ، وأنْ نَزِنَ الإجراءاتِ الحكوميّةَ جميعَها بهذا الميزانِ الّذي يُعَرِّفُنا أكْثَرَ ما نحنُ في حاجةٍ إلى مَعْرِفَتِه بينَ يَدَيِ الدّراساتِ الأمويّةِ»[٢].

ويُناصِرُ هذه النّتيجةَ السّياستانِ التّقْليديّتانِ اللّتان آصْطَنَعَتْهما الدّولةُ الأُمويّةُ في دَوْرَيْها:

الدّور الأوّل: يَبْتَدِىءُ بمعاويةَ الأوّلِ ويَنْتَهي بتنازُلِ معاويةَ الثّاني، وكانتْ سياسةُ هذا الدّوْرِ التّقليديّةُ هيَ سياسةَ زِيادِ بنِ أبيه الدّمَويّةَ.

الدّور الثّاني: يَبْتَدِىءُ بمروانَ، وبالأُخرى بعبدِ الملكِ، وينْتَهي بمصرعِ مروانَ

---

(٢) راجع **سُمُوّ المعنى في سُمُوّ الذات**، ص ص ١٠ - ١١.

الجَعْديّ. وكانتْ سِياسةُ هذا الدّورِ التّقليديّةُ هي سِياسةَ الحَجّاجِ القائِمةَ على الحديدِ والنّارِ. وقد لَفَتَنا إلى هذا التّقسيمِ تَصْريحُ عُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ الّذي ذَكَرَهُ القالي في **الأمالي**، وهو: «ماذا فعلَ الحَجّاجُ حتّى يُؤْتَمَّ بِهِ، ذاك زِيادٌ الّذي جَمَعَهُم جَمْعَ الذَّرِّ». وهاتانِ سِياستانِ نَعْلَمُ مِنْ أَخْبارِهِما شيئاً كثيراً، ولا أَظُنّ كائناً مَنْ كانَ يقولُ بأنَّ القَضاء كانتْ له حُرْمَةٌ فيهما.

عند قسطنطينيّة: ذَكَرَ آبْنُ عساكر أنّ الحسينَ وفدَ على معاويةَ، وتَوَجَّهَ غازِياً إلى القسطنطينيّةِ في الجيشِ الذي كان أميرَه يزيدُ بْنُ معاويةَ، وهي الغَزْوةُ الثّانية.

هذا مَثَلٌ يُضيفُه الحسينُ (ع) إلى جُمْلةِ الأمثالِ الرّفيعةِ الّتي ضَرَبَها في إنْكارِ الذّاتِ وتَناسي الحفيظةِ بسبيلِ الخِدمَةِ العامّةِ، وبسبيلِ إيجادِ آفاقٍ جديدةٍ للمبادِىءِ. فالحسينُ يُدْعى للجِهادِ ضِدَّ عاصمةِ الدّولةِ الرّومانيةِ الشّرقيّةِ، وهي مُغامَرةٌ جريئةٌ وخُطْوَةٌ لها خَطَرٌ فيُجيبُ، ولكنْ تحتَ قيادةِ مَنْ!؟

تحتَ قيادةِ يزيدَ الّذي كانَ يَسْمَعُ الحسينُ مِنْ أخبارِهِ المُسْتَهْتِرةِ شيئاً كثيراً، ولكيْ تَعْلَمَ مَبْلَغَ آسْتِهْتارِهِ وتماجُنِه، نَذْكُرُ أنَّ زيادَ بنَ أبيه، نَصَحَ لمعاويةَ، إذا شاء أنْ يَسْتقيمَ له أمْرُ وَلَدِه، وأنْ يَضَعَ حدّاً لمباذِلِه وللشّائعاتِ المتزايدَةِ مِنْ حَوْلِه، فَلْيَبْعَثْه في الغَزَواتِ وليُبْعِدْه عن حياةِ القصرِ المشبوبَةِ بالفُتون.

فحَمَلَه معاويةُ حمْلاً[3] على الخُروجِ في هذه الغَزْوَةِ وآنْتَزَعَهُ آنْتِزاعاً مِنْ أحْضانِ أعابِيثِهِ المُسْتَهْتِرَة، على أنّه لم يُذْعِنْ إلّا بأنْ يُجْمَعَ إليه في المعسكرِ ناسٌ مِمَّنْ يملؤونَ أُذُنَيْهِ

---

(٣) راجع: **الكاملَ** لابنِ الأثيرِ، ج ٣، ص ١٩٧. فقد ذَكَر أنّ معاويةَ سَيَّرَ جيشاً إلى بلادِ الرّوم فَتَثاقَلَ عنهُ يزيدُ فأصابَ النّاسَ في غَزْوَتِهِمْ جوعٌ ومَرَضٌ شديدٌ فأنْشأ يزيدُ يقولُ:

ما إنْ أُبالي بِما لاقَتْ جُموعُهُمُ ... بالفَرْقَدُونَةِ مِنْ حُمّى ومِنْ مُومِ
إذا آتَّكَأْتُ عَلَى الأنْماطِ مُرْتَفِقاً ... بِدَيْرِ مُرانَ عِنْدي أمُّ كُلْثومِ

وهذا في الغزوةِ الأُولى الّتي لمْ يَذْهَبْ بها.

بصَدى الشّهَواتِ، ويَخْلُقونَ لهُ جَوّاً ذا نَسَبٍ قريبٍ بالجَوِّ الّذي فارقَه على كَرْهٍ.

فَبَلاهُ الحسينُ (ع) وشَهِدَهُ عن قُربٍ، وخَبَرَ مُيولَه وأهواءَه كما لو وَضَعَ عليها اليَدَ، فانْكَشَفَ له من نَزَغاتِ نفسِهِ ونَزَعاتِها ما جَعَلَهُ عنيفاً في الحَمْلَةِ عليْه لَدَى أيّةِ مُناسَبةٍ.

تَكْبُرُ النَّفْسُ بالعقيدةِ حتّى لا تَرى إلّا إيّاها...

وَتَحُولُ أحلامُ النّفسِ وشَهَواتُ الغَرائِزِ في مَذْهَبِ سُمُوِّ العقيدة...

فالحسينُ (ع) أحالَ غرائِزَهُ إلى ما يُساعِدُ عَمَلَ العقيدةِ فيه، فأنْكَرَ الذّاتَ ومضى إلى الجِهاد...



في عهد يزيد

إلـمامة: فكَّرَ معاويةُ بتقريرِ نِظامِ ولايةِ العهدِ في الإسلامِ على سُنّةٍ وِراثيّةٍ، ولا شَكَّ في أنّ هذا اقْتِباسٌ مِنَ البيئةِ الجديدةِ الّتي تَأثّر بها إلى أبْعَدِ حَدٍّ. غيرَ أنّه عَمَدَ إلى تطبيقِ هذا النّظامِ بضربٍ من المُداوَرَةِ والخديعَةِ للرَّأي العامّ، وإليكَ ما جاءَ في **النّوادرِ**[1] لأبي عليٍّ القاليّ، «عن جويريةَ بْنِ أسْماءَ قال: لمّا أرادَ معاويةُ البَيْعَةَ ليزيدَ ولدِه، كَتَبَ إلى مروانَ، وهو عامِلُه على المدينةِ، فَقَرَأ كتابَه وقالَ: إنَّ أميرَ المؤمنينَ قدْ كَبِرَتْ سِنُّه ودقَّ عَظْمُه، وقدْ خافَ أنْ يأْتِيَه أمْرُ اللّهِ تعالى فَيَدَعَ النّاسَ كالغَنَمِ لا راعِيَ لها، وقد أحَبَّ أنْ يُعْلِمَ عَلَماً ويُقيمَ إماماً. فقالوا: وَفَّقَ اللّهُ أميرَ المؤمنينَ وسَدَّدَهُ لِيَفْعَل.

فكَتَبَ بذلك إلى معاويةَ، فكتَب إليه أنْ سَمِّ يزيدَ. قالَ: فَقَرَأ الكتابَ عليهم وسَمَّى يزيدَ فقام عبدُ الرحمنِ بنُ أبي بكرٍ فقال: كَذَبْتَ واللّهِ يا مروانُ وكَذَبَ معاويةُ معك. لا يكونُ ذلك، لا تُحدِثوا علينا سُنَّةَ الرّومِ، كلّما ماتَ هِرَقْلُ قام مكانَه هِرَقْل.

فقالَ مروانُ: إنّ هذا الّذي قال لوالديْهِ أُفٍّ لكُما أتَعِدانِني أنْ أُخْرَجَ قال: فَسَمِعتْ

---

(١) راجع: **النوادر**، ص ص ١٧٥ - ١٧٦.

عائشةُ ذلكَ فقالتْ: ألآبْنِ الصِّدّيقِ يقولُ هذا؟ آسْتُروني فَستَروها فقالتْ: كَذَبْتَ واللَّهِ يا مروانُ إنّ ذلكَ لرَجُلٌ معروفٌ نسبُه.

قالَ: فكَتَبَ بذلكَ مروانُ إلى معاويةَ فأقبلَ، فلَّما دَنا من المدينةِ آسْتَقْبَلَه أهْلُها، فيهِمْ عبدُاللَّهِ بنُ عُمَرَ وعبدُاللَّهِ بنُ الزبيرِ والحسينُ بن عليٍّ وعبدُ الرّحمن بن أبي بكرٍ، فأقْبَلَ على عبدِ الرّحمنِ فسبَّه وقال: لا مرحباً بِكَ ولا أهْلاً؛ فلما دخلَ الحسينُ عليه قال: لا مرحباً بكَ ولا أهْلاً، بَدَنَةٌ يَتَرَقْرَقُ دمُها واللَّهُ مُهْرِيقُهُ. فلما دَخَلَ آبْنُ الزّبيرِ قال: لا مرحباً بك ولا أهلاً، ضَبُّ تَلْعَةٍ مُدْخِلٌ رأسَه تَحْتَ ذَنَبِه. فلمّا دَخَلَ عبدُ اللَّه بنُ عمرَ قال: لا مَرحباً بك ولا أهلاً وسبَّهُ، فقال: إنّي لستُ بأهلٍ لهذه المقالةِ، قال: بلى ولِما هو شرٌّ منها.

قال: فدَخَلَ معاويةُ المدينةَ وأقامَ بها، وخرجَ هؤلاءِ الرّهْطُ مُعْتَمِرينَ، فلّما كانَ وقتُ الحجِّ خرَجَ معاويةُ حاجّاً، فأقْبَلَ بعضُهم على بعضٍ، فقالوا: لعلَّهُ قد نَدِمَ، فأقْبَلُوا يَسْتَقْبِلونَه. فلمّا دَخَلَ آبْنُ عمَرَ، قال: مرحباً بك وأهْلاً يا آبنَ الفاروقِ، هاتوا لأبي عبدِ الرحمنِ دابّةً، وقال لآبنِ أبي بَكْرٍ: مرحباً بآبنِ الصِّدِّيقِ هاتوا له دابّةً، وقال لآبْنِ الزّبير: مرحباً بآبْنِ حَوارِيِّ رَسولِ اللَّهِ هاتوا له دابّةً. وقال للحسينِ: مرحباً بآبْنِ رسولِ اللَّهِ، هاتوا له دابّةً. وجَعَلَتْ ألْطافُه تَدْخُلُ عليهم ظاهِرةً يَراها النّاسُ ويُحْسِنُ إذْنَهم وشفاعَتَهم.

قال: ثُمَّ أرْسَلَ إليهمْ فقالَ بعضُهم لبعضٍ: مَنْ يُكَلِّمُهُ؟ فأقْبَلوا على الحسينِ فأبى، فقالوا لآبْنِ الزّبيرِ: هاتِ فأنتَ صاحِبُنا. قال: على أنْ تُعْطوني عهدَ اللَّهِ ألّا أقولَ شيئاً إلّا تابَعْتُموني عليهِ قالوا: نَعَمْ. فدخلوا عليهِ فَدَعاهُمْ إلى بَيْعةِ يزيدَ، فسَكَتوا. فقال آبنُ الزّبيرِ: إخْتَرْ مِنّا خَصْلَةً من ثلاثٍ. قالَ: إنَّ في ثلاثٍ لمَخْرَجاً. قال: إمّا أنْ تَفْعَلَ كما فَعَلَ رسولُ اللَّهِ (ص)، قالَ: ماذا فَعَلَ؟ قالَ: لم يَسْتَخْلِفْ أحَداً. قال: وماذا؟ قال: أوْ تَفْعَلُ كما فَعَلَ أبو بكرٍ، قالَ: ماذا فَعَلَ؟ قال: نَظَرَ إلى رجلٍ من عُرْضِ قريشٍ فَوَلّاهُ. قالَ: وماذا؟ قال: أوْ تَفْعَلُ كما فَعَلَ عمرُ بْنُ الخطّابِ قال: فَعَلَ ماذا؟ قالَ: جَعَلَها شُورى في سِتّةٍ من قريشٍ.

قال معاويةُ: ألا تَسْمَعونَ أنّي قد عَوّدْتُكم على نَفْسي عادَةً وإنّي أكْرَهُ أنْ أمْنَعَكُموها قبلَ أنْ أُبَيِّنَ لَكُم، إنْ كُنْتُ لا أزالُ أتَكَلَّمُ بالكلامِ فَتَعْتَرِضون عليَّ فيه وتَرُدّونَ، وإنّي قائِمٌ فقائِلٌ مقالةً، فإيّاكُم وأنْ تَعْتَرِضوا حتّى أُتِمَّها، فإنْ صَدَقْتُ فَعَليَّ صِدْقي، وإنْ كَذَبْتُ فعليَّ كَذِبي، واللّهِ لا يَنْطِقُ أحَدٌ منكم في مَقالَتي إلّا ضَرَبْتُ عُنُقَه. ثُمّ وَكّلَ بكلِّ رجلٍ من القومِ رَجُلَيْنِ يَحْفَظانِهِ لِئلّا يَتَكَلَّمَ، وقامَ خطيباً فقال: إنّ عبدَاللّهِ بنَ الزّبيرِ والحسينَ بنَ عليٍّ وعبدَ الرحمنِ بْنَ أبي بكرٍ قد بايَعوا فبايِعوا. فآنْجَفَلَ النّاسُ عليهِ يُبايِعونَه، حتّى إذا فَرَغَ من البَيْعَةِ رَكِبَ نَجائِبَهُ فرمى إلى الشّامِ وتَرَكَهم. فأَقْبَلَ النّاسُ على الرّهْطِ يلومونَهم، فقالوا: واللّهِ ما بايَعْنا، ولكنْ فَعَلَ بنا وفَعَل».

هذه وثيقةٌ مُهِمّةٌ جدّاً يَحْتاجُ المؤرِّخُ إلى تدْقيقِها ودَرْسِها دَرْساً تحليليّاً. وهو بعدَ هذا الدّرسِ يَصِلُ إلى أنّ يزيدَ تَمّتْ بَيْعَتُه بطَريقةِ الإغْفالِ، فهي غيرُ صَحيحةٍ. ويزيدُ ليسَ إماماً يُعْتَبَرُ الخارجُ عليه باغِياً، أضِفْ إلى هذا صِفاتِه الشّخصيّةَ الّتي تَقْدَحُ في إمامتِه باتّفاقٍ، ولا تُصحِّحُ آنْتِخابَهُ، مُراعىً في ذلك الزّمانُ والمكانُ والعُرْفُ.

فالحسينُ (ع) لم يَخْرُجْ على إمامٍ وإنّما خَرَجَ على عادٍ فَرَضَ نَفْسَه فَرْضاً أو فَرَضَهُ أبوه بدونِ آرْعِواءٍ، وهذا مَأْخَذٌ نِيابيٌّ وغَلْطَةٌ سياسيّةٌ من معاويةَ تُصَدِّقُ رأيَنا السّابقَ فيه، وأنّه ضَيِّقُ النّظرِ. فنِظامُ ولايةِ العهدِ جرَّ على الدّولةِ الويلاتِ من وَجْهٍ، وأعَدّ المجتمعَ للثّورةِ مرّةً أُخرى إعْداداً قَوِيّاً حينَما عَهِد إلى يزيد.

والوثيقةُ تُعَرِّفُنا قُوّةَ الرّأيِ العامِّ في ذلك العهدِ، رُغْمَ الضّغْطِ وتكميمِ الأفواهِ، وتُثْبِتُ لنا أيضاً وُجودَ أُصولٍ آنْتِخابيّةٍ مُقَرَّرَة.

تاريخ مقارن: عَرَفْنا شيئاً كثيراً من عناصِرِ تربيةِ الحسينِ (ع) في الفصولِ المارّةِ، وخَرَجْنا منها بنتائجَ هامّةٍ، وهي أنّهُ كانَ مِثالِيّاً في العقيدةِ والأخلاقِ والسّلوكِ. والآن نَعْرِضُ لأثرِ التّربيةِ في يَزيد.

أنْبَهَنا العلّامةُ بستالوزي إلى دوْرِ الانْتقالِ أو التّحوُّلِ الّذي يَعْرِضُ لكلِّ ناشىءٍ، وأنّ واجبَ المُرَبِّي في هذا الدّورِ عظيمٌ جدّاً، فإذا أُهْمِلَ النّاشىءُ آنْذَكَّ في نفسِه صَرْحُ الفضائلِ الأُولى والمبادِىءِ الأدبيّةِ المُكتَسَبَة.

فإذا عَلِمْنا أنّ يزيدَ في هذا الدّورِ كان مُرْسَلَ العِنانِ في بني كَلْبِ أخوالِهِ، مَطِيَّتُهُ الشّبابُ والفَراغُ والجِدَّةُ، وَصَلْنا إلى السّببِ الّذي جَعَلَ سُلوكَهُ مُتَجاوِزاً، على ما جاءَ في الأخبارِ. ومِمّا يَدْخُلُ في تدْقيقِ الموضوعِ ذِكْرُ نُتَفٍ ممّا حدَّثنا التّاريخُ:

«ذَكَروا أنّ يزيدَ عُرِفَ بشُرْبِ الخَمْرِ واللّعبِ بالكِلابِ والتّهاوُنِ بالدّينِ، ويَلْهو بالنَّرْدِ ويَتَصَيَّدُ بالفُهود[2]، ومِنْ شِعْرِه:

أقولُ لِصَحْبٍ ضَمَّتِ الكأسُ شَمْلَهُمْ
وداعي صَباباتِ الهَوَى يَتَرَنَّمُ

خُذُوا بِنَصيبٍ مِنْ نَعيمٍ ولَذَّةٍ
فَكُلٌّ وإنْ طالَ المَدَى يَتَصَرَّمُ»[3]

وكان «صاحِبَ طَرَبٍ ومُنادَمةٍ على الشّرابِ. جَلَسَ ذاتَ يومٍ على شرابِه وعنْ يمينِه آبْنُ زيادٍ بعدَ قَتْلِ الحسينِ فأقبلَ على ساقِيهِ فقال:

إسْقِني شَرْبَةً تَرْوي مُشاشِي
ثُمَّ صِلْ فاَسْقِ مِثْلَها آبْنَ زيادِ

---

(٢) راجع: **حياة الحيوان** للدميري في الكلام على الفهد، ج ٢، ص ٢٧٠.

(٣) راجع: **أخبار الدول** لأحمدَ بن يوسف القرماني، ص ص ١٣٠ - ١٣١.

صاحِبَ السِّرِّ والأمانةِ عندي
ولِتَسْديدِ مَغْنَمي وجِهادِي

ثُمَّ أمَرَ المُغنيّن فَغَنّوا. وغَلَبَ على أصحابِ يَزيدَ وعُمّالِهِ ما كانَ يَفْعَلُهُ من الفُسوقِ. وفي أيّامِه ظَهَرَ الغِناءُ بمكّةَ والمدينةِ وآسْتُعْمِلَتِ الملاهي، وأظْهَرَ النّاسُ شُرْبَ الشّراب»[٤].

وبالجملةِ[٥] «كانَ مُوَفَّرَ الرَّغْبَةِ في اللّهوِ والقَنْصِ والخَمْرِ والنّساءِ وكلابِ الصَّيْدِ حتّى كان يُلْبِسُها الأساوِرَ مِنَ الذّهبِ، والجِلالَ المَنْسوجةَ منه، ويَهَبُ لكُلِّ كلبٍ عَبْداً يَخْدُمُه، وساسَ الدّولةَ سِياسةً مُشْتَقّةً من شَهَواتِ نفسِه، وكانَتْ ولايَتُه ثلاثَ سنينَ وسِتّةَ أشْهرٍ، ففي السّنةِ الأُولى قَتَلَ الحسينَ بنَ عليٍّ، وفي السّنةِ الثّانيةِ نَهَبَ المدينةَ وأباحَها ثَلاثةَ أيّامٍ[٦] ثمَّ فيها قُتِلَ سبعمائةٍ من المهاجِرينَ والأنصارِ، ولم يَبْقَ بَدْرِيٌّ بعدَ ذلك، وقُتِلَ عَشَرَةِ آلافٍ من الموالي والعربِ والتّابعينَ، وآفْتِضاضُ ألفِ عذْراء».

أضِفْ إلى هذا ما آجْتَمَعَ له من الوِراثةِ التّاريخيّةِ وهي، على شتّى أشْكالِها، تُساعِدُه على أنْ يكونَ كذلكَ بعيداً عن المِثاليّةِ بكُلِّ معانيها.

وقد ذَكَرْتُ في **سُموّ المعنى في سُموّ الذّات**[٧] أنّ يزيدَ نَشَأ نشأةً مسيحيّةً تَبْعُدُ كثيراً عَنْ عُزوفِ الإسلامِ، وذلكَ لأنّ يَزيدَ يَرْجِعُ بالأُمومةِ إلى بني كلبٍ، هذه القبيلةِ الّتي كانتْ تَدينُ بالمسيحيّةِ قَبْلَ الإسلامِ، ومن بَديهيّاتِ عِلم الاجْتماعِ أنّ آنْسِلاخَ شعبٍ كبيرٍ مِنْ عقائدِهِ يَسْتَغْرِقُ زَمناً طويلاً، على أنّ طائِفةً مِنَ المؤرِّخينَ تُرَجِّح أنَّ مِنْ أساتِذتِه بعضَ

---

(٤) راجع: **مروج الذهب** للمسعودي، ج ٢، ص ٧٤.

(٥) راجع: **الفخري** لآبن طباطبا المعروف بآبن الطقطقي، ص ١٠٣.

(٦) راجع: **أخبار الدول** للقرماني، ص ١٣٠.

(٧) راجع: **سُمُوّ المعنى في سُمُوّ الذات**، ص ص ٦٦ - ٦٨.

نساطِرةِ الشّامِ من مَشارِقَةِ النّصارى. وإذا صَحّ هذا نَعْثُرْ على سَبَبٍ خطيرٍ أيضاً يُساعِدُه على أنْ يَظْهَرَ بهيئةِ السّاخِرِ مِنَ الأوضاعِ الّتي يَأْخُذُ المجتمعُ بها نفسَه. كما أنّ القبليّةَ عَمِلَتْ فيه عَمَلَها فَخَرَجَ جافياً ذا عَصَبيّةٍ قاسية.

إذاً فأحدُهُما سماءٌ، والآخرُ أرضٌ وسَتَظَلُّ بينَهما هُوّةٌ فَسيحةٌ تَبْدو كأنّها لا نِهائِيّةٌ، فخُروجُ الحسينِ (ع) كان واجباً دينيّاً وآجتماعيّاً وبَرْلمانيّاً ـ إذا صَحَّ هذا التّعبيرُ ـ ولاحظْنا في الكتابِ المذكورِ أنّه كانَ على معاويةَ ـ وهو يَعْلَمُ أنّ السّلطتيْنِ، الدّينيّةَ والزّمنيّةَ، آنْدَمَجَتا في الإسلامِ، وللأُولى شُروطٌ[8] تَـتَعَلَّقُ بالسُّلوكِ ـ أنْ يَفْصِلَ ما بَيْنَ السّلطتيْنِ حتّى لا يُعَرِّضَ المجتمعَ لكوارِثَ لا تُحْصى، بنسبةِ تَعْريضِ بيتِه لها. وهذا قِصَرُ نَظَرٍ بلا رَيْبٍ، وغَلْطَةٌ سياسيّةٌ حَفَرَتِ القبرَ مع المولود.

(٨) ولعلَّ أوْفى ما قيلَ في ذلك قولُ الحسين (ع) في كتابِه إلى أهلِ الكوفة: «لعَمْري ما الإمامُ إلّا العاملُ بالكتابِ والآخذُ بالقِسْطِ والدائنُ بالحقِّ والحابسُ نفسَه على ذاتِ الله». راجع: تاريخ الطبري، ج ٦، ص ١٩٧.

مصرع في سبيل الواجب

وازَنَ الحسينُ (ع) بينَ الرَّغبةِ في البقاءِ، وبينَ الواجبِ، فَرأى طريقَ الواجبِ أفْسَحَ الطّريقَيْنِ وأرْضاهُما عندَ اللّهِ والناسِ...

وأشْرَفَ إلى الأُفُقِ البعيدِ، فرأى العَهْدَ الزّاهرَ يَأْخُذُ بالتّلاشِي والانْحدارِ شيئاً بعدَ شيءٍ لِيَفْسَحَ المجالَ لدُنيا جديدةٍ وحياةٍ جديدة، ولم يَبْقَ سِواهُ رمزاً للماضي المِثاليّ الأقدسِ فزادَهُ آسْتِعاراً...

هُمْ قِلَّةٌ المؤمنونَ بقَضِيّتِه، ولكنَّ القِلّةَ المؤمنَةَ الّتي تُجاهِدُ للّهِ وفي سبيلِهِ كَثْرَةٌ، وصوتُ الحقِّ في مُعْتَرَك الباطلِ أرْفَعُ الصّوتَيْنِ...

أطلَّ من علياءِ مَكَّةَ الّتي هي رَمْزُ السّماء في الأرضِ ويَنْبوعُ المُثُلِ في الإسلام، إلى الحياةِ[1] الجديدةِ الّتي تَجيشُ فيها الشَّهَواتُ، في زَوْبَعَةٍ يُدِيرُ رَحاها داعِيَةٌ في الجانبِ الآخَرِ

(١) تُشْبِهُ هذه الحياةُ صورةً رمزيّةً عن الحياة في رُبى الخُلْد في روايتنا الرّمزيةِ الشّعرية: «رحلة إلى الخلد» التي تَرْجَمَ قِسْماً كبيراً منها إلى الفرنسيّةِ المستَشْرِقُ إميل درمنغهم، في كتابه الضّخْمِ المطبوعِ في باريسَ سنة ١٩٥٠ بعنوان: *Les plus beaux textes arabes* ص ص ٤٣٣ ـ ٤٣٥.

ظُلْمَةٌ مادَتْ وغَشَتْ ظُلْمَةً بَيْنَ مَوْجَيْها شَقاءُ الأبرِياء

الّذي لا تَطْلَعُ فيه الشّمسُ، فَرَأى آكْفِهْراراً ورَأى تَجَهُّماً آسْتَفَزّاه...

*

مَشَى إلى الفَوْزِ أو إلى الموتِ، والموتُ نَصْرٌ سلْبيٌّ في الجهادِ، فَمَنْ جاهَدَ وَماتَ فقدْ طَرَحَ إهابَ الأرضِ ليلْبِسَ حُلّةَ السّماءِ، حُلّةَ الخلود الضّافِيَةَ...

سارَ بِقِلّتِهِ المؤمِنَةِ، وثَبَتَ في معركَةِ الحقِّ والباطلِ. وجَعَلَ بينَ ناظرَيْهِ بُرهانَ ربِّه: «وَقاتِلُوهُمْ حَتّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّه لِلَّهِ» [البقرة ٢: ١٩٣].

والفِتْنَةُ في الآيةِ لَيْسَتْ بمعنَى الاخْتِلافِ والتّنازُعِ، بَلْ بمعنَى شُيوعِ الفَسادِ والفُسوقِ، فخُروجُ الحسينِ (ع) لَيْسَ فِتنةً - كما آتَّهَمُوا - بلْ لمكافَحَةِ الفِتنةِ، فأيَّةُ مُحاولةٍ وثَوْرةٍ على الفَسادِ في سَبيلِ أنْ يكونَ الدِّينُ كلُّهُ للّهِ، نَحْنُ مأمورونَ بِها، فالحسينُ بخُروجه لم يُجاوِزْ بُرهانَ ربِّه...

سَقَطَ الإمامُ صَريعاً بعدَ كِفاحٍ رَهيبٍ[2]، وبَعْدَ أنْ أرْسَلَ كلمةَ الحقِّ في العَراءِ، هذهِ الكلمةَ الّتي طَوَّفَتْ بالهياكِلِ وعادَتْ بنَشيدِ الشُّهَداءِ...

*

طَغَتِ الموجةُ تَحْدو أُخْتَها ... في ظلامِ الدَّجْنِ والدُّخُّ كِساءْ
يَطْلَعُ الشّيطانُ من أقطارِها ... نافِثاً في طيِّها كُلَّ بَلاءْ
وتَرَى الجِنَّةَ فيها مُرَّحاً ... مَسْرَحُ الجِنَّةِ أصْداءُ الجِواءْ
مُرَّدٌ جازوا على أسْوارِها ... شِدَقُ كُلٍّ كخَليجٍ من دماءْ
يَزْفِرُ المارِدُ منهم زفرةً ... كهزيمِ الرّعدِ في الأرضِ العَراءْ
شَرَرُ النّارِ على أفواهِهِمْ ... قِمَّةُ البُركانِ عندَ الصُّعَداءْ
جُمِّعَتْ خُبْثاً ولُؤْماً ورياء ... وقُصارَى: كُلُّ ما فيها جُفاءْ

(٢) ما ذَهَبْتُ أُصَوِّر المَصْرَعَ إلّا فاضَ قلبي حَسَراتٍ وذَهَبَتْ نَفْسي شَعاعاً.

دَمٌ جَرَى في التُّرابِ، لِيَنْبُتَ أشوَاكاً في طريقِ الظُّلْمِ والظَّالمين...

روحٌ تَحامَلَهُ الهواءُ، لِيَظَلَّ أشْباحاً مُرْعِبَةً وطُيُوفاً بغَيضةً في أعْيُنِ المُعْتَدين...

وأنّاتٌ زاهِقَةٌ آحْتَواها الغَيْبُ، لِيُرْسِلَها وَقْراً في آذانِ المُسْتَبِدِّينَ...

وزَفَراتٌ طَويلةٌ رَعاها اللّيلُ، لِيَبْعَثَ بها جَلْجَلةً كصَلْصَلَةِ الأجْراسِ يَفْجَأُ بها المُسْتَقْوِين...

وعُيونٌ ظَلَّتْ مَفْتوحةً، تُسَجِّلُ الخِيانةَ في وُجوهِ الخائِنين...

ولِحاظٌ آزْوَرَّتْ جاحِظَةً، لِتَبْقَى في هيْكَلِ العَدْلِ نَكْراءَ تُطالِعُ بها الغاوين...

ودُموعٌ آعْتَصَرَها الحقُّ مِنَ التُّرابِ، ليُرْسِلَها سَمُوماً تَلْفَحُ وُجوهُ المنكِّلين...

وأنْفاسٌ آحْتاطَتْها يدُ السّماءِ، لِتُذْكِيَها ناراً تَشْوي بها جُسومَ المُسْتَخِفِّين...

لا تَـــغُـــرَّنْـــكَ يَـــدٌ ظـــالِـــمَـــةٌ

إنَّ لِـــلْـــعَـــدْلِ وَراءَ الـــظُّـــلْـــمِ يَـــدْ

*

إشْتفاقَ الحسينُ (ع) على صَوْتِ الضَّحايا في جَوْفِ اللّيلِ البَهيم...

وأهابَ به نِداءُ الدّمِ المَطْلولِ في مُنْعَرَجات الأديم...

وأنشَطَهُ آنطِلاقُ الظُّلْمِ والباطِلِ على مِثْلِ آنطلاقِ الظّليم...

ومَضَى وَحْدَه يُجاهِدُ أُمَّةً جَمَعَها العُدوانُ، وكذلكَ تكونُ ذاتِيَّةُ العَظيم...

فَسَلامٌ عليهِ يَوْمَ يموتُ ويومَ يُبْعَثُ حيّا.

*

علَّمَنا الحسين (ع) كيفَ نَعْتَنِقُ المبادِىءَ وكيفَ نَحْرُسُها.

وعلَّمَنا كيفَ نُقَدِّسُ العَقيدةَ وكيفَ نُدافِعِ عنْها...

وعلَّمَنا كيفَ نَموتُ كَما عَلَّمَنا كيفَ نَحْيا كِراماً بها...

ورَسَمَ طريقَ الخُلودِ الأدبيِّ والقوميِّ من طريقِها...

فسلامٌ عليه يومَ يموتُ ويومَ يُبْعَثُ حيّاً...

*

رَسَمَ الحسينُ (ع) خُطَّتَه في كَلِماتٍ خالِداتٍ،

سَتَدورُ مَعَ الفُلْكِ ثُمَّ تَنْتَشِرُ فيهِ لِتَبْقَى خُطَّةَ الأبطالِ المُخْلِصين:

«هَيْهاتَ مِنّا الذِّلَّةُ، يَأْبى اللّهُ ذلِكَ ورَسُولُهُ والمؤمنونَ،

وحُجورٌ طابَتْ وبُطونٌ طُهِّرَتْ وأُنوفٌ حَمِيَّةٌ ونُفوسٌ أبِيَّة...

ألا تَرَونَ أنَّ الحقَّ لا يُعْمَلُ بِهِ، والباطِلَ لا يُتَناهَى عَنْه،

فَلاَ أرى المَوْتَ إلّا سَعادَةً، والحياةَ مَعَ الظّالمينَ إلّا بَرَماً...».

فَسَلامٌ عليهِ يَومَ يموتُ ويومَ يُبْعَثُ حيّا.





الحسين (ع) في عهد النبي (ص)

الحسين (ع) في عهد الخلفاء الراشدين (ض)

الحسين (ع) في عهد الدولة الأمويّة





في منشورات دار الجديد
من مؤلّفات
الشيخ عبدالله العلايلي

□ **أين الخطأ؟ - تصحيح مفاهيم ونظرة تجديد.**

طبعة ثانية مزيدة ومُنقّحة، ١٩٩٢، ١٤٤ صفحة، ١٧ x ٢٤ سم.

□ **مَثَلُهُنَّ الأعلى - السيدة خديجة.**

طبعة ثانية مُنقّحة، ١٩٩٢، ١٢٨ صفحة، ١٤،٥ x ٢١،٥ سم.

□ **من أيّام النّبوّة - مشاهد وقصص.**

طبعة ثانية مُنقّحة، ١٩٩٣، ٢٦٤ صفحة، ١٧ x ٢٤ سم.

□ **مُقدّمات - لا محيد عن درسها جيّداً - لفهم التاريخ العربي،** (مُستلّ من: تاريخ الحسين - نقد وتحليل).

طبعة أُولى، ١٩٩٤، ١٤٤ صفحة، ١٤،٥ x ٢١،٥ سم.

◆









هذا الكتابُ ليسَ ترجمةَ حياةٍ، بلْ هو تاريخُ حياةٍ، والغالبُ في الأُولى أن تكونَ شَخْصيةً، أي مقصورةً على الشّخص وما يتّصلُ به من قُرْبٍ، وقلّما تَجاوَزُ خطوطَ حياتِهِ إلّا بمقدارٍ، بينما الثانيةُ تتّسِعُ لكلّ ما تتّسِعُ له كلمةُ التاريخ.



ISBN: 2-910355-10-1